ذكريات

عربى أفغانى

أبو جعفر المصرى القندهارى

دكتور أيمن صبرى فرج

دار الشروق

ذكريات
عربي أفغاني

أبو جعفر المصري القندهاري

الطبعة الأولى
١٤٢٢هـ-٢٠٠٢م

© دار الشروق
أسسها محمد المعلم عام ١٩٦٨

القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى -
رابعة العدوية - مدينة نصر
ص . ب : ٣٣ البانوراما - تليفون : ٤٠٢٣٣٩٩
فاكس : ٤٠٣٧٥٦٧ (٢٠٢)
البريد الإلكترونى: email: dar@shorouk.com

دكتور أيمن صبري فرج

ذكريات عربي أفغاني

أبو جعفر المصري القندهاري

دار الشروق

تقـــــــديم

بقلم: فهمى هويدى

لا أعـرف فى العصر الحديث تجربة جسدت معنى الجهاد الإسلامى بمثل ما تجـلى ذلـك فـى الجهـاد الأفغاني، ولا أعرف ظلما نزل بتجربة نضالية فى تلك المـرحلة بقـدر ذلـك الظـلم الـذى حل بالجهاد الأفغاني، ربما لأن عناصر استنفار الغـير الإسـلامى كانـت مكـتملة فى تلك التجربة الفريدة . فهذا بلد مسلم تعرض للاحـتلال مـن جانـب دولـة شـيوعية تتبـنى الإلحـاد وتدعـو إليه، ثم خرج أهله الأفغان يقاومون رافعين راية "الجهاد"، وهى الكلمة التى ما أن أطلقت فى الفضاء الإسـلامى الواسع حتى كان لها مفعول السحر. إذ ترددت أصداؤها فى كل ضمير مسلم حيثما وجد، الأمر الذى استنفر نفرا من أبناء المسلمين فى كل مكان، وجمع عـلى أرض الجهـاد أشتاتا منهم لا تلتقى إلا فى موسم الحج. بل ربما كانت تلك هـى المـرة الأولى فـى العصـر الحديـث الـتى يجتمع فيها المسلمون بذلك القدر من التـنوع خارج الأراضى المقدسة، ويكون الجهاد فى سبيل الله هو الراية التى التفوا حولها، وتكون الشهادة منتهى أمل كل واحد منهم.

تلك اللحظة النادرة والباهرة فى التاريخ الإسلامى الحديث أجهضتها وطمست معالمهـا الـتطورات اللاحقـة التى شوهت براءة الصفحة الجهادية، حيث تدخلت الأطـراف الخارجية لكى تحقق مآربها، وحين تقاتل بعض زعماء المجاهدين فيما بيـنهم فـى تنازعهم على السلطة بعد التحرير، وحين أفسدت المغانم بعض القادة الميدانـيين فأسـاءوا التصـرف وشـوهوا صفحة الجهاد، وحين عاد بعض المنسوبين للجهاد إلى أوطانهم وانخرطوا فى جماعات العنف والإرهاب، وأخيرا حين اعتلى السلطة فى أفغانستان من أقام نموذجا شوه الإسلام وأساء إلى صورته.

حين حدث ذلك كله، لم ير كثيرون فى الجهاد الإسلامى وجهه المضيء أو بداياته المشرقة، ولعبت السياسة والإعلام دورهما على نحو كاد يمحو من ذاكرة الأمة ذلك الوجه، ويربط بين الجهاد وبين ما لا حصر له من الشرور والرزايا التى أصابت الأمة، حتى أصبح الجهاد جناية وغدا "العائدون من أفغانستان" متهمين ومدانين قبل أى محاكمة أو تحر من أى نوع، وأصبحت سيرة الجهاد باعثة على الاستياء، فضلاً عن التوجس والخوف.

بمضى الوقت - بعد انقضاء لحظة البراءة إن شئت الدقة - انقلبت الأدوار كلها رأسًا على عقب، إذ لم يقف الأمر عند حد محو كل ما هو مشرق فى التجربة من الإدارك العام، وإنما تجاوزه إلى تحويل ما هو مشرق ونبيل فى التجربة إلى مصدر للقلق والنفور. وبدلاً من أن يشيع الاعتزاز بالتجربة، ويترسخ معنى الجهاد فى النفوس، بحيث يصبح الجميع على أهبة الاستعداد لتلبية ندائه حيثما وجد، والتحديات الجسام مازالت تتربص بالأمة، فإن عملية الشحن المضاد والتشويه الملح تواصلت. وإزاء ذلك، فإن أخشى ما أخشاه بعد الذى جرى أن ترتفع الأصوات ذات يوم داعية إلى الجهاد ولا تجد مجيبا، وأن تحتاج الأمة فى ذلك اليوم إلى مجاهدين مستعدين للتضحية بحياتهم، فتواجه بالإعراض والخوف من مظنة الاتهام والإدانة.

وهذا الكتاب الذى بين يديك يرد الاعتبار للجهاد، ويسلط الضوء على تجربة مواطن مصرى - أمثاله كثيرون - لم ينتم إلى جماعة ولم ينخرط يوما فى أى عمل عام، سياسى أو غيره، لكنه سمع نداء الجهاد فقرر أن يلبي. رأى الفرض الكفائى فرضا عينيا، فشد رحاله إلى أفغانستان فى صيف عام ١٩٨٨ م، وهو الباحث الذى تخرج بتفوق فى كلية الزراعة والتحق بمعهد الصحراء، وكان طموحه أن يواصل أبحاثه فى العلوم الزراعية حتى يحصل على شهادة الدكتوراه. لكنه نفض عن نفسه كل ذلك حين بلغته الدعوة، واختار أن يكون مجاهدا لا يشغله سوى شيء واحد: أن يدافع عن ديار الإسلام حتى يحقق لها النصر، أو تكتب له الشهادة.

أمضى صاحبنا سنتين يقاتل فى أفغانستان، إلى أن أصيب إصابة بالغة فى ساقه فى إحدى العمليات، أعجزته عن مواصلة القتال، وأقعدته مدة سبعة أشهر تحت العلاج فى إحدى المستشفيات الباكستانية. وخلال تلك المدة، دون ذكرياته

التى تطالعها فى صفحات هذا الكتاب. وحمل المذكرات، ثم عاد إلى القاهرة مفتونا بالتجربة والناس، ومعتزا بالاسم الذى اختاره لنفسه حينما انخرط فى صفوف المجاهدين: أبو جعفر المصرى القندهاري. وهو الاسم الذى سجل به أنه ولد مرتين: مرة فى مصر، ومرة أخرى فى قندهار.

صاحب هذه الذكريات ليس كاتبا محترفا، وغيبة الحرفة عنها لا تنقص من قدرها بالضرورة، وإنما أزعم أنها أضفت عليها قدرا لا بأس به من الصدق والتلقائية، نفتقدها فى الكثير مما كتب عن الشأن الأفغاني.

لقد وقفت الذكريات عند أواخر عام ١٩٩٠، حين لم يجد السوفيت مناصا من الانسحاب، وبالتالى فإنها لم تتناول الأحداث التالية، من تقاتل زعماء المجاهدين فيما بين عامى ١٩٩٢و١٩٩٤، ثم ظهور جماعة طالبان فى عام ١٩٩٤ واستيلائهم على السلطة فى عام ١٩٩٦. والأمر كذلك، فربما جاز لنا أن نقول إن الذكريات غطت مرحلة "البراءة" فى الجهاد الأفغانى إذا صح التعبير، الأمر الذى يعزز من قيمتها، لأن تلك المرحلة هى أكثر ما لحقها التشويه والظلم، من حيث إنها تأثرت بالأحداث التى تلاحقت بعدها، وسحب عليها كل ما هو سلبى فى تلك الأحداث.

لا أستطيع أن أقرر أننى اتفقت مع صاحب الذكريات فى كل ما كتبه، وإنما لا أخفى أن حفاوتى بتلك الذكريات أكبر منها بالآراء والنظرات التى عبر عنها فى شئون الدين والدنيا. وإن ظلت تلك الآراء مكملة لصورة النموذج الإنسانى والذى نحن بصدده. وهو نموذج يدعو للاحترام فى أكثر جوانبه، ويثير الخلاف فى أقلها.

لقد كنا بحاجة لأن نطالع ذلك الوجه للتجربة الجهادية الأفغانية، لكى نرى النصف الملآن فى الكأس، بعدما هيمنت على مداركنا صورة نصفها الفارغ. وكان ذلك من أسباب حماستى بتقديم الكتاب وسعادتى به.

فهمى هويدى

بسم الله الرحمن الرحيم

مقـــدمـة

لا أدرى بالضبط ما الدافع الذى جعلنى أسطر هذه الصفحات عن تجربتى فى معـارك "أفغانستان".. لقد كنت أحـذر الرياء والسمعة أشد الحذر، فلم أحمل معى كاميرا، ولم أسمح لأحد بالتقاط أى صور لى ولم يعلم أحد من أصدقائى ولا أقاربى أنـنى فى "أفغانستان".. فقط بعض أفراد أسرتى.. فما الذى جعلنى أروى تفاصيل ما شاهدته؟ ربما بسبب الظروف القاسية التى تعرضت لها، فقد شرعت فى كتابة هذه المذكرات وأنا فى أشد حالات البلاء التى يمكن أن يمر بها إنسان.

ففـى مستشفى الهلال الأحمر الكويتى فى مدينة "بيشاور" رقدت بضعة أشهر ممزق الجسد ممزق النفس مشتت الفكر..أكابد من الآلام ما يعجز البشر عن تحمله حـتى حقن المسكنات التى أدمنتها فشلت فى تخفيف الأوجاع المبرحة ولو لدقائق معـدودة.. وضـاعف من آلامى مشاكل عائلية محزنة.. كل شيء حولى يبعث على الحـزن والهـم، وشعرت برغـبة جامحة فى أن أشكو ما أكابده، ولكن لمن أشكو؟ إن زوارى إخـوان لى مجـاهدون، يجـب أن أتجلـد أمامهم لأقوى نفوسهم، وأهلى على بعد آلاف الكيلومترات.. كم كتبت لهم من خطابات ومزقتها.. لا أريدهم أن يعرفوا حالتى..الآن على الأقل.

لاحـظ أحـد المرضـين الأفغـان مـا أعانيه، فطلب منى أن أخرج ما أكتمه فى صدرى مـن ألم وحـزن حـتى أخفـف عـن نفسـى، فقلت له: "كـيف أشـكو مَنْ يرحمـنى إلى مَنْ لا يرحمـنى"؟ ومـن العجيـب أنـه فهـم قولى هذا رغم أنه باللغة العربية.

ولم أجـد لنفسـى متنفسا سـوى الورقـة والقـلم، فقد لاحظت أنى كلما كتبت خطابـاً إلى أهـلى فـى "مصر" أشـعر بـراحة رغـم أنـى كنت أمزق هذه الرسائل، فشـرعت أكتـب مذكـراتى لأجـد فيها بعض العزاء. كانت هذه الكتابة مجرد دواء

لـنفس متعـبة يـريحـها أشـد الراحة أن تشعر أنها فعلت شيئا، وأن ما تعانيه من آلام كان لهدف سام وكبير.

وعـندما عـدت إلى "مصـر" وجـدت الكـثيرين يتـلهفون لمعـرفة الأوضـاع فـى أفغانسـتان، بـل رأيـت أن هـناك مَـنْ يـتحامل بقسـوة عـلى المجاهدين ويصفهم بصـفات تُـنَفِّرُ مـنهم الـناس وتصـرفهم عـن القضـية بعـد أن كـادت تؤتى ثمارها. ولإيمـانى أن قـيام دولـة إسـلامية فـى "أفغانستان" هو بداية نهاية عصر الضعف والاسـتذلال الـذى خـيم عـلى الأمة قروناً طويلة، ولأن قيام دولة إسلامية فى هذا العصـر سـوف يواجـه من المجتمع الدولى بمقاومةٍ صارمة، ويصبح عندئذ على كل مسـلم اتخـاذ موقف حاسم إما مع الإسلام أو مع الجاهلية، فهذه الصفحات تلقى الضوء على أحوال تلك البلاد وأوضاعها حتى يكون الناس على بينة من أمرهم.

سـيرد فـى هذه المذكرات أن فلانا "شهيد" أو "ولى" أو "صديق"، وأنا بالطبـع لا أزكـى عـلى الله أحداً فربهم أعلم بهم، إنما المقصود أن ذلك فيما يظهر لى، أى أحسبهم كذلك، والله يتولى حسابهم وهو أرحم الراحمين.

أفغانستان

تقع "أفغانستان" فى قلب قارة آسيا يحدها من الغرب "إيران" ومن الشرق والجنوب "باكستان" ومن الشمال "روسيا"، ويبلغ عدد السكان نحو ٢٠ مليون نسمة، وتُكَوِّن "أفغانستان" القسم الشمالى الشرقى من هضبة "إيران" الكبرى، والبلاد عبارة عن سلاسل جبلية يسمى الجزء الشرقى منها جبال "الهندكوش" ويسمى الجزء الغربى جبال "بابا". وتكثر الأنهار فى "أفغانستان" كثرة عظيمة وأهمها نهر "جيحون" الذى يفصل "أفغانستان" عن "الاتحاد السوفيتى" ويصب فى بحر "أورال"، ويسمى حاليا "أموداريا"، ويليه نهر "كابل" الذى يعتبر رافدا لنهر السند فى "باكستان"، ثم نهر "الهلمند" الذى يصب فى صحراء "بلوشستان". والمناطق المرتفعة تكون غاية البرودة شتاءً، وتكثر فيها العواصف الثلجية، ولهذا يسمى جبل الهندكوش "قاتل الجنود"، فقد هلكت فيه جيوش عديدة على مدى التاريخ لشدة برودة مسالكه ووعورتها، وطقس الأودية العليا لطيف فى الربيع والخريف مما ساعد على نمو الحبوب والفاكهة بأنواعها المختلفة.

وتعد المنطقة المحيطة بكابل جنة تفتن الناظرين، ولقد أطلق على "أفغانستان" بحق اسم "سويسرا" الشرق فهى أجمل بلاد آسيا، ولاينا فسها فى سحر منظرها سوى "كشمير" المحتلة.

فى شمال ووسط "أفغانستان" تبدو الطبيعة ساحرة رائعة.. الجبال الشم، الغابات الظليلة، الأحراش الفسيحة تأوى إليها سلالات عجيبة من الحيوان والطير البرى، وفى "أفغانستان" المراعى الواسعة تمرح فى جنباتها قطعان السائمة فى دعة واطمئنان، وفى "أفغانستان" الزهور العطرة والورود الفيحاء والحدائق الغناء والبساتين الوارفة، وتتفجر المياه من الجبال الصماء عذبة رقراقة وتهدر الشلالات من الممرات الجبلية الشاهقة، وتحتضن جبالها وهضابها مجموعة فريدة من البحيرات ذات الجمال الساحر الأخاذ.

وأفغانستان غنية جداً بالمحصولات الزراعية والقمح والفاكهة ولا تستورد من ذلك شيئا بل تُصَدّر الكثير منه إلى "باكستان" و "إيران"، كما أن بها كميات هائلة من الغاز تستولى عليها "روسيا" حاليا، وجبال الشمال معين لا ينضب من الأحجار الكريمة والذهب، وتوجد إمكانات هائلة لتوليد الطاقة من مصبات الأنهار والشلالات، وهناك احتمال كبير ودلائل على وجود البترول بكميات كبيرة، ولعل من أهم أسباب الغزو الروسى هو الغاز الطبيعى واليورانيوم الموجود بكثرة فى جبال "أفغانستان" الشامخة.

وتنقسم "أفغانستان" إلى ثمانية وعشرين ولاية، أهمها "كابل" و"هيرات" و"قندهار" و"بلخ" و"ننجرهار"، ويوجد فى "أفغانستان" بضع وثلاثون جنساً لكل منهم لغته الخاصة، ولكن "الطاجيك" و"البشتون" هم أكبر قوميتين فى البلاد، وقوم البشتون هم الأفغان الحقيقيون، وتعد كلمة أفغان وبشتون مترادفتين.

وينتشر "البشتون" فى ولايات الوسط والجنوب، وتعد "قندهار" الموطن الأصلى للبشتون ومستودع لغتهم الفصحى وتقاليدهم الراسخة، أما "الفرسوان" فينتشرون فى الشمال والغرب وخاصة فى "هيرات" و"باميان"، إضافة إلى هذا هناك أقوام "الأزبك" و"الطاجيك" و"التتار" و"البلوش"، وفوق أعلى قمم "الهندكوش" تسكن قبائل "كافرستان" الذين لا يعرف أصلهم بالضبط، ولهم لغتهم الخاصة، ولم يعتنقوا الإسلام إلا حديثا وَسمّوا أنفسهم "نورستان" وإن كان باقى الأفغان مازالوا ينعتونهم بالاسم الأول لأنهم اعتنقوا المذهب السلفى وليس الحنفى.

وباستثناء الشيوعية المحتضرة فى "أفغانستان" فليس هناك دين سوى الإسلام، بل لم يكن هناك سوى المذهب الحنفى قبل أن تهاجر قبائل "هزارة" من "إيران" وتستوطن ولاية "باميان" وقبل أن تعتنق قبائل "نورستان" السلفية، وهذا الأمر أحنق الأفغان أشد الحنق، فهم أشد شعوب الأرض تعصبا للإمام "أبو حنيفة النعمان"، ولكنهم يحترمون المذاهب الثلاثة الأخرى، وليس بعد هذه المذاهب الأربعة إسلام (فى رأيهم).

وطالب العلم يسمى(ملا) والعالم يسمى(مولوى)، وهو مسموع الكلمة، وللعلماء فى هذه البلاد شأن عظيم وسلطة روحية تامة ونفوذ هائل بين الأهالى، والكثير منهم يستنكف أن يلاقى الأمراء، ويتنزه عن قبول الهدايا.

وإلى عهد قريب كان التعليم كله باللغة العربية، ومازال التعليم الدينى من أوله إلى آخره باللغة العربية، أما التعليم المدنى فباللغة الفارسية التى هى لغة الدواوين والجيش والأدب والثقافة. وكل قومية فى "أفغانستان" تعرف الفارسية إلى جانب لغتها الأصلية باستثناء أفغان الجنوب وخاصة أهالى "قندهار" فهم لا يعرفون سوى لغتهم البشتونية الفصحى، وهى لغة مليئة بالألفاظ العربية التى أخذتها غالبا عن الفارسية، ولكن رغم ذلك تعتبر أصعب لغة فى العالم، ففيها حوالى خمسة أحرف لا توجد فى العربية ولا فى أى لغة أخرى وهذه الحروف لها مخارج عويصة. وتدرس اللغة العربية حتى فى مدارس الحكومة لا على أنها لغة أجنبية بل كلغة مكملة للفارسية والباشتو .. ولا يمكن للمرء أن يكون عالما ولا أديبا إلا إذا أجاد اللغة العربية.

خلفية تاريخية*

ورغم جمال الطبيعة الساحرة، ورغم وسامة الأفغان الواضحة، إلا أن المرء ليعجب من صلابتهم وبأسهم الشديد، وهذه الصفات تكاد لا تتغير عبر الأجيال رغم أن شعوباً أخرى كثيرة قد استكانت واستؤنست.

وإذا نظرنا إلى التاريخ نجد أن الثورات الهادرة التى قام بها الفرس والعرب والبربر قد فشلت فى زحزحة السلطة الأموية عن عرش الخلافة الإسلامية، وعندما تصدى الخراسانيون(الأفغان) لهذا العمل أسقطوا دولة بنى أمية التى يعتبرها أكثر المسلمين دولة ظالمة مغتصبة، وأقاموا دولة بنى العباس، وظلت الدولة العباسية متماسكة ما اعتمدت على سواعد أهل "خراسان" فلما انصرفوا

* يعتمد هذا الفصل على موسوعة التاريخ الإسلامى للدكتور أحمد شلبى

عنها سقطت أولا فى براثن الفرس والترك وأصبح الخلفاء ألعوبة ثم قضى عليها التتار القضاء المبرم.

ولا ننسى أن الأفغان هم فاتحو "الهند" ومحطمو أصنامها منذ "محمود الغزنوى" حتى "أورنكزيب"، بل إنهم انطلقوا من "قندهار" فى أواخر القرن السادس عشر ففتحوا "إيران" وحكموها ما يزيد على عشر سنوات فيما يسمى فى التاريخ الحديث بالقفزة الأفغانية.

ويبدأ تاريخ "أفغانستان" الحديثة بشخصية فذة مازال الأفغان حتى العوام يذكرونه بكل احترام وإعزاز ويلقبونه "أحمد شاه بابا" كذلك يلقبونه(دورة دورانى) أى درة الدهر. كان "أحمد شاه" زعيما لقبائل "أبدالى" وحاكما على "هيرات" من قبل "نادر شاه" الفارسى وعندما مات الأخير عام ١٧٤٧ سار"أحمد شاه" مع فرقته الأبدالية إلى "قندهار" قبلة الثائرين، والتف حوله القندهاريون الأشداء، ونصبوه ملكا على "أفغانستان" مستقلا بذلك عن "إيران"، وانطلق من عاصمته "قندهار" إلى وادى نهر السند و"لاهور" و"ملتان" و"كشمير" ودخل "دلهى" عاصمة "الهند" لإنقاذ المسلمين من مذابح الهندوس المدفوعين من قبل الإنجليز.

ويعد "أحمد شاه" مؤسس "أفغانستان" الحديثة، وكان قائدا فذا وإداريا ممتازا وراعيا للأدب وباعث نهضة سياسية عظيمة، وعمل على نشر العلم والعدل والعمران، وفى عهد "تيمور بن أحمد شاه" بدأ الإنجليز يثيرون الهندوس والسيخ للثورة على السيادة الأفغانية، وقامت صحوة سياسية فى "إيران" هددت استقلال "أفغانستان" وبدأ الروس ينظرون بعين الطمع إلى "أفغانستان" بوابة "الهند" الكبرى.

ودب الصراع بين أبناء "تيمور شاه" وتقاتلوا وتعاقبوا على الحكم واستقل بعضهم بولاية أو أكثر، واستعان "شاه شجاع"(الذى استقل بولاية "بيشاور") بالإنجليز ضد "دوست محمد" فساعدوه وأجلسوه على العرش سنة ١٨٣٩، فكره الشعب هذه الأسرة لخيانتها وتحول عنها إلى أسرة "باركزائى" التى كانت تتولى

الـوزارة، ولكـن "بريطانـيا" أيـدت الحكـام الضعاف من أسرة "أحمد شاه" ليكون ذلك ذريعة لاحتلال البلاد.

ثـار الشعب ثـورة عارمـة عـلى طـريقة تنصـيب "شـاه شـجاع" وعـلى دخـول الإنجلـيز "كـابل"، وتحالفـت القـبائل الـثائرة وأوقعـت هـزيمة سـاحقة بالجيش الإنجلـيزى الـذى أبـيد عـن آخره سنة ١٨٤١ عند ممر خرد "كابل"، ويعتبر هذا الحـادث أكـبر مصـيبة ألمت "بـبريطانيا" العظمـى آنـذاك. واستعد الإنجليز للثأر وقامـت حـروب عديـدة واضـطر الأمير "شير على" إلى طلب المساعدة من "روسيا" ضـد "بريطانـيا"، ممـا جعـل الـناس تنصرف عن هذا الأمير لأن الولاء والبراء من أوضح الأمور لدى الأفغان، واستولت "بريطانيا" على "كابل" وفر "شير على" إلى مدينة "مزار شريف" ومات هناك فى عام ١٨٧٩ م.

وتـولى بعـده ابـنه "يعقـوب خـان" ولكـنه أسِرَ فى إحدى المعارك مع الإنجليز وأرسِلَ إلى "الهند" مقيداً. والتهب حماس الشعب للجهاد المقدس وأفتى العلماء أن الجهاد فرض عين، والتف الناس حول "سردار أيوب"، ودارت معركة رهيبة بين جـيوش "بريطانـيا العظمـى" وبـين المجـاهدين المستبسـلين وانسـحق الجـيش الـبريطانى، واضطرت "بريطانيا" إلى الاعتراف أن "أفغانستان" دولة مستقلة ذات سـيادة وكفـت عـن الـتدخل فـى شـؤونها، وإن لم تكـف القبائل عن التدخل فى شؤون الإنجليز، لأن العلماء مافتئوا يفتون أن تحرير "الهند" فرض عين، وانشغل الإنجليز بتحصين السلاسل الجبلية الفاصلة بين "الهند" و"أفغانستان".

واستمر الحكم فى أسرة "باركزائى"، فحكم "عبد الرحمن" ثم "حبيب الله" ثم "أمـان الله" الذى بدأ يقتبس النظم الأوربية فى التعليم والتشريع والمالية والإدارة، وبـدأت الـثورة البلشفية فى "روسيا" تتظاهر بحسن الجوار ووقعت معاهدة صداقة عـام ١٩٢١ كـان مـن بـنودها اعـتراف روسـيا باسـتقلال "بخـارى"، ولكن بعدما اسـتقرت الأمـور للبلاشـفة نقضـوا العهـد واحـتلوا "بخارى" عام ١٩٢٣، وانغمس "أمان الله" فى حياة اللهو والترف، واستخف بالعلماء وسخر منهم وقام برحلة إلى "أوربـا" ومعه زوجته التى ارتدت الملابس الأوربية السافرة، وخالف شريعة البلاد وتقالـيدها، وعـندما عـاد أصدر أوامره بسفور المرأة وإرغام رجال الدين على ارتداء

الملابس الأوربية كما فعل "أتاتورك"، فثار الشعب ثورة عارمة وقاتلوا الملك الزنديق، وأفتى العلماء أنه مرتد واضطر الملك إلى الفرار وتنازل عن العرش لأخيه، ولكن أخاه أيضاً لم يستطع الصمود أمام غضب الشعب، وسقطت "كابل" فى يد "باتشه سقا" قاطع الطريق الذى أصبح ملكاً.

وعاد القائد المنفى فى باريس "نادر شاه" وقاد جيشاً أخذ به السلطة من "باتشه سقا" ونودى به ملكاً فى عام ١٩٢٩، ولكنه اغتيل فى عام ١٩٣٣ فخلفه ابنه "محمد ظاهر شاه" الذى استمر فى الحكم حتى عزله "محمد داود" مؤسس النظام الجمهورى فى عام ١٩٧٣م.

تسلل النفوذ السوفيتى

كان النظام الجمهورى ثمرة ربع قرن من الروابط الاقتصادية والثقافية مع "روسيا" التى كانت ترعى الجماعات اليسارية مما أدى إلى نموها شيئا فشيئا فى أوساط الطلبة والمثقفين الذين درسوا فى "روسيا " ومن ثم بدءوا يسيطرون على المراكز العليا فى البلاد.

ولنا أن نسأل عن السبب الذى يدعو نظاماً ملكياً قبلياً إقطاعيا متطرفاً فى المحافظة والتمسك بالتقاليد والدين.. ما الذى يدعو مثل هذا النظام إلى مصادقة السوفييت وحماية التنظيمات الشيوعية، بل ومحاباة هؤلاء المارقين فى تبوء المناصب المهمة فى الحكومة والجيش. إن تفسير هذا الأمر بسيط، فالاستعمار يعلم سر قوة الأفغان.. فلا شك أن الحمية الدينية والتقاليد الاجتماعية الراسخة هى التى قهرت الإنجليز وأيستهم من محاولة استعمار "أفغانستان".. فكيف إذن يحطمون العقيدة الدينية والتقاليد المرعية؟ الحل كما صوره لهم إبليس اللعين هو أن تحكم الشيوعية تلك البلاد فتتكفل بالمطلوب، فكان أن منع الغرب بإجماع عجيب أى مساعدة تعليمية أو اقتصادية أو تسليحية أو حتى تجارية، بينما البلاد فى أمسّ الحاجة إلى كل هذا لتعبر من العصور الوسطى إلى العصر الحديث.. فعل الغرب هذا عامداً متعمداً ليدفع "أفغانستان" دفعاً إلى أحضان السوفييت وقد كان، والثمن الذى اشترطه السوفييت هو رعاية ومحاباة الحكومة

لعملائهـا الملاحدة. وهكذا سيطر الشيوعيون على المراكز العليا فى البلاد حتى قام المدعـو"محمـد داود" بـانقلاب ضـد عمـه "محمـد شـاه" رئيس الوزراء وتولى مكانه رئاسة الوزراء ومنح الجماعات اليسارية صلاحيات واسعة.

وفـى عـام ١٩٦٦ أصـدر "نـور تـراقى" أول صـحيفة يسـارية لسـان حـال حـزب(خلـق) أى حـزب الشـعب، وكان الملك ضئيل النفوذ مضطرب المواقف مما شـجع "محمـد داود" عـلى الانقـلاب علـيه عـام ١٩٧٣ فعـزلـه وأعلـن الـنظام الجمهورى، وأصبح هو أول رئيس للجمهورية ونفى "ظاهر شاه" إلى روما.

ولم يتبع "داود" الشيوعية الماركسية، بل اكتفى بالاشتراكية القومية على نمط "عـبد الناصـر"، وفـتح الـنظام الجمهـورى الـباب عـلى مصـراعيه للنشاط والنفوذ السـوفيتى، وقـام "نـور تـراقى" بانقلاب عام ١٩٧٨ وأتى بحـزب(خلق) الماركسى السـافر إلى السـلطة وأصـبح الحكـم عمـيلاً تمامـا للاتحـاد السـوفيتى، وأيـد حـزب(بارتشـام) أى الـراية أو العـلم هـذا الانقـلاب واندمـج الحـزبان الشيوعيان وأصـبح "تـراقى" رئـيس الدولـة و"أمـين" رئيس الوزراء، وملئت السجون بالعلماء والطلبة والمثقفين وشباب الجماعات الإسلامية وارتكبت مذابح مروعة وقتل عدد لا يحصى من العلماء، وبدأت الخلافات بين جناحى "خلق" و"بارتشام"، مما جعل زعيم البارتشام "بابراك كارميل" يفر إلى أوربا الشرقية.

الحركة الإسلامية والغزو الروسى

وبيـنما كانـت التنظـيمات الشـيوعية تـنمو وتترعرع فى جامعة "كابل"،كانت تـنمو أيضا الجماعات الإسلامية ـ بزعامة أستاذ "نيازى" الذى درس فى "الأزهر" وعـاد لـيعمل فـى كلـية الشـريعة فـى "كابل"ـ. وتأثر هذا المربى الكبير بكل من الإخـوان المسلمين فى "مصر" والجماعة الإسلامية فى شبه القارة الهندية، وأصبح هـو الأب الـروحى لـلجماعة الإسـلامية فى جامعة "كابل" والتف حوله الشباب المـتحمس الغـيور عـلى ديـنه وبـلاده مـن وبـاء الشيوعية المكتسح، وبعد أن كانوا يـناظرون الشـيوعيين فـى قاعـات الـدرس ويهـتفون ضـدهم فـى سـاحة الجامعـة ويشـتبكون معهـم بـالأيدى العـزلاء، إذا بهـذا الصراع يتطور بسرعة فائقة فأصبح

صراعا دمويا رهيبا يصطرع فيه الطرفان بكل أسلحة الدمار التى اخترعها الإنسان فيما عدا الأسلحة النووية. فعندما وصل الشيوعيون إلى الحكم كان من الطبيعى أن يكون أول ضحاياهم الشباب المسلم المستنير، فقتلوا الآلاف وسجنوا الآلاف، وكان الأستاذ "نيازى" هو أول ضحايا هذا النظام البربرى.

وانقسم التنظيم الإسلامى الواحد إلى عدة تنظيمات وأحزاب، والسبب فى ذلك أن البعض ـ ومنهم "حكمتيار"(مسئول الجناح العسكرى) ـ رأى أنه لابد من بدء الجهاد المسلح، بينما رأى "ربانى"(نائب أمير التنظيم) أن الوقت لم يحن بعد وأن الحركة الإسلامية ضعيفة والكفاح المسلح يعرضها للفناء، بينما كان "سياف"(أقوى شخصية فى التنظيم) ملقى به فى غياهب السجون ينتظر حكما بالإعدام.. وحدثت فى هذه الفترة بطولات أشبه بالمعجزات.. بضعة وعشرون مجاهداً يفتحون ولاية بكاملها.. شباب غض وإيمان أصلب من الفولاذ.

وثارت كثير من القبائل على حكومة الإرهاب والبطش، والتف العديد من أفراد الشعب حول الحركة الإسلامية التى تقاتل الشيوعية الملحدة، وانحاز "تراقى" تماماً إلى "روسيا" أملاً أن تساعده على سحق الثورة الإسلاسية التى كادت تصل إلى غرضها، فوقّع "تراقى" معاهدة صداقة مع الروس عام ١٩٧٨.
شهد عام ١٩٧٩ معارك طاحنة بين الحكومة والثوار المسلمين، وقام اتحاد بين مختلف أحزاب الجهاد فأحست "روسيا" بضرورة تبديل عميل بعميل.

فقام "أمين" بانقلاب ضد سيده " تراقى" فى عام ١٩٧٩، وقُتِلَ "تراقى" ومعظم وزرائه، وأصبح "أمين" رئيس الدولة، واتجه بكل قوة إلى القمع الوحشى فأعدم عشرات الألوف، واتبع سياسة التعذيب البربرى ضد المعتقلين الذين زادوا عن عشرين ألف معتقل، واستقبل "أمين" العديد من الخبراء والجنود الروس لمساعدة النظام الشيوعى والمحافظة عليه من عواصف الثورة الإسلامية، وصبغ "أمين" عصره بالدم، وأغلب الذين قُتِلوا من صفوة المجتمع الأفغانى(أساتذة جامعة ومدرسون وطلبة وعلماء دين). ورأى الروس أن الحكومات الانقلابية عاجزة عن إخماد الثورة الإسلامية فقرروا أن يقوموا بأنفسهم بهذه المهمة.

وفـى ٢٧ ديسـمبر عـام ١٩٧٩ تم نقـل أعـداد هائلـة مـن الجـنود السـوفييت بمعداتهـم إلى"كـابل"، وقـام الكوماندز الروسى بالهجوم على قصر الرئاسة ومحطة الإذاعة، وأذاع راديو "موسكو" أن انقلابا قد حدث فى "أفغانستان" أطاح "بأمين" وجرت له محاكمة وأعدم على إثرها، أى ذبح على الطريقة الروسية.

واسـتدعت "موسـكو" عميـلها "كارميل" ـ الذى كان هارباً فى أوربا الشرقية ـ وجعلـته رئيسـاً للدولة، وعبرت المدرعات الروسية الحدود مع ١٠٠ ألف جندى، وأعلنـت "روسـيا" أنهـا تدخلـت بـناء عـلى طلـب تقدمـت به الحكومة الأفغانية بـزعامة "كارمـيل"، وفـى الأيـام الأخـيرة مـن عـام ١٩٧٩ كانت القوات الروسية المنقولة جواً تسيطر على "كابل"، وفرضت فرق المشاة الروسية السيطرة على ولاية "هيرات" وبعض المدن الأخرى، وأعلن "كارميل" أنه امتداد للرئيس "تراقى" وضد نظـام "أمـين" الدمـوى، ولم تبال روسيا بقرارات "الأمم المتحدة" ولا مجلس الأمن لأن هذه الهيئات لا تحمى المغفلين.

وظن الروس أن الأمر مجرد نزهة عسكرية، ولكن الشعب الأفغانى المسلم صمد أمـام الإعصـار السـوفيتى الجـبار.. شـراذم مـن الحفاة العراة خواة البطون خاضوا حـربا ضروساً ضد الدب الروسى.. العالم كله يعرف ما هو البطش الروسى..هجموا هجوم الذئاب الجائعة.. ارتكبوا من الفظائع ما يجعل إبليس نفسه يتوارى خجلاً مـن تفوق أبـناء آدم علـيه فـى الشر والظلم والعدوان.. دكّوا القرى الآمنة المطمئنة بالـنابالم والقـنابل العـنقودية لمجـرد الإرهـاب.. خطفـوا النسـاء.. عذبـوا الأبرياء ونكلـوا بالـناس أبشـع تنكـيل. ولم يـتوقع أكثر المحللين تفاؤلا أن تستمر المقاومة شـهراً واحـداً ثـم تخمـد تمامـاً ويبتلع الدب الروسى النَهِم "أفغانستان" كما ابتلع "بخـارى" و"سمرقـند" و"أزبكسـتان" و"كازاخسـتان"...إلخ، فـلم يسـبق أن أفلت شـعب وقع تحت أنياب الروس أبداً، وما "المجر" و"تشيكوسلوفيكيا" عنا ببعيد، ولكـن الروس بغزوهم "أفغانستان" ارتكبوا أكبر خطأ لهم فى تاريخهم، لقد أيقظوا المـارد الـذى طـال رقاده وأسدوا خدمة جليلة القدر للحركة الإسلامية النابتة على أرض أفغان!؟

كانت الحركة الإسلامية تحارب الملك العلماني بينما الناس يؤيدونه.. أليس اسمه "محمد"؟ ألا يغدق على العلماء ويحتفل بالمواسم الإسلامية؟..إذن فالجماعات الإسلامية خوارج مارقون. وواجهت الحركة الإسلامية الحكومات الاشتراكية ثم الشيوعية، والشعب منصرف عنها.. كيف يقتل المسلم مسلماً؟! كأن الكافر لا يكون إلا "مايكل" و"جورج" !!.. وكأن الجهاد للكفار فقط؟!.. نسبة قليلة من العلماء أدركوا أن الحكام ملاحدة كفار وكان جزاؤهم القتل الذريع، ولكن عندما جاء الروس انقطع الشك باليقين.. فمن يجرؤ الآن أن يقول أن الحكومة مازالت إسلامية؟.. جاهر العلماء بأن الروس كُفّار و كل من والاهم كافر، وأن الجهاد فرض عين، واستجاب الشعب أروع استجابة لنداء الجهاد المقدس والتف حول أحزاب الجهاد بزعامة الحركة الإسلامية التى طالما نظر إليها بعين الريبة والشك.. وعرف الشعب الآن أنهم هم المسلمون حقاً، وأنهم كانوا على الحق فى قتالهم للحكام العملاء.

كان الشعب أعزل من السلاح وهو يواجه أعظم قوة عسكرية عرفها التاريخ حتى الآن.. وحدث ما ليس له مثيل إلا فى عهد الصحابة رضوان الله عليهم.. لقد قتل الأخ أخاه الشيوعى، وقتل الأب ابنه الضابط، ووشت المرأة بزوجها الجاسوس.. وأثبت الأفغان بهذا أن الآباء والأبناء والأزواج ليسوا أحب إلى قلوبهم من الله ورسوله وجهاد فى سبيله، ووقف الشعب صفاً واحداً فى قتال مستميت لا يعبئون بخسائر ولا بضحايا، يقاتلون بالخناجر والعصى إذا عز عليهمّ السلاح، كان لكل عشرة مجاهدين بندقية(تكانوا) واحدة من مخلفات الحرب العالمية الأولى. وبهذا العتاد العتيق واجهوا "روسيا العظمى"، إنه جنون بأى مقياس دنيوى، ولكن من كان الله معه فمن يكون عليه؟

إنه مخاض عظيم لميلاد عظيم، إن دولة الإسلام لا تعود بالأمانى الجميلة، بل لابد من الدماء، الدماء فقط هى التى تروى شجرة الإسلام فتنمو وترتفع سامقة فى أجواز السماء.

ولا أظن أن شعباً من الشعوب الإسلامية لديه استعداد أن يقدم مليونين من الشهداء وخمسة ملايين مهاجر ومالا يحصى من المعوقين والأيتام، نحن لا نملك

ثمناً أبهظ من هذا ندفعه من أجل إقامة دولة الإسلام، فإما تقوم فى "أفغانستان" أو ننتظر قرناً آخر من الزمان لنحقق هذا الأمل العظيم.

من مصر إلى ساحة الجهاد

كانت تصل إلينا فى"مصر" أخبار الغزو الروسى والجهاد الأفغانى، وكان مشهد المجاهدين بملابسهم الرثة ولحاهم الطويلة وسلاحهم البسيط مشهدا مؤثراً إلى أبعد مدى، لم أستطع أن أقف مكتوفاً أتفرج على رجال يكتبون بدمائهم تاريخ الإسلام من جديد، كانت هناك جواذب ودوافع. جواذب تجذبنى إلى الطين ودوافع ترفعنى إلى عليين. أهم الجواذب كانت حب الدنيا وطول الأمل والحرص على العَرَضِ الفانى، أقعدتنى هذه الجواذب تسع سنوات حتى تغلبت الدوافع التى أهمها الرغبة القوية فى إقامة الدولة الإسلامية والمجتمع الإسلامى، ثم الإحساس بالواجب المقدس تجاه مسلمين يُقتّلون ويُذّبحون وتُستّباح أعراضهم.

كنت أعلق على جدران غرفتى صورة طفل أفغانى رضيع حرقه النابالم تماما يصرخ من شدة الألم، وكل صباح أقسم أمام هذه الصورة أنى سوف أقاتل فى "أفغانستان". لم يستطع أى شىء أن يحرك مشاعرى الصخرية سوى الجهاد الأفغانى، ومن بعده جهاد فتيان "فلسطين" بالنبلة والمقلاع.

عندما أنهيت الدراسة أردت السفر ولكن لم أستطع استخراج جواز السفر إلا بعد أداء الخدمة العسكرية فاعتبرتها فترة تدريب، ولكن خاب ظنى من هذه الناحية. وأثناء فترة التجنيد التحقت بالدراسات العليا، وبعد تسريحى من الجيش رأيت أن أتم ما بدأته متعللا بالحديث الشريف { *إن الله يحب إذا عمل أحدكم عملاً أن يتمه* }، وهكذا تأخر سفرى سنتين حتى أحصل على دبلوم الدراسات العليا، ولكن كان الكيل قد طفح ولم يعد فى قوس الصبر مَنْزَع، وأصبحت كالمهووس تتراءى لى أخيلة الجهاد بما يشبه أحلام اليقظة، ورتبت أمورى على أساس أن أسافر عقب الامتحان. ولم أنتظر النتيجة، وقد أشفق على أبى وحاول إثنائى عن السفر بكل وسيلة، لكن الغريب أن أمى شجعتنى ولم تبال بل قالت لى: "لن يصيبك إلا ما كتب الله لك"، بل هى التى أعطتنى ثمن تذكرة

السفر وأصرت أن توصلنى إلى المطار، ولكنها ـ وكما توقعت ـ فَقَدَتْ شجاعتها عند الوداع وأوصتنى ألا أعرض نفسى للمخاطر. وعلمت بعد ذلك أنها لم تغادر المطار إلا بعد إقلاع الطائرة عسى أن أسلم عليهم مرة أخرى قبل المغادرة.

وعندما أقلعت الطائرة تنفست الصعداء، فقد كنت أتوقع أن يتعرقل السفر فى كل لحظة، ونظرت من نافذة الطائرة.. المبانى تتضاءل شيئا فشيئا ثم صحراء جرداء، هذه أول مرة أغادر فيها "مصر"، وأول مرة أركب فيها متن الرياح، هل سأرى "مصر" مرة أخرى؟، ربما هذه أول مرة أشعر فيها أنى مصرى، نعم فى الإسلام الولاء للدين وليس للطين، ولكن يبدو أن الإنسان جُبِلَ على حب بلده الذى نشأ فيه، وفرق شاسع بين هذا المعنى البسيط وبين ما يدعو إليه دعاة القومية والوطنية، فقد أدخل الاستعمار القومية ليضرب بها وحدة العالم الإسلامى بزعامة الأتراك، ثم رأى الاستعمار أن القومية ربما أدت إلى اتحاد دول كثيرة، فعمل على النفخ فى النعرات الوطنية حتى يصبح المصرى لا شأن له "بفلسطين" ويصبح السورى عدو العراقى، وهكذا يحارب العربى أخاه العربى من أجل أشبار من الرمال الجرداء. إن العصبية الوطنية داء يحتاج إلى جهود جبارة لتبرأ منه شعوبنا المنكودة.

كان معى على الطائرة عدد كبير من المصريين أغلبهم يعمل فى مجالات الطب والتدريس تابعين للمؤسسات الخيرية الإسلامية فى "بيشاور" الحدودية، وعندما أعطونا استمارة نملؤها قبل هبوط الطائرة فى "كراتشى" لإتمام إجراءات الدخول لم أفهم منها إلا القليل لأن البيانات كانت بـ "الأردو" وبمصطلحات إنجليزية نادرة الاستخدام، وعندما سألت الذين حولى من المصريين عن بعض هذه البيانات توجسوا منى ولم يجيبونى، وربما ظنوا أنى من المخابرات، وكان معنا على الطائرة شاب ضخم الجسم كث اللحية ويضع عمامة كبيرة على رأسه، أدركت من هيئته أنه تبليغى، وفى مطار "كراتشى" بادلنى التحية بالود والبشاشة المعهودة لدى رجال التبليغ، و ملأ لى الاستمارة وساعدنى فى الإجراءات. وكان معتادا المجىء إلى "باكستان" فَسَهَّل لى الكثير من الأمور.

بتنا تلك الليلة فى مسجد خارج مطار "كراتشى"، ودهشت حيث وجدت أحد الباكستانيين من "البنجاب" يتكلم اللهجة الصعيدية، لقد زار مصر للتبليغ ويبدو أنه أمضى معظم الوقت فى الصعيد. كان يرتدى ملابس غاية فى البساطة ويحمل على كتفه عصا وصرة فيها متاعه وطعامه الذى هو عبارة عن خبز جاف ومسبحة كبيرة وسواك يكاد يكون عصا ويتكلم بحماسة وفيض من اليقين، والنور يشع من عينيه إشعاعاً، ألا ما أعظم النتائج التى يصل إليها أهل التبليغ. لم يكن لى عليهم من مأخذ سوى ترك الجهاد، ولم ينس صديقى أن يدعونى إلى الاعتكاف والخروج مع قوافل التبليغ، فصارحته أنى ماض إلى جهاد السنان ولا حاجة لى فى جهاد اللسان، ولكنه ألح على أن آخذ من كل بستان زهرة على حد قوله.

بعد صلاة الفجر توجهنا إلى المطار وركبنا الطائرة إلى "إسلام أباد" وعندما خرجنا من مطار العاصمة فوجئنا بحشد من سائقى التاكسى كل منهم يكاد يخطفنا إلى سيارته، كانوا يشبهون السائقين المصريين فى كل شىء وحتى فى أصواتهم.

ذهبنا إلى محطة(الميكروباص) المتجه إلى "بيشاور"، وودعت صديقى التبليغى وتمنى لى التوفيق والثواب من الله ومضى فى طريقه إلى مركز التبليغ، وانطلقت بى السيارة فى طريق رائع خلاب، اللون الأخضر على الجانبين إلى امتداد البصر، القرى تكاد تكون قرى مصرية، نفس البيوت اللبنية ونفس الأطفال يسوقون نفس البهائم، إلا أن الجاموس الباكستانى أكثر امتلاء تبدو عليه مظاهر الرخاء ووفرة الأعلاف، ولكنه أقصر أطرافاً وأكثر سواداً والقرون لها شكل جميل يبدو معه رأس الجاموسة كالمرأة التى تفرق شعرها من المنتصف، والأبقار لها نفس اللون الطوبى والأسود ولكن قرونها تشبه تماما قرون الأبقار المرسومة على المعابد الفرعونية، والماعز كبير الحجم جداً تكاد تكون فى حجم الحمار الصغير وإن كان الغنم أصغر مما فى "مصر".

أخيراً وبعد أربع ساعات وصلت إلى "بيشاور"، كنت فى غاية التعب وليس معى سوى رقم تليفون. صليت العصر فى أحد المساجد ولاحظت أن كل الأنظار

تتجه نحوى، ربما بسبب الزى العربى أو بسبب طريقتى فى الصلاة، فلم أكن أعرف وقتئذ أن المذهب الحنفى يختلف بعض الشىء عن المذاهب الأخرى فى هيئة الصلاة، ولم أكن أعرف أن هناك شعوباً مازالت تعرف أحكام المذاهب.

اتصلت تليفونيا من أحد المحلات فأعطونى عنوانا ورفض صاحب المحل تماما تقاضى أى نقود مقابل المكالمة. أعطيت العنوان لسائق "الركشا"، وهى عبارة عن "فسبا" بثلاث إطارات ولها مقعد أمامى للسائق ومقعدان خلفيان للزبائن وتستخدم بشكل واسع بدلاً من التاكسى، رغم أنها تخرج كمية كبيرة من العادم ولها صوت مزعج، ولذلك فهى ممنوعة فى العاصمة "إسلام أباد".

ها أنا أخيرا فى "بيت الأنصار" العرب الذين جاءوا من كل فج عميق لنصرة المهاجرين الأفغان. كان بالبيت خليط من مختلف الجنسيات العربية وغير العربية، وقد لاحظت أن جارى على بساط الطعام شديد الشقرة، ووجدت أنه لا يفهم العربية فحدثته بالإنجليزية ولشد ما كانت دهشتى، إنه ألمانى عمره تسعة عشر عاما وأسلم منذ عامين فقط وله عام يجاهد فى "أفغانستان"، وأنا لى تسعة أعوام أراود نفسى على الجهاد.. ما أبشع تخلفى وقعودى.

البيت يقدم الطعام والمأوى للمجاهدين الجدد ويرسلهم إلى مراكز التدريب، ثم يستقبلهم مرة أخرى ويرسلهم إلى الجبهات، كما يقضى به المجاهدون بعض الوقت للراحة والاستجمام أو لإجراء المكالمات التليفونية وإرسال الخطابات، كان البيت فى ذلك الوقت تابعاً للشيخ "عبد الله عزام"، وكان مكتب خدمات المجاهدين برئاسة الشيخ يقوم بتجهيز المجاهدين بما يلزمهم وتنظيم قوافل الإمداد إلى مختلف الجبهات، كما كان له مراكز تدريب روحى وعسكرى للعرب، ومدارس للأفغان داخل "أفغانستان"، كما كان يكفل عدداً كبيراً من الأرامل والأيتام.أديت صلاة الجمعة فى مسجد "سبع الليل" حيث يخطب الشيخ "عزام" بأسلوبه الرائع المؤثر، وقد بنى هذا المسجد ليصلى به العرب المجاهدون والعاملون فى "بيشاور"، وسمى المسجد على كنية أحد أوائل الشهداء العرب فى "أفغانستان"، كان يمنياً شجاعاً وهب نفسه للجهاد ولقى ربه شهيداً نحسبه كذلك ولا نزكيه على الله.

كانت العادة أن يذهب القادمون الجدد إلى معسكر "صدى" التابع لمكتب الخدمات، ولكني فضلت أن أذهب إلى المعسكر الجديد الذى أُعلن عنه فى ذلك الوقت لمن ينوى أن يقضى فى الجهاد عاما أو أكثر، وأن التدريب فيه سيكون بطبيعة الحال أقوى وأرقى من التدريب فى "صدى"، وكان هذا المركز يرشح من يثبت كفاءة للالتحاق "بالقاعدة" العسكرية وهى منظمة أُعلن عنها لتكون نواة لجيش إسلامى منظم يحارب فى أى مكان من أرض الله فيه جهاد.

لم أهتم بالانضمام إلى تلك "القاعدة" وإنما رغبت أن أتدرب تدريباً جيداً، كان علىَّ أن أنتظر أسبوعاً حتى يكتمل العدد اللازم لبدء دورة التدريب، وفى هذه الأثناء كنت أذهب للأسواق وأتجول فى الشوارع وقد ارتديت الملابس الأفغانية الجميلة، ولا أنسى يوما كنت أسير قرب "بيت الأنصار" فقابلنى رجل أوربى الملامح والزى، أمريكى الجثة يعمل غالبا فى إحدى المؤسسات الصليبية للإغاثة، هذا الرجل ظل يبتسم لى عن بعد وعندما اقترب منى أحنى رأسه احتراماً حتى جاوزنى، بالطبع ظن أنى أفغانى، حقا إن هذا العالم لا يحترم إلا الأقوياء. ووجدت المهاجرين الأفغان يكتبون على حوائط "بيشاور" شعار يلخص وعيهم السياسى، نص الشعار: (إسلام زندا باد.. روسيا، أمريكا، إسرائيل مردا باد) أى يحيا الإسلام.. والموت لروسيا وأمريكا وإسرائيل.

تعرفت فى هذه الأثناء على إبراهيم المكنى "أبو جبل" والذى كنى نفسه فيما بعد "أسد الله"، كنا المصريين الوحيدين فى هذه الدورة، ولفت نظرى إليه حماسته الشديدة وحيويته الدافقة وسخاؤه العجيب بكل ما يملك فإن لم يجد ما يسخو به خلع ملابسه أو حذاءه وأعطاه ليس فقط عن طيب خاطر ولكن بالقوة والإكراه إذا لزم الأمر.

نودى علينا عقب صلاة الفجر لنتجمع وركبنا السيارات إلى "جاور" حيث كان من المقرر أن تجرى الدورة التدريبية هناك، استغرقت الرحلة حوالى ست ساعات إلى المدينة الحدودية "ميرانشاه". وقد أُمِّرَ علينا فى هذه الرحلة "عكرمة" الجزائرى، كان شاباً طويل القامة طويل الرأس مفتول العضلات صارم الملامح

خشـن الصـوت مهيـب الهيـئة، وكـان يجـيد الفارسية لأنه أمضى حوالى عام فى الشمال ثم أتى خصيصا ليلتحق "بالقاعدة" وكان عليه أن يجتاز هذه الدورة.

وفـى "ميرانشـاه" دهشت لأسواق السلاح التى يباع فيها كل شىء، المحلات معـروض فـى زجاجهـا كـل أنـواع الرشاشـات والبـنادق الآلـية والمدافع والذخائر والمسدسـات، وتـزدحم الأرصـفة بمدافـع الهاون والزكويكاك. إنها مدينة باكستانية ولكـن للقـبائل فـيها نفـوذ، وأى نفـوذ. ويـبدو أن الحكومة قد يئست من محاولة فـرض السـيطرة عـلى رجـال القـبائل الأشـداء، فقـد كـان الرجال لا يتجولون إلا بالكلاشـنكوف وأحـزمة الذخائـر حـول أجسـامهم والعمـائم السود كالتيجان على رءوسـهم. وصـلنا بيـت المجاهدين فى "ميرانشاه" لنقضى المساء ثم نواصل الرحلة داخل "أفغانستان" إلى "جاور" القريبة من مدينة "خوست"، تلك المدينة الأسطورة الـتى لا تهـدأ المعـارك حولهـا، ويواجـه المجـاهدون كـل عـام حملة روسية قوية تهـدف إلى فك حصار المجاهدين للمدينة، وتبادلُ النيران والمواقع لم يتوقف يوماً على مدى سنوات الجهاد.

أول شهيد

كـان فـى بيـت الضيافة حارس وطباخ وعامل كلهم أفغان، وقد سألنى أحدهم عن "أبو كاكا" وقد دهشت إذ لا يمكن لعربى أن يكنى نفسه بهذه الكنية، ولكنى ضحكت كثيراً لما علمت أنه يريد "أبو القعقاع" ولكن غلبت عليه أعجميته.

عـندما حل المساء بدأنا نسمع أصوات الطلقات والمدافع، وخيل إلينا أن هناك معركة كبيرة، ورأينا السماء يضيئها الرصاص الرسام. وبعد ساعة أو اثنتين جاءت سيارة تحمل جريحاً عربياً سرعان ما لفظ أنفاسه. كان من أهل "اليمن" بسحنتهم المـميزة، نحـيف الجسم، كان أمير مجموعة من العرب وفى المعركة سقطت قذيفة بجـواره ومزقـت إحـدى الشظايا بطنه. بكى الطباخ الأفغانى المُسن وصافحنا كأنه يواسـينا ولم يهـتز أحـد مـن العـرب ولم يطـرف لهم رمش، إنهم خلاصة ملايين العـرب، وكـان "أبو جبل" أكثر العرب ثباتا. قَبّل الشهيد ومسح دمه بيده ليشمه وأقسم أن له رائحـة المسـك، وكـان يـنظر للشـهيد نظرةً كأنه يغبطه على ما نال

ويـردد "باسـم الله مـا شـاء الله.. باسم الله ما شاء الله"، وكأنه يخشى أن يحسد هذا الشهيد.

ونَـدَبَ "عكـرمة" مَنْ به فضل قوة ليحفر قبراً للشهيد. كنت فى غاية الإرهاق والتعب فـلم أذهـب، بيـنما سـهر "أبـو جبل" معظم الليل يحفر قبر "أبو صالح" اليمـنى ـ هكذا كانت كنيته ـ وفى الصباح ذهبنا جميعاً لدفنه، والعجيب أن دمه لم يتجلط وظل ينزف من بطنه.

عـند المقابـر وجدنـا عـدداً كـبيراً مـن الأفغان جاءوا يودعون الشهيد إلى مثواه الأخـير، وأرادوا أن يصـلوا علـيه، ولكـنْ أَبَى العرب أشد الإباء وكادت تقع فتنة عمـياء. كانت هذه أول مرة أسمع وأرى التمذهب والتعصب المذهبى، وكان مشهداً محزناً أن يتباغض المسلمون ويتعادوا من أجل العصبية وضيق الأفق، وأخذ العرب فـى ثـورة غضبهم يعيبون على الأفغان بدع القبور، لأنهم يضعون على قبر الشهيد رايـة تمـيزه عـن غيره من القبور، ولحسن الحظ تدارك الموقف شيخٌ أفغانى، فكلم العـرب بلغـة عربـية سـليمة وأخـبرهم أن المذهـب الحنفى تجب فيه الصلاة على الشـهيد، فـإن كنـتم لا تـريدون الصـلاة عليه فدعوا الأفغان يصلون حسماً للفتنة. وبـالفعل صـلى الأفغـان صلاة الجنازة وتنحى العرب جانباً ساخطين معللين تأخر النصـر بـتلك البدع التى لا تطاق. صليت أنا و"أبو جبل" مع الأفغان وبعد الصلاة ألقـى الشـيخ الأفغـانى خطبة بلغته ذات المفردات العربية الكثيرة مما جعلنا نفهم السـياق..(سـلور مذهبـنا حـق)..(مهمـان واجـب احـترام)..(تفرق اختلاف خوب نـيس).. أى أربـع مذاهب حق، يجب احترام الضيوف، والتفرق والاختلاف شيء مذمـوم، كمـا أخـبرهم أن الـرايات الـتى عـلى القـبور تشـبه الصلبان التى يضعها النصارى على قبورهم لذلك لا يحبها العرب.

إيران من الداخل

وبسرعة تم دفن الشهيد، وتفرق الجمع، ولكن لم ينمح هذا الموقف من ذاكرتى أبـداً. الأفغـان يصرون على الصلاة على الشهيد العربى ويعتبرون هذا حقاً للشهيد يجـب ألا يقصـروا فـيه، والعـرب يتـنحون جانباً ولا يشاركون فى الصلاة. ألا ما

أكثرَ أسباب تخلُّفَ المسلمين وانحطاطهم. بعد الدفن عبرنا الحدود وسرنا فى مدقات وعرة لبضع ساعات حتى وصلنا أخيراً إلى "جاور" كان الموقع عبارة عن ثلاثة أنفاق طويلة فى الجبل أمامها فناء واسع. كان هناك نفق للأفغان ونفق للعرب ونفق سَدَّت قذائف الطائرات مدخله وكان به نحو أربعين مجاهداً فلم يُخرجوهم واعتُبرَ النفق قبراً لهم. وهنا أيضا رأيت نفس المشهد المؤلم، ففى المكان الواحد تقام جماعتان واحدة للعرب والأخرى للأفغان، وعندما سألت عن السبب قيل لى لأنهم يصلون بسرعة ويؤخرون صلاة العصر، وبدت لى هذه الأسباب غير مقنعة. كان الأفغان تابعين للشيخ "يونس خالص" ويبدو عليهم التعاطف والانسجام مع العرب فلماذا إذن هذا التفرق؟ كيف نقاتل سويا ولا نصلى سويا وهل يتنزل علينا نصر الله ونحن هكذا؟!

كانت منشآت التدريب غير مكتملة فشرعنا نعمل فى بنائها، وتعرضنا لغارة من الطائرات أثناء العمل. سمعنا أولاً طلقات المدافع المضادة للطائرات ثم سمعنا أزيز الطائرات، وصاح فينا المدرب لنسرع إلى الأنفاق، وانبطح معظمنا فى الخنادق المجاورة، وبعد حوالى ٢٠ دقيقة خرجنا على وجل. لم أكن أدرى وقتئذ أنى سأقاتل مع أناس يصعدون فوق الأسطح ليشاهدوا الطائرات وهى تقصفهم وكأنهم يشاهدون عرضاً بهلوانياً مثيراً. وبعد حوالى عشرة أيام نقلونا إلى "جاجى" حيث "مأسدة الأنصار" لنبدأ التدريب هناك لحين استكمال منشآت التدريب فى "جاور".

كان أميرنا أثناء الانتقال من "جاور" إلى "جاجى" شاب كردى عراقى وكان وسيم الملامح مثقفا له رؤيته الخاصة للأمور. كان الأكراد العراقيون كثيرين فى "أفغانستان" وكانوا يتكلمون العربية وأخبرونى أن فقط من دخل المدارس هو الذى يستطيع تحدث العربية، وكانوا يحكون عن بطش النظام العراقى ما يشيب له الولدان. سألت هذا الأمير الكردى كيف خرج من العراق؟ وكيف وصل إلى "أفغانستان"؟ فأخبرنى أنه هرب عبر الحدود الإيرانية وتنقل بين عدة مدن ثم قبض عليه لأنه دخل البلاد بطريقة غير شرعية وألقى به فى السجن. وكانت هذه فرصة نادرة لأسأله عن أحوال إيران، وتوقعت أن يذكر الغلو والتعصب المذهبى أو

أهوال محاكم التفتيش الإيرانية أو مآسى ولاية الفقيه والفقر والحرب ـ كما صورت لنا وسائل إعلامنا ـ لكنه صدمنى، فقد أخبرنى أن الأمور فى إيران هادئة ومستقرة، والشعب راض عن الثورة والحكومة تمام الرضا، والاقتصاد مزدهر والأسواق عامرة، ولما سألته عن التعصب المذهبى نفى أن فى إيران أى تعصب مذهبى وقال إنهم يتعصبون فقط للإسلام ولم يشعر طوال مدة سجنه أنهم ينظرون له نظرة خاصة لأنه سنى المذهب، وأخبرنى أنهم فى بداية الثورة(وكان هو فى إيران وقتئذ) لم يكن لديهم أى أفلام تصلح للعرض السينمائى الإسلامى فكانت جميع دور السينما تعرض دون انقطاع فيلم عمر المختار، وكان الجمهور يكاد يشارك فى معارك الفيلم من فرط الحماسة، وكانوا يحسبون عمر المختار شيعى ولا يدركون أنه سنى إلا فى نهاية الفيلم عندما يتوضأ للصلاة، و لم يكن هذا يقلل من حماسهم له. وحكى(مدللا عن مدى إيمان الناس بالثورة والدولة الإسلامية) أن أحد ضباط سلاح البحرية كان يشكو له من بعض مشاكله الشخصية فاقترح عليه أخونا الكردى أن يغادر البلاد، فاستنكر الرجل هذا الأمر وقال كيف أترك دولة الإسلام وهى فى حالة حرب؟! وذكر أن الفقه الشيعى فقير نوعا ما ،فقد كان معه فى السجن شاب إيرانى أمضى فى السجن أربع سنوات، ولا يعلم متى سيخرج، كانت جريمته هى أنه لمس امرأة بيده فى الطريق وكلما ذهبوا به إلى قاض لم يجد فى الفقه الشيعى عقوبة لهذه الجريمة فيحيله على درجة أعلى من التقاضى وهكذا.. دون قصد تعذيبه بالسجن، وكان الشاب ساخطا أشد السخط وكان يقول: "ليتنى زنيت.. لو كنت زنيت لجلدت مائة جلدة ثم ذهبت إلى بيتى فى نفس اليوم". وسأل صاحبنا الكردى عن عقوبة ما فعل فى مذهبه، فأخبره أنه فى المذهب الشافعى(الأكراد شافعية) يُعّذر دون الحد أى يجلد عدد من الجلدات أقل من مائة جلدة، فصاح الرجل.. أنا شافعى.. من اليوم أنا شافعى.

وصلنا "جاجى" ووجدتها قطعة من الجنة بجبالها الشاهقة المكسوة بأشجار الصنوبر، وهوائها الرائع ومائها الذى تتفجر عيونه من الصخور الصماء. كان المعسكر عبارة عن مجموعة من الخيام ونفق للذخيرة والسلاح، ومطبخ ودورة مياه من القماش، وأمام هذه الخيام ساحة واسعة للرماية والرياضة.

لم يكن الهدف من هذا التدريب مجرد تعليم السلاح وفنون القتال، بل كان هدفه تمحيص المتدربين وتعريضهم لظروف قاسية وملاحظة مدى الطاعة والانضباط والصبر وحسن الخلق، وكان البرنامج التدريبى شاقا وصارماً، وفى الوقت نفسه يقدم للمجاهدين كمية ضئيلة من الطعام، بل كانوا أحيانا يتعمدون إفساد الطعام ونضطر لأكله من شدة الجوع، ولا أنسى أن الكثيرين كانوا يأكلون الشعير المخصص للحصان المسكين.

كان أمير المعسكر الأخ "عبد المعز" والمدربون هم "عبد الخالق" و"مبشر" و"أبو الشهيد" الإماراتى الذى كان يتميز بقدر كبير من حسن الخلق، صامتا غالباً لا يتكلم إلا للضرورة القصوى ولديه قدر كبير من الانضباط العسكرى وتدرب تدريباً راقياً، يجيد كل الأسلحة إضافة إلى التكتيك والفنون القتالية رغم أن عمره تسعة عشر عاماً فقط وترك كلية الطب ليجاهد فى سبيل الله، أما "عبد الخالق" فهو سعودى ولكن من أسرة تركستانية الأصل كما هو واضح من سحنته، كان عسكرياً من الطراز الأول ولكنه كان مرحاً ضاحك الوجه دائما مع حدة فى الذكاء وقدرة على القيادة والسيطرة.

كنا نصحو من النوم عند أذان الفجر نصلى ثم نقرأ القرآن لمدة ساعة تقريباً حتى يكون الضياء قد تغلب على جحافل الظلام، فنلبس ملابس الرياضة ونتجمع بسرعة فى الساحة، وتستمر التمارين الرياضية لمدة ساعة تقريبا ثم نركض خارج المعسكر لمدة ساعة أخرى فى مسالك جبلية صاعدة وهابطة، وعندما نعود نكون قد بلغنا غاية التعب، فنتناول الإفطار وهو لا يكاد يكفى طفلاً صغيراً وقد نؤمر بالتوقف عن الطعام قبل أن ننتهى من ذلك القدر الضئيل، ثم يبدأ درس السلاح نظرياً ثم نستريح لمدة ساعة للقيلولة حتى صلاة العصر وبعدها يبدأ العمل إما فى حفر الخنادق أو جمع الحطب، وأحيانا يطلب منا أعمال لا فائدة منها مثل نقل صخور من مكان لآخر وتستمر هذه الأشغال الشاقة حتى صلاة المغرب حيث نصلى ثم نستمع لدرس غالباً فى الأخلاق الإسلامية، والتحريض على القتال ثم نصلى العشاء ونتناول وجبة العشاء وهى غالباً أرز بالتراب أو مكرونة تحتاج

مطرقة لتكسيرها، ثم يعرف كل منا موعد الحراسة ونتلقى بعض التعليمات وننصرف بعد أن يحضونا على قيام الليل.

كنت أذهب إلى الخيمة لا تكاد تحملني قدماى، وأتمنى أن أزحف بدلاً من المشى، وكان من أشق الأمور على نفسى الاستيقاظ فى الليل للحراسة بعد هذا التعب. كانت الحراسة لمدة ساعة واحدة والحارس يتوارى فى مكان مظلم بحيث يَرَىَ ولا يرى، وهى أسهل بكثير من الحراسة فى الجيش المصرى ولكنها أكثر كفاءة ولاشك.

كنا نخرج "مسيرة" على الأقدام مرة كل أسبوع وكل منا يحمل سلاحه وجعبة الذخيرة بعد صلاة الفجر ونمشى ونصعد شواهق الجبال، والمشى الصاعد أصعب من المشى المستوى بكثير، ونستمر فى المشى لمدة ثمانى ساعات بغير توقف ولو للحظات، وكنا نؤمر ألا نشرب الماء رغم أن نهيراته تنساب تحت أرجلنا عذبة رقراقة ويكاد يقتلنا الصدى. وأذكر أنى فى إحدى المرات لم أستطع صبراً فشربت، وكانت مثل هذه المخالفات تسجل علينا حتى يستطيعوا تقييم الأشخاص، فالدورة أساسا دورة تمحيص وإن كان بعض الظرفاء يطلقون عليها دورة "تفعيص".

كنا مجموعة متآلفة من الشباب والصفة الغالبة كانت الطاعة المطلقة والالتزام بالتعليمات، وكان "أبو جبل" نموذجاً فى الطاعة وبذل الجهد فى التدريب والعمل والصبر على مشاق لا يحتملها إلا أولو العزم فكانت كنيته اسماً على مسمٍى.. "أبو جبل". أذكر أنه فى إحدى المسيرات كان يحمل رشاشاً ثقيلاً(جرينوف) وصندوق ذخيرة به٥٠٠ طلقة وحقيبة تموين بها دقيق وسكر... إلخ، عند بدء المسيرة كان الجو بارداً جداً فكلنا ارتدى معاطف ثقيلة ولكن سرعان ما شعرنا بالحرارة بسبب المشى وتخففنا من كثير من الحمولة إلا "أبو جبل" الذى وضع الأحمال على ظهره والسلاح حول كتفه والذخيرة فى يديه وقطب ما بين حاجبيه وانطلق لا يلتفت إلى شىء، وأدرك مُعظَمُنا الإعياءُ فى الطريق حيث كانت المسيرة أطول من المعتاد إضافة إلى ما نحمله من أثقال، وكان المدرب لا يعبأ بمن تخلف يريد أن يعرف من يواصل السير السريع دون توقف. كان

"أبو جبل" رحمه الله فى المقدمة، كان كتلة من العزيمة والإرادة الصلبة، وعندما رجعنا إلى المعسكر رأيت معطفه الثقيل وقد ابتل بالعرق تماماً وكذلك كل ملابسه، وعجبت - ليس لتحمله مشقة السير - ولكن لتحمله تلك الحرارة والعرق. لقد ولد هذا الرجل ليكون جنديًا، كان الوحيد الذى يستطيع جعل الحصان الماكر يركض كالريح، ويبدو أنه كان يبثه حماساً من روحه الملتهبة.

رغم المجهود الكبير الذى كنا نبذله فى التدريب كان "أبو جبل" حريصاً على قيام الليل وأذكار الصباح والمساء وتجويد القرآن مع تواضع وتذلل لإخوانه، رغم أنه حديث عهد لم يمض على توبته سوى ستة أشهر، لذلك كنت أعجب منه وأريد أن أعرف قصته.

كنا يوم الجمعة نغسل ملابسنا ونغتسل ثم نكمل اليوم التدريبى حسب المعتاد، وكنت أغسل ملابسى على نهير ماء وسرعان ما لحق بى "أبو جبل" و"عكرمة" فطلبت منهما أن يروى كُلٌّ قصته وكيف جاء إلى أرض الجهاد.

أما "أبو جبل" فكان من إحدى قرى محافظة "الغربية"، حاصل على دبلوم الزراعة، وكان شاباً طائشاً جباراً باطشاً، كان يُضربُ به المثل فى الضلال، وكانت قريته والقرى المحيطة يتقون شره، وذات يوم وهو عائد إلى قريته من الطريق الزراعى إذا برجل ملقى على قارعة الطريق مطعوناً بسكين ومازال به رمق، كان هذا الرجل معروفاً بالقوة والسطوة، أحدث هذا المشهد زلزالاً فى نفس "أبو جبل" واسمه الحقيقى "إبراهيم"، وكان الناس يولون مدبرين لا يريدون إنقاذ ذلك المحتضر حتى لا يتهمون بقتله. تأمله "إبراهيم" برهةً وسأل نفسه أهذا فلان الذى كان يملأ الأرض ضجيجاً وقوةً ومرحاً، هاهو ملقى على الأرض بين الحياة والموت، ماذا يحدث معه الآن؟.. إنه يموت، ما مصيره؟ هل يذهب إلى الجنة أم إلى الجحيم؟ قذف الله فى قلب "إبراهيم" عظة الموت. ما أحقر الدنيا، إنها تافهة لا تستحق أن نضيع الأعمار فى تحصيلها. ولأن الشهامة سجية فيه فقد حمل الرجل المحتضر على ظهره وسعى به إلى المستشفى ولكنه مات قبل أن يصلها. كانت هذه هى نقطة التحول فى حياة "إبراهيم" فأصبح يواظب على الصلاة فى المسجد وترك حياته السابقة تماماً وبدأ يحفظ القرآن وتعرف فى المسجد على

الشباب المتدين، وكما كان مندفعا فى الضلال بقوة أصبح مندفعا فى الدين بقوة أشد، كان يُلزم نفسه بكل صغيرة وكبيرة من السُنَّةِ، فما سمع عن شيء أنه من السنة حتى يعكف عليه عكوفاً ثم يريد أن يحمل الناس عليه حملاً، ظلت قوته وبطشه كما هما ولكن فى الاتجاه الصحيح هذه المرة.

سمع يوماً أن صاحب مكتبة القرية يلين الكلام لزبائنه من الفتيات فأخذت "إبراهيم" الحمية ودخل المكتبة وأغلقها من الداخل وحطمها تحطيماً وظل يضرب ذاك المنحل حتى كاد يقضي عليه.

وفى إحدى جلسات المسجد تذاكر الشباب ما يحدث فى "أفغانستان".. الجهاد.. الشهداء.. الروس الكفار.. النابالم.. الشيوخ والأطفال.. الكرامات. ذهل "إبراهيم" وتساءل أما زال فى الدنيا جهاد؟.. أما زال فى الدنيا قتال فى سبيل الله واستشهاد؟.. أين؟.. أفى بلاد الأفغان؟ كان يسمع عن "أفغانستان" من وسائل الإعلام ولكن ما كان يدرى أنهم مسلمون يقاتلون كفاراً، بل حسبهم ثواراً كما يسمع عن "كوستاريكا" و "نيكارجوا".

عندئذ قرر "إبراهيم" أن يستشهد فى "أفغانستان"! نعم لم يكن عنده شيء وسط، وعلى الفور أخذ يدبر تكاليف السفر وحزم حقائبه واستقل القطار إلى "القاهرة"، وفى باب الحديد سأل الشرطى فى كشك الشرطة العسكرية أين سفارة "أفغانستان"؟ ربما ظن "إبراهيم" أن دولة أفغانستان تحارب روسيا، أو ظن أن "مصر" أعطت سفارة "أفغانستان" للمجاهدين بدلا من الحكومة، تعجب الجندى وقال له: لماذا تسأل عنها؟ فرد "إبراهيم": أريد أن أجاهد فى سبيل الله. ويبدو أن الجندى كان على وعى بالقضية إذ نصح "إبراهيم" أن يذهب إلى سفارة "باكستان". وانطلق صاحبنا يسأل عن سفارة "باكستان"، وأعطاه أحد المارة عنواناً فى "مصر الجديدة" فذهب إليه وأراد الدخول فمنعه الحارس الباكستانى، قال له: "تأشيرة.. أريد أن أجاهد فى سبيل الله"، ولم يفهم الحارس شيئاً ومنعه من الدخول فثارت أعصاب "إبراهيم" وأرغى وأزبد وشتم الحارس وكاد يبطش به، وهدده الحارس باستدعاء الشرطة،وتدخل بعض المارة وأعطوا "إبراهيم" عنوان القنصلية الباكستانية فى الجيزة بجوار السفارة الروسية.

كان "إبراهيم" لا يعرف الإنجليزية وبالطبع لا يعرف "الأردو" بل يتكلم العربية العامية، ويريد من كل خلق الله أن يفهموه لذلك فشل تماماً فى الحصول على التأشيرة، وخاصة أنه كان يصرح بأنه يريد الذهاب للجهاد ويظن أن هذا الكلام يساعده.

بعد أن أعيته الحيل نصحه أهل الخير أن يسافر إلى "السعودية" ومن هناك كل شىء ميسر وسهل، وحصل "إبراهيم" على تأشيرة عمرة وذهب فى البحر فاعتمر وحج وأقام عند أخته التى تعيش مع زوجها الذى يعمل فى "السعودية". وبالفعل كان الأمر ميسراً فى "السعودية" فحصل على التذكرة والتأشيرة، وعندما أخبر أخته وزوجها بما عزم عليه أنّبوه ولاموه وتوعدوه بمنعه من السفر ولو بالقوة، فأظهر لهم انصرافه عن السفر وقبل الموعد بأيام سرب حقيبته إلى المسجد ويوم السفر سلم على أخته وودعها على أنه يصالحها وخرج إلى المطار من المسجد.. وقابلته فى "بيشاور" بعد أيام من وصوله.. وستكون لى معه صحبة وأى صحبة.

أما "عكرمة" الجزائرى فكان شابا طويلا بائن الطول مفتول العضلات به حمية وشهامة أهل "الجزائر" وبه هيبة وصرامة وثقة. قص علينا "عكرمة" كيف كان يدرس فى مدرسة ثانوية مختلطة وكان اتجاهه الإسلامى قد برز وشكّل شخصيته، كان لديهم مدرسات فرنسيات يُردْنَ طمس هوية الشباب الجزائرى فيقف لهن "عكرمة" فى صرامة، وكان جريئاً لَاذع اللسان لا يتردد فى استخدام عضلاته فكن يهبنه أشد الهيبة ولا تجرؤ أى منهن على مجرد النظر إليه، وكان هو متفوقاً فى دراسته وله نشاط صحفى إسلامى وكان يحرر مجلة حائط ويقف يحرسها فلا يجرؤ أى علمانى متفرنس على نزعها.

حفظ "عكرمة" فى شبابه المبكر القرآن الكريم كاملاً وآلاف الأحاديث بأسانيدها، وكان يجيد قراءة ورش وحفص، ولأن والده من علماء المذهب المالكى فقد نَشّأهُ على الفقه المالكى، ولكن لما شب الفتى آثر طريقة السلف، التحق "عكرمة" بكلية الهندسة وتعلق قلبه بالجهاد الأفغانى فأراد ترك الدراسة لولا اعتراض أبيه، فأكمل دراسته فقط إرضاء لأبيه، وعقب تخرجه توجه إلى ساحة

الجهاد وخاض العديد من المعارك وأجاد الفارسية ولما سمع عن "القاعدة" أراد الانضمام إليها وكان عليه أن يجتاز هذه الدورة، وقد قص علينا العديد من تجاربه في المعارك ومغامراته وما كنت أظن يومئذ أن نهاية هذا الليث ستكون بين يديَ.

رغم المشقة في هذه الفترة إلا أننا كنا نستمتع بهذه المشاق ونستمتع بالتعارف ومرح المعسكرات، وكنا نهتز ونشتعل حماسة ونحن نركض يحدونا "أبو الحارث" بأناشيد فلسطينية جهادية رائعة وخاصة أنشودة(إياك تزط البارودة)، ولكن للأسف سرعان ما منع من الإنشاد بسبب عبارة في النشيد تقول: "يا أخت الشهيد زغردي"، وكان "أبو الحارث" شخصية جديرة بالتأمل والعبرة، فقد كان عاملاً أمياً بسيطاً ولكن إذا نظرت إليه شعرت أنك أمام ولي جليل يشع النور من وجهه إشعاعاً، وإذا تكلم ظننت أنك أمام عالم كبير، وعن تقاه وورعه فحدث ولا حرج. وقد أخبرني رفيقه الذي لا يفارقه عجبا، فهذا الحبر الراهب كان أخطر فتوات "عمان" عاصمة "الأردن"!! كان يُقفّل شوارع كاملة وكان سكيرا عربيداً وما في جسده موضع شبر إلا ويحمل آثار عهد الفتونة هذا، من ذا الذي يستطيع انتشال صاحبنا من هذا الضلال المبين؟ إنهم رجال التبليغ ولله درهم من رجال، إذ يرفعون صاحبنا إلى تلك القمة الشامخة، ولكنهْ لمّا أراد الجهاد قالوا له: "نحن لا شأن لنا سوى الدعوة.. لا نأمرك ولا ننهاك"، وظل صاحبنا يكن لهم كل تقدير. وقد جعلني "أبو الحارث" أفهم معنى قوله تعالى{*اتقوا الله ويعلمكم الله*} وقوله تعالى{*يرفع الله الذين آمنوا منكم والذين أوتوا العلم درجات*} فقد كنا فوق الخمسين عدداً مهندسين وضباطا وخريجي جامعة، وعندما فُوّضَ إلينا اختيار أمير علينا من بيننا، كان على كل منا أن يكتب اسم من يختاره في ورقة، ودون أي اتفاق كانت جميع الأوراق تحمل اسم "أبو الحارث".

وكان معنا أخ فاضل من مدينة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، كان أسمر اللون ممتلئ الجسم باسم الثغر كثير المرح، يلبس عمامة كبيرة ويحمل مسبحة طويلة، ولهيئته ولأنه من "المدينة المنورة" فقد تركنا كنيته "محب الأمة" وأطلقنا

عليه "أمير المؤمنين"، وبروحه المرحة صار يعين الولاة على الأمصار ويعزلهم من حين لآخر، وللأسف فقد استدعاه أمير المعسكر ذات يوم وجلس معه في خيمة المسجد ثم خرج "محب الأمة" من عنده يجمع ملابسه وأشياءه، وعندما سألناه قال إنهم طردوني من المعسكر، أما السبب فهو المسبحة التي يحملها، وشعرت أن هذه "القاعدة" لها اتجاه سلفي متشدد،وإن أدركت بعد حوالى العام ومن خلال تعاملي مع عدد ممن انضم للقاعدة أن هذا الشعور كان خاطئا، وعلق "مبشر" على هذا الطرد قائلا: "حتى مدينة الرسول مليئة بالبدع والتصوف"!!

وزار الدكتور "عمر عبد الرحمن" المعسكر في صحبة "أسامة بن لادن" - وكنيته "أبو عبد الله" ويعتبر أمير "القاعدة" - وخطب كل منهما وأجاب عن أسئلة المتدربين، ولشدة دهشتي وجدت أن الدكتور"عمر" أقل غلوا من أتباعه، بل كان له رأى رشيد فى الفرعيات التى يظنها مُدَّعو السلفية عمودَ الدين.

وأردت أن أتخذ قراراً واضحاً هل أنضم إلى "القاعدة" أم لا؟ كان معنا زميل عراقى يدعى "أسامة" وهو أستاذ جامعي فى علم الحديث وكان على قدر كبير من العلم ودماثة الخلق ولباقة الحديث، وكان يلقى دروساً فى علم مصطلح الحديث بعد صلاة المغرب، فسألته يوماً في وقت الراحة عن حديث { *خلق الله آدم على صورته* } وقلت له "إن لى صديقاً يظن أن الله تعالى على صورة آدم"!! فاندهش الرجل جدا لهذا الفهم، وشرح كيف إن ما رواه مسلم هو فقط جزء من الحديث وذلك على سبيل الاختصار لشيوع متون الحديث فى ذلك الوقت مثلما نكتب الآن - عن "عمر بن الخطاب" - رضى الله عنه - {*إنما الأعمال بالنيات*} ولا نكمل الحديث لشيوعه وحِفْظِ الناس له، والحديث بطوله أن الرسول - صلى الله عليه وسلم - مرّ على أحد الصحابة يضرب عبداً ويقول له قَبَّحَ اللهُ وجهكَ فقال له الرسول الكريم {*إن الله قد خلق آدم على صورته*}، أى على صورة العبد، أى نبهه أنه بذلك يسب كل بنى آدم، وقال "أبو أسامة" إن فهم الحديث على أن الضمير عائد على الله يعارض الآية الكريمة المحكمة { ***ليس كمثله شيء وهو السميع البصير*** } والمتشابه يُرَدُّ إلى المحكم.. وكلام آخر كثير ما كنت أجهله، وكما توقعت لم يكتف بذلك بل علق على هذا الحديث فى درسه اليومى وشرح

وأفاض، ولكن حدث ما لم أتوقع، فقد صرفوه من المعسكر، وعلق المدرب الذى حل محله فى إلقاء الدروس فقال فى افتتاح كلامه { *لا تقف ما ليس لك به علم* } ! ! ثم تحدث عن جزاء من يتحدث بغير علم! ! ونتيجة لذلك قررت عدم الالتحاق "بالقاعدة"، وكانوا من حين لآخر يوزعون علينا أوراقا نكتب فيها عن الرغبة فى الالتحاق "بالقاعدة" فكنت أكتب دائما لا أرغب.

العرب يدحرون الكوماندوز الروسى

ومن الأشياء المهمة التى حدثت لى فى هذا المعسكر التواء مفصل القدم ليًا شديداً بسبب سقوطى من الجبل، وحملت سريعا إلى المعسكر ومنه خرجت فى السيارة مع "أبو الشهيد" إلى إحدى العيادات المخصصة للمجاهدين ولم يكن هناك طبيب، بل مجرد ممرض نظر إلى قدمى المتورمة نظرة خاطفة ورأى أنها لا تستحق سوى رباطٍ ضاغطٍ، ولاحظت كيف ينظر إلينا الأفغان بإعجاب شديد، ربما لأننا شعث غبر، وربما ظنوا أنى أصبت فى القتال أو بسبب ما سمعوه عن شجاعة العرب الذين دحروا الكوماندز الروسى فى تلال "جاجى" حيث "مأسدة" الأنصار الشهيرة.

ومن الغريب أن هذه البطولة التى أبداها العرب كانت هى السبب المباشر وراء سحب القوات السوفيتية من "أفغانستان". فعندما تولى "جورباتشوف" رئاسة "الاتحاد السوفيتى" اجتمع مع كبار جنرالات الجيش الأحمر وطلب منهم الانسحاب من "أفغانستان" وإلا ستنهار الدولة الروسية، ولكنهم استمهلوه ستة أشهر مع دعم عسكرى فائق، وإن لم يستطيعوا إغلاق الحدود الأفغانية الباكستانية خلال هذه المدة فليسحب الجيش كما يشاء. وبالفعل حصلوا على مزيد من الفرق العسكرية خاصة من قوات الكوماندوز.

كانت بداية هذا العمل العسكرى الضخم هو منطقة "جاجى" الجبلية حيث مأسدة الأنصار العرب، وإنه لمن عبر التاريخ المدهشة أن يصمد نحو ثلاثين عربيا وأربعة عشر أفغانيا بضعة شهور أمام ما لا يمكن تخيله من قوة عسكرية باطشة جبارة، لقد كان المحللون العسكريون يرصدون هذه الحملة، ويحصون عدد فرق

الكومـاندوز وألويـة المشـاة والمدرعات والطائرات والمدافع والصواريخ، ولقد روى لى عدد ممن شاركوا فى هذه الملحمة أعاجيب تستحق أن تكتب بمداد من ذهب. فقد كـان الـروتين أن يقصـف "السـوفييت" الجـبل الـذى يدافـع عـنه العـرب بآلاف الصـواريخ وقذائـف المدافع والطائرات لعشر ساعات متواصلة، ثم يسقطون النابالم الـذى يحـرق كـل شىء، ثم تتقدم فرق الكوماندوز وهى واثقة أن هذا الجبل ليس فـيه ولـو ذبابة على قيد الحياة، وما أن يصعدوا الجبل حتى يتصيدهم العرب من كـل ناحـية، وهـؤلاء العرب كانوا جددا لم يكملوا فترة تدريبهم، فمأسدة الأنصار مركـز تدريـب لـلمجاهدين الجـدد. وكـان جـندى الكوماندوز الروسى بغلا بمعنى الكـلمة، كـان طولــه لا يقل عن مترين ولـه بنية فولاذية ويحمل عتادا يزيد على خمسـين كـيلوجراما، ويكفى أنه كان يعلق هاونا صغيرا فى حزامه كأنه ميدالية، ومـع ذلـك كـانوا يفـرون أمـام العـرب نحـيلو الأجسام. مجاهد يمنى صغير العمر والحجـم فـرت أمامه كتيبة كوماندوز صاخبة. كان "مختار" اليمنى يختبئ خلف صـخرة صـغيرة ويرقـب هـذه الكتيـبة تصـعد الجـبل منشـدين الأغـانى الحماسية يتقدمهم قائد برتبة كبيرة، وبطلقة واحدة(لأن ذخائره أوشكت على النفاد) أصاب هذا القائد فى رقبته فولى جنود الكوماندوز مذعورين.

وكـان كـل جـندى سـوفيتى يحمـل خلف ظهره كوريك ويستطيع حفر خندق برميلى فى بضع دقائق مهما كانت صلابة التربة، وكان أسفل الجبل عددا ضخما مـن هـذه الحفـر، وفـى كـل حفـرة جـندى كومـاندوز مسـتقبلين الجبل بوجوههم بطبـيعة الحـال، ولم يخطـر على بالهم أن فتى من صعيد مصر يمكن أن ينزل من الجـبل فـى وضـح الـنهار ويـأتى هـذه الحفر من خلفها ويقتل الجنود واحدا بعد واحد بالسونكى فى أقفيتهم.

لقـد أثـار هذا الصمود العربى المهاجرين الأفغان حتى كانوا يبكون كلما سمعوا شـيئا مـن أخـبار "جـاجى"، وكـانوا يقـبلون أيدى من يلقون من العرب، وعندما أعلنـت أحـزاب الجهـاد الـنفير العـام لصد الهجوم السوفيتى عن "جاجى" تقاطر الشباب والشيوخ والأطفال من كل مكان.. شيوخ فوق السبعين وأطفال دون العاشرة يـريدون مشـاركة عـرب "جـاجى" مصيرهم. بـل إن هـذا الصمود قد أثار الجيش

الباكستانى وكاد الضباط المطالبين بإرسال الجيش إلى "جاجى" يتمردون ويذهبون بقواتهم دون أوامر.

عندما فشل الجيش الأحمر هذا الفشل المخزى فى "جاجى" سلم لجورباتشوف بسحب الجيش من "أفغانستان"، ولم يحاولوا إغلاق الحدود فى مناطق أخرى، بل أقروا أن الانسحاب من "أفغانستان" أكرم لهم.

نعود إلى دورة التدريب وقد عطلتنى قدمى عن المشاركة فى الرياضة لبضعة أيام، ثم صرت أتحامل عليها وأركض مع إخوانى فى ربوع "جاجى" الساحرة، ومن عجيب المفارقات أن هذه الإصابة كانت وكأنها إشارة لما سوف يحدث لى فيما بعد.

وأذكر أيضا كيف كنا نتدرب على فك وتركيب الكلاشنكوف فى خيمة المسجد، وبينما أحد الزملاء يفك سلاحه إذا برصاصة تنطلق مخترقة سقف الخيمة، كان عليه أولا التأكد من خلو السلاح من الذخيرة وعندما قلت "إن هذه الرصاصة كان من الممكن أن تقتل أحدنا"، نظر إلىّ "أبو الشهيد" ـ وكان المسئول عن التدريب ـ بهدوء شديد وقال "بل قدر الله وما شاء فعل"، ولم يتغير هدوؤه العجيب ولم يعلق أى تعليق غير هذا.

تدربنا فى هذه الفترة على معظم الأسلحة المستخدمة فى "أفغانستان" مثل الكلاشنكوف، الجرينوف الثقيل، والجرينوف الخفيف، الرشاش الخفيف الذى يسمونه(ديوانا) أى المجنون لأنه صناعة مصرية يتوقف عند الرماية وقد ينطلق وحده فى أحيان أخرى، لذلك فإنهم يخافون منه ويحرصون أن يكون قيد الأمان مغلقًا دائمًا. تدربنا كذلك على الدشكا، الزوكوياك وهو سلاح مهم مضاد للطائرات والآليات والأفراد وكثيرا ما رأيت الفيتناميين فى نشرات الأخبار وهم يطلقونه على الطائرات الأمريكية وقد غطوه بالأغصان وكذلك رءوسهم للتمويه، بينما لا يعرف بنى أفغان شيئاً اسمه تمويه إذ يضعونه فوق أسطح البيوت ويضعون عليه الأشرطة الملونة للزينة، كذلك تدربنا على مدفع الهاون وهو مدفع صغير عبارة عن أسطوانة أسفلها من الداخل إبرة، وتثبت هذه الأسطوانة على قاعدة مائلة وحامل أمامى، وهذا المدفع فعّال جدا لأن رمايته ليست مستقيمة بل مقوسة، إذ توضع

القذيفة فى الأسطوانة من الفوهة فتسقط لأسفل فيصطدم صاعق القذيفة بالإبرة فتنفجر عبوة البارود وتنطلق كمية ضخمة من الغازات تدفع القذيفة إلى السماء ثم تنزل على الهدف، وبذلك تتجاوز الجدر المحصنة والسواتر الترابية.

تدربنا كذلك على سلاح (آر بى جى) وهو قاذف صاروخى مضاد للمدرعات والمركبات عامةً، وقد طوره الأميون الأفغان ليصبح مضاداً للأفراد أيضاً، حيث يحلون الرأس المتفجر ويضعون بداخله قنبلةً يدوية منزوعة الصاعق ومربوطة برباط يعمل عمل الأمان اليدوى، كما طوروه أيضا ليصبح قذيفة حارقة بوضع صابون وكيروسين بدلاً من القنبلة اليدوية، وكان الروس يحسبونه سلاحا أمريكيا جديدا!، وقد أعجبنى هذا السلاح جداً لأنه خفيف الوزن سهل الاستعمال وفعّال، فصار هو سلاحى الشخصى لا أرضى عنه بديلاً إلا مضطرا.

وكان من المفروض أن نتدرب على الرماية بمدفع P.M (كاتيوشا) وكذلك مدفع عيار ٨٢ مم ويسميه الأفغان(شتاتودو) ومدفع عيار ٧٥ مم ويسمونه(هفتا دو بانج)، ويمكن لهذه المدافع أن ترمى مستقيمة أو مقوسة إذا كان الهدف بعيدا، وهى مدافع عديمة الارتداد مثلها مثل القاذف (آر بى جى) لأن اللهب يخرج من الخلف، ولكن يبدو أنهم بمجرد أن استقر رأيهم على من يختارونه "للقاعدة" أنهوا دورة التدريب، ومن العجيب أنى أصبحت متخصصاً فى السلاح الذى لم أتدرب عليه وهو مدفع عيار ٧٥ مم، وهكذا ثبتت لدى مقولة أن الحرب هى خير وسيلة للتدريب على الحرب، وقد نسيت تماماً الأسلحة التى لم أستعملها مثل الدشكا والزوكوياك، ورغم كثرة استخدامى للهاون إلا أنى لم أكن مولعاً به لأن منظاره معقد إلى حدٍ ما، وقد رأيت كيف ينزع الأفغانى المنظار ويلقيه جانبا ويرمى بالغريزة فيصيب الهدف من أول قذيفة. لقد اكتسب المجاهدون خبرات كبيرة جدًا.. ففى "قندهار" يخططون للمعارك وكأنهم درسوا التكتيك فى أرقى المعاهد العسكرية رغم إنهم أميون فى الغالب، وستأتى إن شاء الله تفاصيل المعارك التى رأيتها.

إضافة إلى ما سبق تلقينا التدريبات الأولية المعروفة مثل أنواع الزحف، اجتياز الموانع، التمويه، التقدم عند الهجوم، الانسحاب، التصويب الغريزى، ورغم كل

هـذا لم يكـن التدريـب على المستوى الذى توقعته، وعزيت نفسى بأن الخبرة فى الجبهات خير من التدريب.

بيشاور مرة أخرى

فجـأةً وعـلى غـير توقـع نـودى لـلجمع فـى السـاحة ثم أُمرنا بتسليم الأشياء الخاصـة بالمعسـكر وارتـداء ملابسـنا المدنـية لأن الدورة قد انتهت، وأعلنوا أسماء المقـبولين ولدهشـتنا كانوا ثلاثة فقط من بين حوالى خمسين فرداً، بل قالوا إن هذا لـيس قـبولاً نهائـيا بـل مجـرد ترشـيح مـبدئى وعـلى الذيـن اختيروا أن يجتازوا اختـبارات أخـرى، وحـددوا لغـير المقـبولين مدة معينة يحق لمن يريد إعادة الكرة وخوض دورة تمحيص ثانية.

فرحـت جـداً لأن "أبـو جـبل" لم يقبل فى "القاعدة"، ومن المفارقات أنه غير كنيـته مـن "أبـو جـبل" إلى "أسـد الله" فكأنـه اختـتم فترة التدريب التى تتطلب صـلابة الجـبال واستعد لفترة المعارك التى تتطلب شجاعة الأسود، ياله من اتفاق لم يخطـر بالطـبع عـلى بـال "أسد الله"، واتفقنا أن نذهب للجبهة معاً ولا نفترق أبـداً، وقـدر فرحى كان عجبى.. فلماذا لم يختاروا شخصاً مثله؟ إنه نموذج مثالى للشـخص المطلـوب فـى مـنظمة عسكرية جهادية. إن مفتاح شخصيته هو الجندى بـل الجـندى الفدائـى. ربـمـا لم يختاروه لأنه سريع الغضب ويحتد أحياناً.. إن هذا من صميم شخصية الجندى، حتى الـمزاح كما يقول "العقـاد" من الصفات المطبوعة للجنود.

حـزن كـثيرون لعـدم انضـمامهم "للقـاعدة" العسـكرية، حـتى المسـؤلين عـن "القـاعدة" رأوا أنهـم بـالغوا فـى التدقـيق واعترفـوا أن هذه الدفعة هى خير دفعة مرت بهم بعدما رأوا الفوضى واللامبالاة فى الدفعات التالية، لذلك قرروا قبول أى مـتدرب خـاض الـدورة الأولى فوراً ودون أى اختبارات أخرى، عاد البعض وانضم "للقاعدة" والبعض مثلى لم يفعل والبعض واراه الثرى.

فـى طـريق العـودة إلى "بيشـاور" أُمـر عليـنا "أبـو عامـر" الفلسـطينى، وركبنا السـيارات وتوكلـنا عـلى المولى عـز وجـل، وفـى الطـريق تأملت الجبال الشاهقة وتصـفحت وجـوه الإخـوان.. أيهـم يقـتل وأيهـم يجرح ومَنْ منهم يُقبل منه عمله ويلقـى الله شـهيداً فـى سبيله، والله أعلم بمَنْ يُقتل فى سبيله، ومَنْ منهم يدخل "كابل" فاتحاً مهللاً مكبراً.. كل ذلك فى علم عالم الغيب سبحانه.

وفى الطريق توقف بنا "أبو عامر" فى أحد المطاعم لنتناول وجبة الغداء، وكان المطعم مـن المطاعم الفاخـرة، وللطعام المدنى مذاق لا يوصف بعد شهر ونصف من الجـوع، فرتعـنا فـيه رتعـاً ولكنى لاحظت أن "أبو عامر" الشهيد الحى قد اكتفى بلقيمات لا تكاد تقيم الأود.

تأملـت وجـه أميرنـا "أبـو عامر"، إنه شهيد يمشى على الأرض، فطوال فترة التدريـب كـان يعمـل فـى المطبخ، ملابسه ووجهه ويداه مغطاة بالهباب والشحوم ولكـن عجـزت هذه الأشياء عن إخفاء النور المنبعث من وجهه، كان هادئا وقوراً، له وداعة حَمَل وعيون راهب ووقار أمير وتواضع غريب، إنه فلسطينى من ساكنى "الكويت"، ترك الحياة الناعمة فى بلاد البترول وجاء هنا أشعث أغبر.. وصحت فيه فراستى فلقى ربه شهيداً بعد أن خاض معارك "جلال آباد" العنيفة. لقى ربه بموتة يتمناها الكثيرون، فقد كان نائماً مستغرقاً فى نومهِ فإذا بقذيفة تنزل بجواره فلا يصحو من هذه النومة إلاّ يوم القيامة، رحمهُ الله تعالى وأسكنهُ فسيحَ جناتهِ.

وصلنا "بيـت الأنصـار"، وكـان عليـنا أن نختار إحدى الجبهات. كنت أُريد "كـابل" لأنهـا رأس الحـية الـتى إذا فُتِحَتْ فُتِحتْ كل "أفغانستان"، لكنّ "أسد الله" أصرَّ أن نذهـب إلى "قـندهار" لأنـه سـأل عـن أشـد الجـبهات فَدُل عليها، فالمعـارك لا تهـدأ فـيها أبداً لا صيفا ولا شتاء، والقندهاريون قومٌ قُدّت قلوبهم من صـخر، إنهم الأفغان الأُصلاء، لأن باقى الولايات إما من "الفرس" أو "الأُزبك" أو "الطاجِيك"، وهناك حوالى ستة وثلاثين قومية ونحو ثلاثين لغة فى "أفغانستان"، الشـمال به "الفرس" و"التركمان" و"الأزبك" و"القرغيز" و"الطاجيك"... إلخ، وفى الولايـات الشرقية والجنوبـية تسكن قـبائل "البشـتون" وهم الأفغان الحقيقيون، فعندما يسألك رجل من الشمال أين تجاهد؟ فتقول فى "قندهار"، فيقول لك: آه..

عـند الأفغـان، ولغـة "البشـتو" الـتى يتحدثها القندهاريون هى اللغة الفصحى أما باقى ولايات البشتون فيتحدثون بلهجات منها.

وفقـط "قـندهار" دون بـاقي ولايـات "البشـتون" مازالـت تحـتفظ بطبـيعة هذه السـلالة الفـذة جـرأةً ورجولـةً وكـرماً، وقـد سمـع "أسد الله" بشجاعتهم وشراسة معـاركهم ممـا جعلـه يصر عـلى الجهـاد معهـم، فالمجاهدون فى مواقع مكشوفة وليسـوا مـتوارين فى الجـبال، والطائرات تقصفهم ليل نهار والقندهاريون لا تلين لهـم قـناة ولايملـون المعـارك والـنزال، وسمعـــنا عن صبرهم وتجلـــدهم للألم ما يشبه الأساطير.

كـان الجـندى الروسـى يعاقـب بإرسـاله إلى "قندهار"، لذلك كانت أول ولاية ينسحبون مـنها، بيـنما ظلـوا فى "كابل" والشمال بضعةَ شهور أخرى، وحاولت إقـناع "أسد الله" أن العاصمة بها روس سوفييت وسنقاتل بها كفاراً عتاة ليس فى قتلهم شبهة ولا شك، بينما قد يكون فى جيش الحكومة العميلة جنود مجبورون، ولكـن عبـثاً كنـت أحـاول، كـيف أقـنعه وهـو فـى اللوح المحفوظ من دفناء ثرى "قندهار" فى ضاحية "ملجات" إلى جوار ليوث لم يهابوا الردى.

كـان يجلـس بجوارنـا فى "بيت الأنصار" أحد مجاهدى "الأردن" وكان طويلاً غزيـر اللحـية يضـع نظـارة، ويـبدو أنـه قـد جـاوز الثلاثين وله سنون يجاهد فى "أفغانستان"، تدخل فى الحوار ونصحنا أن نمضى إلى "قندهار" وقص علينا بعض حكايـات الجهـاد ممـا جعلـنى أشـعر بخطورة الأمر، فقلت "لأسد الله" أمازحه: يـبدو أن الأمـر لـيس سـهلاً، فغضـب جداً واحمر وجهه من شدة الغضب وصاح: "كـيف تخـاف وأنـت تقـاتل فـى سبيل الله.. واللهِ لو قُطِّعْتُ قِطعةً بعد قِطعةٍ ما تـرددتُ فى المضى إلى الجهـاد"، فأخذت أهدئ من غضبه، وأدركت كم هو مُصر عـلى أمر فى نفسهِ. أما أخونا الأردنى "أبو صالح" فستكون لى معه صحبة قصيرة ولكنها مريرة لِكِلَينا.

ذهبـنا إلى مكتـب الخدمات الذى أقامه الشيخ "عبد الله عزام" لخدمة الأنصار العرب وتجهيزهم بما يلزم وإرسالهم إلى الجبهات، وعندما طلبنا منهم أن يرسلونا إلى "قـندهار" كانت الإجابة: "نحن لا نرسل أحداً إلى "قندهار"، لأن العرب هناك

كثيرون ولأن التكلفة كبيرة"، حيث يجب أن نركب الطائرة من "بيشاور" إلى مدينة "كؤيتة" الباكستانية الحدودية ثم منها إلى "قندهار" فى القوافل.

كنا جُددًا لا ندرى شيئاً عن ظروف "أفغانستان"، وكنا نحسب أننا لا نستطيع دخول الجبهات إلا عن طريق مكتب الخدمات أو أحد الأحزاب الأفغانية، لذلك ذهبنا إلى قرية قرب مدينة "بيشاور" تدعى قرية "بابى" بلسان العرب، أما العجم فيسمونها "بابو"، وهى قرية للمهاجرين الأفغان وبها المقر الرئيسى للشيخ "سياف" وحزبه "اتحاد إسلامى مجاهدين أفغانستان". ذهبنا وحدنا دون معرفة الطريق ولا لغة القوم، ونزلنا من الباص وحاولت أن أسأل عن مقر الحزب ولكن كيف أسأل وأنا لا أعرف أياً من اللغات المتداولة هنا؟، ولحسن الحظ كان اسم الحزب كافياً ليدلونا على مكانه. كيف أتكلم مع حارس الباب؟ فتح الله علىّ بكلمة "مسئول.. أريد مسئولا". ومن حظنا أن هذه الكلمة موجودة فى "البشتو" و"الأردو" و"الفارسى" وربما فى كل لغات وسط آسيا وبنفس المعنى، أوصلونا إلى أحد مسئولى الحزب الذى رأى أننا عرب فاتصل "بمحمد ياسر" ليتفاهم معنا.. يا إلهى.. "محمد ياسر".. إننى أعرفه.. إنه السبب فى وجودى هنا، لقد جاء إلى "مصر" فى نقابة الأطباء، وكان مؤتمراً هائلاً مهولاً، شاهدت فيه لأول مرة أفلام فيديو عن الجهاد، ورأيت مئات الصور للجرحى والمشوهين والمعاقين، وشاهدت المجاهدين والأسرى وحطام الترسانة السوفيتية، وكان هذا المؤتمر هو الشرارة التى أشعلت النار فى قلبى وجددت رغبة القتال فى نفسى بعد أن كادت تخبو إلى الأبد، ووزع علينا يومها رسالة من الشيخ "سياف" أن "هَلُمّوا إلينا.. إن كان الجهاد ليس فى حاجةٍ إلى الرجال فإن الرجال فى حاجةٍ إلى الجهاد"، وأذكر يومها أننى اخترقت الكتل البشرية لأصافحِ "محمد ياسر" المجاهد الأفغانى قائد "كتيبة الموت" واعتبرت هذه المصافحة عهداً على الجهاد، وعندما خرجت من النقابة يومها كانت آلاف الأفكار تزدحم فى رأسى ومشاعر مختلطة تَمُور فى صدرى، دسست كل المال الذى أحمله فى أحد صناديق التبرع وسرت على قدمى حتى منزلى فى أطراف "القاهرة" لم أشعر بالتعب.. بل لم أشعر بالزمن. مشيت كأنى مخدر، وكانت الأمطار تهطل بغزارة على غير العادة والطريق مليئة بالمستنقعات التى كانت السيارات تخترقها فيندفع الماء فى وجهى

ولكنى لم أكن أبالى، فقد كان ذهنى شارداً.. هناك فوق ذرى "الهندكوش".. أرى نفسى بين حمم القذائف ولهيب المعارك.. وتارةً أرى نفسى جريحاً ممزق الأعضاء أو مدفوناً على ربوةٍ جرداء.

جاء صوته عبر الأسلاك.. نعم إنه نفس الصوت:

ـ من أنت؟

ـ أنا "أبو جعفر" المصرى ومعى زميلى "أسد الله".

ـ مرحباً بكما.. ماذا تريدان؟

ـ نريد أن نذهب إلى "قندهار".

ـ متى جئتم من "مصر"؟

ـ من شهرين تقريباً.

ـ هل تدربتم؟

ـ نعم.

ـ أين؟

ـ فى "جاجى".. دورة تمحيص "القاعدة".

ـ جيد.. سوف يوصلونكم الآن إلى بيت الضيافة ثم ألقاكم بعد ذلك.. أعطنى الأفغانى الذى عندك،

أحضروا لنا سيارة ونقلونا إلى بيت الضيافة الخاص بالحزب، ووجدنا هناك العديد من العرب مجاهدين ومدرسين وزائرين، وكان مسئول المَضَافَةِ رجلاً أفغانيا من أهل بيت النبى اسمه "شريف أغا" وبالعربية "السيد شريف" حيث يُعرَفُ آل البيت هنا بلقب "أغا"، انتظرنا بضعة أيام لنقابل "محمد ياسر" ولكن دون جدوى. كنا نعيش هذه المرة مع الأفغان.. قرية أفغانية كاملة.. السوق.. المسجد.. المدارس، وكانت فرصة لنرى الأفغان عن قرب. إن للأفغان زياً مميزاً.. العمائم الضخمة، "الباكولى" الذى يشبه "البريه" العسكرى، القميص الواسع الذى يصل

طولــه إلى الركـبة مـع فتحـتين عـلى الجانـبين، السـروال الواسـع الفضـفاض، "والصَدْرى"(هكذا فى لغتهم) الذى يرتدونه فوق القميص، النساء منقبات تماماً ولا يمكن أن يظهر وجه امرأة شابة أبداً.

المسـجد ممتلـئ تمامـاً فـى كـل الصلوات كمـا لـو كان يوم الجمعة، والأطفال يجتهدون ليل نهار فى حفظ القرآن فى ساحة المسجد، كان هؤلاء الأطفال يعرفون اللغـة العربـية ويحـبون تجربـتها معـنا، ولا أدرى كـيف كـانوا يميزونا رغم أننا نرتدى نفس الزى!

مللـنا الانـتظار وخاصـة أن الطعـام كـان ممـا لذّ وطاب لذلك كنا نأكله وكأننا نـتجرع السـم، لقد جئنا لنذوق شظف العيش وليس للنوم والراحة والطعام اللذيذ. طلبـت مـن "شـريف أغـا" أن يرسـلنا إلى "قـندهار" فقال لنا: "ألا تنتظرون حتى تقـابلوا الشـيخ "سـياف".. إنـه داخـل "أفغانستان" وسيعود قريباً" ، ألحّ علينا، فألححـنا عليه، فكتب لنا ورقة وطلب منا أن نأخذ عليها توقيع مسئول كبير فى الحـزب ففعلـنا. وكانـت الورقـة عـبارة عـن رسـالة إلى دفتر "الاتحاد" فى مدينة "كوْيـتة" ليستقبلونا هناك، وكانت هذه الرسالة سبباً فى مفارقة طريفة، فقد ظنوا فـى "كوْيتة" أننا أشخاص مهمون فى "الاتحاد" رغم أننا عرب، وقد تعجبنا فعلاً للاسـتقـبال الحـافل بعــد أن قرءوا الرسالة التى كانت بلغــة "البشــتو" التى لا نفهمهـا، وضحكت بعد ذلك كثيرًا، فالأمر لا يحتاج أبداً لرسائل ولا توصيات ولا توقـيعات، مـا عليك إلا التوجه للجبهة مباشرةً، لن يسألك أحد إلى أين أنت ذاهب، وسوف يرحب بك أى قائد من قادة الجبهات.

إلى كـوْيتــة

لم يكـن معنا نقود كافية لثمن الطائرة لذلك قررنا الذهاب فى القطار إلى مدينة "كوْيـتة" والـرحلة تسـتغرق نحـو ٤٨ سـاعة. ودعت صديقى "أبو ثابت" النجدى الـذى تعرفـت عليـه فـى معسـكر التدريـب، كـان شابا صغيراً فى التاسعة عشرة تقريـباً، متوسط القامـة، نحـيل الجسـم، فيه وسامة وله عينان خضراوان، وكان ورعاً تقياً مجتهداً فى العبادة وعلى جانب كبير من الثقافة، فكنا نتبادل الحديث

عن السياسة والشعر وأيام العرب ونوادر الأدب والتاريخ. كان طالباً فى كلية الآداب لا أذكر أكان متخصصاً فى اللغة العربية أم الإنجليزية، ترك "أبو ثابت" الدراسة وقرر أن يهب نفسه للشهادة فى سبيل الله. كانت حالته الصحية ليست على ما يرام، دائم التردد على الأطباء، وكان يخشى البرد جداً ولا يقوى على تحمله، لذلك كان يدعو دائماً "اللهم اجعلنا شهداء قبل الشتاء"، وكان بيننا تفاهم وانسجام كبير، وعندما هممت و"أسد الله" بالمغادرة إلى "كؤيتة" سلمت على "أبو ثابت" مودعاً، فاعتنقنى وبدا عليه التأثر وقال لى "أعرف أنه ليس معكم نقود فخذ هذه"، ودس فى جيبى ٥٠٠ روبية كانت هى كل ما نملك فى هذه الرحلة.

وقُدِّرَ لى أن أرى "أبو ثابت" مرة أخرى بعد عامين من النضال، هو اتجه شمالاً، وأنا اتجهت جنوباً، هو أتقن "الفارسى"، وأنا تعلمت "البشتو"، وكلانا خاض أهوالاً، وعندما التقينا لا أنا كنت أنا ولا هو كان هو، جاء لزيارتى فى المستشفى بعد علمه بإصابتى فرحت به فرحاً لا يوصف.. لقد أصبح الآن أمير مركز تدريب، صار قوياً مفتول العضلات، لم يعد يخشى برد الشتاء، ولم يعد يدعو أن تأتيه الشهادة قبل الشتاء بل صار يدعو الله أن يقيم دولة الإسلام وأن يكون أحد جنودها.. تناجينا برهة من الزمان واستعدنا الذكريات الجميلة وأخبار الشهداء وطرائف الأدب والسياسة، كانت حرب الخليج على أشدها فى ذلك الوقت، وكان فى السرير المجاور لى مجاهد أفغانى مصاب فى ساقه وكان يتألم وينادى رسول الله، فقال له "أبو ثابت": "لا تقل يا رسول الله فذلك شرك.. ولكن قل يا الله"، فرد المجاهد النجار الأمى: "يا رسول الله شرك!!.. ويا أمريكا ليس شركا"؟!! فسكت "أبو ثابت" والتفت ناحيتى قائلاً "لقد أفحمنى الرجل". وقف " أبو ثابت" يودعنى، صافحنى، ثم تفجرت الدموع فى عينيه وهو يخرج من جيبه مظروفاً، تركه وأسرع خارجاً.. ناديت عليه لكنه لم يلتفت لى.. ما كنت بحاجة للمال.. بل كنت فى أمس الحاجة لأن يمكث معى لبعض الوقت.

ركبنا الركشا من "عدا" إلى محطة القطار وكان السائق شاباً أفغانياً من المهاجرين، ولما عرف أننا عرب وأننا متوجهون إلى "كؤيتة" للجهاد فى "قندهار" أصر ألا يأخذ منا نقوداً مقابل التوصيلة رغم بعد المسافة وبكى تأثراً. لاشك أنه عائل مكدود ولا يحجزه عن الجهاد إلا هذه المسئولية.

فى انتظار القطار لمحت لافتة على الرصيف تشير إلى اتجاه القبلة فسررت بذلك وشعرت أنى فى بلد إسلامى، فى القطار تعرفنا على اثنين من الشباب الأفغانى اتضح أنهم ضباط تخرجوا من كلية سياف الحربية، أحدهم يدعى "محمد رسول" والآخر يدعى "دين محمد"، كانا يعرفان بعض العربية من زملائهم العرب فى الكلية، وكانا حديثى التخرج مملوءين بالحيوية والأمل.

فى الليل وبينما "إبراهيم" مستغرق فى النوم تركت مكانى وجلست بعيداً لأنظر من أحد نوافذ القطار، بعد فترة توقف القطار فى إحدى المحطات وصعد رجال الشرطة الباكستانية، حاصروا العربة وأخذوا يفتشون عن الهويات. كان معظم الركاب من الأفغان والمفروض أنهم يحملون بطاقة مهاجر، فكان يقبض على من لا يحمل هذه البطاقة، ووصل إلّى قائد "الكبسة" وكلمنى بـ"الأردو" فكلمته بالإنجليزية:

- أنا مصرى ولا أعرف "الأردو".

- ماذا تفعلان هنا؟

- أتينا للتبليغ.

- باسبور؟

- نسيته فى "بيشاور".

- بطاقة؟

- ليس معنا بطاقة.

- ليس معك بطاقة ولا جواز سفر؟

- بلى.

ـ إذن أعطنى مائة روبية.

ـ ليس معى نقود.

فتشنى فلم يجد معى نقوداً فتركنى وانصرف، وشعر صديقى الأفغانى بالحرج الشديد لمجرد أنى تعرضت للتفتيش، وأراد أن يرفه عنى فأحضر لى زجاجة مشروب غازى و قال: "هذه المتاعب كلها نتحملها فى سبيل الله". حمدت الله أن "أسد الله" كان نائماً وإلا لسبب لنا مشكلة كبيرة فهو يثور لأتفه الأمور.

وأخيراً وبعد رحلة طويلة وصلنا إلى "كؤيتة"، وركبنا الركشا وطلبنا من السائق التوجه لدفتر "اتحاد إسلامى مجاهدين أفغانستان"، ومثلما يفعل سائقو التاكسى فى "مصر" مع السياح ظل السائق يجوب بنا أنحاء "كؤيتة"، ولما وصلنا طلب مبلغاً كبيراً وكاد "أسد الله" يبطش به لولا أننى أعطيت السائق ما يريد وصرفته بسرعة.

كان الدفتر يشبه إلى حدٍ كبير نظيره فى "بيشاور"، وكان به غرفة كبيرة ملحق بها حمام وهى مخصصة كَمَضَافَةٍ للعرب، ولم يكن بها وقتئذ إلا أمير المضافة "محمد يوسف" الليبى، الذى رحب بنا أشد الترحيب ظنا منه أننا أشخاص مهمين فى الحزب، وكان يذهب معنا إلى الأسواق لشراء ما يلزمنا للجبهات، وقابلت بعدها قمندان "عبد الله خان" مسئول الحزب عن الولايات التسع الجنوبية.

مدينة "كؤيتة" مدينة كبيرة وهى عاصمة إقليم "بلوشستان" وهذا الإقليم هو مصدر الغاز الطبيعى فى كل "باكستان" وبه الكثير من المناجم والثروة المعدنية، و"باكستان" عبارة عن أربعة أقاليم منها إقليم "بشتونستان" المجاور لأفغانستان والذى تسكنه قبائل "البشتون" شديدة المراس الذين يعتبرون أنفسهم أفغاناً لا باكستانيين، ويتكلمون لغة "البشتو" و"الأردو" سواء.

ورغم أن "كؤيتة" عاصمة إقليم "بلوشستان" ويسكنها شعب "البلوش" الذين يتكلمون اللغة البلوشية إلا أن لغة عاصمة الإقليم هى "البشتو" وليس "البلوشية"، ربما لأن المدينة كانت جزءاً من "أفغانستان" فيما مضى وكانت على مر التاريخ

البوابة التى يعبر منها المجاهدون الأفغان لغزو "الهند". وسكان المدينة خليط من البشتون والبلوش والمهاجرين الأفغان ويزورها الناس فى الصيف من كافة أنحاء باكستان لأن طقس "كؤيتة" رائع الجمال رغم أنها فى الجنوب لأنها تقع على جبال مرتفعة، لذلك يكسوها الثلج فى الشتاء ولا ألطف من جوها فى الصيف.

وتقع "كؤيتة" فى مواجهة ولاية "قندهار" الأفغانية عاصمة جنوب "أفغانستان"، ومع الأسف هناك نزعة انفصالية قوية لدى "البلوش" فهم يريدون أن تكون لهم دولة مستقلة، وهم موزعون بين "إيران" و"أفغانستان" و"باكستان"، وتقوم "روسيا" بتغذية الأحزاب اليسارية وتدفعها فى هذا الاتجاه، وتسيطر هذه الأحزاب على الشارع البلوشى، كما أن "نجيب" الرئيس الأفغانى الشيوعى يدعم هذه النزعة وفى المقابل يحصل على تأييد هذه الأحزاب لحكومته الشيوعية، ويسبب هؤلاء الانفصاليون للمجاهدين والمهاجرين مشاكل كثيرة، ويطالبون بطرد المهاجرين وقفل الحدود.. بل يطالبون بالاستقلال عن "باكستان" التى نهبت مواردهم وتركتهم فى حالة من الفقر واليأس(على حد زعمهم)، ويعبرون عن هويتهم القومية ونزعتهم الانفصالية برفع البيارق الحمراء شعار الشيوعية على منازلهم وكذلك بالإضرابات والمظاهرات والمؤتمرات الشعبية.

وأقاليم الحدود سواء "بلوشستان" فى الجنوب أو "بشتونستان" فى الشمال عبارة عن قبائل جبلية مسلحة لا يكاد يكون للحكومة الباكستانية أى سيطرة عليها، ونشاطهم الرئيسى الزراعة والرعى وتجارة السلاح والمخدرات والإتاوات التى يفرضونها على الطريق، لكنهم رغم ذلك متدينون جداً، والدين لديهم فطرة وسليقة، فلم تفسدهم أمراض المدنية، ولهم عادات وتقاليد صارمة من الأخلاق والسلوك المطبوع كما فى كل المجتمعات قوية الترابط.

عندما وصلنا إلى "كؤيتة" كان القندهاريون قد شنوا هجوماً كاسحاً على القوات الشيوعية عقب انسحاب الروس، وكان الهجوم على مديرية "أرغنداو" و"سبين بولدك" وأهمية الأخيرة أنها المدخل الطبيعى المباشر إلى "قندهار"، وتقع على لحدود مباشرة، ومعنى سقوطها هو فتح الطريق إلى عاصمة الولاية بدلاً من الالتفاف فى الصحراء وعبر الجبال فى رحلة على الجمال والدواب تستغرق حوالى

الشهر، بعد هذا الفتح أصبحت الرحلة تتم بالسيارات وعلى طريق معظمه من الأسفلت وتستغرق نحو ١٤ ساعة فقط. كانت معارك شرسة وهائلة وغنم المجاهدون فيها غنائم كثيرة، وهكذا لم يعد للجيش الحكومى أى تواجد فى الولاية بكاملها عدا المدينة والمطار.

وقد استشهد فى هذه المعارك الأخ "محمد يوسف" القطرى، وهو فلسطينى يعيش فى قطر، كان شاباً وديعاً وسيم الملامح صواماً قواماً، وقد أحبه المجاهدون الأفغان حباً جماً، وقد فاجأته إحدى دبابات العدو بينما كان يحمل الطعام للمجاهدين فى المقدمة، فألقى الطعام وأسرع يصوب القاذف (آر بى جى) إلى الدبابة ولكنها عاجلته بقذيفة جعلته يتناثر أشلاءً ممزقة.

وعندما كنت فى الدفتر كان خبر موته مازال غير مؤكد لدى أهله فى قطر، فكانوا يتصلون من حين لآخر يسألون عنه، وكانت عادة الأفغانى "عمر خليل" المسئول عن التليفون أن يستدعى أى عربى للتفاهم مع المتحدث على الهاتف إذا كان عربياً، فنادانى لهذا الغرض .. كانت المكالمة من قطر.. سألتنى عن "محمد يوسف".. فقلت لها:

ـ لقد استشهد.

ـ إنه فلسطينى وليس قطرياً إنما يعيش فقط فى قطر؟

ـ نعم إنه هو الذى استشهد.

ـ هل دفن؟

ـ نعم دفن وأر.......

لقد قطعت الاتصال بعصبية، فسألت الله لأهله الصبر والسلوان، وسرعان ما لحق بالجهاد أخوه الأصغر، وأصر أن يجاهد فى "قندهار"، بل لقد تدفق إلى أرض الجهاد عشرات القطريين جاءوا يتنسمون شذى البطولة ويترسمون خطى مواطنهم الشهيد "محمد يوسف" القطرى.

فـى الغـرفة المجـاورة لـنا كـان يقـيم حـوالى عشـرة مـن الضباط الشبان الذين تخرجوا من كلية "سياف" الحربية. كانوا فى العشرينيات من العمر ممتلئين مرحا وتفاؤلا، فالروس قد هربوا والمجاهدون يكتسحون الجبهات والنصر على الأبواب، وتداعـب خـيالهم الغض صور الخلافة الإسلامية والجيش الإسلامى الذين هم أول لبناته، وكان ضمن هؤلاء الضباط الضابطان "محمد رسول" و"دين محمد" أصحاب القطـار، وسرعان ما اندمجنا معهم، فالأفغانى بطبيعته يحب الغرباء ويرحب بهم بشرط أن يكونوا أحناف المذهب.

كـان هـؤلاء الضـباط يستعدون لعملـية داخـل "قـندهار" لذلك كانوا يجتمعون بقـائدهم الـذى يسـمونه "أمـير نظـامى"، وبدأنـا نتعـلم مـنهم بعض كلمات اللغة الأفغانـية وكـان معظمهـم يتكـلمون اللغتين الرئيسـتين فى "أفغانستان" "الفارسية" و"البشـتو"، كان بعضهم لا يعرف لغة "البشتو" ونصحونا ألا نحاول تعلمها لأنها لغـة صعبة جـداً، كمـا أنهـا غـير مسـتعملة رسـمياً لأن لغـة الحكومـة والدواوين والجـيش والكتـب والمـدارس هـى اللغـة الفارسية، ولا يرون فائدةً فى تعلم لغة لا تسـتعمل إلا فـى المعـاملات اليومـية، ووجدت أن اللغة "الفارسية" بها الكثير من الكـلمات العربـية، ربمـا نصـف مفـردات هـذه اللغـة عربـية الأصل، وكذلك لغة "البشتو" إلا أن الكلمات العربية أقل ومقتبسة من الفارسية وليس من العربية.

وكـان بجـوار دفـتر الاتحـاد مدرسة أفغانية تحمل اسم الشهيد "يحيى سنيور" ولمـا سـألت عـن هـذا الشـهيد أخبرونى أنه من أوائل المجاهدين العرب وأنه كان يعـبر ولايـة "بامـيان" مـع قافلـة إمـدادات، وهى ولاية أغلب سكانها من الشيعة وتقـع وسـط "أفغانسـتان" وبهـا نحـو ثمانـية أحـزاب جهـاد شيعية، وتعد ولاية محررة أو تركها الروس لتكون شوكة فى حلق المجاهدين. كانت الولاية سليمة لم يمسسـها سوء كأنها ليست فى "أفغانستان"، وكانت "إيران" تسلح هذه الأحزاب الشـيعية الذيـن كـانوا يفرضـون الإتـاوات عـلى قوافـل المجاهدين، وعندما أوقفوا القافلـة وفتشوها عرفوا أن "يحيى سنيور" عربى فقتلوه وسمحوا للقافلة بالمرور، لما عـرف شـيخ "سياف" بالأمر خرج مع طائفة كبيرة من رجاله ونصبوا ٣٠٠ صاروخ

بى إم (كاتيوشا) نحو القرية التى اعترضت القافلة وأرسل لهم الرسل "إما أن تدفعوا إلينا قتلة "يحيى سنيور" وإما نبيد هذه القرية"، ودفعوا له القتلة فقتلهم.

كنا فى كؤيتة ننتظر إحدى قوافل الذخيرة لندخل معها إلى الجبهات وسرعان ما لحق بنا مجموعة كبيرة من المجاهدين العرب (حوالى خمسة وعشرين مجاهداً)، وانشغلنا لفترة فى شراء ما نحتاج إليه فى الجبهات، ثم أخيراً حان موعد السفر.

قندهـــار

قبيل السفر جاء "أبو خبيب"وهو مصرى ويعتبر أقدم مجاهد عربى فى "قندهار"، جاء منذ أربع سنوات وعاش مع المجاهدين معاركهم الشرسة مع الروس وأتقن لغة "البشتو" المعقدة، وعرف المجاهدين فرداً فرداً وقائداً قائداً، وكان يتمتع بقدر كبير من ثقة المؤسسات التى تقدم التبرعات للأفغان فكان هو همزة الوصل، وكان بالنسبة للأفغان مصدر التمويل الرئيسي لشراء ما يحتاجونه من مؤن وأغطية ومصاريف وسيارات وجرارات، وكان أميراً للعرب فى "قندهار" وكان أميراً لمكتب الخدمات فى "كؤيتة" الذى يعتبر فرعاً لمكتب "بيشاور"، أى أنه كان يعمل تابعاً للشيخ "عبد الله عزام" حتى ذلك الوقت على الأقل. وقام "أبو خبيب" بتقسيمنا إلى خمس مجموعات لكل مجموعة أمير وأعطى كل أمير رسالة إلى قائد معين.

كانت مجموعتى تتكون من "أسد الله" و"أبو دجانة" الإماراتى و"أبو عمر" السعودى و"الزبير" المكى، وركبنا شاحنات ضخمة تحمل الذخائر والإمدادات. كانت الرحلة شاقة وعسيرة جداً استغرقت يومين لأن السيارات كانت تقف كل حين للتفتيش عند نقاط الشرطة الباكستانية، كما كنا نسلك دروباً وعرةً لنتجنب كمائن الطائرات فى "أفغانستان"، كانت السيارات بدون أى "يايات" والطرق عبارة عن مطبات هائلة، كنا نركب فى الصندوق الخلفى والتراب يغطى وجوهنا ويكاد يخنقنا. وربما كان الشعور بمشقة الطريق أنها المرة الأولى التى نقطع هذه المسافة فى طرق وعرة.. جدُ وعرة.

وصلنا بحمد الله بعد مغامرات عجيبة، وتفرقنا كل مجموعة فى سيارة "بيك آب" تذهب فى جهة معينة، وكان نصيبنا سائق شبه مجنون يسير بسرعة جنونية فى منحدرات وجبال ويخوض الأنهار بالسيارة فتارة تغرق وتارة تغرز، حتى وصلنا إلى المركز المطلوب ويسمونه "أوطاق"، والترجمة الحرفية لهذه الكلمة هى "الغرفة".

كان أوطاق قمندان "حبيب الله"، وكان متغيباً فى غالب الأوقات ويتولى نائبه ملا "شيرين" الأمر، وكان الأوطاق فى منطقة "زلخان". استقبلونا بترحاب وخصصوا لنا أحد الأنفاق وكانوا يعملون فى بناء "أوطاق" جديد بعد أن تهدم الأول بسبب قصف الطائرات، وكانوا يقضون معظم الوقت معنا يحاولون تعلم اللغة العربية أو قل أنهم يعشقون التعارف ويتوددون لضيوفهم ويلقنونا كلمات من لغتهم حتى نستطيع التفاهم معهم.

رفض ملا "شيرين" رفضا تامـاً أن نساهم معهم فى البناء، حتى الحراسة رفض أن نشارك معهم فيها وأراد أن يأخذ ملابسنا كى تغسلها زوجته وألح فى ذلك، وكان يعرف قليلاً من العربية فقال لنا "إنهن يفرحن بهذا العمل"، ولكننا رفضنا ذلك، وتحت إصرارنا سمحوا لنا بمساعدتهم فى العمل وتسببت هذه المشاركة فى رفع معنوياتهم إلى درجة كبيرة، وكنا نتعلم منهم أثناء العمل بعض الكلمات المتداولة.

أردنا أن نذهب للقتال، والنظام المتبع فى "قندهار" أن مراكز المجاهدين منتشرة بالقرى المحيطة بالمدينة، ويوجد حول المدينة مباشرة مراكز مشتركة تسمى(بوسطى مشترك)، وكل مركز خلفى يرسل بضعة مجاهدين بأسلحتهم إلى هذه المراكز المشتركة ويبقون فيها لمدة أسبوع ثم يتم استبدالهم.

والمراكز المشتركة هى التى تشتبك دائما مع العدو، وقد وعدنا ملا "شيرين" أن يرسلنا إلى المركز المشترك بعد أن يأتى القمندان "حبيب الله" ويرانا لأنه هو القائد، وجاء "حبيب الله"، إنه فعلا قائد فكل شيء فيه ينطق بأنه ولد ليكون قائداً، كان طويلاً معتدل القامة قوى البنية مهيباً وقوراً حازماً.. نادراً، بل لم أره مبتسماً أبداً، تعرف علينا ورحب بنا، وعندما سألته "أين الدوشمان"؟ ـ أى أين

العدو، ردّ علّى بالعربية "يا أخى.. لماذا تقول الدوشمان.. العربية أحسن.. العربية أَحَبُ".

يحيا الجهل

والحقيقة أن كثيراً جداً من الأفغان يعرفون اللغة العربية لأن كل الأطفال يذهبون فى الخامسة تقريباً إلى المسجد يدرسون على يد شيخ (مولوى) اللغة العربية والحساب ويحفظون القرآن الكريم (مثل نظام الكتاب فى "مصر" قديماً)، ويسمونه "المكتب" أو "المدرسة"، أما المدارس الحكومية المدنية فيسمونها "اسكول"، وحتى فى هذه المدارس الحكومية يدرسون اللغة العربية كإحدى اللغات الأجنبية، أما فى "المكتب" فإن دراسة جميع المواد تتم باللغة العربية، ويستمر التلميذ مع أستاذه (المولوى) كل حسب ظروفه، والذى يواصل الدراسة يصبح هو الآخر مولوياً بعد أن يكون قد درّس كل الكتب المعروفة فى "أفغانستان" وهى كتب محددة.. مثل "كنز العُمّال"ـ "الهداية" فى الفقه الحنفى ـ "المنطق" لأرسطو(كان العرب يعترضون دائماً على هذا الكتاب) ـ إضافة إلى كتب النحو والصرف والحديث والتفسير، والمولوى الحقيقى هو فقط الذى درس كل هذه الأشياء، فتراه يجيد اللغة العربية الفصحى إجادة تامة.

والأفغان يحترمون الذى يدرس فى المكتب احتراماً كبيراً بينما ينظرون باستخفاف إلى الذى يدرس فى مدارس الحكومة، لأن الأول يعرف أحكام الدين ويفهم القرآن العظيم ويفتى فى الحلال والحرام ويبرم العقود ويفصل فى القضايا، أما الثانى فيدرس لغات الكفار وعلوماً أخرى لا يرون لها أى فائدة. ولأن معظم المتعلمين تعليماً مدنياً يصبحون ملاحدةً شيوعيين يلبسون زى الكفار، ويا للهول.. يمشون بدون غطاء للرأس(لونجته) أو(باكولى).

وأينما توجهت فى "أفغانستان".. فى أعماق الصحارى القاحلة أو فوق ذرى الجبال الشاهقة سوف تسمع عبارات الترحيب باللغة العربية الفصحى.. مرحباً.. كيف حالك.. أنت بخير؟ والكثير ممن يعرف اللغة العربية يستطيع بسهولة أن يقرأها ويكتبها ولكن لا يستطيع أن يتكلم بها إلا بعد مران وتدريب، والغريب

أنهم كانوا يصححون اللغة العربية لبعض العرب لأن أغلب العرب يتكلمون بلهجاتهم المحلية ولا يستطيعون تكلم العربية الفصحى.

وكما أن العرب مفتونون باللغات الأوربية ويجتهدون فى تعلمها وينتابهم الخجل إذا أخطأوا فى نطق حرف فى كلمة أوربية، كذلك فإن الأفغان مفتونون باللغة العربية ويقدسونها تقديساً، ومهما كان الأفغانى أمياً فإنه يحاول أن يتعلم منا بعض الكلمات العربية، ويرددون دائماً قولاً يظنونَهُ حديثاً عن الرسول(لغة أهل الجنة "العربية".. ولغة أهل النار "البشتو") وأغلب ظنى أن تعريب "أفغانستان" أسهل من تعريب "الجزائر" بكثير.

وقد لفت نظرى ظاهرة غريبة جداً فى "أفغانستان" وهى الفارق الشاسع بين التعليم المدنى الحكومى والتعليم الدينى أو حتى الأمية وقد رأيت بأم عينى نتائج الاثنين، فالذين وصلوا إلى المرحلة الثانوية يتسكعون فى "باكستان" ويعملون فى المؤسسات أو المستشفيات، وعندما رقدت بضعة شهور فى عدد من المستشفيات أتيحت لى الفرصة لأعرف كيف يفكرون فقد كان كل المرضين من الأفغان المتعلمين فى مدارس الحكومة وكان رأيهم أن "الاتحاد السوفيتى"(سوبر باور) قوة عظمى لا يمكن أن يهزم، وأن ما يفعله المجاهدون هو عبث وقلة عقل، فإذا سألناهم ولكن المجاهدين هزموا السوفييت بالفعل وانسحب الروس فكانوا يقولون إن أمريكا هى التى هزمت الروس.. يا للأغبياء.. وهؤلاء ليسوا شيوعيين ولا متأمركين بل إنهم أعضاء فى مختلف أحزاب الجهاد، وفرق شاسع بين هؤلاء وبين الأميين الذين رأيتهم سواء فى المهجر أو فى الجبهات، فهؤلاء الأميون الذين تشربوا الثقافة الدينية من الملالى وطلاب العلم هم بالفعل أسود لا يشق لهم غبار، وفكرتهم عن أنفسهم باعتبارهم مسلمين أنهم أفضل وأقوى خلق الله، وأنهم لا يحاربون قوماً من الكفار إلا هزموهم بفضل الله حتى لو اجتمع عليهم كفار الدنيا فإنهم سينتصرون عليهم، لأنهم مسلمون والله لابد ناصر المسلمين، فهم لا يبالون بقوى عظمى ولا بأسلحة ذرية ولا ينبهرون بالتكنولوجيا بل يستخدمونها بسهولة ويطورونها أيضاً.. عجبت من ذلك والله وشغلنى هذا التناقض بين نتائج نوعى التعليم، ولم أجد تفسيراً لهذا الأمر إلا أن التعليم المدنى

يبث بطريقة خفية الانبهار بالغرب والشعور بالضعة نحوه، ويقتل النخوة و يجعل هدف الإنسان فى حياته المزيد من العَرَض الزائل.. وهذا ما يحدث فى بلادنا أيضاً وفى كل بلاد المسلمين حتى التعليم الدينى لدينا تلوث بهذه الآفات ولكنه فى "أفغانستان" ما زال هو هو التعليم الذى كان أيام الدولة العباسية (وليست العبارة الأخيرة من قبيل المبالغة).

وعندما كنت أُسأل عن سبب انتصار المجاهدين على السوفييت كنت أقول بكل وضوح إن السبب فى ذلك هو الجهل!! ثم أوضح الأمر بعد ذلك، فلو كان غالبية الأفغان متعلمين كهؤلاء المرضين لكانت "أفغانستان" الآن إحدى جمهوريات "الاتحاد السوفيتى". لذلك فإننى أصرخ بأعلى صوتى للمسئولين عن التعليم فى ربوع العالم الإسلامى: أصلحوا التعليم .. أصلحوا التعليم وإلا فالجهل أفضل! ابحثوا وفتشوا عن الأسباب الخفية فى المناهج التعليمية التى تجعل المتعلمين فئراناً وخرافاً ليس لديهم ثقة حتى فى أنهم يستطيعون أن يتعلموا أو يمكن أن يفكروا فضلاً عن أن يبتكروا أويخترعوا.

بوسطاى مشترك

طلبنا من القمندان أن يرسلنا إلى "البوسطى المشتركة" فقال لا تذهبوا جميعاً بل تنقسمون قسمين، قسم يبقى هنا وقسم يذهب ثم تتبادلون المواقع، أجرينا القرعة فيما بيننا وكان الذهاب من نصيبى و"أسد الله" و"أبو دجانة".

كان "أبو دجانة" شاباً رقيق المشاعر دمث الأخلاق ولا عجب فقد كان شاعراً له شعر رائع ومنشور فى المجلات الإسلامية وفوق هذا كان من آل البيت، ترك كلية الآداب حيث كان يدرس الإنجليزية، وكان العمل ينتظره فور تخرجه براتب خيالى ولكنه رفض كل هذا وألقاه خلفه وجاء بحماسة الشاعر وشجاعة أبناء علىّ رضى الله عنه وأرضاه. أخبرنى "أبو دجانة" أنه كان يغلق على نفسه الباب وهو صغير وينفطر بكاءً على ما أصاب فلسطين وأهلها.

ركبنا الدراجات البخارية خلف الأفغان الذين أصابهم الدور وانطلقنا فى طرق ملتوية ضيقة تخترق مزارع العنب اللانهائية، فى الطريق قابلنا قمندان "البوسطى المشتركة" التى كنا متوجهين إليها واستقبلنا الرجل بحرارة، كان شاباً لا يتعدى الخامسة والعشرين له لحية صغيرة حمراء. أكملنا المسير إلى "البوسطى المشتركة" فى منطقة "أرازى" القريبة من المدينة ورأينا المدينة العتيدة ومبانيها والقبة الخضراء المميزة والتى ترتفع فوق معظم الأبنية، وكان كل منا يحمل سلاحه خلف ظهره وكان معى بندقية RPK وهى عبارة عن كلاشنكوف متطور والتصويب بها دقيق جداً، والناشنكاه الأمامى والخلفى بهما فوسفور حتى يمكن التصويب بها ليلاً. وصلنا "أرازى" ووجدنا هناك ثلاثة من العرب السعوديين "أبو معاذ" و"أبو بصير" وأميرهم "أبو طلحة" الذى لم يستمر معنا طويلاً إذ كان طالباً فى كلية العلوم ويقضى الإجازة فى الجهاد، ووجدنا أنهم مقيمون فى هذا المركز المتقدم ولا يرجعون إلى مركزهم الخلفى، وكان للعرب غرفة كبيرة مخصصة لهم، وكان رصاص العدو يصل إلينا ويمرق فوق رءوسنا بل كانوا يتحرون موعد الصلاة ليقصفوا المسجد وينهمر الرصاص على مكان الوضوء. أخيراً أصبحت فى معركة حقيقية، ولا يمر يوم دون أن تخرج مجموعة من هذا المركز وتقترب من تحصينات العدو وتشتبك معه بمختلف الأسلحة المتاحة ثم يمكث المجاهدون فى الخنادق لحين هدوء نيران العدو ثم يرجعون، كان هذا روتيناً يومياً وكان بالطبع لا يسبب خسائر كبيرة للعدو ولكنه يؤدى فائدة كبيرة للمجاهدين.. أولاً: إزعاج العدو وإشعاره بقوة المجاهدين، وثانياً: تدريب المجاهدين والاحتفاظ بلياقتهم النفسية، وثالثاً: إن لم تَغْزوا تُغْزَوا كما قال الصادق الأمين عليه أفضل صلاة وتسليم، وهناك عمليات الاقتحام والتى يسميها الأفغان "تَعَرُض" وتجرى من حين لآخر ضمن خطط المجاهدين الرامية إلى تحطيم دفاعات العدو حول المطار والمدينة، والهدف المباشر منها هو كسب مواقع جديدة وإيقاع خسائر كبيرة فى صفوف العدو والحصول على الغنائم.

وكان "أبوطلحة" طويلاً نحيلاً وكان متخصصاً فى الكيمياء كما ذكرت آنفا، أما "أبو معاذ " فقد كانت كنيته وسيلة تعذيب للأفغان إذ ينطقون العين حاءً ويمطونها ويضغطون على مخارجها لتصير عيناً ولكن هيهات هيهات، وكان

الفتى متخرجاً من كلية الشريعة بتقدير عالٍ وعُرِضَ عليه منصب القضاء ولكنه أبى أسوة بالسلف الصالح، ولأن الجهاد وإقامة دولة الإسلام والدعوة إلى الكتاب والسنة قد ملأت جوانحه. كان من تلاميذ الشيخ "بن باز" وكان رَجُلَ مُثُل عُليا ومبادئ يجاهد نفسه ويحملها على مشاق الطاعة فيقوم الليل ويجلس لذكر الله من الفجر حتى صلاة الضحى وكان يعطينا دروساً فى التجويد والحديث. كان قصير القامة نحيل الجسم يضع نظارة سميكة وكنا نعتبره "مولوى" العرب فأحضرنا له عمامة بيضاء كبيرة على عادة الأفغان، إذ يرتدى العوام العمائم السود أما العلماء وطلبة العلم فيضعون العمائم البيضاء، أما "أبو بصير" فكان طالباً فى المرحلة الثانوية وترك الدراسة وتفرغ للجهاد وأمضى عامين فى الجهاد وكان مرحاً خفيف الظل يعرف بعض لغة "البشتو" ويمزح دائما مع الأفغان، وكان يطلق شعره رغم تجعده فكان منظره يشبه إنسان الغابة، وكثيراً ما اشتكى الأفغان من طول شعره رغم أن الكثير منهم يطيل شعره حتى ينسدل على كتفيه وحجتهم فى ذلك أنهم يفرقونه من منتصف الرأس فهو بهذا "سُنَّات" أى سُنَّة أما طريقة "أبو بصير" فليست "سنات"، والحقيقة أن الأفغان وخاصة القندهاريون يتمسكون بالسنة إلى حد مذهل، كل شىء فى الدنيا إما "سنات" وإما ليس "سنات" فهم يلبسون سراويل واسعة جداً يجب أن يكون عرضها عند الوسط كعرض الذراعين المفتوحين هكذا "سنات" بل إن الحبل الخاص بالسروال له مواصفات معينة حتى يكون "سنات"، العمائم يجب أن تكون سبعة أمتار وذيل العمامة خمسة أشبار ويجب أن تكون سوداء سادة، أما العمائم السوداء ذات الخطوط الرفيعة البيضاء فهى "بدْعات" لا يفعلها إلا الشباب المستهتر، ولقد قرأت كثيراً وسمعت الكلمة العربية "قلنسوة" ولكنى لم أعرف ما هى تلك "القلنسوة" إلا فى "قندهار" إنها الطاقية التى توضع على الرأس وتُلَفُّ حولها العمامة ويسمونها "خُولّى"، فعندما سألنى أحد الأفغان عن اسم "الخولى" بالعربية قلت له "طاقية" ولكن سرعان ما صحح القمندان هذه المعلومة وقال بل اسمها "قلنسوة"، ويتعجبون لعدم اهتمام العرب بارتداء العمائم رغم أن الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ يقول {*العمائم تيجان العرب*}.

والقميص(وهكذا يسمونه) فى قندهار يختلف عَمّا فى كل "أفغانستان"، ففى غير "قندهار" يصل طوله إلى الركبة فقط وتكون الفتحات الجانبية بطول الفخذ وهذا من وجهة نظر القندهاريين ليس "سُنَّاَت" بل أيضاً عار وشنار، أما القميص القندهارى "السنات" فيصل طوله إلى منتصف الساق أو أكثر، والفتحات الجانبية لا تزيد على شبر واحد، ويرتدون صديرى فوق القميص ويسمونه "صَدْرِى" وأيضاً يختلف عن باقى الولايات فهو خشن سميك داكن اللون دائماً، وهم يفضلون الألوان الداكنة، الأسود وخلافه لجميع ملابسهم، ولا يفوتنا ذكر الـ "باتو" الذى ألّفَ فيه أحد العرب كتاباً لإحصاء استعمالاته وأسماه (الباتو المتين وفوائده السبعين) والباتو عبارة عن رداء كبير يوضع حول الكتف فى العادة ويستعمل فى كل شىء فهو فرش وغطاء ووسادة وعمامة وحزام وصرة ملابس أو طعام وحقيبة ذخيرة ومظلة ورداء سباحة وكفن وبيرق واسترخان إلخ إلخ.

أصبحنا ستة أفراد عرب فى هذا المركز. كان قائد المركز شاباً يافعاً فى الثانية أو الثالثة والعشرين من عمره ولكنه كان حازماً صارماً له شخصية قوية ويسيطر تماماً على الرجال التابعين له، والحق أن الأفغان يحترمون قائدهم لدرجة تدعو إلى الدهشة علماً أن القائد ليس له أية سلطة على رجاله لأن كل الرجال هنا بمحض إرادتهم ولا يستفيدون مادياً ولهم حق الانصراف حيث يشاءون ومتى يشاءون، وإن كان الرجال غالباً أقارب القائد أو من نفس قريته فإن له بعض السلطة الأدبية عليهم، أما فى حالة المراكز المشتركة فليس للقائد هذه الميزة لأن الرجال خليط من عشرات المراكز ورغم ذلك لا يأنف المجاهد إذا زجره قائده أو حتى لطمه. وفى المعركة يفدون القائد بنفوسهم ولهم فلسفة فى ذلك إذ يقولون إن موت نصف المجاهدين أهون من موت القائد لأنه إذا مات نصف العدد وبقى القائد فإن النصف الباقى سوف يواصل الجهاد أما إذا مات القائد فإن كل المجاهدين سيتفرقون ويتركون الجهاد.

كان قائدنا الجديد هذا يدعى "شِير أحمد خُند" وينطقونها "شِيرمادا خُن" وشير معناها أسد أما خند فلفظ احترام، وكان قبل الجهاد مؤذن مسجد لذلك فإن له إلماماً باللغة العربية وقد صقل هذا الإلمام باختلاطه مع المجاهدين العرب حتى

أنـه نسى اللغة الفارسية وهى اللغة الثانية بالنسبة له، فكان إذا حاول الكلام مع أحـد الأسرى بالفارسـية سبقه لسـانه إلى العربـية، وكان "شيرمادا" يحافظ على الصـلاة والأمـور الشـرعية إلى حـد بعيد جدا، فكان يعاقب أى مجاهد يتأخر عن صـلاة الجماعـة إمـا بزيادة ساعات الحراسة أو بتنظيف السلاح، وكان يتفقد أى سـلوك مخـالف لتعالـيم الإسـلام فيواجهه بكل صرامة وشدة. أذكر يوماً أنه جمع كـل المجـاهدين ذات صباح وأمرهم أن يحلقوا رءوسهم بالموسى فنفذ الأفغان الأمر دون اعـتراض ولا امـتعاض، أمـا العـرب فرفضوا وسألوه لماذا نحلق قال: لأن هذا "سُنَّات"، قـالوا له: ومـا الدلـيل عـلى ذلـك فأخرج كتاباً أصفر أكل عليه الدهر وشـرب وأشـار بإصـبعه إلى الحديـث الشريف {*رحم الله المحلقين*}، فقلنا له هذا فى الحج، فقال فى الحج وفى كل وقت.. أنتم معشر العرب تحبون الجدال.

كـان القـائد قبل العمليات الخطيرة يجمع المجاهدين ويقف فوق جدار أو أى شـىء عـــالٍ ويخطـب بكلام طنان رنان نفهم منه على قدر ما به من كلمات ذات أصـل عـــربِى (شـهيدان.. غنـيمات.. روس خـــادمـانو.. وطـن كى.. مخالفات شريعات).. إلخ.

وفـى "قـندهار" نظـام غذائى ثابت لا يتغير أبدا، فى الصباح يتم الإفطار بعد صـلاة الفجـر وانتشـار الضياء، والإفطار عبارة عن شاى أخضر مع بقايا الخبز من الـيوم السـابق. وللأفغـان عادات وطقوس فى تناول الطعام لا يخرجون عليها أبداً فيفرشـون السماط ويسمونه "استرخان" وهو عبارة عن مشمع عرضه المتر وطوله من خمسة إلى عشرة أمتار حسب الحاجة، يجلسون حوله ثم يطوف أصغر الحاضرين سناً بإبـريق وإنـاء فيغسـل أيـدى الجالسـين عـلى أن يـبدأ بأصغرهم وخلفه آخر بالمنشـفة، ثـم يوضـع الطعـام فـيأكلون بـأيديهم ثم يُطاف عليهم مرة أخرى بالماء والمنشـفة ليغسـلوا أيديهـم على أن يبدأ هذه المرة بأكبر الحاضرين سناً. أما الشاى فـلا يضـعون فـيه سـكرا بـل يضـعون أطباقا بها قطع من الحلوى بين كل اثنين، ويضـع الواحـد مـنهم الحلـوى فى فمه ثم يرشف الشاى، ويطوف الساقى وبيديه بـرادان كـبيران، أحدهمـا بـه شـاى أخضـر والآخـر بـه شـاى أسود، ويسأل كل فـرد(تور يا شينى؟) أى تريد شايا أسود أم أخضر؟ وإذا فرغ الكوب أسرع الساقى

بملء الكوب مرة أخرى، وهكذا يشربون فى المرة الواحدة حوالى عشرة أكواب، ومهما رفضت أو عبرت عن عدم رغبتك فلابد أن يملئوا الكوب ثانيةً، والطريقة الوحيدة التى يفهمون بها أنك لا تريد هى أن تقلب الكوب الفارغ أو تطوحه بعيداً عنك.

وكما قلت فإن الإفطار دائماً خبز وشاى، والغداء عقب صلاة الظهر وهو عبارة عن بطاطس عائمة فى مستنقع من الدهن وخبز ساخن وشراب مشتق من اللبن كم أثار من جدل وخلاف حول ماهيته.. الأفغان يسمونه "شلومبيه" ومن وصفهم أنه يستخرج من اللبن بعد خضه أى بعد نزع القشدة منه، وكان الأفغان يسألون دائماً عن اسمه فى العربية فكان بعض العرب يقولون هذا "روب" والبعض يقولون بل هذا "زبادى" وآخرون يقسمون أنه "شرش" والبعض يظنه "لبن فرز"، وهذا "الشلومبيه" له قدرة عجيبة على جلب النعاس، وهو سائل سميك يخففونه بالماء ويضعون عليه بعض الملح، وله حموضة وطعم مميز يكسر حدة الدهون المصاحبة للبطاطس.

أما وجبة العشاء فعبارة عن ثريد من الخبز ومرق شحم البقر ونادراً ما يصاحبه لحم، وإن عَزَّ شحم البقر والبطاطس فإنهم يقلون البصل ونأكله بالخبز، وإن عَزَّ البصل فإنهم يقلون الخبز الجاف ونأكله بالخبز الطرى، وفى هذه المرحلة من الجهاد لم يحدث أن عَزَّ الخبز.

كان "عبد الجبار" قائد العمليات(قمندان تعرض) شاباً فى الخامسة أو السادسة والعشرين، طويلاً معتدل القامة له شارب ضخم (غط بريتونا) ولحية غزيرة وحواجب غليظة، ولكن رغم هذا المظهر كان دائم المرح يضحك حتى يرتمى على الأرض، وكان خفيف الظل إلى أبعد الحدود، وكان المسئول عن العمليات العسكرية ويخرج كل يوم بمجموعة من المجاهدين يشتبكون مع العدو ثم يعودون، كانوا يرفضون أن يشترك كل العرب فى العملية بل يشترك نصف لعرب بالتناوب.

الأفغان لغةً وسلالة

"البشتو القندهارى" هى اللغة الفصحى أما "بشتو" باقى الولايات فلهجات عامية، ولغة "البشتو" أحد اللغات الهندوأروبية وهى عائلة لغوية تضم كل اللغات الأوروبية والهندية والفارسية والأردية لذلك نجد فى "البشتو" مفردات أوروبية كثيرة مصدرها هو اللغة الأم لهذه العائلة وليست حديثة الاقتباس، ومن ذلك كلمات "مور"، "بيلار"، "رور"، فالأولى والثانية بمعنى أم، أب وهما هكذا فى اللاتينية مبنى ومعنى، أما "رور" فتعنى أخ وهى شبيهة بكلمة "فرير" الفرنسية وكلمات أخرى كثيرة مثل قمندان، توول وهى all الإنجليزية، ويكفى أداة النفى فى البشتو وهى "نشتا" فهى نفسها أداة النفى فى الألمانية، وكذلك يستخدمون كلمة نى للنفى وهى no الإنجليزية. وللبشتو جرس صوتى يشبه الفرنسية إلى حدٍ بعيد وإن كنا نسمعه خشناً على ألسنة المجاهدين القندهاريين ولكنى دهشت عندما سمعته من بعض الأطفال فوجدته سلساً ناعماً، والأهم من كل ذلك هو قواعد اللغة وبناء الجملة، فالصفة مثلاً تأتى قبل الموصوف بعكس اللغات السامية ومن ذلك قولهم (عبورى حكومت) أى الحكومة المؤقتة، أو قولهم (تور غر) أى الجبل الأسود. ونفس الكلام ينطبق على الفارسية ففيها كلمات "ماتر"، "باتر"، "برادر" بمعنى أم، أب، أخ، وهى تشبه الكلمات الإنجليزية شبهاً كبيراً.

وواضح مما سيرد فى هذه المذكرات الاقتباس واسع النطاق لمفردات اللغة العربية، وبديهى أن ذلك بسبب دخول الإسلام. ولكن هناك ظاهرة لغوية لفتت نظرى وحيرتنى وهى أن أخص مصطلحات الدين ليست بالعربية فمثلاً الله (خدا)، الصلاة(ليمونز) أو (نماز)، الصوم (روجه) أو(روزه)، الوضوء (أودس)، بينما لا حصر للمفردات العربية فى كافة المجالات، بل إن علماء اللغة هناك يعربون المصطلحات التقنية الحديثة ليدخلوها فى لغتهم فمن ذلك المطار (ميدان هوائى) رغم أن الهواء فى لغتهم له لفظ آخر، النظارة (عينيى كى) رغم أن العين هى (استرجى)، كى هى أداة التعريف، والطائرة (طيارة). وأغلب ظنى أن عدم تعريب أهم الكلمات الدينية هو لوجود ديانة لديهم قبل الإسلام كانت راسخة فى

نفوسـهم لدرجـة أنهم لم يستطيعوا التخلص من مصطلحاتها، والديانات الأفغانية قبل الإسلام هي "البوذية" و"الزرادشتية".

يُقّسم علماء الأنثروبولوجي البشر إلى أربع سلالات رئيسية هي القوقازية والمغولية والزنجية والاسترالية الأصلية، والأخيرة على وشك الانقراض، فالمغولية تضم الصينيين واليابانيين والشعوب التى تشبههم، وتضم القوقازية سلالات فرعية هى الآرية والأناضولية والألبية وسلالة البحر المتوسط التى تضم العرب واليهود والبربر وسكان جنوب أوربا وكذلك الصوماليين والأثيوبيين وشمال السودان وإن كانوا مختلطين بالسلالة الزنجية لذلك تسمى القوقازية المتزنجة، ويعد الأفغان قوقازيون آريون فهم بذلك يمتون بصلة القرابة للأوربيين والفرس والهنود وبخاصة شمال الهند، لكن الشائع لدى القندهاريين أن أصل البشتون هو الجزيرة العربية رغم دلائل اللغة ورغم ما يؤكده علماء الأنثروبيولوجي، ولكن تعلم العلماء ألا يستهينوا بأساطير الشعوب وحكاياتهم عن أصولهم العرقية والجغرافية، وكانت ملامح العرب بشعرهم وعيونهم السوداء ولون بشرتهم مما يؤكد للقندهاريين هذا الزعم.

والقندهاريون متوسطو القامة ولهم بنيان متين والسمنة نادرة فيهم رغم كميات الدهون التى يلتهمونها، ورغم الوسامة الغالبة عليهم إلا أنهم غليظو الحواجب لهم شوارب غزيرة ولحى ضخمة وهامات ومناكب، وبكل سهولة يمكن تمييز القندهارى عن أى أفغانى من ولاية أخرى بسبب الزى والسحنة المميزين.

والقندهارى شجاع، تقر له باقى الولايات بهذه الخصلة، وإلى جانب الشجاعة فهو حريص علي التقاليد و"السُنَّات" حتى الموت، فعلى طول ما مكثت فى "قندهار" لم أر رجلاً حليق اللحية حتى رجال المليشيات الموالية للحكومة الشيوعية كانوا ملتحين، بينما يمكن أن نصادف أشخاصا غير ملتحين فى الولايات الأخرى وإن كان ذلك نادرا، والأفغانى عامةً والقندهارى خاصةً لا يمكن أن يترك الصلاة، أو بمعنى أصح لا يمكن أن تفوته صلاة سواء أكان رجلاً أو امرأة، ومن المناظر التى تأسر الألباب تَوَقُّفُ الشاحنات على الطريق وقت الصلاة واصطفاف الرجال ثم النساء ثم الأطفال عن آخرهم للصلاة..اندهش "أسد الله"

لحـرص النسـاء العاميات على الصلاة واستعبر وقال "هؤلاء هم الناس وإن المحيا محـياهم والمـوت موتهـم"، والعجيب حقاً أن الرجل ربما كان فاسقاً ولكنه يحافظ عـلى الصـلاة تمامـاً والأعجب من هذا أن الشيوعيين أنفسهم كانوا يُصَلُّون وخاصةً الجهلاء منهم.

ولأهـل قـندهار قـدرة كـبيرة عـلى الـتحمل والصبر على المكاره، ويكفى أنهم يواجهون الموت كل يوم دون أن يكونوا مجبرين على ذلك ودون حتى إغراء مادى كمـا فـى جـيش الحكومـة، ويكفـى أنهم كل يوم يدفنون عزيزاً لديهم ولا يهتزون لذلـك.. ولا أنسى أبداً كيف كان معنا فى إحدى المعارك اثنان من الأفغان أشقاء، قُتِلَ أحدُهم وحُمِلَ إلى الخلف ليُدْفن فلما عرف شقيقه رأى أن الأمر لايستدعى أن يـترك المعركة لِيَدْفِنَ شقيقه وقال إن المجاهدين فى الخلف سيقومون بعمل اللازم. إنهـم بشـر كـباقى البشـر وبالتأكـيد لا يعشـقون المـوت ولكنهم كالأسود الجريحة يفضلون الموت على الضيم، ويرون أن مرارة الموت أخف وطأة من مرارة العار، عار الجبن وعار الذل وعار سيطرة الدهريين على ديار المسلمين. وما صليت خلف أحد مـن الأفغـان إلا رفع يديه عقب الصلاة ودعا باللغة العربية: "اللهم أهلك الدهريين الـلهم أهلـك الروسـيين.. الـلهم أهلـك الخلقـيين والبرتشام.. اللهم أهلك الكافرين بالكافرين وأخرجنا من بينهم سالمين يارب العالمين".

رغـم أن تعميم الأحكام لا يعبر عن الواقع بدقة، لكن يمكننا القول إن الأفغان لا يحـبون المـوت حـتى لـو كـان فى سبيل الله، كان الدعاء بالشهادة دارجاً على ألسنة العرب فكان الأفغان يسارعون إلى تصحيح الدعاء (نى..نى.. شهيدان نى.. غـازى..غازى)، وكانوا يتعجبون من رغبة العرب، فى الموت ولكن العجيب أنهم كانوا أصبر من العرب على الموت الذى يبغضونه.

المعركة الأولى

كنت و"أسد الله" و"أبو دجانة" متشوقين للجهاد الحقيقى والرماية الحقيقية.. وعلى قدر هذا الشوق كانت هناك رهبة أول عملية، وبالفعل فإن ثلاثة أرباع الشجاعة تَعَوُّد. اقترعنا فيما بيننا فكان نصيبى ألا أذهب.. ولكن لحسن حظى كان موعد الخروج فى الثالثة صباحاً، وكان "أبو بصير" ينام نوماً عميقاً وعندما حاولوا إيقاظه فى هذا الموعد قال والنوم يقهره: أرسلوا أحداً غيرى، عندما أيقظونى قمت على عجل وجهزت نفسى فى دقائق وانطلقت مع "أسد الله" و"أبو دجانة"، وكان من حظ "أبو دجانة" أن ليس من الأفغان الحاضرين من يجيد الرماية بمدفع ٨٢ مم المحمول كتفاً، وكان "أبو دجانة" قد تدرب عليه فأعطوه المدفع، وحملت أنا رشاشتى المتطورة وانطلقنا فى الظلام خلال المزروعات وعبر قنوات المياه، وصلينا الفجر قرب مواقع العدو، كل صلى وحده على عادة الأفغان فى مثل هذه المواقف، شغلنا أنفسنا بالذكر ونحن نتابع المسير حتى وصلنا إلى مجموعة من البيوت الخربة فدخلناها وقام القائد بتوزيع كل مجموعة من المجاهدين فى ناحية وأرشد كل مجموعة إلى الهدف الذى ستصوب نحوه، والخندق الذى ستلجأ إليه بعد العملية، وتوارينا فى أماكننا بعد أن بدأ النهار يتكشف، ورأيت مبانى العدو فى مواجهتى على بعد حوالى ٤٠٠ متر، وشاهدت البيارق الحمراء والجنود فوق التحصينات بالسلاح يذهبون ويجيئون.

حدد القمندان لـ "أبو دجانة" الهدف وهو تحصين بداخله مدفع (شلكا) المضاد للطائرات والآليات والأفراد والذى كانت تصل إلينا طلقاته أثناء الصلاة، وكان هذا المدفع فى حصن متين ولا يظهر إلا من فتحة ضيقة، وكان على "أبو دجانة" أن يدخل قذيفته عبر هذه الفتحة الضيقة، وحُددت أهداف مماثلة لحملة القاذف الصاروخى (آر بى جى)، أما حملة الرشاشات مثلى فكانت مهمتهم إطلاق وابل من الرصاص على العدو لتغطية حملة المدافع، لأنهم حين يصوبون يكونون مكشوفين للعدو بكامل أجسامهم تقريباً، فالتغطية بالرصاص تمنع العدو من الرماية حتى نتوقف نحن عن الرماية. انبطح القمندان فوق أحد الأسطح ليراقب سير المعركة، وكانت إشارة البدء هى صيحة (الله أكبر).. إنه

شيء رهيب خاصة إذا خضته لأول مرة. لا تعرف ماذا يمكن أن يحدث ولا ما هو (السيناريو) بالضبط، ورغم هذا شعرت بسكينة عجيبة وكأن الأمر لا يخصنى أو كأنى واثق تماماً أنى لن أصاب.

دوت صيحة (الله أكبر) وانطلقت قذائف جند الله... أطلقت بضعة طلقات ثم تعطل السلاح.. حاولت إصلاحه.. عادة تكون إحدى الطلقات محشورة أو الياى معطل، انتهت رماية المجاهدين ولاذوا بالخنادق لتحميهم من رد العدو، ولكنى أصررت أن أصلح السلاح وأرمى ما معى من ذخيرة.. كنت فى مكان مكشوف منبطحا أرضاً، وبدأت رماية العدو بوابل من الطلقات كأنها جراد منتشر، والعدو لا يستعمل إلا الرصاص الرسّام للإرهاب، ثم انهالت قذائف الهاون.. وأخيراً اشتغل السلاح مرة أخرى فأخذت أرمى على مصادر نيران العدو ولكنى فوجئت بالقمندان يصيح من خلفى (تساباكيه.. جنك ختم.. زرزر حركات) أى ماذا تفعل.. لقد انتهت المعركة.. أسرع إلى الخندق، وظل هو رغم الرماية العنيفة يتفقد كل المجموعات ليطمئن أنها بخير وأنها تحصنت بالخنادق.

مكثنا فى هذه الخنادق حوالى نصف الساعة حتى كف العدو عن الرماية تقريباً، وكان القمندان فى غاية السعادة لأن "أبو دجانة" قد أصاب الهدف ودمر (الشلكا) اللعينة، ومن ذلك الوقت صار "أبو دجانة" هو المتخصص فى استعمال هذا المدفع فى كل عملية تالية.

تسللنا عائدين إلى المركز، ومهما حاولت فلن أستطيع وصف شعور المجاهد وهو عائد من المعركة ويعرف أنه قد أنجز شيئاً ولم يخسر جرحى ولا شهداء.. إنه شعور لا يوصف ولا يساويه أى شعور بالسعادة مر بى من قبل.. استقبلنا زملاءنا بالترحيب والاستفسار وقد أعدوا لنا الشاى وبعض الخبز، أكلت ألذّ وجبة فى حياتى ثم استسلمت للنعاس.

تعلمت فى هذه العملية درساً هاماً، وهو أن القواذف الصاروخية أهم من الرشاشات فى العملية، أما فى التعرض فإن الرشاشات أهم بكثير، لأنه فى التعرض تصبح القواذف هى التى تغطى هجوم المشاة الذين يلتحمون فى قتال قد يصل إلى حد استعمال السلاح الأبيض.

قررنا ألا نعود إلى المركز الأصلى فى "زلخان" بل نظل فى هذا المركز "بوسطاى مشترك" فى قرية "أرازى"، وبعد بضعة أيام جاءنا "أبو عمر" اليمنى و"الزبير" المكى، وكلما جاء ملا "شيرين" لمبادلة المجاهدين طلب منا أن نرجع معه لنستريح قليلاً ولكن هيهات فما جئنا لنستريح، وقد طلبت منه أن يحضر لى (آر بى جى) فوعد بذلك.

بعد يوم أو اثنين خرجنا لعملية أخرى وقد استعرت فيها سلاح (آر بى جى) من "أبو بصير".. نفس (السيناريو) السابق تقريباً ولكن كان علىّ هذه المرة أن أصوب بالقاذف الصاروخى وهذا يتطلب أن أقف مكشوفاً فى مواجهة أسراب الرصاص وأحتفظ برابطة جأشى حتى أستطيع أن أتقن (التنشين)، وعلى الرغم من تدريبى السابق إلا أننى ارتبكت بعض الشيء وهذا أمرٌ يحدث لكل من يفعل ذلك لأول مرة، حيث يصوب على الهدف ثم يضغط على الزناد فلا تخرج القذيفة فيتذكر أنه لم يفتح قيد الأمان، فيفتحه ثم يعيد التصويب ويضغط الزناد فلا تخرج القذيفة لأنها لم تكن فى الوضع الصحيح.. وهكذا، وقد أطلقت يومها قذيفتين على تحصين به (زوكوياك) مضاد للطائرات والأفراد، ولاحظت أنهما لم يصيبا الهدف، ولكنى عندما سألت قمندان العملية "عبد الجبار" عن رمايتى قال إنها أصابت، ولو سألت أى أفغانى لقال لى نفس الكلام وذلك لعدة احتمالات، ربما لا يريدون للمجاهد المبتدئ أن يكره السلاح الذى استخدمه، أو يريدون رفع معنوياته وهو الغالب أو لمجرد المجاملة. ورغم هذا فقد قررت أن يكون سلاحى هو الـ (آر بى جى) وكان ملا "شيرين" قد أحضره لى، ولكن للأسف بعد العملية المهمة جداً التى نفذها المجاهدون داخل مدينة "قندهار".

عملية انتحارية

إن هذه النوعية من العمليات لا مثيل لها فى كل "أفغانستان"، إذ يدخل المجاهدون عبر حقول الألغام وعبر تحصينات ومواقع العدو متسللين إلى قلب المدينة، وهى الشيء الوحيد الباقى للشيوعيين فى كل الولاية. وفى هذه العمليات يكون عدد المجاهدين ما بين مائة إلى مائتى مجاهد، ينقسمون إلى مجموعات كل

مجموعة تهاجم مواقع مهمة للعدو وتُنْزِلَ بها خسائر هائلة، لأن العدو يضع عدداً قليلاً من الجنود فى المواقع الأمامية حول المدينة وتكون هذه المواقع محصنة تحصينًا شديداً لأنها الهدف المباشر أمام المجاهدين، بينما القوة الأساسية للجنود تكون داخل المدينة فى مواقع كثيفة الجنود قليلة التحصين، ويهتم المجاهدون بالمبانى (الاستراتيجية) مثل مبنى الإذاعة وقيادة المخابرات الحربية (الخاد) والمستشفى العسكرى الذى حوله الشيوعيون إلى موقع حربى.

اجتمع قادة المجاهدين فيما يسمونه "شورى" وقرروا دخول المدينة، وفى العادة تتم هذه العملية كل شهر أو شهرين. بدأ الاستعداد وحُدد يوم الانطلاق، وأجرى العرب فى مركزنا القرعة فكان الاشتراك من نصيبى مع "أسد الله" و"أبو بصير".

إنه شىء فوق الوصف أن نتسلل خلال مواقع العدو وعبر الألغام ونمشى فى شوارع وأسواق المدينة، التى طالما نظرنا إليها من الخارج من بعيد وكان مجرد الاقتراب منها خطراً كبيراً، وخاصةً لمن يدخلها أول مرةٍ، إن الأمر يبدو فى عينيه مهولاً لدرجة أن رجلاً مثل "أسد الله" الذى قُدَّ قلبه من صخر فقد رباط جأشه لبضع لحظات ونحن نتجه فى طابور منتظم نحو مواقع العدو التى يخرج منها الرصاص الرسّام (يضىء فى الليل والنهار) كأنه جراد منتشر. فوجئت ساعتها بـ "أسد الله" يقول لى "أبو جعفر.. إن الأمر جاد هذه المرة.. إن اسمى الحقيقى إبراهيم عطا وعنوانى هو قتامة - مركز بسيون، فإذا قتلت الليلة عليك أن تذهب لأهلى وتبلغهم.. إلخ"، فضحكت وطمأنته أنه لن يموت بسرعة هكذا لأن (عمر الشقى بقى) كما فى المثل، وكنت بعد ذلك أُذكّره بهذا اليوم كلما أردت مُمازحته.

خرج من مركزنا حوالى خمسة عشر مجاهداً بقيادة ملا "شيرمادا خُند" كل منا يحمل سلاحه وذخيرته، وصلينا المغرب على الطريق وكلما تقدمنا انضمت إلينا مجموعات مماثلة من المراكز الأخرى. سرنا بمحاذاة النهر وقد أظلمت السماء وتقدم بعض المجاهدين لاستطلاع الطريق والتأكد من خلوه من الكمائن، وكان الرصاص يخرج من مواقع العدو التى نتجه إليها بغزارة شديدة.. لم يكونوا على

علم بالعملية ولكن هذه الرماية عشوائية تماماً وروتين متبع طوال الوقت لإخافة المجاهدين. انتظمنا فى صفٍ واحد طويل جداً لأننا أصبحنا فى مناطق الألغام وأية خطوة خارج الصف تعنى بتر ساق أو روح شهيد، وأصبح الكلام همساً ثم انقطع حتى الهمس، أصبحنا أمام مراكز العدو تماماً وجلسنا حتى يتم استطلاع الطريق.

كنا نسمع جنود العدو وهم يتحدثون الحديث العادى ويضحكون ويستمعون للموسيقى، وفجأة صاح أحد الجنود بصوت رقيع (سنجا يه مجاهدينو) أى كيف حالكم يا مجاهدين، ولم يكن يدرى بوجودنا على بعد خطوات منه، وعندما علم كبير مجاهدى قندهار بهذا الأمر فيما بعد أَنَّبَ قائد العملية لأنه لم ينسف هذا الجندى ويدك مركزه، إن تأديب هذا الجندى الخليع أهم لديه من دخول المدينة.

كان علينا أن نمر تحت أسوار مراكز العدو فى طريق بين مركزين بينهما بضعة أمتار والحرس يقفون أعلى منا ولو فتحوا علينا النار لأبادونا، ولكنهم لحسن الحظ لم يشعروا بنا، وحتى لو شاهدونا لما جرءوا على الاشتباك لأن عدد المجاهدين يكون كبيراً ويكونون مدججين بالسلاح فعندئذ يتركون هدفهم وينقلبون على المركز الذى أطلق النار فيدكونه دكاً، لذلك يؤثر الجنود السلامة، أما إذا عرف جواسيس الحكومة موعد العملية فإنهم يدبرون عدة كمائن للمجاهدين.. كما حدث ذات مرة، فبينما كان المجاهدون يمرون بين مركزين من مراكز العدو إذ انفتحت عليهم نيران كمين غادر، وعلى الفور انبطح المجاهدون وردوا على النيران وزحفوا يحملون جرحاهم، وقتل فى هذا الكمين ١٤ مجاهداً وجرح آخرون، وفى اليوم التالى جاء مئات المجاهدين يحملون المدافع والعشرات من صواريخ ١٢٢ وصواريخ الصقر (سَكَر بيس) ونحو مائة صاروخ PM ودكوا المركز الذى غدر بهم حتى اشتعل تماماً وسوّوهُ بالأرض ولَمّا سألنا القمندان: أنت تعرف أن هذه المراكز شبه خالية من الجنود وبالتأكيد رحل عنها أفراد الكمين السابق والشهداء عند ربهم يرزقون فَلِمَ الإسراف فى الذخيرة على هذا النحو؟ قال القمندان بلهجة من يحاول استرداد كرامته المجروحة: نحن لم نفعل هذا انتقاماً للشهداء فسألناه: لم فعلتموه إذن، قال: لأن أولئك الملاعين جعلوا القندهاريين

يفعلون شيئاً لم يفعلوه طوال تاريخهم لقد جعلوا القندهاريين يزحفون على بطونهم مثل الدود.

إن الانبطاح والزحف من الأمور العسكرية الأولية ولكنه فى قندهار عار ودليلٌ على الجبن؛ والعجيب أنهم يفضلون الموت على الانبطاح، ومازالوا يذكرون العربى الذى جاءهم من مراكز التدريب وقد علموه الانبطاح عند سماع صوت الطائرة، ولمّا فعلها أمام القندهاريين غرقوا فى الضحك وتعجبوا من خوف العرب، فالقندهاريون يسرعون إلى الأسطح فور سماع أزيز الطائرات ليتفرجوا عليها وهى تقصفهم.

نعود مرة أخرى إلى عملية المدينة، فقد جاوزنا حقول الألغام ومراكز العدو الأمامية وها نحن نجوس خلال شوارع وحوارى المدينة المظلمة الخالية من المارة تماماً بسبب حظر التجوال ليلاً ومن حين لآخر يهمس أحد المجاهدين بفرح.. هذا بيتى.. هذا بيت عمى، ووصلنا المسجد ورحب بنا إمام المسجد وسأل عن العرب وصافحنا بحرارة، توضأنا وصلينا العشاء فرادى وجاءت امرأة عجوز بصرة بها خبز قسم علينا ثم جلسنا فى انتظار موعد العملية بينما ذهب قادة المجموعات لاستطلاع الأهداف بعد أن بثوا العيون لحراسة المسجد، ثم بدأنا نخرج من المسجد جماعات صغيرة على كل منها أمير يعرف هدفه تماماً، وأخذنا نسير من شارع إلى شارع فى حذر شديد حتى صرنا فى السوق (بازار) وهو الشارع الرئيسى فى المدينة، ثم وصلنا إلى بيت خرب دخلناه، وهذا البيت يطل على موقع كبير "للخاد" (المخابرات الحربية) وكان قائدنا هو "شيرمادا خُند" وقد حدد لكل منا موقعه الذى سيطلق منه النيران.

جلسنا فى سكون ننتظر بدء المعركة، ولكن جاءنا القائد العام للعملية فى آخر لحظة وأمر "شير مادا" ألا تطلق مجموعاتنا أى قذائف لأن موقعنا هذا خطير جداً والعدو يحيط بنا من الخلف ولو انكشف مكاننا لدكوا علينا المكان. وبالفعل بدأت المعركة وصيحات (الله أكبر) تجلجل مدويةً وتكاد تعلو على صوت المدافع والصواريخ وانطلقت صرخات الجنود الجرحى والمحتضرين ونحن قابعون فى أماكننا لا نحرك ساكنًا، ثم أَمَرَنَا القائد أن نسرع قبل أن يفيق العدو ويبدأ فى

تمشيط المنطقة بالقذائف، وبسرعة أدرك العدو الموقف وبدأ يطلق فى اتجاه المركز وحوله بغزارة غير معقولة، وانطلقنا نعدو فى الطرقات وقذائف الهاون تتساقط علينا وتمرق شظاياها فوق رءوسنا والدخان يكاد يُعمى الأبصار، وحُصرنا فى شارع ضيق فالرصاص عند التقاطع ينهمر كالمطر وينفجر الهاون من خلفنا تارةً ومن أمامنا تارةً أخرى وأصبحنا كالفئران فى المصيدة، ولم يكن هناك بد من المخاطرة فخرجنا من هذا الشارع معرضين أنفسنا لطوفان الرصاص المنهمر، ولكن بفضل من الله لم يصب أحد منا، وصلنا المسجد واجتمع فيه باقى المجاهدين لحين هدوء القصف ولكن سرعان ما أدرك العدو أن المجاهدين فى المسجد لأن القصف تركز على المسجد وأصبح فناء المسجد كأتون مستعر بالشظايا والطلقات، وارتجت الجدران من القصف فاحتمينا فى مكان الوضوء بجوار البئر وأخذنا نردد الشهادتين ونتوقع أن كل قذيفة سوف تسقط فوق رءوسنا، استمر القصف نحو ساعة ثم بدأ يخفت شيئاً فشيئا ولكننا لم ننتظر حتى يتوقف فربما أعد العدو قوةً لاقتحام المسجد أو لعمل كمين على الطريق لذلك غادرنا المسجد وسرنا فى طرقات المدينة وعدنا من حيث أتينا بعد أن تخلف بعض المجاهدين لزيارة ذويهم، ومررنا فى طريق عودتنا بمواقع العدو الأمامية وقد عرفوا دون شك بالعملية ولكنهم لم يحاولوا اعتراض المجاهدين بل شعرنا ونحن نجاوزهم أنهم يكتمون أنفاسهم حتى لا نشعر بهم.

فى طريق العودة تفرقت مجموعات المجاهدين كلٌ حسب موقع مركزه، ووصلنا مركزنا فى "أرازى" ومعنا ذلك الشعور الرائع، شعور الجندى العائد من المعركة.. ألأنه أدى واجبه؟ أم لأنه قد عاد سالما؟..لا أدرى بالضبط، كان "أسد الله" و"أبو دجانة" يشعران بخيبة الأمل لأن مجموعتنا لم تشارك فى الهجوم، ولكنى لم أشعر بذلك فالمهم عندى أن أكون فى قلب المخاطر سواء أكنت أنا مَنْ يطلق النيران أم العدو هو الذى يطلقها.

فاصل تاريخى

وعلى الرغم من جرأة عمليات المدينة والرعب الذى تبثه فى العدو والأهداف الكبيرة التى تدمرها إلا أنها فى النهاية عملية وليست تعرضاً، والأفغان يطلقون كلمة "تعرض" ذات الأصل العربى على الاقتحام. إن المواهب الرفيعة والشجاعة الحقيقية لا تظهر إلاّ فى التعرض، فقبل مجيئنا قندهار كانت عمليات التعرض لا تهدأ ليلاً ولانهاراً من كلا الطرفين، الروس والجيش الحكومى يريدون سحق المجاهدين، والمجاهدون يقاتلون قتال الليوث الجريحة ويأنفون أشد الأنفة من وجود الأنجاس ذوى الوجوه الحمراء والبيارق الحمراء على أرضهم، يالها من أرض بكر عذراء لا تستسلم لغاز أبداً مهما كانت قوته، "الاسكندر" الذى فتح الدنيا لاقى الأمرين فوق ذرى الهندكوش والتف حول "أفغانستان" ليبلغ الهند، و"جنكيز خان" الذى دمّر ثلاث إمبراطوريات شاسعة أعجزته خراسان (بلاد أفغان) وكان يضطر إلى خوض معارك رهيبة أمام كل قرية ومدينة، ورغم الأهوال التى ارتكبها ليرهب بنى أفغان لم تستسلم له مدينة بغير قتال، بل قاتلوه يتقدمهم العلماء يفتون أن القتال فرض عين، إنها كلمة لها قوتها الرهيبة فى "أفغانستان" فإذا سألت أى أفغانى لماذا تحارب؟ لن يقول لك لأن الروس يحتلون بلادنا، ولا لأن الشيوعيين كفّار ملاحدة ولا دفاعاً عن الوطن والعرض بل إجابة واحدة لم أسمع سواها لأن علماءنا يقولون إن الجهاد فرض عين. حقا إن هذه البلاد هى جنة العلماء.

ومن هول المقاومة الأفغانية "لجنكيز خان" أقسم ألا يترك أفغانيا حيا على ظهر الأرض وبالفعل كان يتبع سياسة إبادة العنصر الأفغانى، ويرى بعض المؤرخين أن هذا هو سبب وحشية التتار وقد واصلوا هذه الوحشية فى بقية بلاد المسلمين التى فتحوها. و"أفغانستان" لم تكن فى ذلك الوقت دولة مستقلة بل كانت جزءا من الدولة الخوارزمية ولو كانت دولة مستقلة ولها جيشها وأمراؤها لكان للتاريخ شأن آخر، وعموماً فإن الجيش المصرى بقيادة الأفغانى "قطز" والشيشانى"بيبرس" قد هزموا التتار شر هزيمة، وكانت "أفغانستان" أول من أزاح حكم التتار عن عاتقه.

"الهـند" الدولة القارة لم تجرؤ أبداً على غزو "أفغانستان" بل العكس دائماً هو مـا كـان يحـدث، فمنذ زمن "محمود الغزنوى" و"الهند" خاضعة بصورة أو أخرى لملـوك الأفغـان يغـزونها حـيـناً بعـد حـين ويقيمون فيها الدول والإمبراطوريات، عـندما بسط الإنجليز سلطانهم على أرجـــاء المعمورة احتلوا "الصـــين" وما أدراك مـا "الصـين".. واحـتلوا "الهند" وما أدراك ما "الهند" واحتلوا "فارس" وما أدراك مـا "فـارس" وكذلـك "العـراق" و"الشـام" و"مصر" و"السودان" و"أفريقيا" و"أمريكا الشمالية"، وبيـنما الإنجلـيز فى أوج قوتهم أرادوا إخضاع بنى أفغان حتى تتصل الإمـبراطورية مـن "الهـند" إلى "مصر" ، لأن الأفغان كانوا يهددون وجود الإنجليز فـى "الهند" حيث صُدِمَ الأفغان لزوال الحكم الإسلامى عن "الهند" وأعلن العلماء أن جهـاد الإنجلـيز فـرض عـين لـتحرير مسـلمي الهند، وما زالت نقاط الحراسة الحصـينة الـتى بـناها الإنجلـيز عـلى الجـبال الفاصلة بين "الهند" و"أفغانستان" نراها كلما عبرنا الحدود شاهدة على المعارك الباسلة التى كان يتسلل فيها الأفغان عـبر الجـبال ويوقعـون بجـنود الإنجلـيز، فمـاذا كانـت نتـيجة غـزو الإنجلـيز لأفغانسـتان؟ فـى أول غـزوة أبيد الجيش الإنجليزى تماماً ولم يتركوا سوى طبيب الحملـة ليـبلغ قومـه بالكارثـة المـروعة، واستعد الإنجليز استعدادات هائلة لمعركة الـثأر والكـرامة اسـتعدوا لـيس فقـط بـالقوة العسـكرية بـل أيضـاً بالمكـر والدهـاء الإنجليزى المشهور، فعملوا أولاً على بلبلة الأوضاع وإذكاء نيران الفتن وألبوا أمراء البيـت المـالك بعضـهم عـلى بعـض، وسادت الفوضى والقتال فى كل مكان، وهنا جـاءت جيوش الإنجليز الجرارة وبسبب الفوضى والثورة تمكنوا من دخول "كابل" ونصبوا ملكاً عميلاً تابعاً لهم، ولكن الأفغان التفوا حول أمير شاب وثاروا فى وجه الإنجلـيز ثـورة عارمة وأوقعوا بهم هزيمة قاصمة وأبادوا جيوشهم الجرارة، وأدرك الإنجلـيز أن الأفغـان مـن الشـعوب الذئبـية وليست من الشعوب الغَنَمِّية، أى من الشـعوب التى تَسُوس ولا تُسَاس فاضطرت بريطانيا إلى الاعتراف بأن "أفغانستان" دولـة مستقلة ذات سيادة وكفت عن التدخل فى شئونها وإن لم يكف الأفغان عن التدخل فى شئون الإنجليز فى"الهند".

والشـىء الغريـب حقـاً أن الأفغـانى الأمـى يحفـظ تـاريخ بلاده عن ظهر قلب وكـلما راجعـت مـا يقصـونه عـلىّ فـى كتـب التاريخ وجدته صحيحاً، إنهم غالباً

يبدءون تاريخهم بذكر فتح بلاد الأفغان على عهد الخليفة الراشد "عثمان بن عفان" ـ رضى الله عنه ـ، ويذكرون تفاصيل المعارك مع العرب والصحابة الذين استشهدوا هنا وهناك حيث طال حصار "كابل" لمدة عامين كاملين، وما زالت قبور الصحابة حول المدينة يعظمونها. وفى قندهار قبور لثمانين من صحابة رسول الله ـ صلى الله عليه وسلم ـ، ورغم أنهم يعتزون اعتزازاً كبيراً لأن بلادهم فتحت على يد الصحابة وفى عهد خليفة راشد إلا أنى شعرت بلكنة فخر فى سردهم لهذا التاريخ لأنهم أرهقوا جيوش الصحابة وكلفوهم من أمرهم عُسراً.

وكثيراً ما نسمع بعض الأفغان يقول لنا: أنا من أصل عربى من قبيلة كذا التى جاءت لفتح "أفغانستان"، وأى أمّى أفغانى يعرف كيف فتح الغزنوى بلاد "الهند" وكيف حاربت قبيلته "جنكيز خان"، ويفتخرون بعدد شهداء كل مدينة حاربت التتار ومازالوا حتى الآن يعيرون أهل إحدى مدن الشمال لأنهم سلموا المدينة للتتار بغير قتال، أما غزو الإنجليز فما زال حياً كأنه وقع بالأمس، ولقد رأيت شيوخاً اشتعلت رءوسهم شيباً يقاتلون الروس بالبندقية العتيقة (توكانو) ويقولون أنهم سيخرجون بها الروس كما أخرجوا بها الإنجليز ويرون أنها أفضل من الرشاشات الحديثة.. كيف يموت مثل هذا الشعب؟.. إن الأمة التى يعرف رجالها كيف يموتون هى الأمة الجديرة بالحياة.

لا أنسى كلمةً قرأتها للعقاد* عن "أفغانستان" يحييها غداة اعتراف بريطانيا باستقلالها وربما من المفيد أن أنقلها بحروفها: "فى مقالنا السابق قلنا إن الخالق سبحانه وتعالى هو الذى كتب وثيقة الاستقلال لأمة الأفغان، حين أودع العزة فى نفوس هذه الأمة العريقة وخلقها عصية على الفاتحين، وأعصى من ذلك على المستعمرين. وللاستعمار مواضع استفهام عن أطوار الأمم تخطر للسائل ويلتمس الجواب عنها من هداية فكره ومن دلالة الحوادث والمقابلة بين نقائضها وأشباهها، وبعض مواضع الاستفهام هذه فى تاريخ الأفغان أنها أمة قوية تصبر

* "الإسلام والحضارات الإنسانية" عباس محمود العقاد المكتبة العصرية بيروت ـ صيدا

على الشدائد، وتقتحم المكاره، ولكنها قنعت من القوة فى أكثر العصور بأن تجعلها أداة لحفظ الحرية ومناعة الحوزة، وقليلاً ما جعلتها أداة للغلبة والطموح إلى توسعة الملك وبسط السلطان على الآفاق المترامية من حولها. كانت هذه نظرتها إلى القوة ولم تكن لها نظرة إليها كنظرة الفاتحين من أبناء الأمم المشهورة بالإقدام وشدة المراس وقلة الاكتراث بمخاطر الحروب والفتوح.. ليس عن قصور فى الهمم ولا عن زهد فى العظمة كما كانت مفهومة فى أزمنة الفتح والغلبة ولكنها ظاهرة من ظواهر التاريخ يفسرها موقع الأفغان، ثم يفسرها الدور الذى اختارته لنفسها فى مكانها بين دول المشرق الكبرى وقد كانت كلها محيطة بالأفغان من الشرق والغرب والجنوب. كان الأفغان شعب قبائل متعددة لا تلتقى فى وحدة حكومية، وكانت الدول من حولها إمبراطوريات شاسعة الأطراف: بين إمبراطورية أبناء السماء (الصين) وإمبراطورية الراجات (الهند) وإمبراطورية (الفرس) أيام استقلالها وأيام دخلت مع العرب فى دولة واحدة هى دولة الإسلام فماذا تصنع الأفغان مع هذه الدول الكبار؟.. إن استطاعت أن تؤلف بين قبائلها للمحافظة على استقلالها ودفع الطغيان عنها فقد وفت بحق الكرامة وأدركت منها ما يعز على سواها فى مكانها، ولكنها استطاعت هذا وزيادة، استطاعت أن تتولى شئونها وأن تتولى معها مهمة الرئاسة الفعالة فى كل دولة اشتركت فيها. واستطاعت مع هذا أن تنهض للفتح فى جوارها كلما دعتها إليه ضرورات الموقف أو حوافزه التى لا تهمل فى زمانها،واستطاعت ذلك كله على ثلاث صور بينة فى تاريخها مع الدول الإسلامية، أولها أنها كانت ميزان الدولة الذى تترجح فيه كفة البقاء أو كفة الزوال، فالدولة الأموية زالت وقامت مكانها الدولة العباسية يوم أعرضت "خراسان" عن الأولى وجنحت للثانية، والدولة العباسية عادت فضعفت وتعرضت للزوال يوم فقدت معونة خراسان. والصورة الثانية التى أثبتت بها مكانها فى الدولة أنها أخرجت للعباسيين بيوت الوزارة والولاية من البرامكة والطاهريين والسامانيين، والصورة الثالثة أنها تكفلت لدولة بغداد بفتح "الهند" ونشر الإسلام فيها فكان جانبها هو الجانب الوحيد الذى اتسع بالفتح وانتشار الإسلام يوم كانت جوانب الدولة الأخرى تنتزع منها قطعة بعد قطعة، ويجور عليها الأعداء من خارجها والمتمردون والمنتفضون من داخلها، والدول الأفغانية الثلاث التى

نهضت بفتح "الهند" هى دولة "بنى سبكتكين" ودولة "الغوريين" ودولة "آل قيلجى" لاسيما "علاء الدين". وليس "سبكتكين" من صميم أبناء الأفغان ولكن نشأته أفغانية ودولته أفغانية وقوته التى اعتمد عليها فى نجاح حكمه ونجاح فتوحاته أفغانية، ولا يمكن أن تعرف بنسبة أخرى إذا وجب أن تنسب إلى قبيلة أو نظام. إن الإسلام دخل "الهند" عن طريقين طريق الفتح وطريق الرحلة والتجارة، وبعد فتح "السند" أيام الأمويين لم تُعرف للإسلام فتوح ذات بال غير الفتوح التى قامت بها الدول الأفغانية ولكنهم فى الواقع لم ينشروا الإسلام بالسيف بل كان السيف يفتح لهم الباب وتتكفل السياسة الرشيدة والمعاملة الحسنة بالبقية التى يعمل فيها الإقناع وحسن القدوة ما لا تعمله السيوف والعروش، لقد كان نصر المسلمين فى "الهند" آية عند الهنود من آيات المشيئة الإلهية وكثير ممن آمنوا منهم بصدق الإسلام إنما أقنعهم بمصدره الإلهى أنه انتصر على جيوش تفوقه فى العدد والعدة وتقيم فى مواطنها ومعاقلها بين موارد تموينها و إمداد الجند والمال المتوالية عليها. وكانت فتوح الإسلام أشهر من فتوح القادة الأقدمين الذين بقيت فى "الهند" ذكراهم مقرونة بالإعجاب والرهبة، ولا استثناء فى ذلك للإسكندر فى أوج شهرته، فإن "الإسكندر" لم يصل إلى "الدكن" التى وصل لها قادة الأفغان ولم يبق بعده أثراً من فتوحه كما بقيت آثار الفاتحين المسلمين فى حياتهم وبعد حياتهم ولا تزال باقية فيها حتى هذه الأيام، فلم يكن قادة الدول الأفغانية فاتحين للبلدان وكفى ولكنهم كانوا فاتحين للقلوب وفاتحين للعقول وربما اجتمع فى بلاط أمرائهم فى جيل واحد أقطاب من طبقة الفارابى والبيرونى والفردوسى والعنصرى والعسجدى والخوارزمى والهمدانى، ومازالوا يقربون إليهم فى كل وطن فتحوه صفوة أبنائه الحكماء والفضلاء على اختلاف النحلة واللسان ومن آثار فتوحهم أنهم نقلوا إلى "الهند" لغة من أشيع لغاتها الحاضرة وهى اللغة "الأردية" التى يتكلمـــها من المسلمين وغير المسلمين عـــدد لا يضارعه عدد المتكلمين بإحدى لهجاتها الإقليمية. وعرف خلفاء بغداد هذا الفضل لقادتهم المفلحين فكان من الألقاب التى خلعوها عليهم لقب "أمين الملكة" و"يمين الدولة" فضلاً عن ألقاب السلطنة والإمارة. وبعد فإن موضع الاستفهام عن قوة الخلق الأفغانى هذا جوابه: إنه خلق قوى لم يعوزه الطموح وعلو الهمة ولكنه

أثبت نصيبه من الطموح وعلو الهمة فى صورة تلائمه وتنفعه ويؤدى بها أمانته القومية، ـ كان شعباً من قبائل لم تجمعها فى عهد الدول المحيطة بها وحدة حكومية وأحاطت بها دول كبار كدولة "أبناء السماء" ودولة "الراجات" ودولة "الأكاسرة والخلفاء" فإن لم تقنع بحريتها وحماية حوزتها فلابد لها من الغلبة على الصين والهند وأرجاء الدولة الإسلامية وإن قنعت بحريتها وحماية حوزتها فقد وفّت بحق الكرامة، ولكنها وفت بحق الكرامة وزادت عليه فحفظت وجودها فى حدودها وأثبتت وجودها وراء تلك الحدود مما وراء النهر شرقاً إلى ما وراء النهرين شمالاً وفتحت بلاداً يسكنها الآن من المسلمين عشرة أمثال أبنائها فى وطنهم العريق".. انتهى كلام العقاد.

وتتجمع فى "قندهار" كل أصالة "أفغانستان" وخاصة الصفات الحربية برغم أن القندهاريين معفيون من الخدمة العسكرية منذ دخلت النظم الغربية فى الجيش والسبب فى ذلك أنهم يأنفون من طاعة أوامر الضباط وأداء الحركات البهلوانية (التحية العسكرية وما شابه ذلك) رغم طاعتهم العمياء لقادتهم الطبيعيين، وشجاعة القندهاريين مضرب الأمثال إذ لا يثبت أمامهم الروس ولا جنود الحكومة أبداً، كانت "قندهار" أيام الروس قطعة من الجحيم حتى كانوا يعاقبون الجنود المشاغبين بإرسالهم إلى "قندهار"، وكانت عمليات التعرض كل يوم بالعشرات، والقندهاريون يحاربون بثبات، يفرون ويكرون حتى إذا حوصروا أو ادلهمت الأمور صاح فيهم القائد مستفسرا: لا إله إلا الله؟؟ فيجيبونه صارخين: لا إله إلا الله.. وينطلقون خلفه لا يبالون بشىء ويخوضون حقول الألغام لا يعبئون بالأرجل التى تتطاير ولا بالأشلاء التى تتناثر فلا يقف أمامهم القليل ولا الكثير.

كان القندهاريون يدفنون كميات هائلة من الذخائر والصواريخ، فهم لا يكلون ولا يملون من طلب الذخائر وكلما حصلوا على كمية منها قاموا بدفن نصفها تحت الأرض ويستخدمون النصف الآخر. وذكر لنا قدامى عرب "قندهار" ما حدث فى آخر حملة روسية كانت تستهدف سحق المجاهدين المحاصرين للمدينة فقد كانت حملة هائلة الضخامة طوقت المجاهدين من كل ناحية فأصبحوا بين فكى الكماشة، الحملة الروسية من ناحية والقوات الروسية فى المطار والمدينة من ناحية

أخرى، وظلت المعارك الضارية عدة أشهر نفدت خلالها ذخائر المجاهدين، وكان الـروس يعـتمدون عـلى نفـاد الذخائر مع قطع أى اتصال بالمجاهدين المحاصرين لكـنهم بـاءوا بفشـل ذريـع، فكلما نفدت ذخيرة قائد من القواد أمر رجاله بالحفر فـى مكـان معـين فيسـتخرجون أكداسا من الذخائر، ومنى الروس بخسائر فادحة واضطروا إلى الانسحاب.

و"قـندهار" بهـا أكـثف حقـول الألغـام فـى كـل "أفغانسـتان" وقد قال الشيخ "سياف" يـرد عـلى قادتـه القـندهاريين الذيـن يطلـبون الذخائر: أنتم فى قندهار تسـتهلكون نصـف الذخائـر المسـتهلكة فـى كـل "أفغانسـتان"، من أجل هذا فإن "قندهار" بها أعلى نسبة شهداء وأعلى نسبة معاقين، وعندما خرج الروس اجتمع قـادة المجـاهدين القندهاريين وقرروا تغيير أسلوب المعارك تبعاً للمستجدات، فقد خـرج الـروس إلى غـير رجعـة ولا يُتَوَقَع لحكومة نجيب أن تصمد أياماً أو أسابيع والذخائـر كثيرة والسلاح وفير فلا معنى لمزيد من الدماء والشهداء، قرر المجاهدون الاكـتفاء بالعمليات لتقليل الدماء من أجل المعركة الأخيرة التى يفتحون بها المطار والمديـنة وحتى يحين ذلك اليوم تقتصر العمليات على قصف مواقع العدو بالمدافع والصـواريخ ليقـتل مـن يقـتل أو يفـرون، ومـن ناحـية الحكومـة فقـد غـيرت استراتيجيتها تماماً فبعد أن كان هدفها هو القضاء على المجاهدين والسيطرة على كـل شـبر من أرض "أفغانستان" أصبح الهدف هو الصمود أمام المجاهدين وتركيز القوة فى بضعة مدن محصنة تحصيناً هائلاً وفيها حشود ضخمة من المقاتلين، ولم يحـاولوا فـرض السـيطرة عـلى مسـاحات مفتوحة، ويبدو أن الروس استفادوا هذا الـدرس مـن الحـرب العالمـية فقـد ذكر "تشرشل" فى مذكراته أن خطأ "هتلر" هو إصراره عـلى الدفـاع عـن كـل شـبر فى "أوربا" ولو أنه سحب قواته من "روسيا" و"أوربـا" وركـزها للدفـاع عـن "ألمانـيا" لمـا اسـتطاعت أى قوة على الأرض دخول "ألمانـيا". والـروس يعلمون جيداً كم يكلف اقتحام المدن حتى أقوى الجيوش، فقد كلفَ دخول هتلر مدينة "ستالينجراد" نحو مليون جندى من خيرة الجنود الألمان، وهكـذا اتخـذت الحكومـة الشيوعية ومن ورائها روسيا موقف الدفاع، ويبدو أنهم أتقـنوا هـذا الـدور أو أن المجـاهدين لم يحسـنوا دور الهجـوم، وربمـا كانت هذه

المرحلة تتطلب امتلاك المجاهدين للأسلحة الثقيلة كالدبابات (تانك) والطائرات والمدافع الثقيلة وحرصاً أقل على المدنيين (من وجهة النظر العسكرية البحتة).

والعرب في "أفغانستان" شباب يعشقون القتال، لهم دوافع مختلفة ولكنهم بلا استثناء لا يصبرون عن القتال ولا يكتفون بالعمليات بل يريدون التعرض ، فيرتحلون من مركز إلى آخر تبعاً لنشاط كل مركز بل يتركون الولاية كلها إذا كانت الأوضاع فيها مسترخية، بينما لا يجاهد الأفغان خارج ولاياتهم إلا فيما ندر وعلى أن يكون ذلك في الولاية المتاخمة لهم، ومثار إعجابهم بالعرب أنهم جاءوا من بلاد بعيدة، وكنا نواجه دائماً بهذا السؤال: (تا بلار.. مور اشتا؟) أي "ألك أبوان"؟ ثم يسألون: (رور اشتا؟) أي "ألك أشقّاء" فيندهشون كيف أن لنا أهلا ونتركهم لنحارب في بلاد بعيدة. وسألني أحدهم يوماً: إذا قُتلتَ فأين تُدفن..؟ فلما قلت له أدفن هنا فوق أي ربوة أو تحت أي شجرة، اعترته رجفة وحملق فيَّ بمزيج من الدهشة والإكبار.

وإذا حَلَّ العرب في مركز جديد يبدءون في الإلحاح على القائد ليقوم بتعرض ويثيرون بهذا الحماس والحمية لدى الأفغان، وفي الميدان يكون هناك نوع من المنافسة بين العرب والأفغان على اقتحام الردى والإقدام، وقد اكتسب العرب بهذا سمعة هائلة بأنهم قوم لا يرهبون الموت بل يعشقونه بينما الأفغان يريدون أن يعيشوا غزاة طوال حياتهم ثم ينالون الشهادة في آخر العمر، والغازي في لغتهم هو مَنْ يقتل ولو كافراً واحداً.

أذكر أن قمندان "عبد الله خان" مسئول حزب "الاتحاد" عن ولايات الجنوب كان يتناول الطعام مع مجموعة من المجاهدين العرب فقال معلقاً على بعض المواقف: "أنتم معشر العرب تحبون الشهادة عاجلاً أما نحن فنريدها في آخر العمر" فرد عليه أحد العرب: "إنها تأتي دائماً في آخر العمر" فاندهش لهذا المعنى الذي لم يخطر على باله.

المهم أن العرب بدءوا يتبرمون من العمليات الروتينية ويريدون التعرض وكان هذا الطلب يضايق الأفغان كأنه اتهام لهم بالقعود.. حتى قال لنا القائد يوماً: أين

أنـتم مـن قـبل..لم نـركم إلا منذ عامين.. نحن نحارب من عشر سنين.. ليس فى الولاية كلها بيت واحد سليم.. عندما تأتى الاقتحامات سنرى مَنْ يصمد فيها!

الانتقال إلى "أرازى"

زرنـا بعـض المراكـز المجـاورة الـتى بهـا مجـاهدون عـرب ومـنها مركـز "نور الديـن"، إنـه رجـل قـندهارى حـتى الـنخاع، طويل القامة كثيف اللحية عريض الأكـتاف ضـخم الشـوارب (غـط بريـتونا) غلـيظ الحواجب له ساق صناعية وعين واحـدة ورغـم ذلـك يقـود الاقـتحامات بنفسـه، عندما سَألَنَا: فى أى أوطاق أنتم؟ قلـنا: فـى أوطـاق "شـيرمادا".. فتبسم بدهاء وقال: سوف أنقلكم من "أَرَازَى" إلى مكـان آخـر. وكـان هـناك (شورى) فى هذه الأيام وبالفعل بعد يومين تقريباً جاءنا القـائد "شـيرمادا" وأخـبرنا أن الأوطاق بكامله سوف ينتقل إلى قرية "قارى زك"، وعـندما استفسـرنا عـن السـبب قال هناك عملية كبيرة ولكن لا تخبروا أحداً فهذا سـر، وعـندما ألححـنا علـيه قـال: إن هـناك تعرضاً على الوادى وأن هذا الوادى يـتحكم فـى الطـريق الواصـل بـين المطار والمدينة وهى خطوة مهمة جداً حيث إن حـياة المديـنة تـتوقف عـلى إمـدادات المطـار ولابـد مـن هـذه الخطوة قبل اقتحام المدينة.

فرحـنا جداً واستبشرنا بهذا الخبر، وعلى الفور بدأت الاستعدادات للرحيل، وفـى الـيوم الموعود حمل كل منا سلاحه ومتاعه ومشينا مسافة طويلة على الأقدام ربمـا أربـع ساعات، ودهـش الأفغـان لأنـنا لم نشـك طـول المسـافة ولم نتخلف، وحَمِدنـا ذلـك لمسيرات "القـاعدة"، وكـنا فـى بعض أجزاء الطريق نخفى السلاح تحـت الملابس ونمشى فرادى لأن مواقع العدو تكون قريبة ويمكنهم رصدنا. وصلنا قـرية "قـارى زك" المهجـورة فوجدنـا شـوارعها الخالـية وبيوتها المهدمة وحقولها الـبائرة شـر بـرهان عـلى عمق المأساة، ليست هذه القرية وحدها بل ربما لا يوجد فـى "قـندهار" قرية سلمت من هذا المصير، وعلى كثرة تجوالى فى أنحاء "قندهار" لم أشاهد قرية واحدة لم يهجرها أهلها ولا رأيت بيتاً واحداً سَلِمَ من القصف، بل لـيس فـى قـندهار كـلها غـرفة واحدة سلمت من القذائف. ذهبنا إلى أحد البيوت

وكـان فـيه بعـض المجـاهدين الذين سبقونا من بضعة أيام ليرمموا البيت ويهيئوه للسـكنى، والبيـت فـى قـندهار نمـوذج مـتكرر، لبـناته مـن الطين وهو عبارة عن مجموعـة مـن الغـرف المـتجاورة تطـل على فناء واسع محاط بسور وداخله بستان صغير مـن عنب ورمان وبئر ومطبخ وحظيرة للحيوانات، وفور وصولنا خصص لنا القمـندان غـرفة خاصـة كانـت جمـيلة ومكـيفة الهواء، لأن عبقرية البناء جعلتهم يبـنون الجدران سميكة ومن الطين والسقف مرتفع وعلى شكل قبة ولا يوجد نوافذ بـل مجـرد (طاقـة) صـغيرة، حـتى الـباب صـغير لابـد أن ننحـنى لـندخل منه، وبسرعة تم تجهـيز مكـان بجـوار البـئر لاسـتخدامه كمسـجد، وخصصت إحدى الغـرف كمخـزن للسـلاح والـتموين واسـتخدمنا الحظـيرة كمطـبخ لأن المطـبخ كان مهدمـاً، وكـل مـا لـزمه مـن تجهيزات هو بضع لبنات فوقها قضيبان من الحديد وذلك هو الموقد وقطعة من الصاج للخبيز وحلة كبيرة، ومنذ ذلك اليوم افترقت عن "أسـد الله" لأن الانـتقال تم عـلى مرحلـتين كنـت و"أبو عمر" و"أبو بصير" و"أبو دجانـة" فـى المرة الأولى وتركنا "أسد الله" و"أبو معاذ" و"أبو طلحة" ليلحقوا بنا، ولكـن "أسـد الله" فضـل أن يعـود ليلـتحق بـ "القاعدة" ولكنه لمّا انضم لمركز آخر تمهـيداً للرحـيل سمـع عـن أحد مراكز منطقة "مَلَجَات" أنه قريب جداً من العدو وفـى اشـتباك دائـم معـه لم يستطع أن يقاوم هذا الإغراء، وفى"أرازى" سرعان ما بدأت المراكز الجديدة تظهر من حولنا يحتشدون لنفس الغرض حتى صار فى هذه القـرية نحـو مائتى مجاهد. رحل عنا "أبو عمر" بسرعة بعد بضعة أيام من إقامتنا ـى " قارى زك" وكان "أبو عمر" يمنياً مقيماً فى "السعودية" وعلى صغر سنه فقد ـان متزوجاً ولديه طفل اسمه "عمر"، وتذكرت قول الإمام عليّ ـ رضى الله عنه ـ (العيال مجبنة مبخلة)، إنى لا أتهمه بالجبن حاشاى... فلو لم يكن شجاعاً ما تـرك بيـته أصـلاً ولكـن إبلـيس اللعـين يـأتى للإنسان يشككه فى النية و الهدف والوسـيلة ويخوفه ضياع الأبناء وسخط الآباء ولا يصمد لكل هذا إلا من رحم ربك، ورغـم أن المجـاهدين كانوا يستعدون للعملية الكبيرة لاحتلال الجبال التى تتحكم فـى طـريق (المطـار ـ المديـنة)، إلا أنهـم لم يكـتفوا بهـذا بل من حين لآخر كانوا يخـرجون فـى عملـيات روتينية لضرب مواقع أخرى للعدو على سبيل التسخين، وحدثـت مفارقة مضحكة ذات يوم، فقد خرج من مركزنا بضعة عشر رجلاً وحوالى

أربعـة مـن العـرب وأمر علينا أحد الأفغان للقيام بعملية عادية ـ أو هكذا فهمنا ـ ولكِنـنا ذهبـنا إلى قرية بعيدة ودخلنا بيتًا كبيراً ووجدنا عدداً كبيراً من المجاهدين وكـل حـين تنضـم لنا مجموعة جديدة من المجاهدين وتناولنا غداء عظيماً جداً إذ كـان فـيه أرز (لأول مرة أراه فى "قندهار")، وأدركنا أن العملية ليست صغيرة بل هـى تعرض خطير على أحد المواقع، وتعرفنا على طبيب الحملة وهو شاب يعرف العربـية لأنـه درس فـى مـدارس العرب فى باكستان وتعلم التمريض فى أسبوعين فاستحق لقب (داكتر صاحب) وكان اسمه "عبد الفتاح"، عقب صلاة المغرب أسرع كـل مجـاهد إلى سـلاحه وخرجـنا مـن ذلـك البيـت ونحـن نشـعر برهبة التعرض (الاقـتحام)، وعـندما شـاهدنا أحـد القادة قال: انتظروا أنتم تركبون السيارة معى بـدلاً مـن المشى فقلنا له: إن لنا أمير تكلم معه، وتكلموا سـوياً ولم نفهم مما قالوا شـيئا، وكـــان أميرنـــا لا يعرف العربية فأشار لنا أن نركب معه.. فرحنا لأن لـنا خـبرات غـير سـارة مع المشى الأفغانى، وسارت بنا السيارة فى مسالك وعرة وخـلال حقـول الحسـك والشـوك وغـرزت عدة مرات ولما اقتربنا من العدو أطفأت أنوار السيارة ثم اقتربنا أكثر وطلب منا الأفغان ألا نتحدث حتى لا يسمعنا العدو، واقتربـنا فـيما يـبدو مـن تحصـينات العـدو ولمحـنا فوقها رجالا مسلحين ولكنهم تـبادلوا الإشـارات مـع رجالنا وأدركنا أنهم رجال الاستطلاع التابعين لنا، ومررنا فـى شوارع ضيقة وكتم كل منا أنفاسه وتوقفت السيارة وقفز منها المجاهدون. لابد أنـنا أمـام العـدو وجهـاً لوجـه ثـم ويـا للهول.... إننا أمام مركزنا فى " أرازى"! شـعرنا بغضـب شـديد لـماذا عادوا بنا ولم يشركونا فى القتال ولماذا لم يخبرونا إلى أيـن نحـن ذاهـبون؟ وجدنـا المجـاهدين يتعشـون فرفضـنا أن نتعشـى معهـم فقام "شـيرمادا" وطيـب خاطـرنا، وعـندما سـألت القائد الآخر "إسماعيل خان": لماذا عـدت بـنا أخـذ يـردد بعربيـته المكسـرة: ـ"شيرمادا" لا يفهم .. وتعوزه الكلمات العربـية فيعـيد: "شـير مـادا" لا يفهم.. وكلما أعـادها نظر إليه "شير مادا" شزراً ويكظـم غـيظـــه.. ثـم انفجـر باللغـة العربـيـــة: ما هذا.. "شير مادا" لا يفهـم.. "شـير مـادا" لا يفهـم.. أنـت الـذى لا يفهـم، وانفجـرنا نحن ضحكاً وظلت هذه الحادثـة مثار تندرنا لمدة طويلة، وحتى تكتمل الكوميديا كان فى زيارة "شيرمادا" مولـوى يعرف العربية بالطبع ويريد أن يتعالم على العرب فأخذ يسأل كل منا عن

موطنه، فقال الأول "مكة" فأسرع المولوى يصحح: مكة شريف، وقال الثانى أنه من "المدينة".. فصحح المولوى: مدينة شريف، وإذا بالثالث يقول عندما سئل أنه من "جزائر شريف" فانفجرنا ضاحكين، وأدرك المولوى عندئذ أن الجزائر ليس شريف فأخذ يصيح: أنت تخدعنى.. جزائر ليس شريف.. جزائر ليس شريف.

والحقيقة أن "إسماعيل خان" كان من القادة المعدودين فى "قندهار" جمع بين حميد الخلال وشجاعة الأبطال وفهم الدين والسياسة وكان يحب العرب حباً جماً وكان ذاك الموقف منه إشفاقاً علينا فلا يريد تعريضنا للمخاطر، بعد عدة أيام ذهب "أبو بصير" و"أبو معاذ" إلى مركز متقدم للرماية على صواريخ (بى. إم) حسب القرعة وبقيت و"الزبير" المكى و"أبو دجانة" ذلك الشاعر العلوى.

الفتنة الوهابية

كان المجاهدون فى قرية "قارى زك" من مناطق لم تختلط بالعرب، والذين اختلطوا بالعرب خرجوا بانطباع غاية فى السوء وذلك لعدة أسباب، أولاً: بسبب جهل الأفغان فهم لم يحتكوا بأى شعب من الشعوب ولم يروا أى عادات سوى عاداتهم ولا أى مذهب سوى مذهبهم، ثانياً: تعظيم الأفغان الشديد للمذهب الحنفى حتى إن ترك المذهب عندهم يعدل الكفر بالله رغم اعترافهم بالمذاهب الأربعة، والعبارة الشائعة لديهم (سلور مذهبونا حق) وما عداها باطل بالطبع، ولا يعتبرون أى إنسان مسلماً إن لم يكن على أحد المذاهب الأربعة وبالطبع يعتبرون المذهب الحنفى أفضل المذاهب، ثالثاً: فتنة الوهابية وهى قصة طويلة، فلا شك أن دعوة الإمام "محمد بن عبد الوهاب" كانت دعوة إصلاحية عظيمة، ولاشك أن الإمام وأتباعه بذلوا جهوداً جبارة لمحو البدع والخرافات ولم يكتفوا بالدعوة والكلام بل جاهدوا وحاربوا وثاروا على العثمانيين وغزوا الجزيرة العربية والعراق، وهنا تصدى لحربهم الملوك والأمراء والسلاطين الذين خافوا على عروشهم المهترئة،كذلك حاربهم علماء البدع والتصوف وحاربهم فقهاء المذاهب خوفاً على مكانتهم، وفى ذلك الحين كان الإنجليز يحتلون العالم الإسلامى من أقصاه إلى أقصاه فأخذوا يشجعون مشايخ التصوف لأنهم دعاة عزلة ورضا بالقضاء

بينما كانت حركات التحرر تعتنق الأفكار الوهابية، وهكذا كانت الثورة الكبرى فى "الهند" بزعامة "السيد أحمد بن عرفات" وتكررت هذه الثورات والحركات الإسلامية فى "الجزائر" و"السودان" والصحراء الكبرى (الدعوة السنوسية)، لذلك قام حلف شيطانى بين فقهاء السلطان وبين الإنجليز وجرت دعاية هائلة وخاصة فى شبه القارة الهندية وخلاصة هذه الدعاية أن الوهابيين كُفّار، أشد كفراً من اليهود والنصارى، بل إن عبّاد البقر فى ظنهم أفضل منهم، وبالطبع انتقلت هذه الدعاية إلى "أفغانستان" ولاقت لديهم قبولاً شديداً بسبب شدة تعصبهم للمذهب الحنفى، وإذا سألت أى أفغانى لماذا تقول أن الوهابى كافر فسيرد عليك بوضوح: إنهم ينسبون لله جهة، ويزعمون أن الله يجلس على العرش، ولا يتبعون أياً من المذاهب الأربعة، و يحرمون زيارة القبور والتوسل بالصالحين .. إلى هنا والكلام متزن، ولكنه يضيف إلى ذلك مجموعة أخرى من الاتهامات: إنهم يحلون نكاح الأمهات، إنهم يفرضون على من له خمس أَخَوَات أن ينكح إحداهن، إنهم يحلون اللواط ويعتبرونه مثل وضع الإصبع فى الفم، إنهم يحتقرون الرسول ويقللون من شأنه، إنهم لا يغتسلون من الجنابة قط، وكل هذه الاتهامات محض هُرّاء بالطبع، ولكن لم يراع العرب الذين جاءوا للجهاد هذه الظروف ولم يحاولوا التقرب إلى الأفغان وكسب ثقتهم والدعوة بالحسنى، بل كان معظم العرب شباباً صغيرى السن قليلى البضاعة من العلم ومع ذلك كانوا متعالمين فما أن يلتحق العربى بمركز من المراكز حتى يبدأ مهمته فى التحليل والتحريم حتى حفظ الأفغان عبارات.. هذا حرام.. هذا بدعة.. هذا شرك، وبالطبع أصبح الأفغان يتهمون العرب بالوهابية حتى يثبت غير ذلك، وهذه الأحوال جعلتنى أتبع سياسة معينة اتفقت عليها مع الزملاء وهى أن نصلى صلاتهم ونكسب ثقتهم ولا نتعرض لشىء فيه خلاف، بل أخبرناهم أننا على المذهب الحنفى وذلك حتى نكسب بعض الحرية فى رفض البدع على أساس أنها ليست فى المذهب الحنفى، وقد نجحت هذه السياسة أيما نجاح. كان إلى جوارنا مركز لمجاهدى "بشمول" كانوا يأتون لنا كل يوم يرحبون بنا ويحاولون تعلم بعض الكلمات العربية وأصروا أن نتناول معهم الغداء وبالفعل استأذنوا من "شيرمادا" وذهبنا إليهم، كان واضحاً أنهم لم يروا عرباً قبل ذلك، لقد هبوا وقوفاً وعانقونا وبعضهم كان يصر أن يقّبل

أيدينا، وعادة الأفغاني أن يهديك أى شئ معه دليلاً على المحبة فحصلنا يومها على عدد لا بأس به من الأسوكة والمسابح والمدى، كان قائد هذا المركز قمندان " فيض الله" وهو شاب مرح درس لمدة عام فى إحدى المؤسسات العربية فى "باكستان" وترك الدراسة لأنه أحس أن أساتذته العرب "وهابيون"، وأصبح قمندان رغم أنه لم يكتسب أى خبرات حربية لأن أخاه كان قائداً، وكان كل أفغانى يحاول أن يجرب الكلمات العربية التى تعلمها فى صغره وهى كلمات كافية للتفاهم وخاصة أن معظم مصطلحات لغتهم أصلها عربى، والشيء الطريف أننا أحياناً نبذل مجهوداً لنوصل لهم أحد المعانى فنستخدم الإشارة والتمثيل، وعندما يفهمون المعنى المطلوب يصيحون بالكلمة العربية التى كنا نقصدها. كانوا يصرون أن نتغدى معهم كل يوم، وذات يوم إذ نحن جلوس فى الشمس، لاحظت أنهم التفوا حولنا فى شبه دائرة وبدءوا يلقون الأسئلة، شعرت أننا فى امتحان فأشرت لمن معى ألا يجيب أحد غيرى عن أسئلتهم، كان أول سؤال: "هل القتال الآن جهاد صحيح بعد أن خرج الروس وأصبح الأفغانى يقتل الأفغانى وهذا مسلم وهذا مسلم"؟؟

والحقيقة أن هذا السؤال كان يواجهنى كثيراً مما يدل على الحيرة وقلة الوعى بهذه المسألة الخطيرة، بدأت بكلمات بسيطة أحاول توصيل المعنى، قلت لهم: "بالطبع جهاد صحيح.. ليس هناك فرق بين شيوعى روسى وشيوعى أفغانى وشيوعى عربى : "كلهم كفار"، فقال أحدهم: "ليس كل الجنود شيوعيين بل فيهم جهال ومجبورون كثير؟؟ قلت لهم: "إذا انتصر المجاهدون ستكون الشريعة هى نظام الحكم ويسود الإسلام وأحكام القرآن ولكن إذا انتصر الخلقيون والبرتشام بماذا يحكمون؟!! أيحكمون بشريعة الإسلام؟! أم بشريعة ماركس ولينين؟! هل يقيمون دولة الإسلام أم دولة الكفر والإلحاد؟! - فبدا على وجوههم الاقتناع والرضا.

س: هل السجائر و"النسوار" حرام أم حلال؟ (والسجائر شائعة جداً فى "أفغانستان"، و"النسوار" شيء يشبه النشوق يضعونه تحت اللسان ويتفلونه بعد مدة، ولا يوجد أفغانى لا يستعمل هذا النسوار إلا ما ندر).

ج: نحن لسنا علماء.. نحن لم ندرس العلوم الدينية بل درسنا فى المدارس المدنية والجامعة، وعندكم علماء كثير فاسألوهم حرام هما أم حلال. ـ بالطبع هناك من علماء الأحناف من حَرّم الاثنين ولا حرج عليّ لو قلت لهم أنهما حرام كما أعتقد بالفعل، ولكنى كنت أتجنب الفتوى معهم تماماً ليعرفوا أننا لم نحضر إليهم لنغير مذهبهم أو لننشر فقهاً جديداً، وحتى أتجنب باباً لانهاية له من الفتاوى التى لا أعرف لها جواباً وخاصة بعد ادعائى لمذهبهم الذى يحفظه العامى والعالم سواءً، وكذلك لأوفر كلمة حرام للأشياء التى لا تحتمل السكوت.

س: زيارات حرام يا حرام نيس؟؟. ـ والمقصود زيارة القبور حرام أم حلال.. لقد بدءوا يضيقون الخناق ولابد أن أجيب بما يرضى الله وفى نفس الوقت أتجنب تهمة الوهابية حتى نستمر فى الجهاد الذى جئنا من أجله، حاولت أن أُراوغ لأكسب وقتاً أرتب فيه أفكارى فسألتهم:

س: أى زيارات.. زيارة المريض أم زيارة الأقارب؟

ج: بل زيارة القبور.. الوهابيون يقولون إنها حرام وأننا مشركون لأننا نزورها. قالوا ذلك بلهجة من يشتكى الظلم الواقع عليه. فقلت لهم:

ج: لا حول ولا قوة إلا بالله.. كيف هذا!! (زيارات بالكل إجازات).. فقد أمر الرسول بزيارة القبور بعد أن كان قد نهى عنها فى أول الأمر فقال صلى الله عليه وسلم {كنت نهيتكم عن زيارة القبور.. ألا فزوروها}. ـ فرح الأفغان بهذا الكلام فرحاً شديداً ولكنى واصلت الكلام: ولكن الرسول منع النساء من زيارة القبور لأنهن يلطمن الخدود ويشققن الصدور ويصرخن بما يغضب الله ويؤذى الميت. ـ وافق الأفغان على هذا الكلام بحذر وترقب مما شجعنى على المواصلة ـ وهناك أدب لزيارة القبور.. أن تلقى السلام.. السلام عليكم دار قوم مؤمنين، أنتم السابقون ونحن بكم لاحقون.. ولا تصلى فوق المقابر ولا تمشى عليها ولا تلهو وتضحك. ـ وهنا أدرك الأفغان أنى أتكلم عن شيء آخر غير الذى يقصدونه وأخذ بعضهم ينظر لبعض وقال " فيض الله":

س: نحن نقصد زيارة قبور الأولياء!

ج: الأولياء مثل غيرهم ويجوز لقبورهم ما يجوز لغيرها من القبور.. يعنى تذهب إلى قبره للعظة والتفكر فى الموت. فسأل "فيض الله":

س: والدعاء هل يجوز عندئذ الدعاء؟

ج: نعم بالطبع (بالكل إجازات).. تدعو الله أن يرحم صاحب القبر ويغفر له ذنوبه ويدخله الجنة. ـ أدركوا أنهم لن يصلوا معى لشىء، وربما ظنوا أنى لا أدرى شيئاً عنهم ولا عن الوهابية، ونجحنا فى هذا الامتحان بامتياز، وكان أصعب امتحان أدخله فى حياتى.. لقد وثقوا بنا ثقة كبيرة وبدءوا يشعرون أننا أعلم منهم وأنهم يبالغون فى أمر القبور لأننا أحناف ولا نفعل مثلهم فى زيارة الأولياء.

ولطالما ساءلت نفسى عن أفضل وسيلة لنشر الأفكار والدعوات هل هى بالتمسك بالآراء والحمية فى نشرها مهما كانت تصطدم مع العرف والخرافات السائدة، أم من الحكمة التدرج فى الدعوة ومحاولة الالتقاء فى منتصف الطريق وعدم صدم الناس فيما ألفوا ودرجوا عليه ورسخ عندهم رسوخ الجبال الرواسى، وشب عليه الصغير وشاب عليه الكبير. إن طريقة منتصف الطريق اتبعها تلاميذ المسيح ـ عليه السلام ـ والدعاة الأقدمون للمسيحية وحققت هذه الطريقة نجاحا ظاهراً حيث يعتبر النصارى أكثر عدداً من أتباع أى ديانة أخرى ولكن هذه الطريقة ملأت المسيحية بالخرافات وجعلتها ديانة تثليث لا ديانة توحيد، أما طريقة اللا هوادة واللا مهادنة فرغم صعوبتها الشديدة وقلة الاستجابة لها بل وربما رفضها تماماً رغم ذلك فهى طريقة الأنبياء أولى العزم وعلى رأسهم نبينا عليه الصلاة والسلام، لقد حاول الكفار بكل الطرق أن يعترف لآلهتهم بشىء ولو ضئيل من الاحترام فأبى الرسول إلا أن يسفه أحلامهم التى أجازت لهم عبادة حجر نحتوه بأيديهم، وعلى قلة المستجيبين للدعوة بهذه الطريقة فإنها تحفظ الدين من البدع والزندقة نقياً ناصعاً كما أنزل من السماء.

لكنى أعود إلى السيرة النبوية ذاتها التى هى منار يهدى الناس إلى الطريق المستقيم، فما فعله الرسول هو السبيل الوحيد لنشر الدعوة من جديد، فالرسول اتبع أسلوب التدرج اتباعا دقيقا ففى البداية كان يدعو الناس إلى لا إله إلا الله

وأنـه رسـول الله فقط لا غـير ، ثم أخبرهم بالجنة والنار وعالم الغيب، ثم أمرهم بالفضـائل ونهـاهم عـن الخبائـث، ثـم أمـرهم بالصـبر وكـف الأيـدى عـن دفـع العـدوان،.. ترى لماذا؟.. بالتأكيد ليس السبب هو جـهل أتباعه بفنون القتال فأى عـربى فـى ذلك الوقت مقاتل قبل أى شىء وليس لأنهم لم يبلغوا درجة التضحية مـن أجل الدين، إنما السبب ولا شك هو قلة عددهم، وأى معركة أو قتال ستكون نتيجـته فـناء المسلمين وبالتالى فناء دعوة التوحيد، وقد كان الرسول يدعو يوم بدر {*اللهم إن تهلك هذه العصابة اليوم لا تعبد*} .. كان الرسول إذن يروح ويغدو فى مكـة وحول الكعبة ٣٦٠ وثناً يعبد من دون الله، بل كان الرسول يصلى فى الحرم وهـو عـلى هذه الحال فلماذا لم يأمر أتباعه أن يحطموا هذه الأوثان بليل إن كانوا لا يسـتطيعون ذلـك علـناً، لقـد فضـل الرسـول الطـريق الصـعب لأنـه هـو الطريق الصـحيح فاخـتار صلى الله علـيه وسلم أن يهدم الأصنام فى قلوب الناس أولاً ثم بعد ذلك ما أيسر أن تزيل الأحجار من الأرض.

إذن الطـريق الصـحيح للدعـوة كمـا أرى هـو ألا نفـرط فـى ذرة مـن أساسيات الدين، ألا نقول على الحرام حلالاً.. ولكن أيضاً يجب أن نعلم أن لكل شىء أواناً ولكـل مقـام مقالاً وليس كل ما يعرف يقال، ثم هناك قاعدة مهمة من قواعد الدين هـى جلـب المصـالح ودرء المفاسد، والقصة المشهورة التى حدثت أيام "ابن تيميه" حيـث كـان التـتار فى عهده يدّعون الإسلام ويفسدون فى الأرض يقتلون ويسرقون ويهـتكون الأعـراض، ومر شيخ الإسلام مع تلاميذه على جنود تتار يشربون الخمر فَهَـمّ التلامـيذ بنهـيهم عـن المـنكر فقـال الشيخ لتلامذته دعوهم يسكرون! تعجب التلامـيذ فقـال لهـم إنهـم إن لم يشـربوا الخمـر انتبهوا من سكرهم فيقتلون الناس ويسـرقون، فالخمر منكر ولا شك ولكنها أهون من القتل وسفك الدماء. بهذا الفهم وهـذا الفقـه يجـب أن نـتعامل مع إخواننا بنى أفغان، فنحن وقبل كل شىء أمام معـركة مصير وفى ساحة قتال وإذاعة "نجيب" وعملائه لا يكفون عن اتهام قادة المجـاهدين بالوهابية، ويزعم "نجيب الثور" أنه يقاتل دفاعاً عن المذهب الحنفى الـذى يـريد الوهابـيون الكفـار محـوه مـن أرض أفغان الطاهرة، وإذاعة لندن التى يسـمعها كـل أفغـانى تعـزف لـيل نـهار على نغمة الوهابية.. الأحزاب الوهابية.. العـرب الوهابـيون.. "السـعودية" تسـاعد المجـاهدين مـن أجـل نشـر الوهابـية..

الأحـزاب تفـتح المدارس لتعليم الصغار المذهب الوهابى.. وهكذا كل إذاعات العالم الـتى تبـث بلغـة الأفغـان لتؤثر عليهم وتدوخهم. إذاعة "إيران" بدافع الحزازات المذهبية والخلافات مع "السعودية"، إذاعة "أمريكا" لأنها تساعد المجاهدين فقط حتى يهزموا الروس أما أن يقيموا دولة إسلامية فدون ذلك خرط القتاد.

ولقد رأيت بنفسى نتائج هذه الدعاية المركزة، فإذا سألت أى مجاهد عن رأيه فى قائد الحزب التابع له فسيقول بلا تردد إنه وهابى، بل ربما تطوع دون سؤال ليوضح لنا أن قائد الحزب وهابى فإذا سألناه لماذا إذن تحارب تحت قيادته قال: إننا نتخلص من الروس والشيوعيين أولاً ثم بعد ذلك نحارب الوهابيين ونقضى عليهم، وهذا ليس فقط رأى العوام بل رأى معظم القادة الصغار أيضاً، والغريب أن قادة الأحزاب الذين يواجهون فى "أفغانستان" تهمة الوهابية هم بأعينهم يواجهون تهمة الصوفية فى الجزيرة العربية مما يدل أن الأمر مؤامرة عالمية للإيقاع بين المجاهدين وبين المتعاطفين معهم من البلاد العربية وفى نفس الوقت الإيقاع بين القادة وبين أتباعهم من المجاهـدين، لذا فإن الأمر يتطلب روية وذكـاء فى التصرف حيال هذه المؤامرات التى توضع لإيقـاع الفتن وسرقة جهاد عشرة أعوام ودماء مليون ونصف مليون شهيد وعدد من المعاقين والأرامل والأيتام لا يعرفه إلا الله.

كان من نتيجة الأسلوب الذى اتبعناه أن تغيرت نظرة الأفغان لنا تماماً حتى الذى كان يسيء للعرب أحياناً بناء على خبرات سابقة.. مثل "عبد الله خان" الذى كان يتجاهل العرب فوجئنا به ذات يوم يقّبل أيدينا ويقول: أنتم لستم كباقى العرب.. أنتم مجاهدون مثلنا، ولقد فعلنا أشياء لم يكن يفعلها العرب من قبل إذ كنا نشارك فى جمع الحطب وحفر الخنادق وإعداد الطعام وتنظيف السلاح والحراسة.. إلخ، وكنا نعاملهم بلطف وكياسة فصاروا يحبوننا أكثر مما يحبون أنفسهم.

وعندما زارنا ملا "شيرين" لتغيير رجاله أحضر لى قاذفاً صاروخياً (آر بى جى) كما وعدنى ولكنه كان من الطراز الروسى العتيق (ربما أول طراز اُخْتُرِع)

وكان ثقيل الوزن جداً وجهاز التسديد الميكانيكى لا يصلح للرماية ولم يكن معه دربين (منظار).

اقتحام الجبل

بدأت الاستعدادات للمعركة الكبرى، وكان الهدف هو السيطرة على سلسة جبال تتحكم فى الطريق الواصل بين المطار والمدينة. كان الجبل عبارة عن سلسلة من القمم المتتابعة المليئة بالمواقع الحصينة ويمر طريق (المطار - المدينة) بين هذا الجبل وجبل آخر قريب منه، لذلك يسمى الأفغان هذه العملية عملية الوادى. كان هذا الجبل على حافة الصحراء أى عند نهاية مزارع العنب الشهيرة، وبالقرب من هذا الجبل خرائب قرية كانت عامرة فى يوم من الأيام، والمطار على بعد حوالى أربعة كيلومترات من هذا الجبل والمدينة على بعد نحو كيلومترين، وفى الجهة الأخرى بالطبع. كانت مجموعات الاستطلاع تخرج فى الصباح الباكر وتقترب جداً من الجبل وترقب كل كبيرة وصغيرة، وفى الليل كانت مجموعات الحفر تخرج لحفر الخنادق بالقرب من الجبل فى مواقع اختيرت بعناية، كما كان يتسلل بعض المتخصصين فى الألغام ليلاً وينزعون الألغام التى حول الجبل وفى الليالى غير المقمرة كانوا يصعدون الجبل لفك الألغام تمهيداً للاقتحام، وكان على رأس أولئك المغامرين رجل تعدى الثلاثين ببضع سنين، كان أمهر من رأيت فى هذا الفن، كان يعود كل ليلة بحصيلة لا يكاد يطيق حملها من صواعق الألغام والقنابل اليدوية المفخخة والألغام الوتدية والدساجا، كان يدعى "حاجى محمد" له عين واحدة والأخرى ذهبت فى الجهاد، وكان لا يكتفى بفك الألغام بل يتسلل إلى المدقات التى تمر عليها مدرعات العدو ويبث فيها الألغام المضادة للدبابات، ومن حين لآخر كانت تنفجر محطمة دبابة أو شاحنة، وخبير الألغام من أهم الشخصيات فى أى اقتحام حيث يتقدم هو مجموعة الاقتحام لأنه الوحيد الذى يعرف الطريق وسط حقول الألغام.

على بعد مناسب تم حفر خنادق للهاون ولمدافع PM ، وكانت الاستعدادات تتم على قدم وساق بينما العدو لا يشعر بشىء على الإطلاق، أذكر أننا كنا نحفر

خندقاً فى تبة قريبة من الجبل ليلاً وكنا نسمع صوت الجنود فى حديثهم العادى وكانوا يمطروننا بوابل من النيران طوال الوقت دون أن يعرفوا بوجودنا بل كانت الرماية العشوائية فى جميع الاتجاهات ليلاً ونهاراً روتيناً متبعاً، إن جبالاً من الذخائر قد أنفقت فى هذه الحرب الطاحنة. اختار المجاهدون إحدى الحجرات الكبيرة فى القرية المخربة القريبة من الجبل وجعلوها مقراً لهم.

وأخيراً جاء اليوم الموعود وتم تحميل الذخائر على سيارات (بيك آب) فى ظلمة الليل وتم إنزال حمولتها بعيداً عن الموقع حتى لا يكتشف العدو صوت السيارات، ونقلت الذخائر على أكتاف الرجال إلى الموقع الخطير المكشوف فى القرية القريبة من الجبل. كان ممنوعاً التحدث بصوت مرتفع أو إشعال النار أو الظهور أثناء النهار، وكان الطعام يأتى لنا من "قارى زك" حيث المركز الرئيسى لعملية الجبل. بتنا ليلة ليلاء كان البرد ينخر العظام نخراً والحجرات ليس لها أبواب ولا يصد البرد شىء بل لم يكن لدينا غطاء نتدثر به.

اكتشفنا وجود مجموعة أخرى من العرب جاءت لتشارك فى هذا التعرض، وبذلك أصبحنا عشرة من العرب ومعنا أسلحة من مختلف الأنواع، وفى الصباح تم تقسيم مجموعات المجاهدين الذين بلغ عددهم حوالى ١٣٠ مجاهداً، كنت أظن هذا العدد أكبر من اللازم ولكن حقيقة الأمر أن مثل هذه المعركة يلزمها ما لا يقل عن ٥٠٠ جندى و تغطية بالمدفعية الثقيلة وحماية سماء المكان. كان فوق كل قمة من قمم السلسلة الجبلية موقع كبير للعدو يتكون من عدد من التحصينات والخنادق، كانت خطة المجاهدين هى تركيز الهجوم بجميع أنواع السلاح على الموقع الأول وفى نفس الوقت مهاجمة باقى المواقع على الجبل لنشغلها بنفسها.

وتم تقسيم المجاهدين على المواقع التى سبق إعدادها بإزاء الجبل، وبعد صلاة العصر تحركت المجموعات كل إلى موقعه، وكان نصيبى ومجموعتى من العرب أن نكون مع "حاجى محمد" و"أحمد الله" و"فيض الله" الذى كان قائد العملية وحوالى أربعة آخرين من الأفغان. كان "أحمد الله" شاباً فى العشرين تقريباً، طويل القامة، مفتول العضلات، أشقر تماماً رغم أن الشقرة نادرة فى "قندهار" وكان مرحاً لأقصى حد، أما "فيض الله" فرغم أنه القائد إلا أنها أول عملية

يخوضـها.. ويعـد مـن الحـالات الـنادرة الـتى تُـنَال فـيها القـيادة بالوراثة وليس بالكفاءة، وكان معى من العرب "الزبير" المكي و"أبو مصعب" النجدى و"أبو معاذ" النجدى أيضاً و"أبو دجانة" الإماراتى ذلك الشاعر الهاشمى العلوى.

قادنـا "حـاجى محمـد" عـبر حقـول العنب وخرائب القرية وكان المكان الذى سـنقف فـيه أثـناء المعـركة عبارة عن سطح آخر بيت فى القرية، ولم يكن يسترنا عـن العـدو سـوى سـور طيـنى بارتفاع متر واحد، وكان المأوى لنا من قصف العدو عـبارة عـن غـرفة عاديـة قـد تحمـى مـن الرصـاص ولكـن لا يمكـن أن تحمى من القذائـف والصـواريخ. كـان معـى (آر بـى جى) وكذلك "فيض الله"، وكان "أحمد الله" يحمل مدفع (شتاتودو) ٨٢مم، وكان معنا رشاش خفيف (جرينوف) ورشاش (سـتكا) والباقون يحملون كلاشنكوف. أخذ كل منا موقعه، وكان مع "أحمد الله" مساعد يحمل له الذخائر ويعمر له السلاح وكان معى "أبو مصعب" لنفس الغرض أيضا.

كـان موعـد المعركة مع آخر ضوء، وكتمنا أنفاسنا انتظاراً لساعة الصفر، يالها مـن لحظات ترقب رهيبة. حدد لنا "فيض الله" الهدف الذى سوف نصوب نحوه ونظـرنا بحذر شديد حتى لا يرانا أحد، ودهشت جداً عندما رأيت الجنود يلعبون الكـرة ويتصـايحون وأحدهم يجلس فوق الحصن يهز ساقيه بلا مبالاة ولا يشعرون أنـه بعـد لحظـات ستنفتح عليهم أبواب الجحيم. كان موقعنا عندما نقف مكشوفاً وخطـيرا جـدا. أخذنا نتمتم بالشهادتين وشعرت برهبة شديدة، إن أصعب ما فى المعركة هى اللحظات قبيل بدء المعركة.

فجـأة دوت صيحة الله أكبر ثم صبت النيران صباً على كل المواقع فوق الجبل وخاصـة أول قمـة، أطلقـت قذيفـتين فى اتجاه العدو ثم صاح "فيض الله" لنتوجه إلى الغـرفة وأسرع هو وثلاثة من الأفغان.. حسبت أن المعركة انتهت وكدت ألحق بهم لولا أننى رأيت "أحمد الله" يقف شامخاً كالليث الهصور والمدفع على كتفه.. كانت العادة أن يرمى الشخص ثم يتوارى خلف الساتر ليعيد تعمير المدفع، ولكن "أحمـد الله" لم يـتوار ولم يحـن قامـته بـل كـان مساعده يعمر له المدفع وهو على كـتفه وكـان يأخذ وقتا فى التسديد غير عابئ بطوفان الرصاص الذى يمرق حوله،

وقـد رأيـت قذائفـه لم تطـش منها واحدة، بل إن إحداها قد أحرقت حصن العدو وأشعلت نيراناً هائلة، رأيت كافة المجاهدين مستمرين فى الرماية وتعجبت لفرار "فيض الله" وهو قائد العملية.

سقطت اثنتان من قذائف الهاون خلفنا مباشرة وأفقدتنا الرؤية للحظات، كان هـذا مـن هاون المجاهدين ولابد أن تطيش قذيفة أو اثنتان ثم يجرى على أساسها تعديـل الـرماية، وبـالفعل أصـبحت قذائـف الهـاون تصـيب موقـع العـدو إصابة مباشـرة، وأسـتطيع القـول أن الموقـع المسـتهدف لم تخرج منه رصاصة واحدة ولم يقـاوم أدنـى مقاومة إذ كانت المفاجأة مذهلة وكانت كثافة النيران هائلة، لقد دك هـذا الموقـع تمامـاً، وكـان الرد عنيفًا من المواقع الأخرى التى أفاقت بعد لحظات الذهـول الأولى فـأخذت تـدك مواقـع المجاهدين، ولحسن الحظ لم تأت الطائرات فـى ذلك اليوم، استمرت المعركة حوالى ساعة ولكن المجاهدين لم يقتحموا الموقع، إنهم يفضلون أسلوب إرغام العدو على التسليم أو الفرار وإن لم يكن هناك بد كانوا يلجئون إلى التسلل وأخذ العدو على غرة.

لاحظـت أثناء الرماية أن كل القذائف التى أرميها تأتى أسفل الهدف بمسافة كـبيرة فأدركـت أن جهـاز التسـديد غـير سـليم فكنت أصوب غريزيا وأيقنت أنى أبـدد الذخـيرة فحسـب، لذلك عندما نادى علىّ "فيض الله" ذهبت إليه لنحتمى فى الغرفة وإن كانت فى الحقيقة لا توفر أى حماية، وعندما نفدت ذخائر "أحمد الله" لحـق بـنا، وبـدأ العـدو يـدك المـنطقة بجميع أنـواع السـلاح وكانت المدافع والدبابـات تهـز الأرض هـزاً. كـان كـل المجاهدين يضحكون ويمرحون إلا "فيض الله" لقـد غلـبه الرعب وكان ينصت لصوت القذائف قبل أن تصل إلى الأرض وهو يحملـق فى خوف ظاهر. كانت هذه أول عملية يشترك فيها كما أنه شب وترعرع فى المهجر فى "باكستان" ففقد بالطبع الكثير من الصفات الأفغانية الصميمة، وقد قابلت مُلا "فيض الله" مرة أخرى فى ظروف مختلفة عن ذلك.

مجاهد مبسوط

كان حامل الجرينوف أفغانياً ظريفاً أو هكذا ظننته حتى أدركت أنه مبسوط بسبب الحشيش، كان مهلهل الثياب، حافى القدمين حول عنقه بضعة تعاويذ، لقد توقف معظم المجاهدين عن الرماية واحتمى الجميع فى الخنادق، وأبى صاحبنا أن يفعل وظل فى مكانه بل صعد إلى مكان مكشوف للعدو تماماً وظل يرمى ويرقص ويغنى (دوشمان ختم.. دوشمان ختم) أى العدو انتهى، وأصبح العدو يرمى عليه بكل أنواع السلاح، وقذائف آر بى جى العدو تمرق فوق رأسه مباشرة بينما هو فى غاية الانبساط يطلق زخة من رشاشته ثم يرفعها عالياً ويرقص وأعجب شيء أنه لم يصب بأى خدش.

وأريد هنا أن أعلق على موضوع الحشيش فى "أفغانستان"، إذ تتعمد وسائل الإعلام الغربية تصوير المجاهدين على أنهم مجموعة من الحشاشين الذين يقاتلون الحكومة للحفاظ على تجارتهم الرائجة، نعم إن كميات كبيرة من الحشيش تزرع فى "أفغانستان" فى مناطق نفوذ القبائل وليس للمجاهدين سيطرة كاملة على هذه القبائل ولا يريدون بالطبع تحويل الجهاد ضد الحكومة إلى معركة مع القبائل، أما المناطق الخاضعة تماما للمجاهدين فيتم فيها حرق مزارع المخدرات بل يتم معاقبة المتعاطين وتمنع شرائط الموسيقى وتجبى الزكاة وتقام المحاكم الشرعية. ففى "أفغانستان" الشعب كله يجاهد بقيادة الصفوة الإسلامية ولا يمكن أن يكون الشعب كله على قلب رجل واحد، حالات تعاطى الحشيش (شارس) نادرة وفردية ويعاقب فاعلها، ولكن بعض المراكز القليلة لا تتشدد فى هذا العقاب، ولم أر على مدى عامين أى مجاهد مبسوط سوى صاحبنا هذا مما يدل على أن الأمر ليس ظاهرة.

عدنا إلى المقر القريب من الجبل، وازدحمت الغرفة الكبيرة أو القاعة بكل المجاهدين نحو ١٣٠- ١٥٠ مجاهدا لم تحدث إصابات خطيرة ولم يستشهد أحد، جاء الطعام وتعشينا فى جو من السعادة والمرح، وظلت الطائرات تحوم حول المكان وإن لم تقصفه، وكانت القذائف تأتينا من المطار والجبل دون أن تصيب الغرفة، لا شك أن تجمع كل المجاهدين فى غرفة واحدة غير محصنة

خطأ عسكرى كبير والأدهى أن المجاهدين تخلوا عن الحذر بعد بدء العملية فأصبحوا يشعلون النار للطهى ولا يعبئون بعمود الدخان الخارج بجوار الغرفة، وأصبحوا يتجولون ليلاً ببطاريات الضوء (برق) معتقدين أن العدو لا يرى إلا بطاريات العرب.

تسلل فى الليل

فى الصباح خرج المجاهدون إلى مواقعهم واستمر القصف على الموقع الشيوعى على أول قمة جبلية وظل تبادل القصف مع المواقع الأخرى، وتأكد المجاهدون أن الموقع الأول خال تماماً إذ لم تخرج منه طلقة واحدة طوال اليوم فجهزوا مجموعة اقتحام انتخبت من بين المجاهدين وأبوا أن يشارك العرب فيها. كانوا حوالى عشرة أفراد يتقدمهم "حاجى محمد" الذى يحفظ المنطقة شبراً شبراً، وكان عملهم هذا تسللاً أكثر منه اقتحاماً، إذ استغلوا الظلام فصعدوا الجبل بينما كان المجاهدون يشغلون المواقع الأخرى بالاشتباك معها، وجد المجاهدون أكداساً من الذخيرة والمؤن وقطع سلاح أتلفها القصف وآثار دماء وإن لم يجدوا جثثاً، وغنموا بعض قطع السلاح الخفيف ومراتب وأغطية وملابس وأحذية، ولا أنسى أحد أفراد مجموعة التسلل هذه كان لا يملك حذاء والأرض مغطاة بالشوك وأراد 'ستعارة حذاءين ليصعد بهما الجبل فما وجد من يعيره، وجاءنى لهذا الغرض وقال لى سوف أحصل على حذاء من العدو وأرد لك حذاءك ولكنى كنت آمل أن أشارك فى التسلل فاعتذرت له وصعد الجبل ومشى على الأشواك حافى القدمين وحصل على بغيته، يالهم من أسود جائعة ولحم الضأن تأكله الكلاب.

منذ سيطر المجاهدون على هذه القمة اتخذوها مرتكزاً للهجوم على القمة التالية، وكلما استولوا على قمة هاجموا التى تليها وهكذا، فى صباح الاستيلاء على القمة الأولى صعد العرب مع المجموعة المستبدلة لأن عادة الأفغان أن يستبدلوا الأفراد فى الأماكن الخطرة فلا يقيم فيها أحد أكثر من يوم أو اثنين، وهى طريقة جد حكيمة حتى لا تستهلك أعصاب المجاهدين، فبعد يوم واحد من الراحة يتجدد النشاط والحماس بدرجة مذهلة، وقد كان العدو يصب على هذه

القمة نيراناً تكفى لإبادة الجنس البشرى حتى إن الثعابين خرجت من جحورها مذعورة لا تلوى على شىء، وكنا نحتمى من هذا القصف فى التواءات صخرية ونقنع أنفسنا أنها آمنة، وقد صمدنا فى هذا المكان لقصف يفوق بمئات المرات قصف المجاهدين الذى جعل الشيوعيين يفرون من هذه القمة الجبلية.

قتال متلاحم

كان تبادل النيران مع القمة التالية رهيباً وفى عصر أحد الأيام وبينما الاشتباك مع القمة التالية على أشده، إذ أخذت المجاهدين نشوة المعركة فتقدموا مقتحمين القمة الثانية وكانت مليئة بالخنادق والألغام، ورأيت "أحمد الله" كالليث الغاضب يصب حمماً من مدفعه ولا تخطئ له قذيفة، و"بهلوان" فعل الأعاجيب. ولم يصمد الجنود لهذا الإعصار فتقهقروا قبل أن يقتلوا أو يقعوا فى الأسر. كان اقتحاماً حقيقياً وقتالاً وجهاً لوجه، ووسط هذه المعامع جاءت الطائرات فقذفت المجاهدين بقذائف هائلة خيل إلىّ أن الجبل سيندك منها هدا، وصبت المدافع الثقيلة جام غضبها على المجاهدين وجاءت الدبابات (تانكان) من المطار نراها تحتنا ولكنها ليست فى مدى أسلحتنا، كان قائد الجبل فى هذا اليوم هو "عبد الله خان" الذى جعلناه يغير فكرته عن العرب، ولمّا ادلهمت الأمور على هذا النحو أيقن أن خسائر المجاهدين ستكون فادحة وخاف على العرب فأعطانا كمية كبيرة من القنابل اليدوية وقال هذا نصيبكم من الغنائم وأمرنا أن نعود إلى المقر، جادلته وقلت له كيف ننصرف والمعركة مستمرة، فأصر بشدة وقال لقد جاءت الدبابات وسوف يكون هناك جرحى كثيرون (بسيار زخميان)، قلت له نحن لا نبالى إنما جئنا لهذا، ولكنه أبى وصاح بحسم هذا أمر.. أنا قائد الجبل، لم أجد بداً من الانصراف ولكن تملكنى غيظ شديد وأنا نازل من الجبل جعلنى لا أحفل بطائرة مرقت فوق رأسى بصوتها المهول وألقت قذيفة نزلت قريباً منّا ورجت الجبل كله، ودُهش الأفغان لأنى حتى لم أحن رأسى لقصف الطائرة، وفى الغرفة كانوا يتهامسون بهذا وينظرون إلىّ بإعجاب فداخلنى الزهو، وكان هذا هو أول فساد للقلب وما أسرع ما يفسد هذا القلب، لكن الله أراد أن

يـردنى إلى الحـق، ففـى نفـس الليـلة وبينما أنتظر دورى للوضوء إذا بقذيفة هاون تسـقط بالقـرب مـنا وانخلع لها قلبى وكنت الوحيد الذى أرتمى على الأرض، أما المجـاهدون عـلى الجـبل فقد صمدوا فى مواقع القمة الثانية التى استولوا عليهـا، صـمدوا لقصـف الطائرات والدبابات والمدافع طوال الليل، وكان من الواضح حرص الحكومة الشديد على هذا الموقع الاستراتيجى الذى يمكن لمن يتحكم فيه أن يعزل المديـنة عـن المطـار، ولم تكن خسائر المجاهدين فادحة كما ظن القمندان، وكانت الغـنائم كـثيرة جـدا: بنادق ورشاشات ومدافع هاوتزر وذخائر كثيرة جدا وكميات ضـخمة مـن الأرز والعدس والسكر واللحوم والبطاطس. وتعشى المجاهدون بالعشاء الـذى أعـده الشـيوعيون، وفـى المسـاء جـاء "شـيرمادا" وكـان يعـتبر قـائد جميع المجـاهدين فـى "قـارى زك" والجبل ولكنه قائد إدارى وليس قائد عمليات، جاء "شـيرمادا" بعـدد مـن المجـاهدين ليسـتبدل بهـم المجاهدين الذين خاضوا معارك الأيـام السـابقة وأصـر أن نـرجع معه لنستريح قليلاً، حاولت أن أقنعه ولكنه كان حـاد المـزاج لا يطـيق الجـدال فعدنـا معـه ومعـنا عـدد كبير من الجرحى حصيلة المعارك الطاحنة التى جرت اليوم، كنا نضعهم فى مقطورة الجرار ملطخون بالدماء مثل الذبائح المجندلة، وكان معنا أربعة شهداء، وعندما وصلنا إلى الطريق السالك وجدنـا سـيارات بـيك آب فـى انـتظارنا لـتحمل الجـرحى فأنزلـناهم من المقطورة ووضـعناهم فـى السـيارات وفجـأة لمحـت "أحمـد الله" جالسـاً وظهـره إلى حـائط قريـب، كـان مجندلا فى دمائه وملابسه كلها قد صبغت باللون الأحمر ووجهـه لا يظهـر مـنه سـوى العينين، لقد سقطت قذيفة دبابة بجواره تماما ومزقت شظاياها الرهيـبة جسـده، شـعرت بقشـعريرة تسرى فى جسدى وصحت "أحمد الله"!!.. هـل أنـت بخـير؟؟ فقـال لى بالحـرف الواحـد: أنـا بخـير.. هـذا لـيس مشكل.. مجـاهدين أزاد أنـا بخـير.. (أزاد تعـنى منتصـرين). لم أتمالك نفسى فملت عليه وقبّلـت رأسـه، عـندما حاول القيام ليركب سيارة الجرحى أردت مساعدته ولكنه رفض أن يقترب منه أحد وتحامل على نفسه وقام وحده وأخذ يخطو نحو السيارة ويكاد يقع فى كل خطوة يخطوها وهو يردد (دغ مشكل ندى .. فى سبيل الله هار شىء مشكل ندى).

أسلحة أمريكية فاسدة

فـى طريق عودتنا مررنا بموقع هاون المجاهدين فوجدناه قد انفجر ومزق ثلاثة مجـاهدين هم طاقمه، والسبب فى ذلك هو الذخائر الأمريكية، وهذه القصة مهداة إلى السـذج الذين يظنون أن لدى الأمريكان شرف أو يحسبونهم لا يعادون الإسلام لأنهـم لا يـبالون بـنا ولا يحسـبون لـنا حسابا. ففى بداية الجهاد كانت الذخائر الأمريكـية سليمة ولا غبار عليها ولكن ما أن اندحر الروس وظهر للعيان أن الغلبة ستكون للمجاهدين حتى أصبح فى كل صندوق ذخيرة قذيفة مفخخة تنفجر داخل المدفـع فـتمزقه وتمـزق مـن حولـه مـن المجاهدين، وكان المجاهدون يعرفون ذلك جـيدا لذلـك كـانوا يـتحايلون عـلى ذلك، فبدلا من وضع القذيفة فى فوهة المدفع يدويـا كانوا يثبتون حولها نصف حلقة حديدية تشبه حدوة الحصان تعوق القذيفة عـن الانـزلاق داخل ماسورة المدفع، وهذه الحلقة متصلة بحبل ويختبئ الرماة فى مـلجأ حصـين بجوار المدفع ويجذبون الحبل فتهوى القذيفة إلى قاع ماسورة المدفع حيـث إبـرة التفجير فتنطلق بسلام أو تنفجر فى المدفع ولكن دون خسائر بشرية، ورغـم التعلـيمات المشـددة لاتـباع هذا النظام إلا أن المجاهدين فى المعامع الكبيرة تـأخذهم الحماسة والحمية فلا يبالون بمثل هذه الأخطار، والنتيجة المحتومة هى أن نجمع ما تيسر من أشلاء المجاهدين من حول المدفع، ويظن الأمريكان الأغبياء أن الشـعوب يمكـن أن تنسـى هـذه الخسة والنذالة. واستمر الأمر على هذا المنوال حـتى جـاء مسلم أمريكى أسود يعمل فى مصانع السلاح الأمريكية وأعطى الشيخ "سـياف" الـرقم الكودى المكتوب على القذيفة المفخخة فكنا نفتح صندوق الذخيرة ونسـتبعد القذيفـة الـتى تحمـل هـذا الـرقم مـع أخذ الاحتياط السابق فى الاعتبار أيضا.

لقـد كـان الأمريكان فى هلع شديد بعد القرار الروسى المفاجئ بالانسحاب من "أفغانسـتان"، فقـد سلحوا الأفغان لمحاربة الروس عشرين سنة مقبلة، وانسحاب الروس على هذا النحو المفاجئ يجعل "أفغانستان" دولة إسلامية تملك ترسانة من السلاح ورجالا لا يقف أمامهم أحد، ولهذا ضغطوا على "ضياء الحق" ضغطا هائلا لـيغلق الحـدود ويمنع أى إمدادات من "باكستان" ليطيلوا عمر الحكومة الشيوعية

ريثما يدبروا الفتن والمؤامرات، وقد اضطر الرجل اضطرارا إلى غلق الحدود واجتمع مع قادة الأحزاب الأفغانية ليشرح لهم الأمر، ويحكى لنا شيخ "سياف" أن "ضياء الحق" كان يجلس معهم على الأرض ويأكل معهم بأصابعه، وكانوا يحتدون عليه ويصيحون في وجهه، وقال لم نشعر في يوم من الأيام أنه رئيس دولة بل كنا نعامله كأى مجاهد مثلنا، وأخبرهم "ضياء الحق" أنه مضطر إلى قفل الحدود لأسباب لا يمكن شرحها ولكنه طمأنهم أن ذلك سيكون فى العلن فقط ولكنهم يستطيعون إدخال أى إمدادات خفية عن العيون. ولكن لم يخف ذلك عن الأمريكان فكانوا يريدون قتل "ضياء الحق" بأى طريقة، وعرف هو ذلك فكان لا يذهب إلى أى مكان إلا بصحبة سفير أمريكا يظن أنهم لن يضحوا بسفيرهم، لكنهم لم يأبهوا بالسفير وأسقطوا طائرة "ضياء الحق" ومعه سفيرهم.. رحمك الله يا ضياء الحق وأسكنك فسيح جناته، وفور مقتله أطلق المجاهدون على أكبر مساجد كابل (وهى مازالت تحت الحكم الشيوعى) اسم مسجد "الشهيد ضياء الحق"، وبعد فترة وجيزة اغتال الأمريكان الشيخ "عبد الله عزام" أيضا وظنوا بذلك أنهم قد قضوا على الجهاد الأفغاني.

ولما انتخبت "بنازير بوتو" كانت دعايتها الانتخابية الموجهة إلى أمريكا تتلخص في طرد المهاجرين وقفل الحدود ووقف البرنامج النووى الباكستانى، وفي عهدها كان بعض العرب يندبون زمن "بنازير" لكنهم وجدوا شيخ "سياف" مطمئن البال وأوضح لهم أن الأمور تسير على ما يرام، ولما طلبوا منه مزيدا من الإيضاح حكى لهم أن جنرالات الجيش الباكستانى اجتمعوا مع "بنازير" عقب انتخابها وأخبروها أن لها أن تحكم كيف تشاء ولكن هناك مسألتين محظور عليها الاقتراب منهما وهما البرنامج النووى الباكستانى والجهاد الأفغانى، ولو اقتربت من أى من الأمرين فسيكون هناك انقلاب في صباح اليوم التالى.

ويبدو أن الأسلحة الأمريكية لم تكن مجانا، فقد سمعنا أنها تبيع الصاروخ الواحد من صواريخ "إستنجر" بمئات الألوف من الدولارات! وهذه الصواريخ فعالة جداً ضد جميع أنواع الطائرات، كان الصاروخ يحمل على الكتف وبمجرد إضاءة لمبة خضراء يكون معنى ذلك أن الصاروخ قد التقط ذبذبات صوت محرك الطائرة

فما على الرامى عندئذ سوى ضغط الزناد فيتبع الصاروخ الطائرة مهما كانت قدرتها على المناورة، ولا يمكن خداعه بالقنابل الحرارية ولا بالأجسام المعدنية لأنه يتبع صوت المحرك وليس حرارته، وقد سمعنا أن الباكستانيين فككوا هذا الصاروخ واستطاعوا تقليده وكانوا يبيعونه للمجاهدين بما يساوى بضعة آلاف جنيه مصرى!

نعود إلى "قارى زك" حيث قضيت الليل وفى الصباح استأذنت "شيرمادا" لأذهب إلى "زلخان" حتى أحصل على منظار (دربين) من ملا "شيرين"، وعندما وصلت وجدتهم قد أتموا البناء الجديد، رحبوا بى وأخبرت ملا "شيرين" أن (نيشان) الآر بى جى والذى يسمونه (الراكت) غير مضبوط ولا يمكن تعديله ولابد من منظار فأحضر لى اثنين وقال لى مبتسماً اختر أيهما تشاء، أعجبنى شكل الدربين الأسود فاخترته فابتسم بدهاء وقال لى هو الدربين الصحيح فعرفت أنه كان يختبرنى.

عدت إلى "قارى زك" وجربت المنظار فوجدته يحتاج إلى تصحيح فأمضيت فى تصحيحه ساعات طويلة وكان ذلك مثار دهشة الأفغان، إذ نادرا ما يستعملون الدربين أو حتى الشعيرة والفريضة بل معظم تسديدهم بالغريزة التى لا تصلح إلا للمسافات القريبة جدا، وفى هذه الأثناء تعرضت القرية بكاملها لغارات شرسة من الطائرات إذ سرعان ما أدرك الشيوعيون أن القرية هى مركز المجاهدين المهاجمين للجبل، لم يكن بالقرية أى سلاح مضاد للطائرات، كنا نتناول طعام الغداء إذ دوت أصوات الطائرات التى تنقض بسرعة هائلة مخترقة حاجز الصوت ومحدثة صوتا هو أشد هولا من القذائف العملاقة التى يصل وزنها طنا من المواد المتفجرة، وعلى الفور ترك المجاهدين الطعام وهرولوا إلى الخارج.. ظننت أنهم سينتشرون أو يختبئون فى حقول العنب فهى على هيئة خنادق، ولكنى دهشت إذ رأيتهم يصعدون فوق السطح ويشتمون الطيارين لأنهم يخطئون الهدف: (دغ سنجا خرونا) أى يالهم من حمير، ولا أدرى أى الفئتين هم الحمير، فلو أخطئوا الهدف هذه المرة فلن يخطئوه فى المرات القادمة.

فاجعــة أليمــة

ذهبـت فـى الـليل مع المجموعة المناوبة وكان معى المنظار الذى طالما تمنيته، ومـا كدنا نقترب من مقر المجاهدين فى القرية القريبة من الجبل حتى قابلنا أحد المجاهدين وأخبرنا أن كارثة قد حدثت، إن الغرفة التى يجتمع فيها المجاهدون قـد دكـتها الطائـرات دكـاً بـل قـد خسـفت بهـا الأرض، بطبـيعة الحـال تمكـن الشـيوعيون مـن رصـد الدخـان المنبعـث مـن المطبخ والحركة الكثيفة حول الغرفة والضوء فى الليل، وعرفوا أن هذا المكان هو مقر المجاهدين فأرسلوا الطائرات وقت الظهـيرة فـى موعـد صلاة الظهر تماما لما يعرفوه من حرص المجاهدين على صلاة الجماعـة مهمـا كانـت الظـروف، ولكن من لطف الله لم يكن بالغرفة سوى ثمانية رجـال، والعـادة أن يكـون بهـا حوالى مائة مجاهد للصلاة والغداء ولكن كان معظم المجاهدين على الجبل وقتئذ.

رأيـت المجـاهدين يحفرون الأرض بحثاً عن الجثث، كان هناك خمس جثث مصـفوفة ومغطـاة، لم يـنج مـن الثمانـية رجـال سوى الطبيب "عبد الفتاح" الذى قابلـناه مـن قـبل فى التعرض الذى لم نخضه. كان (داكتر صاحب) بجوار الباب وقـت القصـف ودفـن لـمدة ساعتين ولا أدرى كيف أخرجوه حيا بعد ذلك، كانت الجثـث سليمة إلا من خيوط من الدماء تخرج من الأنف والفم والأذنين، لقد ماتوا بسبب تفريغ الهواء، وعندما رآنى "فيض الله" فتح عينيه على آخرها وحملق فىّ بدهشـة ورعـب كأنـه رأى عفريـتاً مـن الجـان وصاح بذهول: أبو جعفر؟؟.. أنت حـىٌ؟؟.. لقـد رأى جـثة "عـبد الله خـان" وكان يشبهنى إلى حد بعيد ولكنه كان ممتلئ الجسم عنى فظنونى انتفخت قليلاً بعد الموت. حزنت جدا على "عبد الله خـان" وتذكـرت موقفه منا يوم أمس وكيف كان حريصاً ألا يصيبنا مكروه، رحمه الله تعالى وتقبله فى الشهداء المكرمين.

تحولـت معركة الجـبل هـذه إلى صراع مرير، الحكومة تصر على الاحتفاظ به والمجـاهدون يـزدادون حرصـاً عـلى أخـذه. قال لى "شيرمادا": لا يمكن أن نفتح المديـنة إلا إذا سيطرنا على هذا الجبل والحكومة تعرف هذا جيداً، وعندما يحمى وطـيس المعارك لا يبالى المجاهدون بالخسائر مهما كانت ولا حتى يبدو عليهم أى

من علامات الحزن أو الشفقة أو الجزع، كأن أمر الخسائر طبيعيا جداً، بل الشاذ ألا تكون هناك خسائر.

استمرار معارك الجبل

فـى اليوم الـتالى جـرت الاشـتباكات المعـتادة وظلـت الطائرات تقصف مواقع المجـاهدين، وقذائـف المدافع الثقيلة تنهال من جهة المطار، كل يوم يسقط شهيد أو اثـنان ويجـرح عـدد مـن المجـاهدين، وكـثيراً مـا تـنفجر الألغام حتى فى غير أوقـات الاشـتباك لأن الجـبل ملغم بالكـامل فـيما عدا مسارات محددة لا يعرفها سـوى جـنود الحكومـة، فـى صـباح اليوم الرابع من بدء المعارك حشد المجاهدون قواهـم وهـاجموا المواقـع التالـية لهـم هجومـا عنيفاً فاضطر الشيوعيون إلى التقهقر ولكـنهم عـلى عـادتهم تـركوا اثـنين مـن الجـنود ظلوا يقاتلون متحصنين فى أحد الخـنادق المتيـنة، وقد احترت فى تفسير هذه الظاهرة هل هؤلاء الجنود شيوعيون متعصـبون يرفضـون الانسـحاب ويقاتلون حتى الموت فى سبيل عقيدتهم، أم أنهم يجـبرون عـلى تغطـية انسـحاب زملائهم؟ لم تنل قذائف المجاهدين من حصنهم المنـيع، وبرشاشـاتهم الـتى لا تـنفد ذخيرتهـا كـانوا يوقفـون أيـة محاولـة لـتقدم المجـاهدين، ظلـوا هكـذا طـوال الـيوم وعندما هبط الظلام تسلل ثلاثة من شجعان المجـاهدين ووصـلوا إلى خـندق الجـنود الحصين فقتلوا أحدهـــما واستسلم الآخر والذى كان يخاطب قيادته بجهاز اللاسلكى.

كانـت المسـاحة المحـررة واسـعة جدا تعادل نصف مساحة الجبل، وكان بها العديـد مـن المواقـع التى دمرتها قذائف المجاهدين وأشعلت فى معظمها النيران، كـان هناك خنادق دائرية مسقوفة ومحصنة للحراسة والمراقبة كمواقع متقدمة، كما كـان هـناك خـنادق للأسـلحة الكـبيرة (زوكويـاك - دشـكا - دومـيلا) غـنمها المجـاهدون كمـا غـنموا مدفـع هاوتـزر ضخما ودبابة ت٦٢، والشىء العجيب هو كيف رفعوها إلى هذا الجبل والأعجب منه كيف أنزلها المجاهدون؟! كانت هناك غـرفة تحـت الأرض مبطـنة بـألواح الخشـب وبهـا أثـاث جـيد وبالتأكـيد كانت

مخصصة للضباط، كما غنم المجاهدون كميات كبيرة من الذخائر والأسلحة الخفيفة والمواد التموينية.

كان قائد الجبل بعد استشهاد "عبد الله خان" شاباً لا يتعدى العشرين من عمره ولكنه كان أهلاً لهذا المنصب تماماً، كان اسمه "آيات خان" عندما رأيته وقبل أن أعرف أنه القائد الجديد قلت فى نفسى هذا هو أصلح شخص للقيادة، كان حاد الملامح قوى النظرات وفى عينيه إصرار وصرامة، لقد ولد هذا الرجل ليكون قائداً. أكثر ما أعجبنى فى الأفغان هو دقة اختيارهم للقادة، نعم إن "فيض الله" لم يكن على المستوى المطلوب ولكن سرعان ما عزلوه فى اليوم التالى مباشرة، إنهم يتمتعون بمرونة عالية يحرم منها الجيش النظامى الذى تحكمه القوانين واللوائح والأقدمية.

كان النظام المتبع فى توزيع الغنائم هو أن تجمع كلها ثم بعد نهاية العمليات تقسم على مختلف المراكز التى شاركت فى القتال، ولتسهيل التقسيم كانوا يعقدون ما يشبه المزاد بين قادة تلك المراكز فيبدءون سعر الدبابة مثلاً بنحو مائة ألف روبية باكستانى، أى ما يساوى عشرة آلاف جنيه مصرى ويأخذها القائد الذى يدفع أعلى سعر وهو فى الغالب يعادل خمسة عشر ألف جنيه مصرى، ثم بعد بيع كل الغنائم للقادة المشاركين فى العمليات يتم تقسيم المال بالتساوى أو حسب عدد كل مركز، يعطى القائد شيئًا من أموال الغنيمة للمجاهدين التابعين له ثم ينفق الباقى على شراء الطعام والمصاريف الضرورية، وما يحصل عليه المجاهدون من الغنائم شىء زهيد جداً ولا يمكن أن يكون دافعاً لخوض هذه المعارك المهلكة كما قد يظن البعض، ويتحرج حتى عوام المجاهدين أشد التحرج من أخذ أى شىء من الغنائم قبل التقسيم، ولا أنسى غداة التعرض على الجبل إذ كنا فى غاية الإرهاق والعطش والجوع ووجدت ضمن متاع الشيوعيين كيسا مليئاً بالحلوى (طوفى) فالتقطت واحدة وبدأت أوزع على المجاهدين فإذا بأول من أعطيته يرفض أن يأخذها بل يبشرنى بعذاب أليم لأنى قد غللت من الغنائم وذكر حديث الغلول، وكان الشيخ "عبد الله عزام" قد أفتانا أن طعام المجاهد وطعام

دابته حلال من الغنائم حتى قبل التقسيم ولكن أنّى لى إقناعهم فتفلت ما فى فمى وتركت الكيس جانباً.

استمر القذف المركز العنيف، وكانت القذائف تسقط علينا بمعدل قذيفة كل عشر ثوان، وكانت الإصابة دقيقة إلى حد مذهل لذلك لم نكن نستطيع استعمال خنادق العدو لأن القذائف الثقيلة كانت كافية لهدمها على رءوسنا فاتخذنا التواء فى صخور الجبل واحتمينا به. لم يكن له سقف بالطبع ولكن كان من المتعذر إصاباتنا إلا إذا سقطت القذيفة فوقنا مباشرة وهو أمر صعب للغاية، كان الشيوعيون يعرفون مكاننا بالضبط لذلك كانت القذائف تأتى على بعد أمتار قليلة منا وكنا نتابع حركة تصحيح (التنشين) فتأتى القذيفة على بعد خمسة أمتار والتالية على بعد أربعة أمتار والثالثة على بعد مترين والرابعة فى الهدف تماماً ولكن فى الصخور التى نحتمى بها، لكم حسدت الشيوعيين على إمكانات الرصد لديهم ودقة التصويب سواء بالأسلحة الخفيفة أو الثقيلة. لاشك أن الجيش النظامى يتمتع بمزايا كبيرة مقارنة بالعصابات الفدائية التى لا تتمتع سوى بميزة الجرأة والإقدام.

شن المجاهدون هجوماً كاسحا آخر لتحرير الجبل تماماً، واتبع العدو نفس الأسلوب الغريب إذ انسحب كل الجنود وتركوا اثنين منهم يناوشوننا ويتصدون لنا كلما حاولنا الاقتراب، واتبعنا نفس الأسلوب السابق إذ تسلل بعض المجاهدين عند الفجر وأسروا الجنديين. وهكذا تحرر الجبل بالكامل وأصبح طريق (المطار - المدينة) يمر تحتنا وبقي الجبل الثانى المواجه لنا والذى يمر الطريق بين جبلنا وبينه، بعد أن تحررت السلسلة الجبلية الأولى على هذا النحو اشتد القصف بالطائرات والدبابات والمدفعية بكثافة وعنف متزايد، وأثلج صدرى صمود المجاهدين لهذا القصف الذى كان كفيلاً بفرار ألوية كاملة وفرق مشاة على الطراز الحكومى أو الروسى، ورأى المجاهدون أن من الخطورة بقاء عدد كبير على الجبل لأن ذلك يزيد الخسائر فوضعوا نظاما محكماً للحراسة، إذ لا يبقى على الجبل سوى عشرة رجال يناوشون الجبل المقابل ويبيتون على الجبل يتناوبون الحراسة الليلية ويشتبكون مع العدو نهاراً، وعند غروب الشمس يأتى عشرة

آخـرون بسـلاحهم وذخيرتهـم وطعامهم فيحلون محل العشرة السابقين وهكذا كل يـوم، وأُلغـى المقـر القريب من الجبل وأصبح المقر هو قرية "قارى زك" والقائد هو "شيرمادا خُند".

عشقت هـذا الجـبل وأبيت أن أبرحه مع مجموعات الاستبدال. كنا فى شهر فـبراير وكان الجو قارساً وخاصة فى الليل، كنا نصحو فنجد الأرض مغطاة بطبقة مـن الجليد لا تلبث أن تزول مع سطوع الشمس، كان الطقس ولا شك أخف وطأة مـنه فـى الشـمال، كـان إلى جـوار المكـان الـذى نبيـت فـيه ثـلاث جثث لجنود شـيوعيين تُـركوا حـتى تضـايقنا مـن رائحـتهم، أراد المجـاهدون إلقاءهم من فوق الجبل ليتخلصوا من تلك الرائحة ولكنهم خافوا أن يفعلوا!!، والشىء الغريب أن الأفغان وهم قوم أشداء شجعان وبينـهم وبين المدنية التى ترقق النفوس شوطاً بعيداً إلا أنهـم يخـافون من جثث الموتى، لم يخافوا منهم وهم أحياء يحملون الموت فى مدافعهـم.. إنـه شـىء غريـب، ولمـا رأيت هذا تطوعت فجررت الجثث مسافة ثم ألقيـتها مـن فـوق الجـبل، نعـم كـان مـنظرهم بشعاً مروعاً ولكنه أثلج صدرى، لم أستطع أن أشـفق علـيهم، وقد طار هذا الخبر عبر المراكز المحيطة كأنى بهذا قد قمت بعمل بطولى خارق.

كانـت الحراسـة الليلـية غايـة فى الإمتاع وخاصة فى الجزء الأخير من الليل حيث يخيم الهدوء ويغيب القمر وتسكت مدفعية العدو، هدوء شامل وسماء صافية ونجـوم زاهـرة، كـان على الحارس أن يتسلق أعلى قمة وينبطح ويستسـلم للتأمل ولا يـزعجه إلا تحية يلقيها عليه العدو من رشاشاته فيرد التحية بأحسن منها أو مثـلها ثـم يعـود لـلهدوء والتأمل، كان العدو على الجبل الآخر أمامنا والمطار على يميننا والمدينة على يسارنا وكل ليلة أرى اشتباكاً هائلاً على حدود المدينة، كانت أضـواء الصـواريخ والانفجـارات والطلقـات تسـطع بعنف وغزارة. كان منظراً رائعاً خلابـاً، ما أشجع المجاهدين الذين يخوضون هذه المعامع، وعندما استفسرت عن هـؤلاء المجـاهدين قـيل لى إن هؤلاء هم مجاهدو ملا "محمد أيوب أغا".. لم يعلق الاسم بذهنى وقتئذ وما كنت أدرى أن "أسد الله" فى قلب هذه المعامع.

كنا فى الصباح نكسر صناديق الذخيرة ونشعل فيها النيران نستدفئ بها وكان هـذا يكشفنا للعـدو ولكن الموت بالقذائف أهون من الموت من البرد، ولفت نظرى صـبى صـغير لا يـزيد عمـره عـلى الـرابعة عشـرة كـان يشـعل الـنار ويعـد الشاى وفوجئت به يجيد العربية فسألته كم لك فى الجهاد؟ فقال ستة أعوام، استنكرت قولـه وسـألته كـم عمـرك؟ فقال إنه فى السادسة عشرة أى أنه كان يجاهد وعمره عشـرة أعـوام وكمـا فهمـت مـنه أنـه يقـاتل بالسلاح منذ ذلك الوقت، سألته ألك أبـوان؟ قـال نعـم ولكـنهما فـى "باكستان"، قلت له هل أذنا لك بالجهاد؟، فرد علىّ بعبارة لم أنسها أبداً.. قال بالحرف الواحد (الجهاد فرض عين، ليس إجازة الوالديـن)، وكالعـادة كـان تعـلمه اللغـة العربـية فـى المسـجد على أيدى مولوى، وهـؤلاء المشـايخ هـم الذيـن يفـتون لتلاميذهم أن الجهاد فرض عين ويرسلونهم إلى الجـبهات، وهـناك مراكـز متخصصـة ليس فيها مجاهدون سوى طلبة العلم الذين يتناوبون الجهاد وطلب العلم.

بعـد تـناول الشـاى تـبدأ الاشتباكات مع الجبل الشيوعى، كانت المسافة بين الجـبلين سـبعمائة متر بالضبط فقد لاحظت ذلك على مسطرة المسافات للجرينوف الذى كان يصيب الهدف بدقة، كان العدو يختبئ خلف صخرة صغيرة ويطلق من خلفها الجرينوف دون كلل ولا ملل، وكانت قذائف آر بى جى المجاهدين تطيش بـلا اسـتثناء لأن المسـافة بعـيدة وأجهـزة التسـديد غير دقيقة والهواء يحول مسار القذيفـة، كنـت مقتـنعاً ألاّ فـائدة مـن الـرماية فحـتى لو أصبنا الهدف لما ألحقنا بـالعدو أى ضـرر فالقذيفـة لـن تؤثـر فـى الصـخرة القوية التى يحتمون بها، لكن الأفغـان ألحـوا عـلىّ أن أرمى قذيفةً من سلاحى على العدو فيبدو أن منظر العرب وهـم يقـاتلون كـان يمـتعهم، فـلم أجـد بـداً مـن الـرماية فوقفـت مواجهـاً للعـدو واسـتعملت المـنظار ولكـن كـان أقصـى تدريـج له خمسمائة متر فزدت بما يساوى مائتى متر تقريباً وقدرت مسافة إزاحة الهواء للقذيفة ثم أطلقت، وقد استغرق ذلك وقـتاً كـان العـدو خلالـه يرميـنى بغـزارة، ولشـدة دهشـتى أن القذيفة جاءت فى الهـدف تمامـاً وتصـايح الأفغـان مهللـين ورد العـدو رداً عنيفًا بنحو عشرة قذائف متلاحقة مما يدل أن القذيفة قد أغاظتهم، وتسابق الأفغان لاستعارة سـلاحى وإن كانوا يجهـــلون الرماية بالمنظار.

كرامة هاشمية

كُلف "حاجى محمد" بتطهير الجبل وما حوله من الألغام، ولم يكن الأمر سهلاً ففى النهار يكون مكشوفاً للعدو وعُرضة لنيرانه، وفى المساء يكون الأمر أكثر خطورة بسبب آلاف الأسلاك التى لا تكاد ترى فى النهار فما بالك بالليل. ألححنا على القمندان حتى سمح لى و"أبو دجانة" بالاشتراك مع "حاجى محمد" فى هذا العمل على سبيل التدرب، وكان "حاجى محمد" رجلاً فذاً وموهوباً فى معالجة الألغام، وبمجرد أن تصل يده إلى اللغم يكون قد أمنه وفك منه الصاعق ولسرعته لم نكن نرى ماذا فعل بالضبط، كان يستطيع تطهير حقل من الألغام بسرعة تفوق سرعة الآلات المستخدمة فى هذا المجال، كنا نسير خلفه ونتفادى الأسلاك المتشابكة وعندما يصل إلى لغم كنا نقف على بعد خطوة أو اثنتين. كانت معظم الألغام ألغاما وتدية وقنابل يدوية مفخخة، وكان هناك نوع آخر من الألغام كبير الحجم يستعمل أساساً ضد المركبات ويسمى (دسجا)، كان يُتبع معه نفس الطريقة، إذ يمسك السلك الموصل بالصاعق بيده ثم بحذر يفك الصاعق، وحدث شىء لم يكن متوقعا، فعندما رأى "حاجى محمد" لغم (دسجا) هجم عليه بسرعته المعهودة وأمسك السلك ولكن عندما هم بفك الصاعق فوجئ أن السلك يتصل بالصاعق اتصالاً ضئيلاً ويكاد ينفصل عنه لأدنى اهتزازة، لم يفقد "حاجى محمد" جأشه ولكنه صرخ فينا لنبتعد عنه إذ توقع أن ينفجر اللغم أثناء فك الصاعق ولم يكن بد من فك الصاعق لأن ترك السلك يعنى انفجار اللغم بلا ريب، وبكل ما أوتى من حذر راح يعالج الصاعق.. ونجحت المحاولة ولكن بعد أن تصببنا عرقاً إذ لم نتمكن من الابتعاد بالقدر الكافى وكان الانبطاح معناه الموت، لم تكن هذه الحادثة شيئاً يستحق الذكر فى حياة "حاجى محمد" المليئة بالإثارة والمخاطر، إن أول خطأ هو آخر خطأ بلا شك.

وفى يوم آخر كنا نفك الألغام فى الجهة المواجهة للمطار (ميدان هوائى) وكان رصدنا من قبل العدو فى غاية السهولة، توغلنا فى حقل الألغام وكان "حاجى محمد" فى الأمام وأنا على إثره و"أبو دجانة" ورائى وعندما جلس "حاجى

محمد" وما أن مد يده يعالج لغماً وتدياً حتى دوى انفجار هائل وخيم علينا الغبار ولكـن "حاجى محمد" استمر فى فك اللغم ولم تهتز يده وما أن نزع الصاعق حتى انطلـق لأعـلى الجـبل وهـو يصيح: هيا.. هيا.. لقد رأونا، أسرعت خلفه وعندما التفـتُ إلى "أبـو دجانـة" رأيـته يعـدو خلفـى وإحدى قدميه حافية والأرض مليئة بالشـوك، تعجبـت لـماذا؟ وكيف خلع حذاءه العسكرى الروسى ذو الرقبة الطويلة جـداً والمحكم عـلى ساقه إحكاماً كنا نتندر به، عندما بلغنا مأمناً جلسنا ورأيت الدماء تسيل من يد "أبو دجانة" وعندما سألته عن حذاءه ولماذا خلعه قال: أنا لم أخلعـه بـل طـار من رجلى وقت الانفجار، وأصيبت يده بشظية ولكن كان جرحاً بسيطاً، وفى الحقيقة لم يرنا العدو ولم يقصفنا بل صدم "أبو دجانة" أحد السلوك وانفجـر اللغم المتصل به وأصابت إحدى الشظايا يده وخلعت قوة الانفجار الحذاء المحكـم مـن قدمـه، وأن يـنفجر لغم على بعد متر أو مترين منا ولا يصيب أياً منّا يعد معجزة، ولكن مثل هذا اللغم لا يمكن أن يخلع الحذاء من قدم "أبو دجانة"، والتفسـير الوحـيد لانخـلاع الحـذاء هـو أن "أبـو دجانة" قد داس على لغم فردى مدفـون (برسـونال) فطار الحذاء من قدمه ولم يمسسها السوء!!! وهذه هى القصة بحذافيرهـا وليفسـرها من يشاء كيف يشاء، ولا أعدو الحقيقة عندما أقول أن "أبو دجانـة" قد فرح فرحاً شديداً ليس لأنه نجا ولكن لأن له دماً سال فى سبيل الله، أمـا "حاجى محمد" فكان المفترض ألا يعيد الكرة قبل عدة أيام لتهدأ أعصابه لأن هذا العمل يعتمد على الأعصاب إلى حدٍ بعيد، ولكنه تناول الغداء ثم عاد إلى حقل الألغـام ليواصـل عملـه وكـأن شيئاً لم يحدث، أما أنا ففضلت ألا أنزل الحقل فى ذلك اليوم، وعندما عدنا فى المساء إلى "قارى زك" كان خبر انفجار اللغم قد سبقنا إلى هناك.

كرامة أفغانية

وأيضـا سـأذكر التفاصـيل وأترك التفسير، ففى أحد الأيام وبينما نحن جلوس فـى "قـارى زك" نتـناول الشـاى إذ دوت أصوات الطائـرات وفـى الحـال أسـرع المجـاهدون وصـعدوا السـطح ليـتفرجوا على الطائرات. كانت غارة كبيرة من نحو

عشر طائرات تحوم حول الجبل الذى يبعد عنا بنحو كيلومترين ولكنه واضح لنا تماماً، فى كل الغارات السابقة لم يزد عدد الطائرات عن واحدة أو اثنتين، أما هذه المرة فعشر طائرات دفعة واحدة، وبدأت الطائرات تقصف فى عنف وشراسة قذائف هائلة الضخامة وكانت كل قذيفة يتبعها عمود ضخم من الدخان فى أعلاه كرة هائلة من الدخان. كان هذا المشهد مشابهاً تماماً لانفجار القنبلة الذرية، وشعرت بضعف وتضاؤل، أين نحن من هذا؟ إن ما نفعله هو عبث أطفال، إن السوفييت يستطيعون سحقنا بالطائرات، ولكن لعجبى دوى تهليل الأفغان: الله أكبر..الله أكبر، ولم أفهم شيئاً، العدو يقصف الجبل ونحن نهتف فرحين؟! ولكن سرعان ما تبينت الأمر إن الطائرات تقصف الجبل الشيوعي المواجه لجبل المجاهدين! كانت إصابات قوية ومباشرة وفى الهدف تماماً، هل أخطأت الطائرات التى تأتى من قاعدة "شندياند" أو من "كابل" أو من "روسيا" وظننت أن المجاهدين فى هذا المكان لا الشيوعيين؟! هل الطيارون مؤمنون يكتمون إيمانهم وتعمدوا ضرب الشيوعيين بدلاً من المجاهدين؟!.. علم ذلك عند الله وحده، وعلى أى الأحوال لم يضيّع المجاهدون وقتاً فصعدوا الجبل ووجدوا الجنود جثثاً، وهكذا أخذ المجاهدون الجبلين المتحكمين فى الوادى الذى يمر فيه طريق (المطار - المدينة) وصدق الله العظيم إذ يقول فى كتابه العزيز {***فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم***} ويقول أيضًا {***وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى***}، ويقول أيضاً {***وكفى الله المؤمنين القتال***} فيا ربى لك الحمد كما ينبغى لجلال وجهك وعظيم سلطانك، ولك العتبى حتى ترضى.

همسات إبليس

كانت نوبات الحراسة على الجبل كالمعتاد تتبدل كل يوم، وقد مر علىّ حوالى شهر، كان القصف فى البداية عنيفًا شرساً لا يتوقف ليلاً ولا نهاراً وكان صمود المجاهدين عجيباً وعنيداً، ولحسن الحظ أن العدو لا يستطيع الاستمرار فى هذا القصف إلى الأبد فبدأت حدة وكثافة القصف تقل تدريجياً وإن لم تتوقف تماماً، فأصبحت نوبات الحراسة عملاً روتينياً مملاً، وأتاح لى الفراغ مع جو الترقب

فرصة للتفكير واستعراض ما مر بى من خبرات، وربما كانت فرصة لوسوسة الشيطان، فلا شك أنه يضاعف جهوده ويحشد جنوده لتزل قدم بعد ثبوتها. لقد أخبرونا أثناء التدريب أن الخوف فى البداية أمر طبيعى ثم بعد ذلك ومع التعود يزول هذا الخوف، ولكن حدث معى عكس ذلك تماماً، نعم فى البداية كان هناك نوع من الرهبة قبيل بدء المعركة سرعان ما تتلاشى مع صيحة الله أكبر، ولم أشعر بالخوف إلا مؤخراً، لم يكن خوفاً مرتبطاً بالمعارك بل مستمراً طوال الوقت، أصبحت دائم التفكير فى الموت. قبل أن أحضر إلى "أفغانستان" كنت أظن نفسى فى غاية الشجاعة وكنت بالطبع أضع احتمالاً كبيراً أن أقتل ها هنا ولكنى لم أشعر بأدنى خوف، ولعل ذلك لأن تفكيرى فى الموت وأنا بعيد عن ميدانه كان يمتد فقط إلى لحظة الاحتضار ولم أفكر مطلقاً فيما بعد ذلك فكنت أرى الأمر هيناً مثله مثل أى إصابة مؤلمة ثم ينتهى الأمر، ولكن عندما يرى الإنسان الموت بأم عينه ويكاد يعانقه فى كل لحظة فإن تفكيره لابد منصرف إلى ما بعد الموت، ماذا عساه يحدث له.. قلق مميت، لابد أنه نقص إيمان ونقص يقين، "أبو دجانة" كان يتمنى الموت.. "أبو معاذ" كان يبتهل فى كل صلاة أن يقتل.. حاولت أن أكون مثلهما.. حاولت أن أحب الموت ولكنى لم أستطع، ربما كان الخوف من الموت هو خوف من المجهول حيث يقبل الإنسان على عالم غير العالم وخلق غير الخلق وقانون غير القانون ولا يعرف كنه ما هو مقبل عليه، إن الخوف من المجهول أشد من الأمر المعلوم مهما كان مراً، ربما كان الفرق بين الصديق والرجل العادى أن الصديق يستوى لديه الخبر والمعاينة فيصبح بذلك المجهول معلوماً ومألوفاً فلا يشعر بأى رهبة من الإقدام عليه.

لكم كان الله كريماً إذ عدَّ الشهيد من يقتل فى سبيله وليس فقط من يحب أن يقتل فى سبيله، هكذا كنت أعزى نفسى.. حسبى أن أصبر على الموت وإن كرهته، ولكنها درجة أدنى من درجة من يحب الموت وهى درجة تؤهل صاحبها إلى الانزلاق للدرجة التالية وهى عدم الصبر على الموت، أى الفرار من الزحف وهو يعدل الشرك بالله، إن الشهادة صفقة ضخمة قد يربح الإنسان منها ربحاً هائلا وقد يخسر كل ماله ويصبح فقيراً معدماً، وصدق العليم الخبير الذى يقول

لخير جيل عرفته البشرية {*ولقد كنتم تمنون الموت من قبل أن تلقوه فقد رأيتموه وأنتم تنظرون*}.

"مانجوى" و نمانج بشرية عجيبة

تضاءلت الأهمية الاستراتيجية للجبل عندما غير المجاهدون خططهم الهجومية، كان المخطط كما جاءت الأوامر من "بيشاور" أن يهجم المجاهدون على المدينة ولكن قرر المجاهدون فى اجتماع القادة الميدانيين (يسمونه شورى أو مجلس) ألا يهاجموا المدينة بعد أن جاءهم وفد من أهالى المدينة يرجونهم ألا يعرضوا حياة النساء والأطفال والمسنين للموت فى معركة الاقتحام، ويذكرونهم أن عوائلهم وأسرهم مازالوا فى المدينة، وجاء "حكمتيار" وحاول حل المشكلة فطلب من الأهالى أن يهاجروا خلال شهر على أن يوفر لهم المجاهدون خياماً للمأوى ولكن الأهالى رفضوا ذلك وقالوا سنهلك من الجوع والبرد.

قرر القادة الميدانيون عدم الهجوم على المدينة رغم سهولة اقتحامها وذلك خوفاً على الأهالى من انتقام الطائرات والمدفعية الحكومية وإن كان هذا القرار ضد أوامر ورغبة قادة الأحزاب، وهذه ولا شك ثغرة كبيرة فى نظم هذه الأحزاب، ويعد عدم سيطرة الأحزاب سيطرة كاملة على مجاهديها وتزايد نفوذ وسلطة القادة الميدانيين من المشكلات التى تنذر بعواقب وخيمة، ويعتبر الحزب بالنسبة للقائد فى الجبهة مجرد مصدر للخبز والذخيرة، ربما الاستثناء الوحيد لهذا هم مجاهدو الحزب الإسلامى (حكمتيار) إذ يخضعون لأوامر القيادة خضوعاً يكاد يكون تاماً ولكن لا يستطيع حزب واحد أن يفعل شيئاً يذكر فى أية جبهة من الجبهات.

فى (شورى) أخرى قرر القادة الميدانيون اقتحام المطار بدلاً من المدينة رغم أن معظم القوة العسكرية للشيوعيين مركّزة فى المطار، ووضعوا خطة لهذا الهجوم بأن يحفروا خندقاً واسعاً يخترق الأحزمة الأمنية حول المطار وأن يتم هذا الحفر فى منتهى السرية بحيث لا يشعر به الشيوعيون، وساعدت المجاهدين حقول العنب المحيطة بالمطار والتى على شكل خنادق أصلاً فقاموا بإزالة الفاصل بين خندقين للعنب وعمقوا الحفر بحيث أصبح راكب الفرس الذى يسير فى الخندق لا يبدو

منه إلا رأسه، كان الحفر يتم ليلا ويخترق هذا الخندق الخطوط الدفاعية للمطار والتي يسميها الأفغان (قمر باند) وحصون العدو عن يمين وشمال هذا الخندق لم تشعر بشيء، لقد برع القندهاريون في مفاجئة العدو والتمويه.. قبل المعركة فقط.

بدأ المجاهدون يشددون الخناق حول المطار تمهيدا للاقتحام، كان المجاهدون في ذلك الوقت على بعد حوالى عشرة كيلو مترات من المطار وكانوا يحاولون التقدم ويضغطون على الحزام الأمنى الخارجي وأصبح القصف لا ينقطع على المطار من قبل المجاهدين، وفترت معارك الجبل وانتقل جزء كبير من مجاهدى قرية "قارى زك" إلى قرية "مانجوى" القريبة من حصون المطار، حتى "آيات خان" نفسه قائد عمليات الجبل أصبح قائد المركز المشترك في "مانجوى". كانت هذه القرية قريبة من قلعة ضخمة ومهمة للعدو وتعتبر مفتاح الحزام الأمنى الأول، وانتقل العرب أيضاً إلى هذه القرية التي كنا نراها من فوق الجبل عبارة عن دغل من الأشجار كأنها غابة ممتدة خارج المنطقة المزروعة وتحيطها الصحراء من كل جانب، وكان مركز "مانجوى" يتعرض لقصف مركز بالطائرات والمدافع والصواريخ حتى كنا نعجب كيف مازال فيه أحياء.

عندما ذهبنا إلى هذا المركز الخطير وجدنا فيه مجموعة أخرى من العرب.. "صديق" التونسي و"عبد الرحمن" السعودى و "عبد الله" السعودى أيضاً و"أبو ربيع" اليمني، وكان أميرهم "أبو طه" الهندى المستعرب. كان "أبو طه" في الجهاد منذ عامين أو أكثر وهو شخصية محببة.. بسيط وسهل التآلف مع الآخرين، وكان على مستوى عال من الثقافة يجيد ست لغات، فهو من ولاية "مالبار" في جنوب الهند واللغة الملبارية هي لغته الأصلية ويجيد الهندية لأنها لغة التعليم والإنجليزية لنفس السبب وعندما التحق بالجامعة في الشمال أجاد الأردية لأنها لغة الشمال، وكانت دراسته الجامعية والماجستير في اللغة العربية، ولما جاء للجهاد أجاد لغة الباشتو بدرجة كبيرة وبذلك فهو يتكلم الملبارية والهندية والأردية والعربية والإنجليزية والباشتو، وهو من خريجى كلية "ندوة العلماء" وبذلك فهو ندوى مثله مثل "أبي الحسن الندوى" وهي أرقى دراسات إسلامية في "الهند".

كـان "أبـو طـه" يحفـظ الكثير من الأشعار الجاهلية ويحب كتب السيرة وأيام العـرب، قـبل أن يـأتى إلى "أفغانسـتان" كان لا يعرف إلا العربية الفصحى ولكن اختلاطه مع كافة الجنسيات العربية جعلته يتقن كثيرا من اللهجات أيضاً، وكان دائـم الشـكوى أن ذلـك أفسـد عربيـته الفصحى. كان قريباً جداً منى ربما لثقافته الواسـعة والمـيول المشتركة فكنا نتناقش فى كثير من أمور العقيدة والسياسة، وفيما بعـد وعـندما أصبت ومكثت فى المستشفى شهوراً طويلة طوقنى "أبو طه" بجميل لـن أنساه ما حييت إذ رافقنى فى المستشفى فكان نعم الرفيق ولا أرجو من الله إلا أن يجمعـنى بـه إن كـان حـياً، وإن كان لا يجزيه عن عمله هذا إلا الله سبحانه وتعـالى فأنا أعرف تماماً كم كان منظر الجرحى يضغط على أعصابه ومع ذلك كان يغالـب نفسـه لـيكون فـى رعايـتى، ولقـد أثبت بهذا أن الأخوة فى الله قد تكون أقوى من صلة الدم.

ومـن الغريـب أن دولـة يسكنها ألف مليون إنسان ولديها ترسانة نووية كانت تخـاف من "أبو طه" الشاب ضئيل الجسم رقيق المشاعر.. فقد أراد بعض الليبيين الـزواج مـن هـنديات فركـبوا القطـار مـن "بيشـاور" إلى "الهـند" وقبضت علـيهم السـلطات الهـندية عـند الحـدود لأن العرف السائد أن الليبى إرهابى.. ولما علموا أنهـم يجـاهدون فـى "أفغانستان" كانت كل أسئلة المحققين تدور حول "أبو طه" الهـندى.. مـا شـكله؟.. مـا لونه؟.. ماذا يفعل بالضبط؟ ولم يكن الليبيون يعرفون أصلا أن هناك شيئا يدعى "أبو طه".

أمـا "صـديق" التونسـى فكـان أيضاً أخاً لى فى الله فكنا على درجة كبيرة من التفاهم وربما كان السبب هو تقارب السن والثقافة أو كما قال الرسول عليه الصلاة والسـلام {*الأرواح جـند مجـندة مـا تعارف منها ائتلف وما تنافر منها اختلف*}. كـان "صـديق" طـياراً مقـاتلاً برتـبة نقيـب فى الجيش التونسى، وكانت له ميول إسـلامية ويضـيق صـدره بمـا أصبحت علـيه حال بلاده من علمانية وعداء صريح للإسـلام، وكانـت عيون المخابرات ترصده لأنه يؤدى الصلوات وهى تهمة خطيرة خاصـة فـى سـلاح الطـيران كما أن زملاءه الشيوعيين والقوميين والليبراليين كانوا يدسـون علـيه ويـتهمونه لـدى الأجهـزة الأمنـية بالـتطرف وعضـوية الجماعـات

الإسلامية، وكان كل هذا افتراء، نعم كان مسلماً غيوراً ولكن لم يكن له أية صلة بأية جماعة إسلامية، بل لم يكن يعرف شيئًا عن تلك الجماعات وطوائفها والفرق بينها، شعر صديق بالخطر يحدق به من كل جانب وأصبح يتوقع أن يعتقل في أى لحظة وتلفق له أية تهمة يعدم على إثرها أو يسجن فأصبح فى المدينة خائفاً يترقب، ثم حزم أمره وقرر ترك كل شيء والهجرة إلى الله ورسوله فقرر أن يجاهد فى سبيل الله حتى يلقى الله، وكانت رحلته هذه عجيبة وغريبة، كانت له إجازة سنوية وكان من حقه أن يقضيها فى أى بلد أوربى فحصل على التصريح اللازم وسافر إلى "اليونان" بجواز سفر عسكرى ومن "اليونان" حصل على تأشيرة "باكستان" بأعجوبة لأن هناك قواعد وقوانين تنظم سفر الأفراد العسكريين ولابد من موافقة الجيش التابع له وهناك قيود على دخول أمثاله إلى البلدان الأخرى، المهم وصل "صديق" إلى "باكستان" وليس معه روبية واحدة ولا يعرف لغة القوم ولا حتى الإنجليزية بل يتكلم الفرنسية التى لا يعرفها أى باكستانى، ولم يكن معه أى عنوان و لا يعرف كيف يصل إلى المجاهدين، كان معه فقط عدد قديم من مجلة الجهاد وفيه عنوان تغير ولم يعد له صلة بالمجلة، بعد جهد ومغامرات وصل إلى "بيشاور" وقابل الشيخ "عبد الله عزام" وقص عليه القصص فقال له الشيخ لا تخف نجوت من القوم الظالمين، وسماه "صديق" وأرسله للتدريب، ولقد كان معى فى دورة القاعدة ولكنى لم أتعرف عليه وقتها، بعد أن رحبوا به فى القاعدة رفضوه وخافوا أن يكون مخابرات، فجاء إلى قندهار وقابلته هناك وأشهد الله أنه كان مثالا للمجاهد الصابر المحتسب الذاكر لله كثيراً. ربما لم يكن مندفعا ولا متهورا فى المعارك ولكن ليس معنى ذلك أنه مخابرات، وقد تزوج "صديق" بامرأة باكستانية بعد مصاعب وعقبات عجيبة وقد رزقه الله "مريم"، وقد يتسع الوقت لأروى هذه القصة فيما بعد.

أما "أبو ربيع" فكان فتى يافعاً من أهل اليمن دمث الأخلاق وقد قال عنهم الصادق الصدوق { *أرق قلوبا* } وهذا ما لاحظته بالفعل فى كل أهل اليمن وخاصة اليمن الشمالى، كان "أبو ربيع" مرحاً ضحوكاً دائم التبسم لذلك كان محببا لدى الأفغان وأمضى معنا بعض الوقت فى "قندهار" فلما بدأت معارك "جلال آباد" الشهيرة ذهب هناك وأصيب بلغم بتر كلتا ساقيه، ورغم ذلك لم يفقد مرحه

وبشاشته بل لم يترك الجهاد فبعد أن ركب أطرافاً صناعية عاد ليكمل المسيرة، والشيء العجيب في هذا الجهاد هو قتال المعوقين، فكثير من المجاهدين بل القادة الميدانيين الذين يباشرون المعارك بأنفسهم ما هم إلا معاقين، لقد رأيت شباباً يقاتل بأيدٍ بلاستيكية وآخرين يصعدون شم الجبال ويقاتلون بأرجل خشبية، فمندان "خالد" قائد عمليات "جلال آباد" كانت ساقه خشبية، ملا "نور الدين" أشهر قواد "قندهار" كانت ساقه خشبية وله عين واحدة، إن كثيرا ممن ذاق حلاوة الجهاد لا يستطيع عنه صبراً ولا يطيق البعد عن غبار المعارك ودوى القذائف ولعلعة الرشاشات، ومن ذاق عرف كما يقول الصوفيون.

أمضينا نحو أسبوعين في هذا المركز المتقدم في "مانجوى" وكان هناك نوعان من العمليات، عمليات روتينية حيث يقترب المجاهدون من قلعة العدو حتى يكونوا على مسافة لا تزيد على بضعة عشر متراً ويحتمون في خنادق العنب ويرمون القلعة بمختلف أنواع السلاح ثم يعودون من حيث أتوا وهذه العمليات تمهيد ضروري لاقتحام القلعة، والنوع الآخر عبارة عن الرماية بصواريخ بي إم على مدرج المطار ومنشآته، كان مدفع بي إم (دوازدا) مموهاً تمويهاً جيداً في حدائق العنب وكان بجواره خندق يحتمي فيه المجاهدون من رماية الطائرات والمدفعية، وخلف المدفع بركة صناعية من المياه حتى لا يثير اللهب الخلفي التراب وكان هناك راصد قريب من المطار يتصل بالرماة لاسلكياً ليوجه الرماية.

كان "أبو طه" هو أمير العرب وكان يدير الأمور على نحو جيد فكان يحرص على أن نشارك الأفغان الطعام والصلاة حتى يزيد التآلف، وكان ينظم الوقت بين دروس الفقه التي كان يتولاها "أبو معاذ" مولوي العرب وبين قراءة القرآن والأذكار، وقد كلفني بدروس في السيرة كنت أقرؤها من كتاب الرحيق المختوم "للمباركفوري"، وأراد الأفغان إعفاءنا من الحراسة الليلية ولكننا أصررنا أن ننال فضل الحراسة في سبيل الله حتى كنا نتناوب الحراسة وحدنا طوال الليل أحيانا، وإن كان هذا فيه بعض الخطورة لأن الأفغان لهم سلوك لا يفهمه إلا الأفغان، حدث مرة أن دخل بعض المجاهدين المركز في الساعة الثانية ليلاً وهم يطلقون النار.. ولحسن الحظ كان الحارس أفغانيا فلو كان عربيا لقتلهم من فوره..

كانوا يطلقون النار ابتهاجا بإحدى المعارك ظفروا بها ولا أدرى كيف فهم الحارس أنهم لا يقتحمون المركز.

كان المركز يتعرض لقصف لا يمكن أن يتصوره عقل، قصف مُركز وشديد ومستمر ليلاً ونهاراً، وكانت الطائرات تغير يوميا وتقترب من الأرض حتى أنى أردت أن أرميها يوما بقذيفة آر بى جى لولا أن نهانى القمندان فقد صاح (دغ فايدات نيس) أى ليس فى ذلك فائدة، وكانت قذائف الطائرات تنزل على بعد أمتار قليلة من غرف المركز، كانت قذائف هائلة تزلزل الأرض وتحفر بركاً عميقة وتقتلع أشجاراً هائلة، كانت الشظية الواحدة يصل طولها نحو المتر من الحديد الفولاذى المتوهج، ورغم سمكها فإن لها شفرة أحدّ من الموسى، وكان المطار (ميدان هوائى) قريباً لدرجة أننا كنا نسمع صوت الطائرات وهى تسخن على الممرات و"صديق" هو الذى فسر لنا هذا الصوت.

كنا نصلى الظهر ذات يوم فى بستان رمّان (أنار باغ) بجوار المركز وإذا بالطائرات تأتى وصوتها كالرعد يصم الآذان وبحمد الله لم يترك أى منا الصلاة رغم أن القذائف سقطت قريباً منا وغمرنا طوفان من الشظايا، ومن فضل الله لم يصب أحد بسوء، ومرقت شظية كبيرة قريباً من رأس الإمام "أبو معاذ" فبدت منه حركة لا إرادية وأكمل الصلاة، وكنا إذا ذكرناه بهذا مداعبين ضحك وقال إنما كنت أعتدل لها حتى تقطع رقبتى فى سبيل الله، ولقد ذهب "أبو معاذ" أيضاً إلى "جلال آباد" بعد أن زار أهله فى السعودية ورابط هناك بعد المعارك التى تقدم فيها المجاهدون حتى المطار ثم توقف التقدم واستجمع الشيوعيون قواهم وهجموا هجوماً مضاداً مفاجئاً كاسحاً فانسحب المجاهدون.. وأبى ثلة من العرب هذا الانسحاب وكان منهم "أبو معاذ" الذى وقف مع مجاهد عربى وآخر أفغانى يواجهون جيشاً كاملاً ودافعوا عن موقعهم على أحد التلال دفاعاً بطولياً نادر المثال وأظهر "أبو معاذ" ضروب الشجاعة والفداء ولقى ربه شهيداً كما تمنى، وكان رحمه الله صواماً قواماً يحرص أشد الحرص على قيام الليل والذكر بعد الفجر حتى طلوع الشمس وكان وقوراً وئيداً مخلصا، ترك منصب القضاء فى المملكة السعودية وفضل عليه غبار المعارك وكان متفانياً فى خدمة دعوته يحارب

البدع والخرافات ولكن بكياسة وسياسة، وكان لا ينسى أبداً إذ أزمع الجهاد إذ سأله شيخه وأستاذه لماذا تذهب لأفغانستان فقال "أبو معاذ": للجهاد فرد الشيخ بل للدعوة والجهاد.

كان معنا في هذا المركز شخصية عجيبة وغريبة، إنه "مستقيم" كان شابا في نحو الثانية والعشرين، متوسط الطول معتدل القامة أحول العينين، ورغم ذلك كانت إصابته للهدف مائة في المائة ولو صنعوا نموذجا للشجاعة لكان على صورته، ربما ليست شجاعة على الإطلاق بل تهورا، كان له في الجهاد خمس سنوات لم يزر خلالها أهله، لم يكن أفغانيا بل باكستانيا من قبائل البشتون التى تسكن الحدود وهى نفس القبائل الأفغانية، وكان يعرف لغة الأردو وإن كانت لغته الأصلية هى الباشتو وله بالطبع نفس زى وعادات الأفغان وكان له قدرٌ كبير لأن المجاهدين يحترمون الشجاعة أيما احترام. وكان "مستقيم" قريبا جدا من العرب لأنه يعتبر نفسه أنصاريا جاء لنصرة الأفغان مثله مثل العرب، وكان "أبو طه" يجيد لغة الأردو فكان هو الترجمان ومنه كنا نعرف كل صغيرة وكبيرة مما يدور حولنا فى المركز، كان سلاح "مستقيم" الذى لا يفارقه هو مدفع (شتاتودو) عيار ٨٢مم المحمول كتفاً وكان ماهرا جدا فى استخدامه وكان له مرافق يحمل له الذخائر، وعندما تبدأ العملية كان المجاهدون يقصفون القلعة من خندقهم الذى لا يفصله عن القلعة سوى خمسين مترا ثم يحتمون من رد العدو بالجلوس فى الخندق، أما صاحبنا فكان يجلس على حافة الخندق وساقه فقط هى المدلاة فى الخندق ويرمى على مهل ويستمر فى الرماية رغم القصف العنيف من قبل العدو وبجميع أنواع السلاح التى توجه له شخصيا، والعجيب أنه لم يصب حتى ذلك الحين، وذات يوم وبينما المجاهدون مختفون فى الخندق قبيل بدء العملية وقف "مستقيم" ليترصد فأبصره الحارس الشيوعى فصاح فيه (تسوكى) أى مَنْ أنت، فرد عليه "مستقيم": (زه مجاهد تا تسوكى سبى زوى) أى أنا مجاهد فمن أنت يا ابن الكلب، فأطلق الحارس وابلا من رشاشته ولم يتحرك "مستقيم" ولم يطرف له جفن حتى انتهى الحارس من الرماية فصاح به "مستقيم" (دغ خرونا نيشان) أى هذا تصويب حمير، سأريك كيف يكون التسديد والتقط مدفعه فاختفى الحارس فى لمح البصر! !

وكان إلى جانب شجاعته مرحاً خفيف الظل، كان دائماً يمرح مع العرب والأفغان فإذا رضى عن العرب قال: إن شاء الله كل عرب غازى.. كل باكستانى غازى.. كل أفغان شهيد وإذا لم يرض دعا: إن شاء الله كل باكستانى غازى.. كل عرب شهيد.. كل أفغان شهيد، وعندما سألته يوماً لماذا جاء للجهاد فهمت منه أنه أراد الزواج من ابنة شيخ قريته فكان المهر الذى اشترطه هو الجهاد فى "أفغانستان"، ياله من شيخ ماكر، أيبقى مثل "مستقيم" حياً حتى ينتهى الجهاد، وهذا أكد لى أن هذه القبائل ما تزال على فطرة الإسلام وأنها تُعادى الإلحاد والشيوعية على عكس ما يتبادر للذهن بسبب النزعة القومية واليسارية التى تشجعها "موسكو" و"كابل" للانفصال عن "باكستان".

رغم أن "مستقيم" هذا يعتبر بشتونياً أفغانياً أكثر منه باكستانياً إلا أنه على عكس الأفغان كان سعيداً بانتخاب "بانزير بوتو" وكان يستمع إلى خطبها فى الراديو باهتمام وإعجاب، حاولنا إفهامه أنها تُعادى الدين والجهاد فكانت حجته الوحيدة أن أباها قتل مظلوماً، والحقيقة أن الأفغان كانوا يحتقرون الباكستان كثيراً بسبب انتخابهم امرأة تحكمهم، كانوا يسمونها (خنازير بوتو) ويقولون إنهم معذورون فلو وجدوا رجلا لانتخبوه، وكانوا يعتبرون وضع المرأة فى "باكستان" قمة التفسخ والتحلل مع أننا لو قارنا بين المرأة فى "باكستان" وفى بلادنا لحكمنا أن "باكستان" هى قمة الإسلام، وقد رأيت بعينى كيف تحترم المرأة الأفغانية الرجل فهى أولاً ترتدى عباءة من قطعة واحدة كبيرة و سميكة وتغطى جميع جسمها حتى عينيها، وإذا قابلت رجلاً أو أكثر فى الطريق فإنها وقبل مسافة محددة تتنحى وتضع وجهها فى أقرب جدار حتى يمر الرجل فتواصل المسير، هذا بالطبع إن كانت تسير وحدها، أما إن كان معها محرم فلا تفعل هذا لأنه يعتبر حماية لها.

المهم أن المفاهيم الإسلامية غير محددة تماماً لدى عوام المجاهدين فمعظم المجاهدين وخاصة القندهاريين يحبون "داود" حباً جماً رغم أنه أول من أدخل الشيوعيين ومهد لهم السبيل، وذلك لأن الشيوعيين انقلبوا عليه وقتلوه وأهله شر قتلة وأرادوا تطبيق الماركسية الصريحة واعتبر الأفغان "داود" شهيداً ومازالوا يُلحقون باسمه لقب (بابا) وعبثاً كنا نحاول إفهامهم الحقيقة.

وحدث مع "مستقيم" هذا موقف عجيب إذ كان يركب دراجته ويسير بها آمناً مطمئناً وإذا بغارة من الطائرات وإذا بقذيفة هائلة تنزل بجواره فيطير مسافة كبيرةً ويجد نفسه عارياً ودراجته قد عجنت عجنا ومع ذلك لم يمسه سوء، ولم يصدق نفسه وعاد إلى المركز وأرسل على الفور أحد المجاهدين إلى السوق فاشترى ثلاثة أقفاص من اليوسفى (ملتا) ليوزعها على المجاهدين فرحا بالنجاة.

ومن الشخصيات الأفغانية التى لا تُنسى مُلا "محمد رسول"، إنه شاب فى الثامنة والعشرين ولكن طحنته الحروب وحطمته الجروح والكسور حتى يخيل لمن يراه أنه شيخ فى الستين كان يقاتل منذ عشر سنوات وخاض من المعارك ما تشيب له الرءوس ورغم ذلك كان مرحاً خفيف الظل يلم بمبادئ اللغة العربية ويُصر على تعلمها منا ولا يمل من سؤالنا عن معنى كل كلمة فى اللغة العربية، وكان يحاول أيضاً أن يعلمنا لغة البشتو عن طريق الأشعار التى يحفظ منها عدداً كبيراً، ولا يكاد يوجد أفغانى لا يحفظ هذه الأشعار الشجية التى تتحدث عن الشهيد والجهاد ومفارقة الأهل والأحباب منها أشعار رائعة مازلت أذكر نتفاً منها:

تر دنيا ولار شهيدان   سرى جرى وانونا

بر وايم رحمت أو   سلامنا

ومعناها.. روح الشهيد تغادر الدنيا وملابسه ملطخة بالدماء، ولما رأيته قلت عليك الرحمة والسلام، ولم يكن أى أفغانى يسمع هذا النشيد بألحانه الحزينة إلا ويبكى.

والأفغان يسمون الشعر "غزل" مهما كان غرض الأبيات، ولكن هذا لا يمنع أن لديهم شعرا غزليا وإن كانوا ينبذونه ويرونه غير لائق بالمجاهدين، وأذكر أنى سمعت من "محمد رسول" أبياتاً استنكرتها ولمته عليها ولكنه أوضح لى أنها مدح للرسول وليس (للمحبوبة) وكان مطلعها:

تور إسترجى دى جانان   جانان شيه خون كويه

أى حبيبى عينيه سوداء.. حبيبى جميل جداً، أما قصيدة "حنظلة" فلم أسمع

ولـن أسمـع أعـذب ولا أروع مـنها لقـد فتنـت هـذه القصـيدة العرب فـتوناً حتى سجلوها عـلى الكاسيت وتداولوهـا من المحيط إلى الخليج، والمؤسف حقاً أنى لم أسمـع ولم أقـرأ عـن حضـرة "حـنظلة" قـبل ذلـك رغم أنى أعشق التاريخ وخاصة تـاريخ صـدر الإسلام، إن الصحابى الجليل "حنظلة" دخل بعروسه وبينما هو فى فـراش عرسـه إذ سمـع منادى رسول الله ينادى: يا خيل الله اركبى فانتزع نفسه مـن يـدى عروسـه وانطلـق بفرسـه ليلحق سرية الرسول وقد أعجله ذلك حتى عن غسل الجنابة، وبعد المعركة تفقد الصحابة شهداءهم فوجدوا حضرة "حنظلة" بين الشـهداء ووجدوا ويا لعجب ما وجدوا.. وجدوا الماء يقطر من جسده، فلما أخبروا الرسـول قـال: إن الملائكـة تغسـله.. سلوا زوجته عن أمره، فلما سألوها أخبرتهم خـبر "حـنظلة" فسماه المسلمون غسـيل الملائكة، والقصيدة الأفغانية تحكى هذه القصة بروعة وعبقرية ولا أذكر سوى مطلعها:

دولومى "حنظلة" باتيكيكى نا غزاة كـــــوى

دنيـا وعـــدا نـــا رسول غزاة كـــــوى

ومعـناها.. أقـبل "حـنظلة" لا تـتأخر عـن الغـزوة... أترك زواج الدنيا والحق بجيش الرسول.

كـان لــ "محمـد رسـول" وضع مميز فى المركز بسبب قِدَمِهِ فى الجهاد وإتقانه لجميع الأسلحة والمدافع رغم أنه يكاد يكون كفيفاً فقد مرقت قذيفة آر بى جى أمام وجهـه فجعلـته شـبه أعمـى لا يرى سوى أشباح من خلال نظارة (عينى كى) ورغم ذلك كان أستاذاً فى رماية الهاون، بالطبع لم يكن يرى تدريج المنظار فكان يستعين بمـن يقـرؤه له ويـنفذ أوامـره بزيادة ٣ مليم أو زيادة ٢ تام، والأفغان يسمون النظارة (عيـنى كـى) فكنـت أداعـب "محمد رسول" قائلاً له: (عيناك جميلتان) فيحسبنى معجـباً بنظارته، وقد جعلنى يوماً أتحسس جسده فما وجدت موضع شبر ليس فيه شـظية حديديـة تحـت الجلـد أو غائرة فى اللحم، كان يقص علىّ قصة كل إصابة ومـنها قصة عجيبة حدثت له أثناء وجود الروس فى أول الجهاد.. كان المجاهدون فـى ذلـك الوقـت عـبارة عـن مجموعـات انتحارية، تسلل "محمد رسول" فى الليل البهـيم بالقـرب مـن موقـع روسـى وانـبطح على بطنه فى عرض الطريق الذى اعتاد

الـروس استـخدامه، وكمـا توقـع أقبل عشرة من الروس وهم يمزحون ويتضاحكون، فـلما اقتربوا منه هب واقفاً موجهاً رشاشته إليهم فبهتوا وتسمروا فى أماكنهم فصاح فـيهم (كشـينا) أى اجلسـوا، فجلسوا ووضعوا أيديهم فوق رءوسهم ففتح عليهم النار وأرسـلهم إلى الجحيم، ويكمل "محمد رسول" بعربيته المكسرة الظريفة: (كُلُّ الروسْ قـتلٌ.. يـو روسٌ جـرحٌ لـيس قـتلٌ.. جرينيـت قـذفٌ.. أنا جرحٌ.. أنا بل جرينيت قـذفٌ.. كُـلُّ الـروسُ قـتلٌ) وكـلمة (يـو روس) تعنى أحد الروس، أما (الجرنيت) فهى القنبلة اليدوية وبهذا تصبح العبارة واضحة.

ولـما عرف "محمد رسول" أن "صديق" طيار (بيلوت) أخذ يسأله عن الطائرات واتضـح أنـه كان يختبره فقد كانت أسئلته عن الطائرات العمودية التى لا يعرفها "صـديق" فـلما أجابه صاح "محمد رسول" كمن ظفر: أنت مخطئ، وأخذ يصحح المعلومة ويؤكد أنه رأى ذلك بنفسه ولكنه اقتنع أن "صديق" طيّار ووعده بأن يأتى لـه بطائـرة "غنـيمات" وأن يركـبها معـه ويطـوف بهـا أنحـاء "قندهار"، لم يكن يمـزح.. فقـد سبق أن غـنم طائرة ولم يدر ما يفعل بها وخاف أن يستردها الروس فجرها مع المجاهدين بالحبال وألقاها فى النهر الكبير.

وأخـبرنى "محمـد رسـول" إنـه فى أول الجهاد لم يكن عندهم آر بى جى ولا أى سـلاح يمكـن أن يؤثـر فى الدبابات، فكانوا يتسلقون الدبابة ويطمسون النافذة الزجاجـية الصغيرة بالطين فتصبح الدبابة عمياء تماما لا تستطيع أن تخطو خطوة واحدة فإما يفتح الجنود غطاءها وبمجرد فتحه يقذف المجاهدون بداخلها القنابل اليدوية أو تستسلم الدبابة بأن تدير برجها للخلف.

والحقـيقة أن أمثال "محمد رسول" أناس رضعوا الجهاد وعشقوا النزال وشغله ذلـك عن الزواج وإنه لمن النادر أن تجد أفغانياً فى الثامنة والعشرين لم يتزوج بعد ولم يفكـر فـى الزواج سوى هذه النوعية من البشر الذين خاضوا غمار حرب شعواء لم يهنـئوا بـيوم آمن، ومنهم من لم ير أبويه منذ سنين رغم أنهم على بعد ساعات مـنهم، ومـن هـؤلاء الأفـذاذ "محمـد رسـول" و"عـبد الرازق" الأول و"عبد الرازق" الـثانى و"مسـتقيم".. ولن يصدق أحد أن هؤلاء الجبابرة حزنوا حزناً شديدا عندما انسحب الروس ولن يفهم هذا الشعور إلا من مر به.

مصر فى عيون الأفغان

إن معظم الأفغان يعرفون "عبد الناصر" ويحبون "السادات" حباً جماً، وكان هذا أحد الأسباب التى جعلتهم يحبون المصريين ويفضلونهم على باقى بنى يعرب، أما الأسباب الأخرى فلأن "مصر" هى بلد الأزهر الذى تخرج منه عدد كبير من علمائهم وقضاتهم.. على سبيل المثال "أستاذ نيازى" و"ربانى" و"مجددى" و"محمدى" و"سياف" وعشرات العلماء والقضاة، وسبب آخر هو أن "مصر" هزمت المغول وتصدت للصليبيين وحاربت اليهود. والتاريخ فى "أفغانستان" ليس ماض بل هو حاضر حى يعرفه العامى والمثقف سواء بسواء، وسبب آخر ربما كان هو أهم سبب لحب "مصر" فى "قندهار" بالذات.. هذا السبب هو "حمدى"، لا يكاد يوجد مجاهد فى "قندهار" كلها لا يعرف "حمدى" وخاصة قدامى المجاهدين، كان الحوار المتكرر عندما أذهب لأى مركز جديد:

- تا كم وطن؟... أى ما وطنك؟

- زه مصرى آست

- آه.. تا مصرى.. تا "حمدى" وطن دار.. بيلوت "حمدى" معلوم؟

أى أنت مصرى.. أنت (بلديات) "حمدى".. هل تعرف "حمدى" الطيّار؟، كنت أستفسر منهم عن "حمدى" هذا حتى عرفت قصته، لقد كان أول عربى تطأ قدمه أرض "قندهار"، بل ربما أول عربى تطأ قدمه أرض الجهاد الأفغانى. فى ذلك الوقت لم يكن هناك حتى مؤسسات خيرية إسلامية ولا عرب حتى فى "الباكستان"، ترك "حمدى" الجيش المصرى الذى كان يخدم فيه كطيّار مقاتل والتحق بالمجاهدين فى بداية الغزو الروسى.. لم يكن له انتماء لأى جماعة إسلامية ولا تنظيمات حركية بل لم يواظب على الصلاة قبل مجيئه لأفغانستان، ولكن لا تخلو أمة محمد من الخير الذى يتفجر فى أى مناسبة تستحق التضحية والفداء، ترك "حمدى" المنصب والمال والجاه واختار حياة الشظف والإملاق والمخاطر المهولة، تزيا بزى القندهاريين وأتقن لغتهم المعقدة وتفقه بفقههم الحنفى إذ لم يكن له فقه قبل ذلك، وتفوق عليهم فى ضروب البسالة والإقدام فأمّروه عليهم وأصبح "قمندان" قندهارى بما فى الكلمة من معنى، إذ كان مثل الأفغان لا

يتردد فى ضرب المجاهد الذى يعصى أوامره، وكانوا يعطون القائد صلاحيات واسعة ولا يأنفون من ذلك، كانت المعارك فى ذلك الوقت كمائن للدبابات والقوافل العسكرية، وكان الكمين يتكون من بضعة مجاهدين حملة "كلاشنكوف" وحامل "آر بى جى"، وكان "حمدى" يحمل "جرينوف" ويختبئون قرب مدق الدبابات فإذا مرت بهم دبابة خرجوا عليها ودمروها تدميرا، وكان عليهم أن ينتظروا حتى تكون الدبابة فى الوضع الملائم لقصفها بالآر بى جى، ولكن لم يكن حملة الكلاشنكوف يطيقون صبرا إذ تأخذهم الحماسة والحمية فيخرجون من الكمين ويهرولون نحو الدبابة ويطلقون عليها الرصاص، وكان هذا بالطبع يفسد كل شىء، فكان "حمدى" يصوب الجرينوف نحو المجاهدين ويهددهم بأنه سيقتل من يرفع رأسه قبل الأمر بالهجوم وكان لا يتردد فى تنفيذ هذا التهديد، وقد أحبه المجاهدون حباً جماً أكثر مما يحبون أولادهم وأنفسهم، فلم يكن هناك فضيلة فى "قندهار" تفوق الشجاعة إلا التمسك بالمذهب الحنفى وقد جمع "حمدى" بين الفضيلتين بل تفوق فيهما، وقد أصيب إصابة بالغة بعد أن قضى فى أتون المعارك أربع سنوات أو يزيد إذ سقطت بجواره قذيفة دبابة ومزقته شظاياها وأرسل للعلاج فى "لندن" ثم فقدت أخباره، ولكن سيرته العطرة مازالت راسخة لدى المخضرمين من جيل "محمد رسول" و"عبد الرازق". ويفترض الأفغان دائماً أن كل مصرى شجاع مثل بيلوت "حمدى" وغالباً ما يكون المصريون عند حسن ظنهم، وصدفة أخرى أن المصريين الذين جاهدوا فى "قندهار" كانوا طوال القامة فظن القندهاريون أن كل المصريين عمالقة أحفاد فراعين. كانوا يعتقدون اعتقاداً راسخاً أن المصريين أجمل شعوب الأرض قاطبة لأن منهم "يوسف" عليه السلام ويتمنى كل شاب لو تزوج بفتاة مصرية، ورغم أنهم يرون وجوهاً مصرية من أمثالى إلا أنهم لم يغيروا اعتقادهم هذا.

كانت فكرتهم عن "عبد الناصر" أنه زعيم إسلامى وبطل هزم الإنجليز والفرنسيين فى "بور سعيد"، وتصدى لحرب اليهود، ولم نكن نجد صعوبة فى تصحيح هذه الصورة لأنهم كانوا يعرفون علاقته الوثيقة بروسيا، فكان يكفى أن نقول لهم أنه كان (كمونست.. روس أندوال) أى صديق الروس حتى يقتنعوا أنه (خوب نيس) أى ليس جيداً، وقد ذكر الشيخ "سياف" أن القبائل الأفغانية قد

استفزتها أخبار هزيمة ٦٧ فثارت وحاصرت "كابل" ودخلتها وطالبت الحكومة بإرسال الجيش والمتطوعين لحرب اليهود، وأحاطوا بالسفارة المصرية ودوت هتافاتهم وطلقاتهم يريدون أن تمنحهم السفارة تأشيرة ليحاربوا اليهود فما خرج لهم سوى فرّاش السفارة وأخبرهم أن مصر ليست فى حاجة إلى خدماتهم، وكان الشيخ "سياف" شاهد عيان على هذا الموقف.

أما "السادات" فكنا نجد صعوبة بالغة فى نقل صورته الحقيقية للمجاهدين وذلك لعدة أسباب أولاً: لأنه طرد الروس من "مصر" وهو عمل عند الأفغان عظيم، ثانياً: لأنه ثأر لهزيمة ٦٧وانتصر على اليهود فى حرب رمضان ـ أكتوبر ٧٣، ثالثاً: لأنه أمد المجاهدين بكميات هائلة من السلاح والذخائر وأيدهم على المستوى الدولى، رابعاً: لأنهم يظنونه حنفى المذهب ويحسبون ذلك هو سر مساعدته لهم، ولا أنسى أحد القادة وقد غضب لأنى أنتقص من الشهيد "السادات" (على حد قوله) الحنفى المذهب الذى لولاه لكنا ما نزال نقاتل بالحجارة والخناجر.

والحقيقة أن "السادات" قدم للمجاهدين مساعدات عسكرية قيّمة وفى أحرج الأوقات ولم ير المجاهدون الهاون ولا الآر بى جى ولا الجرينوف ولا الرشاش الخفيف ولا صواريخ الصقر إلا عندما قدمها لهم "السادات"، ولكنهم لا يستطيعون فهم دوافع هذه المساعدات، فقد كان "السادات" فى عزلة عربية وإسلامية قاتلة بسبب معاهدة الاستسلام مع اليهود فقد طُردت "مصر" من الجامعة العربية ومن منظمة المؤتمر الإسلامى وقطعت معظم الدول علاقتها الدبلوماسية معها وكان "السادات" يريد كسر هذه العزلة بأية طريقة، كما أن "السادات" كان يعادى الشيوعية والاتحاد السوفيتى ليس لوجه الله بل حباً وافتتاناً بأمريكا والغرب، وأدت سياسة الانفتاح والاتجاه غرباً إلى عداء اليساريين المصريين والناصريين والقوميين وتآمر تلك القوى وتألبها عليه، وقد شجعت روسيا والدول الاشتراكية الدعاية الموجهة ضد "السادات" وقطعت معه العلاقات فوجد نفسه فى عداء داخلى وخارجى مع القوى الاشتراكية فكان طبيعياً أن يندد بالغزو والاستعمار الروسى للشعوب الضعيفة، وبالطبع لم يرسل "السادات" رصاصة

واحـدة لـلمجاهدين قـبل أن يـأخذ الضـوء الأخضر من "أمريكا" بل ربما هي التى أمـرته بـتلك المسـاعدة، لأن الأمـريكان أدانـوا الغـزو الروسـى بشـدة خوفـاً عـلى مصالحهم فى المنطقة وتمنوا أن يتلقى الروس درساً فى "أفغانستان" كما تلقوه هم فـى "فيتـنام" ولكـن عبثاً كنا نحاول إفهامهم هذه الأمور، وكانت أقوى حجة لنا أن "السـادات" لا يحكم بالإسلام ويعطل الشريعة ويصادق اليهود والأمريكان، ولم نكـن نجـرؤ عـلى إخـبارهم أن الجماعـات الإسلامية هى التى قتلت "السادات"، والحقـيقة أن "مصـر" اعتـبرت الأمـر فيما بعد مجرد تجارة رائجة مربحة فكانت تبيع السلاح والذخائر للمجاهدين بعد أن كانت مجانا، بل أصبحت تبيع السلاح والذخائـر لـلحكومة الشـيوعية أيضـاً ولطالما غنمنا سلاح وذخائر مصرية من مواقع الشـيوعيين وكانـت تلـك الذخائـر عليها اسم مصنع شبرا الخيمة والهيئة العربية للتصـنيع، ولم يكـن شـعوراً مـريحاً أن أُقـتل فـى هذا المكان البعيد برصاص صنع بالقرب من منزلى.

كـان الأفغان يفخرون أن شعباً مسلماً يصنع هذه الأسلحة، وكان الكلاشنكوف المصرى أكفـأ مـن نظيره الصينى أو التشيكى أو اليوغسلافى ولم يكن يفترق كثيرا عـن الروسى، فبعد رمى خزنة أو اثنتين كان الكلاشنكوف الصينى وأمثاله يسخن ويـتمدد الحديد ويتسع قطر الماسورة وبذلك يقل دفع الغاز للطلقة فتسقط على بعد أمـتار مـن الـرامى، أمـا السـلاح الروسـى والمصرى فلم يكن يسخن مهما كان عدد الخـزن الـتى يرمـيها، وكانـا عـند توزيع الغنائم سواء، أيضا الهاون المصرى كان أفضـل مـن الصـينى بمـراحل وإن كـان الرشاش الخفيف المصرى غاية فى الرداءة حـتى سمـاه الأفغان (ديوانا) أى المجنون لأنه يرمى باستمرار سواء ضغطنا الزناد أم لم نضغط.

فـــرنسي رعـــديد

كـان صـحفيون ومراسـلون أجانـب مـن جمـيع الجنسـيات يجوبـون أنحـاء "أفغانسـتان"، وكان السؤال الذى يرددونه كأنهم متفقون عليه: ماذا ستفعلون بعد الاسـتقلال؟ والأفغـان يبغضـون الأجانـب (غـير المسـلمين) بغضاً لم أر لـه مثـيلاً ويعدونهـم كفـارا نجسـين حسـياً ومعـنوياً، وقـد علـق مـلا "شـيرين" عـلى وجود

صحفيين فرنسيين بأسف ومرارة فقال لقد كنا نقتلهم حتى جاءوا ببدعة الأمان هذه، حيث كان الصحفى يحمل ورقة بالأمان موقع عليها من أحد قادة الأحزاب، ورغم ذلك لم يكونوا دائماً يسلمون من القتل.

ولم يكن الأفغان يفرقون بين الجنسيات الأوربية فكلهم إنجليز وأى أشقر إما (روس أو إنجلين) فلم يكونوا يعرفون من الشعوب إلا من غَزَوْهم أو تعرضوا لغزوهم. وأتانا صحفى يابانى ذات يوم وكان معجباً بالأفغان جداً ربما رآهم امتداداً للساموراى اليابانى وكان يصلى معهم وعندما سأله "أبو طه": هل أنت مسلم؟ قال: لا ولكنى سأدرس الإسلام عندما أعود، وتعجب لوجود العرب وتعجب أكثر لأن أميرهم هندى، فشرح له "أبو طه" أن الإسلام لا يعرف العصبيات القومية وقد نهى الرسول عنها وقال {*دعوها فإنها منتنة*}، كان هذا اليابانى مهذباً ودمث الأخلاق بعكس الصحفيين الفرنسيين الذين كانوا يدخنون بشراهة ويحتقرون المجاهدين وأرادوا أن يوقعوا الفتنة بين العرب والأفغان باتهام العرب بالوهابية، وكاد الأفغان يقتلونهم لولا أن العرب حموهم، وكان حديثهما مع "صديق" لأنه يجيد الفرنسية. كانا صحفياً ومصوراً وكانا مضطربين مرعوبين وينتفضان لكل قذيفة تسقط قريباً منّا، وعندما سقطت قذيفة طائرة أقرب من المعتاد صرخ الصحفى وانبطح على قفاه مما جعل الأفغان ينفجرون بالضحك، ولمّا علم ذاك الفرنسى أن "صديق" طيّار تونسى تعجب له كيف يعيش فى هذه الخرائب وبين هؤلاء الهمج ووعده أن يحصل له على لجوء سياسى فى فرنسا ويضمن له عملاً مجزياً، فسخر منه "صديق" وقال له:

ـ أنا هنا أسعد إنسان فى الدنيا ولا أريد دنياكم كلها. فسأله الفرنسى:

ـ لماذا أنت معجب بهذه الحرب؟

ـ لأن الله يقاتل مع المجاهدين ويؤيدهم بنصره.. ضحك الفرنسى وقال: لولا صواريخ "ميلان" الفرنسية وصواريخ "استنجر" الأمريكية لما انتصرتم ولا خرج الروس فلا تدخل الله فى هذا الأمر.

ـ هل رأيت وأنت قادم لهذا المركز قذائف الطائرات العملاقة، ألم تلاحظ أن التى تصيب الهدف لا تنفجر والتى تخطئ الهدف هى التى تنفجر؟!

- إن الصناعة الروسية ليست صناعة جيدة..

وعندما سأل الفرنسى السؤال التقليدى ماذا ستفعلون بعد إقامة دولة إسلامية؟ قال "صديق" سوف نجاهد فى سبيل الله ونغزو العالم كله، سقطت السيجارة من فم الفرنسى وتملكه رعب شديد وأخذ يردد عبارات التعايش السلمى وحسن الجوار وكأنه يتوسل إلينا ألا نفعل..، إننا كالأسد الذى تربى مع الأغنام ولا يدرى أنه أسد مرهوب، رحل هذا الفرنسى ولا أظنه فكر فى خوض هذه التجربة مرة أخرى.

الجنود يستسلمون

كان من نتيجة الضغط الشديد على هذه القلعة أن كان يأتى جندى أو اثنان كل بضعة أيام مستسلمين، وكان الشيوعيون يحرمون الجنود من الأحذية ليمنعوهم من الفرار وبهذا كانٍ على مَنْ يريد الفرار أن يمشى على الأشواك مسافة طويلة حافى القدمين، فضلاً عن الرصاص الذى يلاحقه، ورغم ذلك لم تتوقف عمليات الاستسلام، وجاءنا ذات يوم جندى طويل جسيم احتال حيلة طريفة ليفر، إذ خبأ زوجاً من الأحذية المطاطية الخفيفة تحت ملابسه وفى وقت حراسته أخذ السلاح وفر، وكانت العادة أن يسلم سلاحه للمجاهدين ولم يحدث مطلقاً أن استسلم جندى بغير سلاح يعطيه للمجاهدين ويبدو أنهم يظنون أن هذه الهدية الإجبارية هى شرط سلامتهم، وكان المجاهدون يعاملونهم معاملة غاية فى الكرم ويعطونهم ملابس مدنية وعمامة ويبلغونهم مأمنهم، لا شك أن الأفغان خصم شريف والعرب دونهم فى هذا وأكثر منهم غِلاً وطلباً للثأر، كان الأفغان يعرضون على المستسلم أن يجاهد معهم ولكنهم كانوا يفضلون الذهاب إلى "باكستان".

كان أحد المستسلمين من ولاية "سمنجان" الشمالية، وأكد لنا أنه مجاهد ولكن الشرطة العسكرية قبضت عليه بينما كان فى زيارة لأهله وجندوه وأخذ يتحين الفرص حتى يفر وذكر أسماء بعض العرب الذين كانوا يجاهدون معه فى الشمال، وأكد للمجاهدين أنه قتل سبعة من الروس نساءً ورجالاً فى الأيام الأولى للغزو إذ فاجأهم وهم يقضون حاجتهم فى مكان خرب، والطريف أن هذا الجندى لا يعرف

سوى اللسان الفارسي ولم يكن من الأفغان الحاضرين من يجيدها فكان أحد العرب الذين رابطوا فى الشمال هو الترجمان بين أفغان وأفغان.

وجاء اثنان من الجنود حفاة ومعهم آر بى جى وكلاشنكوف وأكدوا أنهم قتلوا الضبّاط وكسروا مخزن السلاح وحملوا عدداً كبيراً من الرشاشات والآر بى جى ولكنهم تعبوا من حملها فتخففوا منها فى الطريق، وأكد جواسيس المجاهدين هذه القصة فيما بعد، وظللوا أياما ينزعون الشوك من أرجلهم المتورمة، ومن العجيب أن هذا الشوك لم يكن يضر أرجل القندهاريين بأدنى ضرر بل كان القندهاريون يخافون على أحذيتهم من الطين فيخلعونها ويسيرون حفاة على الشوك فلا ينفذ من جلودهم السميكة ! !

فوجئ أحد الجنود المستسلمين بوجود عرب مع المجاهدين وقال: إذن كان صحيحاً ما يقولونه لنا، كان هذا الجندى حشاشاً كبيراً، فطلب من المجاهدين بعض الحشيش (تشارس)، فأفهموه بتؤدة وصبر أنهم مجاهدون مسلمون يقاتلون فى سبيل الله ولا يتعاطون هذه الأشياء، تعجب هذا الحشاش ورفع حاجباً وخفض الآخر وقال: وهل الحشيش حرام؟، وأراد أن ينافق العرب فقال لنا: "صدام حسين" زندا باد - أى يعيش، فتصايح العرب "صدام حسين" كومنست كافر.. فتدارك الأمر بسرعة وقال: إمام "خومينى" زندا باد - فتزايد إنكار العرب لهذا القول وصاحوا: "خومينى" شيعت كافر - فتحير الحشاش أشد الحيرة وقال: من تؤيدون إذن؟!

كان هناك جندى آخر معه مبلغ ضخم من المال هو راتبه عن عدة سنين فى الجيش لأن المجند العادى يحصل على راتب كبير ليكون إغراءً للتجنيد، والعرف السائد ألا يؤخذ منه ماله، لكن المجاهدين طلبوا منه هذا المال فلمّا تردد أفهموه أنهم يخافون أن يستولى عليه أحد وهو فى طريقه إلى "باكستان" وأنهم سيعطوه إيصالا بالمبلغ ليصرفه من دفتر الحزب فى "كؤيتة"، وبالطبع لم يكن يملك الاعتراض و أشك أنه سينجح فى استرداد روبية واحدة من هذا المبلغ الكبير وهو أيضاً يعلم ذلك جيداً.

أما معاملة الأسرى فتختلف عن هذا كثيراً، فإن كلفت المعركة المجاهدين شهداء فإنهم يقتلون أسرى بعدد هؤلاء الشهداء، وإن فُتح الموقع بغير شهداء فإنهم يسخّرون الأسرى فى الخدمة والأعمال الشاقة ثم يطلقونهم بعد عام أو عامين حسب سلوكهم فى فترة الأسر، أما إن كان الأسير ضابطاً أو طيّاراً فكانوا يبادلونه بأسرى من المجاهدين وإن كان الأسير عضواً فى الحزب الشيوعى فإنه يقتل لا محالة مهما كانت رتبته إلا إذا بُودل بقادة مهمين أو بعرب، وكان الأفغان يحسنون معاملة الأسرى بدرجة كانت تثير حنق وغيظ العرب فقد كانوا يؤاكلونهم ويشاربونهم ويغسلون لهم أيديهم قبل الطعام ويكسونهم ويتركونهم يتجولون بحرية، بل المذهل حقاً أنهم كانوا يضعونهم فى قائمة الحراسة الليلية فينامون والأسير يحرسهم وفى يده السلاح!!.. والأشد غرابة أنهم لا يتورعون عن قتلهم بعد كل هذا!! ليس كل شيء يمكن فهمه فى "أفغانستان".

كانت الحكومة الشيوعية ترفض مبادلة الأسرى العرب إلا بالروس أو الطيّارين، والغريب أنهم كانوا يبادلون الأسرى الأحياء بجثث الطيارين ولا يبالون بالجنود العاديين ويرفضون مبادلتهم بالمجاهدين ولو كان مائة جندى مقابل مجاهد واحد.

فـزع فى الليـل

استيقظنا ذات مرة بعد منتصف الليل على صوت مفزع يصرخ فى المجاهدين أن الدبابات قادمة وبالفعل كان هديرها يسمع عن بعد، هب المجاهدون من نومهم وفزع كل إلى سلاحه، وتلقى المجاهدون الدبابات عند النهر الذى همت بعبوره فأمطروها بوابل من القذائف فولت مدبرة وكفى الله المؤمنين القتال.

وعاد أحد المجاهدين جريحاً محمولاً على الأعناق، كانت إصابته عبارة عن حرق بالغ فى بطنه وفخذيه وأعضائه التناسلية، كان يرتجف من شدة الألم ولكن لم يكن ليخرج منه أدنى صوت من تأوه أو تألم فهذا عار وشنار ليس له وحده بل لمركزه وقريته وقبيلته، وقد أبى أشد الإباء أن يسعفه أحد من الأفغان وأراد أن يتولى هذا العمل أحد العرب، ولم يكن فينا من يعرف الإسعافات الأولية، وندبنى

"أبـو طـه" لهـذا العمـل فـلم أجد منه بد.. كان منظراً بشعاً وبالتأكيد كانت آلامه مبرحة لا تطاق، وتمنيت فى نفسى أن أصاب أية إصابة سوى الحرق.

فـى يـوم آخـر جـاء مجـاهد من العملية ورصاصة مستقرة فى فخذه فأخرجوها بموسـى حـاد ومطـواة دون أى مخـدر ولا مُسّكن، كـان جسـمه يرتجف من الألم ولكـنه كـان يبتسـم!! إمـا أن هـؤلاء القـوم ليسـوا بشراً مثلنا أو أن لهم إرادة من فـولاذ. أراقـوا عـلى الجرح بعض المطهرات وغطوه ثم مشى على رجله يعرج قليلاً ولم يجدوا الأمر يستدعى إرساله إلى العيادة فى الخطوط الخلفية.

"كؤيتة" مـــرة أخــرى

فـى هـذه الأثـناء كانـت تـتجمع فـى الأفق سحب الفتنة بين العرب والأفغان والسـبب هـو تهمـة الوهابية التى ما فتئ يرمينا بها "نجيب الثور" و علماء السوء الـتابعين له، وكذلـك راديـو لندن الذى يسمعه كل أفغانى بسبب تفاصيل المعارك الـتى يذيعهـا يومـياً بلغـة الفارسـى والباشـتو، هذا فضلاً عن إذاعة صوت أمريكا ومونـت كارلو ناهيك عن عملاء نجيب المندسين بين صفوف المجاهدين، فنجيب يـزعم أنـه طـرد الـروس وأنـه يقـاتل الآن ضد الوهابيين العرب والإخوان المسلمين (حكمتـيار ـ ربـانى ـ سـياف) دفاعـاً عـن المذهب الحنفى العظيم، ولا أنسى أبداً عـندما اسـتولينا عـلى مواقـع الشـيوعيين فـوق الجـبل حيث وجدنا فى مخلفات الجـنود خمورا وصورا عارية وكتبا روسية وجرائد حزبية شيوعية.. ثم شىء آخر لم يخطـر على بال.. كتاب ضخم كان عنوانه (الجهـاد فرض عين)، دُهشت لذلك وظننـته لجندى مؤمن يكتم إيمانه ولكن عندمـــا تصفحت الكتاب عرفت الحقيقة فالكـتاب مـلىء بعـبـــارة (وهابـيان كافـران)، ويبدو أن المؤامـــرة أوشكـــت أن تؤتى ثمارها.

وحـدث شـىء مـزعج آخر إذ فقد "صديق" سلاحه وأصبحنا فى موقف محرج لأن السـلاح فـى "أفغانسـتان" شىء ثمين وعزيز، وأردنا أن نذهب إلى "باكستان" لنحصـل مـن الحـزب عـلى سلاح نعطيه للقمندان بدلاً من السلاح الضائع، وكان هـذا القمـندان هـو "إسماعـيل خـان" الذى أشفق علينا فيما سبق وأعادنا معه فى

السيارة ولم يشركنا فى العملية، كان فى ذلك الوقت فى "كؤيتة" فقابلناه هناك وعندما أخبرناه بما حدث أحمر وجهه، ظننت ذلك غضباً ثم تبينت أنه خجل، فقد أخذ يعتذر لنا ويقول إن ذلك بسبب لص حقير والقادة لا يشقون عن صدور المجاهدين ليعرفوا هل هذا منافق أم صادق، وعندما قلنا له نحن مستعدون أن ندفع ثمن هذا الكلاشنكوف أبى بشدة وقال إن معظم ما بأيدينا من سلاح هو من أموالكم وأنتم تركتم آباءكم ونساءكم وتركتم الدنيا وراءكم، وجئتم من بلاد بعيدة لتدافعوا عنا وتقاتلوا معنا فنحن نفديكم بأنفسنا وأولادنا، والحقيقة أنى لم أر فى كل "أفغانستان" رجلاً أرق ولا أخلص من مُلا "إسماعيل" هذا.. كان وجهه الهادى الرزين يشع منه النور وكان تقياً ورعاً، ولقد لقى ربه شهيداً بعد أشهر من ذلك اليوم فحزن عليه العرب حزناً كبيراً، والشىء اللافت للنظر أن الشهداء هم الصفوة، وأقسم أنى ما رأيت شهيداً إلا كان خير الحاضرين باعتراف الجميع لأن أخلاق الشهيد تكون من الظهور والقوة بمكان حتى كنا نعرف الشهداء قبل بدء المعركة من تألق الوجه والأنوار الربانية التى تشع من عينيه.

شيخ عقيل

وقد حدثت لى مفاجأة مذهلة عندما طرقت باب مضافة العرب فى دفتر الاتحاد إذ فتح لى "أسد الله" الباب وتعانقنا برهة من الزمان. كانت آخر معلوماتى عنه أنه عاد إلى "بيشاور" ليلتحق بالقاعدة ولكنه فى الحقيقة لم يغادر "قندهار" خلال هذه الفترة وإنما كان فى مركز ملا "عبد الرازق" التابع للقمندان "محمد أيوب أغا".. وفرحنا جداً بهذا اللقاء غير المتوقع وتعاهدنا ألا نفترق ثانية مهما كانت الأسباب، وقد حكى لى ما يشبه الأساطير عن مركز "عبد الرازق" الذى كنت أراه يومياً من فوق الجبل وكيف أنه لا يبعد عن العدو سوى بضعة عشر متراً، وكيف أن القتال متواصل ليل نهار وقد جاء "أسد الله" ليحصل على بعض الأغطية والملابس للمركز وذلك من الشيخ "عقيل" مدير الهلال الأحمر السعودى فى "كؤيتة" والمسئول عن مستشفى "مكة المكرمة" الخاص بعلاج الجرحى الأفغان، وكان لدى شيخ "عقيل" إمكانات مادية كبيرة لا أدرى أكانت

من ميزانية الهلال الأحمر أم تبرعات، المهم أنه كان يقدم قدراً كبيراً من المساعدات للمجاهدين فى الجبهات.

والشيخ "عقيل" شخصية جديرة بالتأمل فهو على قدر كبير من قوة الشخصية ، ومع ذلك يخيل إليك أنه متواضع فى بعض الأحيان، وهو إدارى جيد يخشاه من يعمل معه رغم أنه صغير السن قد لا يتعدى الأربعين،وهو بلا شك يتمنى انتصار المجاهدين ولكن لا يعنيه من الأمر سوى الدعوة التى يؤمن بها ويعمل بمثابرة وإصرار على نشرها فيمنح ويمنع بناء على مدى قبول الدعوة السلفية، وبالطبع فإن حزب الدعوة والجهاد بقيادة مولوى "جميل الرحمن" يحظى بالجانب الأكبر من تلك المساعدات، وإن كان المجاهدون من كافة الأحزاب قد نالوا منه ما يستحق الذكر، ورغم ذلك فهم لا يحبونه، فهو لديهم "وهابى" قح ليس فيه شك ولقد لمست بنفسى كيف يتبرم منه بعض مسئولى الأحزاب لأنه يتخطاهم ويتعامل مع المجاهدين فى الجبهات مباشرة فيعطيهم سيارات وجرارات ويمدهم بالمال مما يشجع القادة الصغار على إهمال أوامر الحزب وربما تحديها اعتمادا على مصادر التمويل الخاصة بهم، كما أنهم يرون أن هذه الأموال ينفقها المجاهدون على الكماليات فيتوسعون فى وسائل الانتقال والطعام والملابس بينما كان الأولى أن تنفق هذه الأموال فى شراء الأسلحة والذخائر عن طريق الحزب، كما أن الحزب يستطيع توزيع الإمدادات لمختلف المناطق حسب أهميتها العسكرية التى تتغير من وقت لآخر، وكنت أميل لوجهة النظر تلك. المهم أن "أسد الله" قد حصل من الشيخ "عقيل" على ما يريد بل وأكثر مما يريد وذلك بفضل ما أوتى من جرأة فى الطلب وإصرار وحمية وحماسة، ولا شك أن الشيخ قد أعجب به فأعطاه كميات كبيرة من الأغطية الثقيلة والمعاطف السميكة والأحذية العسكرية والتمور والأدوية والكتب الدينية والمصاحف فاخرة الطباعة التى كان يتلهف عليها عقلاء الأفغان، أما العوام فكانوا يرتابون فيها لأنها لا تحمل فى نهايتها أسماء الله الحسنى كما جرت العادة فى المصاحف الأفغانية. شكلت هذه الأشياء حمولة سيارة كبيرة قضينا فى تجميعها وترتيبها وقتا لا بأس به، ولم يكتف الشيخ بهذا بل أعطاه مبلغ ثمانية آلاف روبية ليتزوج بها لأن أحد الأفغان قد أعجب بشجاعة "أسد الله" وبسالته فوعده أن يزوجه

أخـته وهـذا عـلى غـير عادة الأفغان وخاصة القندهاريين إذ يأنفون أشد الأنفة أن يـزوجوا نساءهم من خارج القبيلة فما بالك لو كان من خارج بنى أفغان، وهذا إن دل عـلى شـىء إنمـا يـدل على مقدار احترامهم لفضيلة الشجاعة ويدل أيضا على مدى ما بلغه "أسد الله" فى هذا المضمار.

نصر الله كاكا

قـبل أن نغـادر "كؤيـتة" كانـت "بـنازير بوتـو" قـد استقرت فى رئاسة الدولة وسمحـت بعودة "محمود خان" الشيوعى الذى نفاه "ضياء الحق" والذى يعد زعيم إقلـيم "بلوشسـتان" بغـير منازع، والذى يكافح من أجل الاستقلال عن "باكستان" وإقامـة دولـة "بلوشسـتان" عـلى المـبادئ الماركسية،ويتزعم حزباً قويا ومنظما وله قـاعدة شـعبية عريضة وله تعاون وثيق مع حكومة نجيب الأفغانية، ولطالما سبب المشـاكل للمجاهدين والمهاجرين الأفغان، المهم إن هذا العتل الزنيم قد تزعم حركة قوية فور عودته مؤيداً لنجيب وداعيا إلى طرد الأفغان من الإقليم وتصفية الأحزاب الإسـلامية، وسـير المظاهـرات الصاخبة فى أنحاء "كؤيتة" تحمل الأعلام الحمراء وأقـام السـرادقات والمؤتمـرات الشـعبية ولم يكتف بهذا بل نظم إضرابا عن العمل للاستـجابة لمطالبه. ولكن لله جنداً لا يعلمها إلا هو، فقد انبرى له زعيم الجماعة الإسـلامية فى إقليم "بلوشستان" واسمه "نصر الله كاكا" (وكاكا تعنى عمّ كما إن مامـا تعـنى خال وهما من الألقاب الشائعة فى هذه البلاد مثل اسم "حاجى ماما" و"محمـد كاكـا") وردّ علـيه بالمـثل فـنظم مظاهرات صاخبة طافت شوارع "كؤيتة" تحمـل البـيارق الخضـراء علـيها كـلمة التوحـيد وشعارات تمجد الحكم الإسلامى وتندد بالشيوعية والإلحاد، وكان ختام هذه المظاهرات مؤتمرا شعبيا كبيرا أقيم فى سـاحة دفـتر (اتحـاد إسـلامى مجـاهدين أفغانسـتان) وأقـيم سـرادق كبير ومسرح ومنصـة ودعيـت شخصـيات إسـلامية كـبيرة لإلقـاء كـلمات بهذه المناسـبة، وأقيم معـرض لصور الجهاد الأفغانى ومآسى الجرحى والمعاقين، وحضرت وفود من عدة شـعوب تعـانى الاضطهاد أو تقوم بالجهاد منها وفد من "كشمير" ومن "كردستان" العراق.

كنت أحضر المؤتمر كمتفرج وكان يجلس معى "أبو ذر" الليبى القندهارى الذى كـان يعرف "نصر الله كاكا" جيداً فعندما طلب منه أن يلقى كلمة نيابة عن شعب ليبيا الـذى يعـانى مـن الشيوعية اعـتذر بلـباقة ولكـنه أوقعـنى فى ورطة.. كانا يـتحدثان بلغـة الباشـتو الـتى لم أكـن قد تعلمت منها إلا النزر اليسير فلما أراد "أبـو ذر" التنصـل مـن الخطابـة قـال له إن صـديقى "أبو جعفر" المصرى خطيب ممـتاز ومستعد لإلقاء كلمة الآن.. ابتسم لى "نصر الله" وصافحنى بترحـاب وظننت أن "أبـو ذر" قام بعملية تعارف عادية والحقيقة أن "نصر الله" قال لى سوف تتكلم بعـد الكـلمة الحالـية وهـززت رأسـى بالموافقة وأنا أظنه تعارفاً عادياً، بعد دقائق فوجئـت بـه يقدمـنى لكـى أخطب، نظرت نحو "أبو ذر" فوجدته يبتسم ابتسامة ماكـرة ففهمـت مـا حـدث ولم أجد بداً من الخطابة فوقفت على المنصة وبجوارى مترجـم فـورى، كنت قد واجهت الجمهور عدة مرات فى خطبة الجمعة فلم يكن الأمـر جديـداً عـلىّ، وقـد أدركـت أن الموضـوع هو الشيوعية وعدم صلاحيتها وقد درسـت الشـيوعية فـى الجامعـة كـنظرية اقتصـادية فتكلمت كلاماً علمياً ونقضت الـنظرية من أساسها وضربت لذلك الأمثال من التجارب الفاشلة للشيوعية فى كل مكـان، ثـم تكلمت عن "أفغانستان" وكيف انهزمت فيها الشيوعية من كل ناحية اقتصـادياً وسياسـياً وعسكرياً وفكرياً واضطرت روسيا إلى الانسحاب بذل وخسران أمـام صمود المجـاهدين المؤمـنين الموحديـن.. وأعجـب "نصر الله" إعجاباً شديداً بالخطـاب وطلـب مـنى أن أنضـم إلـيه فـى جولاتـه الـتى ينوى أن يقوم بها فى مخـتلف مـدن الإقلـيم فاعـتذرت له بـأنى لا أعـرف سـوى العربية فقال لى سوف نترجـم لك، فقلت له إنى لا أعدل بالجهاد شيئاً، فطلب منى أن أفكر فى الأمر، وفـى نهايـة المؤتمـر قدّم طلبة الحزب مسرحية فكاهية تسخر من الجيش الروسى والحكومـة العمـيلة وفـى نهايـة المسرحية يقـتحم المجـاهدون الموقع بينما الروس والعمـلاء يسكرون ويعربدون، وجُن الحاضرون هتافاً وتصفيقاً، وكان مؤتمراً ناجحاً نجاحـاً مـنقطع الـنظير. والمؤسـف أن هـذا المحمـود خـان لا يكـتفى بـالكلام والمظاهـرات بل إن له مليشيا قوية من المتطوعين ذوى العقيدة الشيوعية المتطرفة، هـذه المليشـيا تقـاتل المجـاهدين فـى "أفغانستان" وقد تكون من عوامل تأخر فتح "قندهار"، ويبدو أن "نجيب" قد وعدهم بالحكم الذاتى للبلوش فى "أفغانستان"،

وشعارهم الذى يكتبونه على دباباتهم ومدافعهم هو (يا وطن.. يا كفن) لا أدرى أيكتبونه بالدماء أم هو طلاء أحمر، وغالباً يجبرهم المجاهدون على الخيار الثانى.

عبد الرازق القائد الأسطورة

سرعان ما اكتملت استعداداتنا فحزمنا أمتعتنا فى سيارة عتيقة خاصة بمركز "محمد أيوب أغا"، وكان معنا أخو القمندان ونائبه وعدد من المجاهدين العرب والأفغان، ركبت مع نائب القائد فى الكابينة لأنى كنت أعانى من صداع شديد بينما ركب الباقون فى الخلف فوق الأمتعة الكثيرة. انطلقنا عند الفجر ووصلنا "جمن" الحدودية التى تنطق "تشمن" بعد حوالى ثلاث ساعات. عبرنا نقاط الحراسة الباكستانية بعد تفتيش رمزى وأصبحنا فى "أفغانستان" مرة أخرى، وعند الحدود مباشرة رأينا الدبابات الخاصة بالمجاهدين عليها البيارق الإسلامية تقف بشموخ وكبرياء وأبراجها تتجه للحدود الباكستانية وكأنها تقول للباكستانيين نحن أصبحنا دولة وحكومة ولنا حدودنا وجيشنا، كانت هذه الدبابات تابعة للقائد الفذ "عبد الصمد" الذى ستكون لى معه صحبة فيما بعد.

واصلنا السير بالسيارة العتيقة وكان الوقت زمن الشتاء، والسيول الجارفة تعترض الطريق من حين لآخر، وكانت هذه السيول تبتلع شاحنات عملاقة فى كثير من الأحيان ولكن الله سلم، ووصلنا إلى المركز بعد منتصف الليل وكنت فى غاية الإرهاق، واستقبلونا بترحاب وآوينا إلى الغرفة المخصصة للعرب ورحنا فى سبات عميق.

فى الصباح قام الأفغان بإنزال حمولة السيارة تحت إشراف "أسد الله" الذى أصر أن توزع هذه الأشياء على المراكز الأخرى أيضاً وقام بتقسيم الأغطية والأحذية وكافة الأشياء حسب عدد كل مركز وأرسل إلى تلك المراكز ليأتوا ويأخذوا نصيبهم، وأتى "عبد الرازق" من مركزه المتقدم عندما علم بقدوم "أسد الله"، لم أصدق عندما أخبرنى "أسد الله" أن هذا الشخص هو "عبد الرازق" الذى طالما

سمعت عنه.. كان رث الثياب بل مهلهل الثياب.. حافي القدمين.. عمامته البيضاء تكاد تكون سوداء من الأوساخ!! كان ذلك أمراً عجيباً وشاذاً بين الأفغان الذين يهتمون بمظهرهم أيما اهتمام فيلبسون دائماً ملابس جميلة نظيفة زاهية ويتمشطون ويدهنون ويتعطرون، ولا تجد أفغانياً لا يحمل معه مرآة يصلح بها هندامه من حين لآخر، ليس هذا فحسب بل كان شعر "عبد الرازق" أشعث أغبر ولحيته الصغيرة تمرح فيها البراغيث وأنواع الحشرات، وكان نحيل الجسم متوسط الطول شاحب الوجه، لا أدرى أأسمر نوعاً أم هى الأوساخ؟!، ولكن مهلا.. مهلا، فرغم هذه الهيئة المزدراة كان يحمل بين جنبيه قلباً جسوراً قُدّ من صخرٍ وعزيمة فولاذية لا تلين لأهوال تشيب منها النواصى، كان قدراً كبيراً من الدهاءً يشع من عينيه السوداوين المتقاربتين اللتين لا يسبر لهما غور.

قُدّر لى أن أعيش مع هذا القائد العجيب نحو ثلاثة أشهر رأيت فيها آيات البطولة وأساطير الشجاعة ومواكب الشهداء وأشلاء الجرحى، رأيت كرامات الصديقين وخيانة المنافقين، رأيت إقدام الصابرين وفرار المذعورين.

حملنا ما تبقى من المتاع وذهبنا إلى (بوسطى موبلين) أو مركز قمندان "عبد الرازق" المتقدم واستقبلنا هناك عدد من العرب "أبو تميم" المصرى - "إسماعيل" المصرى - "أبو أيوب" الجزائرى - "أبو دجانة" الجزائرى - "سياف" المصرى - "أبو دجانة" اليمنى وعدد آخر، كنا حوالى عشرين عربياً من كافة الجنسيات العربية، أما الأفغان فكان عددهم لا يتجاوز العشرة، وكان موقع المجاهدين فى مكان عجيب إذ يعتبر داخل حدود المدينة فى منطقة خربة مهدمة البيوت من آثار القصف والمعارك، لم يكن يفصلنا عن العدو سوى عرض شارع نحن على جانب منه والعدو على الجانب الآخر، كان ذلك فى ضاحية (محلة جات) أو كما ينطقونها "مَلَجَات"، ولا يمكن أن يتخيل أحد عنف القصف الذى يصب على موقع خطير كهذا، حقاً كنّا فى مأمن من قصف الطائرات إذ لا يمكن أن تقصف الطائرات مواقع قريبة جداً من العدو حيث لا تستطيع التمييز بيننا وبينهم لتداخل المكان،لكن عدا الطائرات كان يصب فوق رءوسنا كل لحظة قذائف من جميع أنواع السلاح الفتّاك، الدبابات والمدافع الثقيلة والصواريخ

والهاون الروسى الثقيل الذى يسمونه (غرنى) أى الجبلى، هذا عدا "الزوكوياك" الذى كانت طلقاته الضخمة تدخل غرفتنا خلال الجدران، و"الدشكا" و"الدوميلا" والرشاشات التى لا تهدأ ليلاً ولا نهاراً.

وعندما أعود بذاكرتى إلى تلك الأيام أتعجب كيف كنا ننام وسط هذه الأهوال المفزعة، القذائف كانت تسقط فى قلب مركزنا وعلى بعد أمتار قليلة، بل كانت تصيب الهدف فى كثير من الأحيان، فقبل وصولنا بأيام أصابت قذيفة إحدى الغرف وفجرت ما فيها من ألغام وذخيرة ويشاء الله أن تكون خالية فلا يصاب أحد، وقذيفة أخرى أزالت نصف سقف المطبخ، وثالثة هدمت بئر الوضوء ورابعة اخترقت السقف ونحن جلوس للطعام ويشاء الله ألا تنفجر، لم تكن تلك الغرف التى نحتمى بها محصنة بل غرف طينية عادية وسقفها من الطين ولا يزيد سمكه على ١٥سم، لم يكن محصناً سوى غرفة السلاح (سلاكوت) وإن كان التحصين لا يحمى من قذائف الدبابات والمدافع الثقيلة.

كنا مجموعة من الانتحاريين يقودهم قائد متهوس هذا هو الملخص المفيد، كان هذا المركز على بعد أربعمائة متر من العدو بينما كانت خنادق العمليات لا تبعد عن العدو سوى ثلاثين متراً هى عرض شارع ملىء بالألغام، كان المركز عبارة عن بيت مهجور به عدة غرف يتوسطها فناء، وكانت المسافة الفاصلة بين المركز والعدو عبارة عن بيوت مخربة كانت جزءاً من المدينة وكان العدو يحيط بمنطقة نفوذنا هذه من ثلاث جهات، كنا كنتوء داخل مواقع العدو بل داخل قلب المدينة لأن مقر الوالى وحكومة الولاية (لسوالى) كان خلفنا، وبالطبع كان هذا "اللسوالى" قد حُصّنَ تحصيناً شديداً ويستخدم كموقع عسكرى. كان من عدة أدوار وكانت الرماية لا تهدأ منه وعليه، كما كنا على بعد خطوات من الاستاد الرياضى الذى كان قد أصبح موقعاً عسكرياً هو الآخر، وكان مبنى الإذاعة ويسمونه (بلدينج) بارزاً واضحاً فهو عبارة عن عمارة مرتفعة وتحتها معسكرات "الخاد" (المخابرات الحربية)، وعبر شارع الموت كانت تواجهنا تحصينات ضخمة بها جنود رماة مهرة وخلفهم وحدات الجيش والخاد الكثيفة وفى الشمال كانت هناك جبال عالية عليها مواقع للعدو وبها مدافع ثقيلة لطالما ذقنا منها الأمرين، كان الموقع

قريباً من العدو جداً فكنا نكلمهم ويكلموننا، نشتمهم ويشتموننا، نقتلهم ويقتلوننا، ولم يكن يمر أسبوع حتى نودع شهيداً ولأن أغلب المجاهدين كانوا عربا فإن أغلب الشهداء كانوا عربا كذلك.

كانت العمليات نوعين، قنص طوال النهار واشتباك كبير بعد آخر ضوء، وكان للحراسة الليلية أهمية خاصة لأن هذا المكان كان له سابقة خطيرة فقد كان موقعا لمجاهدى القمندان "عبد اللطيف" وكان به بضعة عشر رجلاً من رجاله وكان بينهم منافق دس لهم فى الطعام منوماً وظل هو فى نوبة الحراسة حتى أتى إليه الجنود متسللين فدلهم على مكان المجاهدين الذين يغطون فى نوم عميق فقتلوهم بالفئوس حتى لا يحدثوا ضجة بالرصاص، وظل هذا المكان خالياً لمدة من الزمن حتى جاء "عبد الرازق" برجاله وواصل المسيرة. لذلك لم يكن يكتفى بحارس واحد بل اثنين فى جهتين متقابلتين وتتبدل الحراسة كل ساعة كما هى العادة وينام كل مجاهد فى السلاح والذخيرة على أتم استعداد للفزع ليلاً.

شيخ بابو

إضافة للحارسين كان هناك رجل جاوز الستين كنا ندعوه شيخ "بابو"، كان شخصية عجيبة هو الآخر فيبدو أن الطيور على أشكالها تقع، كان طويلاً نحيلاً بارز الملامح صخرى التقاطيع، كان هذا الرجل لا ينام ليلاً ولا يأكل من طعام المجاهدين إلا إذا طبخه بنفسه أو ينتظر عدة ساعات بعد أن نأكل فإن لم يحدث لنا شيء أكل هو، كان يتجول حول المركز وقرب العدو طوال الليل يحمل سلاحه ويطلق منه من حين لآخر ويكلم الجنود، يشتمهم حيناً ويدعوهم إلى الإسلام حيناً آخر، كان الغرض من ذلك عدة أشياء، فهو يقول للعدو بلسان الحال نحن أيقاظ، ويوهم العدو أن المجاهدين متواجدون ومنتشرون فى كل منطقة النفوذ فلا يفكرون فى التسلل وتلغيم خنادقنا الأمامية وأماكن رمايتنا، وكان يراقب الحارس الروتينى لئلا ينام أو لا يصعد للحراسة فى موعده المحدد، بل كان يفعل ما هو أكثر إذ يلغم الطرقات المؤدية إلى المركز ويرفع تلك الألغام عند الفجر، ومازالت صيحاته ونداؤه للجنود ترن فى أذنى.. أوه كمنستيانو.. أوه كافرانو.. أوه روس

خادمـانو.. أوه وطـن فروشانو، والأخيرة معناها بائعى الوطن، وكانوا يردون عليه ويشـتمونه ويـتهمونه بالعمالـة لأمـريكا وبالوهابـية، وكان يذكرهم بالتاريخ والدين ويحـاول إثـارة وإحـياء عواطـف الإيمـان لديهـم فكنـت أسمـع منه عبارات بليغة حماسية (دغ جهـاد بخاطـر إسـلام.. بخبل إسلام.. بخاطر قرآن.. بخبل قرآن) وكلمة بخبل هى ضمير (نا) فى العربية أى إسلامنا.. قرآننا، فإن لم يتأثروا بمثل هـذا الكـلام أسـرع بتغيير الموجة فيناديهم، (أوه شيطان عسكرو)، وكان يستفزهم للرماية لكى يبددوا ذخيرتهم، وذات يوم عندما أطلق عليهم عدة طلقات للاستفزاز ردوا رداً فاتـراً فصـاح فـيهم (ولى نـى تكـان؟.. مرمى ختم؟؟) أى لماذا لا تطلقون الـنار؟ هل نفدت ذخيرتكم؟، فانهالت الطلقات والصواريخ من كل ناحية كالسيل العرم بينما غرق شيخ "بابو" فى الضحك.

كـان للشـيخ "بـابو" دكـان فـى المدينة يذهب إليه كل ثلاثة أو أربعة أسابيع يفـتحه لبضـعة أيـام ثـم يعـود بالمعلومات والأخبار. لقد أمضى شيخ "بابو" حياته مـتطوعاً فـى الجـيش طـوال عهـد الملـك وعهد "داود" ثم تقاعد وقد أرانى شهادة تثبت ذلك وهو لهذا يتمتع باحترام وتقدير الجنود فى المدينة، بل إنهم يؤدون له التحـية العسـكرية عـندما يمـر بهم، وله أصدقاء من الضباط، وقد رجع إلى المركز ذات يـوم بـأحد هـؤلاء الضباط، كان من عادته أن يحمل السلاح إلى قرب مدخل المديـنة ثم يدفنه ويدخل المدينة على أنه مواطن مسالم ويفتح دكانه، وعندما طلب مـنه هـذا الضـابط كمية من الحشيش (تشارس) أخبره أن الحشيش فى "ملجات" مجاناً وأى كمية يريدها هى هدية منه، وأفهمه أنه يزرع الحشيش خارج المدينة، فجـاء هـذا الضـابط (ويدعـى"غفـور") ليحصل على المزاج، وبالطبع خرج فى زى مدنـى وعـندما وصـل به شيخ "بابو" إلى مكان السلاح استأذن منه ليقضى حاجته وأخـرج السـلاح المدفون وقاده به إلى المركز بعد أن جرده من مسدسه، وظل أسيراً فـى المركز عدة شهور تصنع خلالها التقى والصلاح حتى نال عطف العرب فكانوا يعطونـه بعـض الأمـــوال والمتاع من حين لآخـــر مما أحفظ "عبد الرازق" رغم أن "عـبد الـرازق" كان يبالغ فى معاملته الحسنة لهذا الأسير فكان يحمل له الماء السـاخن فـى الحمـام وربمـا صـب عـلى يديـه المـاء قـبل الطعام ضمن المجاهدين الجالسـين حـول (الإسـترخان) أو بسـاط الطعـام، كـانوا يجـرون علـيه بعـض

الاختبارات إذ يتغافلون عن السلاح ليصبح فى متناول يده، بل كانوا يضعونه فى قائمة الحراسة الليلية، وذات صباح جردوه مما معه من أدوات ونقود وساقوه خارج المركز وعندما استفسر العرب عن ذلك قال "عبد الرازق" أنهم سيذهبون به إلى المحكمة وبالطبع فإن محكمة "عبد الرازق" هى الكلاشنكوف وقضاته هما منكر ونكير.

صيد ثمين

فى أول يوم لى فى هذا المركز خرجنا فى الصباح مع "عبد الرازق" الذى قسمنا لعدة مجموعات قنص كل مجموعة تتربص بالأماكن المطلة على شوارع المدينة، كان أغلب المارين جنودا وإن كان هناك نساء وأطفال وسيارات مدنية وعسكرية وركشات كما فى الباكستان، كان على مجموعة القنص أن تختفى جيداً وتراقب الطريق الواقع خلف مواقع العدو فإذا ظهر هدف كبير ـ دبابة أو مصفحة أو سيارة عسكرية ـ قام حامل الآر بى جى ومعه باقى أفراد الكمين فيضربونها ثم يلوذون بالخنادق حتى يهدأ رد العدو ثم يعيدون الكرة طوال النهار، وإذا ظهر لهم جندى أو عدة جنود يقوم له حملة الرشاشات وأحياناً يضربونه بالآر بى جى، كنت و"أسد الله" مع المجموعة التى فيها "عبد الرازق" وكان المكان الذى اختاره لنا لا يبعد عن الاستاد الرياضى سوى بضعة عشر متراً، وكان بهذا الاستاد تحصينات بأجولة الرمال فيها جنود قناصون وعلى يميننا مبنى اللسوالى (مقر والى المدينة) الذى كان قلعة محصنة، وبين الاستاد واللسوالى مكان فضاء يطل على شارع على بعد حوالى سبعمائة متر، كان هذا الموقع خطيراً جداً لأنه غير محصن فلم نكن نختبئ إلا خلف سور لا يزيد ارتفاعه على متر واحد ومعظمه متهدم والجنود يعرفون أن هذا الموضع هو مكان رمايتنا وهو لا يبعد عنهم سوى بضعة عشر متراً، وكان أمامنا إلى اليسار قليلاً مواقع للعدو فى الاستاد وعلى يسارنا مواقع العدو فى بداية شارع الموت وعلى يميننا فى اللسوالى، وإمعاناً فى التحدى نصب "عبد الرازق" فى هذا المكان صارياً طويلاً جداً وفى نهايته

بيرق أبيض عليه شعار حزب الاتحاد الإسلامى وكلمة التوحيد، لقد تهلهل البيرق من كثرة ما اخترقه من رصاص ولكنه ظل شامخاً فى السماء.

كان خلف مكان الرماية الخطير هذا خندق حُفر تحت الأرض وغُطى بجذوع الشجر والطين والصخور، كنا عقب الرماية نلجأ إليه لحين هدوء الحال ثم نتسلل إلى السور مرة أخرى نرقب الطريق، كان هذا هو أول يوم لى فى المركز وكان أفضل يوم على الإطلاق، لقد جئنا معنا بالتمر وأدوات الشاى استعدادا ليوم طويل ولكننا عدنا بعد ساعتين فقط، لأننا أنجزنا إنجازاً جعل "عبد الرازق" ـ وهو الذى لا يقنع ـ يقنع بأن هذا كاف اليوم.. لقد قتلنا خمسة جنود واحداً بعد الآخر، فعندما مَرّ بذلك الشارع جندى أمطرناه بوابل من الرصاص فخر فى الطريق ولذنا بالخندق حوالى عشر دقائق حتى هدأ القصف علينا ثم عدنا إلى نفس المكان، ورأينا المارة يتفاوت رد فعلهم تجاه الجثة التى على الأرض، البعض يولى مدبراً ولا يعّقب وهذا لا يسعفنا الوقت لإصابته، كان القتيل الثانى جندياً يركب دراجته، توقف ليفحص الجثة فلحق بصاحبها، واختبأنا مرة أخرى ثم عدنا فوجدنا اثنين يحاولان حمل الجثث فأردتهم قذائف الحق وخروا إلى جوار صاحبيهما، وكان القصف علينا هذه المرة شرساً وعنيفاً واستمر لمدة طويلة، وهوت إحدى قذائف الهاون قرب مدخل الخندق فكادت تردمه على أم رءوسنا ولكن الله سلم، واستمر "الزوكوياك" و"الدوميلا" يمشطان المنطقة تمشيطا حتى ظنوا أننا انصرفنا من هذا المكان لأن المعتاد أن نستخدم المكان مرة واحدة أو مرتين على الأكثر فى اليوم ثم ننصرف لغيره، ولكن "عبد الرازق" جعل أول جثة طُعماً يصيد به ولم يشأ أن ينصرف إلا بصيد ثمين، تسللنا مرة أخرى إلى السور وجلسنا نرقب الطريق، وحانت منى التفاتة إلى الجندى ذى الخوذة المعدنية الجالس فى تحصين الاستاد، تعجبت له جداً، نحن فى مرماه بل لا نبعد عنه سوى بضعة وعشرين متراً وهم قناصة فرز أول.. لماذا لا يصيبنا عندما نقف للرماية، والحقيقة أنهم جبناء إذ يخشون أن تكون الرماية موجهة إليهم فيختبئون حتى نتوقف ثم يمطرون الأحجار التى كنا نقف خلفها بوابل من الرصاص.

ومَـرَّ تعيس الحظ ووقف لغبائه يحملق مذهولاً بمنظر الجثث فمزقته الطلقات، وسُـر "عـبد الـرازق" أيمـا سـرور وشعر بالاكتفاء وتفاءل بى، وعدنا دون أن نصنع شـاياً كمـا كنـت أُمَنِّى نفسى، وعندما علم زملاؤنا فى المركز بهذه النتيجة فرحوا بذلـك وراحـوا يتندرون على غباء الجنود والقذائف من حولنا تتساقط لا يكاد يعبأ بها أحد.

قنص واشتباكات روتينية

بعـد أيـام قلـيلة ألفـت المكـان وتعـودت على القصف المُرَكَّز الذى يفاجئنا فى اللـيل والـنهار، وكونـت و"أسـد الله" فـريقاً وتـرك لـنا القمندان حرية التصرف، وكنـت أحمـل الآر بـى جـى الـذى أنفقـت ساعات طويلة أضبط منظاره و الجهاز الميكانـيكى للتسـديد وكـان "أسـد الله" يحمـل كلاشنكوف،كنا نخرج فى الصباح ونتربـص للقـنص فـى أمـاكن جـد خطيرة لم يكن يرتادها أحد من المجاهدين ولم يكـن قريـب مـنها أى خـنادق، كـان "أسـد الله" غايـة فـى الـتهور كأنه يتحدى المـوت، كنـت أعرف من خلال خبرتى معه أنه لا فائدة من محاولة الحد من هذا التهور مما جعله يسر من مصاحبتى فى هذه الجولات القاتلة.

ومـن المواقـف الـتي لا تُنسـى أنـنا كـنا فـى إحـدى المـرات نعد أحد الأماكن الخطـيرة لـتكون موقعـاً ملائمـا للقنص، فاخترنا جداراً يطل على شارع الموت فى موقـع يواجـه الشارع الخلفى الموازى لشارع الموت حيث تسير المركبات العسكرية والمدنية والأهالى على السواء، فقمنا بحفر ثقب فى ذلك الجدار لا يظهر منه للعدو سـوى فوهـة الكلاشـنكوف التى يصعب تمييزها وفى الخلف من هذا الجدار غرفة مـرتفعة الأرضـية قلـيلا لأن سـقفها مـنهار عـلى الأرض فلـيس لهـا سقف وتصلح للـرماية بـالآر بى جى، فكان "أسد الله" يقف خلف ثقب الجدار وكنت أقف فى تلـك الغـرفة، وفجـأة وقفـت "ركشـا" ونـزل مـنها رجل بزى مدنى يجادل سائق الركشـا عـلى الأجـرة، كان هذا الرجل يبدو كجندى رغم ملابسه المدنية،.. صاح "أسـد الله" بصوت مكتوم لكى أقذفهم بالآر بى جى ولكنّى بعد أن صوبته نحوهم تراجعـت وقلـت له إنهـم أهــــالى.. فصاح بحنق شديد: اضرب على مسئوليتى،

قلت لـه: إنهم مسلمون!! ، فصاح وقد كاد يذهب عقله: (ما بيهاجروش ليه؟)، وسرعان مـا شـاعت هـذه الكـلمة عـلى الألسـن وصـارت مما يُتنَدر به بين عرب "قندهار".

كـان كـل المجـاهدين يخرجون عند المغرب بقيادة "عبد الرازق" ولا يبقى فى المركـز سـوى فـردين أو ثلاثـة للحراسـة، وكـان "عـبد الـرازق" يقـوم بتقسـيمنا مجموعـات عـلى امـتداد مـنطقة النفوذ المواجهة للعدو.. كل مجموعة معها قاذف صـاروخى آر بـى جـى أو "شتاتودو" أو "هفتا دو بانج" إضافة إلى مجموعة تغطية مـن حملـة الرشاشـات، هذا فضلا عن صواريخ P.M (كاتيوشا) التى توضع مقابلة للأمـاكن المهمـة وتُقـذف دون مدفع، وكان الهاون ينصب تارة ناحية اليمين وتارة ناحـية الشـمال وكانـت هـناك مجموعـة مخصصـة للرماية عليه كلهم عرب، وإلى جانـب ذلـك كـان يـتم إطـلاق صـاروخ ١٢٢ طويـل الـمدى أو اثـنين ويـتولى هذا الصـــاروخ "عـبد الـرازق" نفسه، وكان إطلاق هذا الصاروخ هو إشارة البدء لباقى الأسـلحة. كانـت المعـركة تسـتمر حـوالى سـاعة يـتم فـيها تـبادل نـيران المدافـع والصـواريخ والرشاشـات ثـم نتسلل عائدين إلى مركزنا، وكانت هذه المعركة هى ما أشـاهده يومـياً مـن فـوق الجـبل وتمنيـت أن أكون فى قلبها يوماً ما، كانت تبدو رائعة خلابة من بعيد ولكنى وقد صرت فى قلبها كنت أشعر أنها تحصيل حاصل فأمامـنا حصـون حصينة بها أعداد قليلة من جنود متخندقين.. نحن بغير حصون ولا يكـاد يضـرنا قصـفهم فـى شـىء، فما بالك وهم فى تلك الحصون؟! كان أمير العـرب فـى المركز هو "أبو تميم" المصرى وكان الأفغان ينادونه "تميما"، كان شاباً قـوى الجسـم متوسط الطول ممتلئاً نشاطاً وحيوية لا يكاد يهدأ طوال النهار، كان مـن أبناء الإسكندرية وإن كان صعيدى الجذور. كان مرحاً ودوداً باسم الثغر وطالما حـاول أن يجعـل "عـبد الرازق" يغير خططه العسكرية ولكن دون جدوى، ولطالما حاول أن يحد من غلواء "أسد الله" دون جدوى. كان "أسد الله" طيباً سليم الصدر إلا أن له غضـبات مضرية حـادة، وكانت قاصمة الظهر عندما أراد "أبو تميم" أن يمـنع "أسـد الله" مـن الأذان فـوق سـطح المركز ـ وكان لا يحلو له الأذان إلا فوق السطح ـ حيث يكون ظاهراً للعدو الذى لا يبعد عنا من بعض النواحى سوى ٢٥٠ مـتراً وكأنه يقول لهم اقتلونى، كان الرصاص يمرق فوق رأسه ولا يأبه له بل كانوا

يـتخذونه كعلامة لتحديد موقعنا بالضبط للرماية علينا بأنواع المدافع، فلما قال له "أبـو تمـيم" هذه آخر مرة تؤذن فوق المركز احتد "أسد الله" وقال له إن أميرى هو "عـبد الـرازق" نفسـه وليس أنت، ولما وجد "أبو تميم" أن كلاهما لا فائدة منه آثر تـرك المركـز، وعـلى قصـر المـدة الـتى أمضيتها معه إلا أن زمالة المخاطر لا تنسى أبـداً، كـان "أبـو تمـيم" متخصصاً فى تجهيز ورماية صواريخ ١٢٢ وصواريخ P.M وكـان قـد علمـنى كـيف أرمـيها وعلمـنى أيضـاً كـيف أحمل صاروخ ١٢٢ الثقيل وحـدى والـذى كان لا يحمله إلا اثنان، لذلك سمونى "بهلوان" وهو لقب يطلقونه عـلى الأقويـاء المغامـرين، وعندما أصبت فيما بعد وعلم بذلك "أبو تميم" وكان فى جـبهة أخـرى فـى "جـلال آبـاد" تـرك الجـبهة عـلى حبه لها ليكون رفيقى فى المستشـفى وكـان نعـم الرفـيق ونعـم الصـديق ونعـم الأخ الوفـى المخلص، وكالعهد بنشـاطه وإخلاصـه لم يكـن فـى رعايـتى فقط بل فى رعاية العنبر كله بل وجميع جـرحى المستشـفى، ولم يتركـنى إلا بعـد صـدور الأوامر له بالتوجه إلى "خوست" للاستعداد لاقتحام المدينة فقد أصبح "أبو تميم" من الشخصيات المهمة فى القاعدة العسـكرية، وصار أستاذاً فى الرماية على مدفع PM12، وفتحت "خوست" أخيراً فعسـى أن يكـون "أبـو تمـيم" قـد سـلم وغـنم، وجـزاه الله عـنى وعـن كـل نزلاء المستشفى كل خير.

والحقـيقة أن هـذا المركـز كان من أهم المنافذ التى يقصدها كل المراكز المحيطة لضـرب العـدو، فكـان يـأتى لنا كل يوم مجاهدون من مركز أو مركزين بأسلحتهم وذخائـرهم ويضـعون أنفسهم تحت تصرف "عبد الرازق" الذى يبادر فيخرج معهم برجاله ويقوم بعملية كبيرة، مما أعطى هذا المركز حجماً أكبر من حجمه بكثير إذ كـان العـدو عـلى الجانـب الآخـر يشعر بقوة الرماية وكثافتها واستمرارها على مر الأيام بينما كان عدد المجاهدين الأصليين لا يتجاوز العشرين فى أغلب الأوقات، وقـد كان "عبد الرازق" يحتفظ بخطاب أرسله له القائد العام للجيش فى "قندهار" ويخاطـب هـذا الجـنرال الكـبير "عـبد الرازق" بلهجة كلها تعظيم وإكبار (حضرة محـترم قمـندان عـبد الرازق خان) ويرجوه أن يوقف إطلاق النار مقابل مبلغ كبير عـن كـل يـوم لا تطلق فيه النيران، وعندما طلب الرســول رداً على هذا العـرض

قال "عبد الرازق" للرسول سأبعث إليه الرد فى المساء وكان الرد خمسين صاروخا PM!!

كان العرب من كافة مراكز "قندهار" قد عرفوا مركز "عبد الرازق"، وكانوا سريعي الملل فمن حين لآخر يستأذنون من قادتهم ويأتون إلينا بأسلحتهم وذخائرهم فيمكثون عدة أيام ثم يعودون بسبب ضيق المكان، وكان "عبد الرازق" يرحب بهم أيما ترحيب وكان يريدهم أن ينضموا له نهائياً ويتركوا مراكزهم لأن مشكلته كانت قلة الرجال بالنسبة لطموحاته العنيفة، فلم يكن معه سوى خمسة أفغان يزيدون وينقصون من حين لآخر، فكما أرسل كثيراً من الجنود إلى الجحيم فقد أرسل كذلك عدداً لا بأس به من المجاهدين إلى الجنة، ولم يكن يستمر معه إلاّ من هم على شاكلته مثل شيخ "بابو" و"عبد الستار" و "عبد الوكيل" و"أسد الرحمن"،وكان العرب يحوزون إعجابه لأن نسبة المتهورين فيهم لا بأس بها.

عبد الرازق يريد الاستقلال

فى هذه الأثناء كان يجرى العمل فى حفر الخندق الموصل إلى المطار فى منطقة "خوش آب" أى الماء العذب بالفارسية، وكان يخرج من مركز "محمد أيوب أغا" جماعة بقيادة شاب يدعى "عبد الرحمن أغا" وهو ابن أخى القمندان وذلك للمساهمة فى أعمال الحفر والحراسة أثناء حفر ذلك الخندق الكبير أو النفق، وكان "عبد الرحمن" فى العشرينيات وكان طويلاً قوياً مفتول العضلات وكان يأتى لمركزنا من حين لآخر ويشارك معنا فى العمليات، و"أغا" لقب يحمله من ينتسب لآل البيت وقد تعجبت لكثرة عددهم. فنحن فى "عربستان" (كما يسمون بلادنا)، لا نكاد نلتقى بشخص من آل البيت طوال حياتنا، هل هؤلاء ينتمون فعلاً لأبناء الحسن والحسين أم أنهم مدّعون؟ إن كانوا من آل البيت حقاً فتفسير ذلك أن آل البيت قد فروا من مراكز الخلافة فى البلاد العربية للنجاة من بطش الأمويين والعباسيين، والحقيقة أنى وجدت أن هؤلاء الأغوات أكثر أهل "أفغانستان" حباً وإخلاصاً للعرب حتى فى أحلك أيام الفتنة الوهابية، ويبدو أن السر فى ذلك

أنهم يعتبرون أنفسهم عرباً ويعتبروننا قومهم فى بلادٍ لا تعرف سوى القبيلة والقوم.

كان معنا أيام "قارى زك" فتى يافع فى نحو السادسة عشرة كان من آل البيت لذلك كان يتميز بعمامة بيضاء، وكان من الطبيعى ألا يشارك فى أعمال الطبخ وما شابه احتراماً لجده عليه الصلاة والسلام، وكان المفروض أيضاً أن يقّبل الناس يده عند المصافحة ولكنهم كانوا يتجاهلون هذا التقليد لصغر سنه، وكان الفتى من طلبة العلم ويعرف اللغة العربية وقد دفعه شيخه إلى الجهاد، وكان كثير المخالطة للعرب ويبيت معنا فى غرفتنا ويعتبرنا قومه كما لكل أفغانى قوم يفخر بهم، وكان الفتى لا يمل من تمجيد المذهب الحنفى ويفضله على باقى المذاهب حتى كان ذات يوم يتصفح أحد كتبنا التى تتحدث عن فقه الجهاد وتشاء الأقدار أن تقع عينه على باب تقسيم الغنائم ويقرأ: إن المذاهب كلها تخصص خمس الغنيمة لآل البيت وخالف فى ذلك "أبو حنيفة" فتجهم وجهه وقال: إنهم حقا لا يعطوننا من الغنيمة، ولم نسمعه يمدح المذهب الحنفى بعد ذلك أبداً.

كان "عبد الرحمن أغا" هو المرشح للقيادة الميدانية (قمندان تعرض) بدلاً من "عبد الرازق"، وقد لاحظت الوحشة المتبادلة بين "عبد الرازق" و"محمد أيوب أغا"، والذى فهمته من كلام مُلا "عبد الرازق" أنه شرع فى الجهاد منذ بدايته قبل عشرة أعوام وكان فى الخامسة عشرة ومن وقتها وهو تحت قيادة "محمد أيوب أغا" ومازال تابعاً له حتى الآن وإن كان ينزع دائماً إلى الاستقلال بالرأى والعمل، وقد حكى لى كيف كانوا يسكنون شواهق الجبال ويتقوتون بحفنة أرز لكل رجل طوال اليوم، وكيف كانوا ينزلون فى الليل يباغتون الروس ثم يفرون إلى الجبال، وتعلم "عبد الرازق" خلال تلك السنوات جميع أنواع السلاح المستخدمة فى "أفغانستان" وكان خبيراً بالألغام، وصار هو أقوى شخصية فى مركز "محمد أيوب أغا" وأصبح هو قمندان التعرض والمتصرف الوحيد فى المركز أثناء غياب القمندان، ولم يكن "محمد أيوب" موافقاً على اتخاذ "بوسطى موبلين" (مركز عبد الرازق الحالى) كمستقر لمجموعة من المجاهدين التابعين له، ولكنه عاد من

"باكستان" ذات يوم فوجد "عبد الرازق" قد أخذ مجموعة من المجاهدين والسلاح واتخذ هذا المكان كموقع متقدم لمركز "محمد أيوب"، فلم يجد القمندان بداً من قبول الأمر الواقع حتى لا يخسره ويخسر معه عددا من رجاله الذين يكنون الولاء لعبد الرازق.

وكان الكثير من القادة يتصلون بـ "عبد الرازق" لينضم إليهم وكذلك مراكز الشيعة وحتى الشيوعيين أنفسهم حاولوا استمالته، وكان "عبد الرازق" يأبى، ليس ولاء لقائده ـ بل ربما لأنه لا يرى أن أحداً فى العالم يستحق أن يكون رئيساً عليه، وكان "محمد أيوب" بالنسبة له مجرد مصدر للذخائر والتموين ولن يتردد فى الاستقلال عنه إن ضمن لنفسه مصدراً آخر لهذه الأشياء، وكان يريد أن يحصل على حاجته من الذخائر والتموين من الحزب مباشرة، أى يكون قائد مركز رسمياً مثله مثل "محمد أيوب" وليس تابعاً له، وأراد "عبد الرازق" من العرب أن يتوسطوا له فى هذا الأمر لدى قمندان "عبد الله خان" مسئول حزب الاتحاد فى "كؤيتة" ولكن "عبد الله خان" غضب ورفض بشدة وقال: إذا كان يجاهد فى سبيل الله حقاً فما الفرق أن يكون مستقلاً أو تابعا لغيره؟ وحتى الآن لا أستطيع الجزم أكان موقف "عبد الله خان" صواباً أم لا، فمن ناحية كان "عبد الرازق" جديراً أن يصطنع وجديراً أن يكون قائداً مستقلا له رأى فى مجلس شورى القادة، ومن ناحية أخرى كان "عبد الرازق" يأنف من طاعة شيخ "سياف" نفسه مثلما يأنف من طاعة "محمد أيوب"، ومن المؤكد أنه لن ينفذ من أوامر الحزب إلا ما يوافق هواه، وهذه صفة لا يختص بها وحده بل معظم قادة "قندهار" كانوا كذلك.

والغريب فى أمر "عبد الرازق" أنه لم يكن قندهارياً بل كان من ولاية "هلمند" المجاورة، وهناك العديد من أبناء "هلمند" يقاتلون فى "قندهار" لأن ولايتهم محررة وحتى قبل التحرير كانت معاركها هادئة فكانوا يجدون لأنفسهم متنفساً فى "قندهار".

كان "عبد الرازق" شديد الذكاء والدهاء رغم أن أشياء بسيطة وأولية كان يتصرف فيها تصرفاً خاطئاً بل ويصر على هذا الخطأ، وأبسط هذه الأشياء أنه

كـان يحـدد موعد العملية وقت الغروب كل يوم وعلى مدى أشهر طويلة، وبالطبع حفـظ الشـيوعيون الموعـد فكانوا ينتظروننا وهم متحصنون ومتخندقون حتى أننا لما تأخـرنا يومـاً ريـثما نعـد الصـواريخ إذ بالجـنود يصـيحون: هـيا لقـد تعبـنا مـن الانـتظار.. ارمـوا مـا معكم لنفرغ للعشاء، وعندما اقتنع أخيراً بتغيير الموعد كانت النتائج مذهلة.

عبد الرازق في فلسطين

رجـل مـثل "عـبد الـرازق" لابـد أن يكـون حديـدى القلـب صـخرى المشاعر، فالجهـاد عـلى عكس ما يظن الناس لا يرقق القلب بل يقسيه، وهذا بالطبع ليس لكـل الـناس، ولكـن الشـكوى العامـة الـتى كنت أسمعها من المجاهدين أنهم قد قسـت قلوبهـم وتحجـرت دموعهـم وصـاروا لا يبكون فى الصلاة ولم تعد جلودهم تقشـعر مـن الـتلاوة وحـتى الشـعر لم يعـد يهـز مشاعرهم، نعم كان معنا قديسون يجهشون فى الصلاة وعند التلاوة بل يكفى كلمة عابرة عن الجنة أو النار حتى لا يملـك نفسـه، ولكـن هـذه حـالات نـادرة.. واحد فقط أو اثنين لم أر سواهما، أما أحدهما فقد قضى نحبه وأما الآخر فينتظر.

"عـبد الـرازق" إذن كان مثل غالبية المجاهدين لا يجزعون لمصيبة ولا يفزعون لكارثـة ولا يـبالون بجـرحى ولا بشـهداء، لقد أمضى عمره منذ كان طفلاً وهو فى لهيـب المعارك بين الدماء والأشلاء، لقد صارحنى لماذا يصر على أن تكون المعركة بعـد المغـرب دائمـاً، وكان أعجـب سـبب يمكن أن يخطر على بال! فهـو لا يسـتطيع الـنوم إلا إذا خـاض معركة مثل هذه كما لا يستطيع الواحد منا النوم دون تناول العشاء!!!

سـألنى يومـاً لمـاذا لا تجـاهدون الـيهود فـى "فلسطين"؟، قلت له لا نستطيع (قـدرت نـيس)، فتعجـب وتسـاءل: لماذا؟، قلت له الحدود مقفلة (سرحد باند)، تعجـب أكـثر وقـال لى: إن "روسيا" لم تسـتطع قفـل حدود "باكستان" ولا حتى حدودها هى لأن المجاهدين يعبرون النهر ويقومون بأعمال عسكرية داخل الاتحاد السـوفيتى ثـم يعـودون، قلت له: إن الذى يقفل الحدود ليس "إسرائيل" فقط بل

البلاد العربية أيضاً وإذا حاولت العبور إلى فلسطين فسوف يقتلك العرب قبل أن يفعل ذلك اليهود.

وكان معنا مجاهد من "فلسطين" وكان معه مجلة بها صور الانتفاضة، أحضرت له المجلة ورأى صور الفتيان وهم يقاتلون بالحجارة والنبلة فذهل لذلك وقال لى: أليس هناك كلاشنكوف؟ قلت له: لا يوجد، قال: كيف.. إن معكم أموالاً كثيرة جداً لماذا لا تشترون كلاشنكوف؟ وعندما رأى صورة جندى إسرائيلى مدجج بالسلاح يضرب عجوزاً فلسطينية بكعب البندقية وهي تحاول أن تتمسك بابنها المأسور.. تأثر "عبد الرازق" تأثراً شديداً، ورحت أرقب تعبيرات وجهه.. لقد احمر وجهه من التأثر وكادت تدمع عيناه ولكن هيهات، إن مثله ربما لم يبك قط طوال حياته..، نادى بسرعة على الأفغان ليريهم هذه الصورة.. ثم اتخذ قرارات سريعة، يجب أن أذهب برجالى إلى "فلسطين".. سوف آخذ العرب معى.. ثم سأل:

- أليس فى "فلسطين" جبال؟

- بلى إن فيها جبالاً!

- جيد إذن ليس هناك مشكل.

- كيف ستصل إلى هناك؟

- سوف ندبر سيارة ونحمّلها بالسلاح والذخيرة ونذهب بها.

- عليك أن تعبر "إيران" ثم تعبر "العراق" ثم تعبر "الأردن" وكل هذه الدول تمنعك.

- أنت من سكان المدينة أليس كذلك.. إنكم لا تعرفون سوى الإسفلت.. إذا تركت الإسفلت ستجد أرض الله واسعة ليس بها حدود ولا حكومات.. إن الحشيش يزرع هنا فى "أفغانستان" ويمر عبر "إيران" ويذهب إلى "تركيا" ولا يشعر به أحد.

ـ علينا أن نفتح "كابل" أولاً ونقيم دولة الإسلام فى "أفغانستان" ثم يفتح الله لنا "العراق" و"سوريا" و "الأردن" و "لبنان" ثم بعد ذلك نحارب اليهود..

لقد خيبت رجاءه.. ويعلم الله أينا كان على حق، ولم يقتنع أبداً أن هناك حدودا يمكن أن تعوق الجهاد، ورغم شخصيته العنيدة إلا أنه أفغانى يغلب عليه المرح والدعابة، لقد سألته يوما وهو يداعب القمل والبراغيث أو على الأصح هى التى كانت تداعبه، سألته:

ـ لماذا لم تتزوج حتى الآن؟

ـ أوه.. وعدا دى بخى تكليف، أى الزواج مشكلة كبيرة.

ـ ولى؟؟ أى لماذا.

ـ لأن البرد شديد فى "أفغانستان" (بسيار يخ) وإذا تزوجت فكيف أغتسل كل يوم؟

لم أدر أكان يمزح أم أنه يكره الاستحمام إلى هذا الحد، وبالطبع فإنه لم يذهب إلى "باكستان" قط، والمرة الوحيدة التى فكر فى الذهاب إليها كان يريد القيام بعملية إرهابية للمدارس الصليبية التى تعلم أبناء المهاجرين، ولم يثنه عن ذلك إلا استنكارنا الشديد له لأنه سيودى بحياة الأطفال الأبرياء وكان يرى أن موت بضعة أطفال سيمنع كل الآباء من إرسال أبنائهم لتلك المدارس. بل لم يذهب إلى ولايته "هلمند" ليزور ذويه على قرب المسافة وطوال سنوات الجهاد.. أى صنف من البشر هذا.. إنه لم يعرف فى هذه الدنيا شيئاً سوى القتال ولا يريد أن يعرف سواه، وإذا أردنا أن نفهم نفسية "عبد الرازق" فيجب أن نفرق بين نوعين من الشجاعة.. فهناك شجاعة التهور وهى فطرة جبل عليها البعض مثل "أسد الله" الذى يلقى بنفسه فى المهالك ولا يبالى أسقط عليه الموت أم سقط هو على الموت فهو متهور مقدام، وهناك نوع آخر من الشجاعة المكتسبة من التعود على المخاطر ومن كثرة ما خاض من المعارك وما تعرض له من قصف وما تعود عليه من مناظر الدماء والأشلاء، فبفعل الزمن والتكرار تفقد هذه الأشياء رهبتها ويصبح القتال مثل أى عمل روتينى لا ينتابه منه أى خوف، وكانت شجاعة

"عبد الرازق" من هذا النوع الأخير، وإذا أردنا أن نصف خصائصه النفسية لقلنا إنه صبور عنيد، وقد يبدو للناظر المتعجل أن لا فرق بين "عبد الرازق" وبين "أسد الله" والحقيقة أن الفارق بينهما كبير وما يصلح فيه أحدهما قد لا يصلح فيه الآخر فسبحان من برى النفس وسواها.

محاولة اغتيال "عبد الرازق"

لم يكن "عبد الرازق" محبوباً من قادة "قندهار" لا أدرى بالضبط ما السبب فى ذلك، هل لأنه ليس قندهارياً؟ أم لجموحه وانفراده بالرأى والعمل دون مشورة؟، فقد أبى أن يصغى للقادة عندما طلبوا منه الكف عن العمليات اليومية الخطيرة حتى لا يقتل كل من معه، وربما لما كسبه من سمعة أو لالتفاف العرب حوله.. والغيرة فى هذه الأشياء ليست مستبعدة، وأخيراً ربما شعر قمندان "عبد اللطيف" (الذى ذُبحَ رجاله فى هذا الموقع) أن "عبد الرازق" قد أخذ منه موقعاً كان تابعاً له.. المهم أنه حدثت ذات يوم محاولة جريئة لاغتيال "عبد الرازق"، فقد جاء ثلاثة من المجاهدين الغرباء وسألوا الحارس الذى كان يجلس خارج المركز عن مُلا "عبد الرازق" وهذا شىء عادى ومتكرر، كان الوقت ظهراً والحارس الأفغانى يجلس بغير سلاح، لقد كان شاباً صغيراً فى نحو السادسة عشرة ولكنه كان شديد الشبه بـ "عبد الرازق" وكان يدعى "بسم الله". قال لهم الشاب إن "عبد الرازق" بالداخل.. اتبعونى، وسار أمامهم ليقودهم إلى حيث القمندان ،لكنهم ظنوا أن هذا الشاب هو "عبد الرازق"، وكان كل منهم يحمل كلاشنكوفاً ذى خزينة كبيرة سعة ٤٥ طلقة، وكان "بسم الله" أمامهم على بعد خطوة أو خطوتين وفجأة سحب أحدهم أقسام السلاح فالتفت "بسم الله" على الفور وأمسك بماسورة السلاح وظل القاتل يحاول توجيه السلاح نحو "بسم الله" وهو يطلق منه الرصاص بغير انقطاع و"بسم الله" تارةً يرفع الماسورة لأعلى وتارة لأسفل حتى فرغت خزينة السلاح فألقاه القاتل وأسرع يعدو، أصيب "بسم الله" برصاصة اخترقت فخذه وشويت يده من حرارة ماسورة السلاح، ورغم ذلك ظل يعدو خلف القاتل حتى أمسك به، وخرج المجاهدون على صوت الطلقات واقتادوا الثلاثة إلى المركز وتم تقييدهم

وأدخلهم "عبد الرازق" قبواً مظلماً ليستجوبهم وبعد فترة استدعانى فدخلت وأغلق الباب خلفى فلم أر شيئاً البتة، وفجأة أضاء شيخ "بابو" البطارية فى وجه القاتل، كان مشهداً مروعا انخلع له قلبى، كان وجهه مغطى بالدماء ولا يُرى من خلال الدماء سوى عينين جاحظتين.. وألقى "عبد الرازق" سؤالاً آخر، وتلكأ القاتل فى الإجابة فانهال شيخ "بابو" بكل قوته على وجه الرجل بكعب البندقية وحانت منى التفاتة إلى الآخرين فوجدتهم موفورين لا يرى بهم بأس، لقد أخبروا "عبد الرازق" أنهم من مركز "عبد اللطيف" وأنهم لا يعرفون هذا القاتل لأنه جاء أمس فقط من "باكستان" على أنه مجاهد يريد القتال معهم، وفى الصباح أخبرهم أنه يريد الذهاب لزيارة "عبد الرازق" ولا يعرف الطريق فجئنا معه لندله على الطريق ولم نعرف أنه يريد قتل أحد، وصدقهم "عبد الرازق" لأنهم بالفعل لم يشتركوا مع هذا القاتل فى إطلاق النار ولو فعلوا لقتلوا "بسم الله" فوراً أثناء النزاع، ثم إنهم لم يهربوا بعد أن هرب هذا القاتل، ووجدنا صورة "عبد الرازق" فى ملابسه واعترف أنه كان يريد قتل "عبد الرازق" ولكنه ظن "بسم الله" هو "عبد الرازق"، ولم يعترف أبداً عمن أرسله ليفعل ذلك رغم ما لقى من بطش وتنكيل وأغلب الظن أنه لم يكن يشعر بالضرب بسبب الحشيش الذى كانت علاماته واضحة فى طريقة كلامه. نظر إليّ "عبد الرازق" وقال لى ما رأيك؟ قلت له يجب إرساله للمحكمة الشرعية، وكنت أعرف أنه استدعانى لأسمع الاعتراف حتى لا يعترض العرب على قتله.. لم أكن أريد تحمل تبعة دم يسفك ولا أدرى هل هو شيوعى منافق أم قاتل مأجور أم مسلم موتور أم مجاهد مخدوع، وكانت المحكمة الشرعية تفصل فى مثل هذه القضايا وتوقع العقوبة حتى على القادة، وقد وقع ذات مرة اشتباك بين مركزين ثم ذهبوا للمحكمة لتفصل فى الخصومة، فما كان من القاضى إلا أن قيد القائدين وانهال عليهما ضرباً وألقاهما فى الحبس تعذيراً لهما، وكان لهذه المحكمة احترام كبير فى "قندهار".

بالطبع لم يعجب كلامى "عبد الرازق" ولكنه لم يظهر أدنى امتعاض بل قال: حسنا سوف نرسله الآن إلى المحكمة، وقام بتجريده من كافة ما معه من مال أو أدوات، وخرج به واقتاده مع مجموعة من الأفغان إلى خارج المركز وأعلن للعرب أنه سيذهب به إلى المحكمة الشرعية، وأكاد أجزم أنه قد ذهب به إلى المقابر

ولـيس إلى المحكمـة، والعجيـب فى هذه القصة هو كيف تحمل "بسم الله" حرارة السلاح حتى شويت كف يده، وكيف تحمل الوقوف على رجليه بعد أن اخترقت الرصاصـة فخـذه وخرجت من الجهة الأخرى، بل لم يكتف بهذا إذ ركض خلف هـذا المـنافق وأمسـك بـه، ولم يذهـب إلى طبيـب، بـل اكـتفى بـبعض المطهـرات السـطحية وخـرج معـنا فـى العملية اليومية وكأن شيئاً لم يحدث، رغم أنه مازال فـتى يافعاً لم ينبت له ريش الجناح، إنه مشروع قندهارى، كيف يصير بعد بضع سنوات من الجهاد؟ ربما صار مثل "عبد الرازق".. هذا إن ظل حياً.

"أبو دجانة" شهيداً

كـنا نريد تدمير "الزوكوياك" ذى الطلقات الرهيبة، إنه سلاح مضاد للطائرات فـى الأسـاس ولكـن الملاعين يستخدمونه ضد الأفراد، لقد وضعوه فوق أحد المبانى المطلـة عـلى شـارع المـوت داخـل حصن حصين على شكل قبة ليس فيها فتحات سـوى فـتحة مستطيلة ضيقة تتحرك فيها ماسورة "الزوكوياك" ذهاباً وإيابا، هذه القبة لم يكن يؤثر فيها أى نوع من القذائف التى يملكها المجاهدون وكأنها بنيت مـن فـولاذ (نسيت أن الصخور أشد صموداً من الفولاذ)، كنت أرى قذائف الهاون تسقط على أم رأسها ولا تضرها شيئاً، حتى صواريخ PM، ٧٥ مم و٨٢مم لم تكن تجـدى نفعـاً، كـان هـذا "الـزوكوياك" اللعـين يحرمنا من حرية القنص فالطلقات تخـرج مـنه كالمطر المـنهمر والطلقـة كبيرة الحجم ولها قوة اختراق رهيبة، كانت تخـترق الجـدران رغـم سمكهـا، ولا أنسـى يومـا كـنا نقـف فـى مواجهــة هـذا "الـزوكوياك" تمامـاً ولا يفصـلنا عـنه سوى الشارع وكنا نترصد ويبدو أنهم رأونا، فـانطلق "الـزوكوياك" بعـنف وصـخب شـديد، فمـا كان من "أسد الله" إلا أن قام ووقـف ظاهـراً للعـيان وأخـذ يطلـق الرصـاص مـن "الكلاشـنكوف" عـلى حصـن "الـزوكوياك" ، إنـه أعجب مشهد يمكن أن يراه إنسان، "كلاشنكوف" فى العراء يواجـه "زوكويـاك" فـى حصـن حصـين، لقد استبد بـ "أسد الله" الحماس فأخذ يصيح بأعلى صوته: إن العرب كوماندوز.. وأنهم همّ الذين سيذبحون الشيوعيين، وذلـك لأن الجـنود كـانوا قـد دأبوا على الصياح بأنهم سيذبحون العرب الذين فى

المركز كما ذبحوا من كان قبلهم. حاولت منع "أسد الله" من هذا الجنون ولكنه دفعني وظل يبادل "الزوكوياك" النيران حتى نفدت ذخيرته، ثم نزل ولشدة دهشتي نزل سليما رغم أني لم أر رماية "زوكوياك" أشد ولا أعنف من هذا الذى رأيته، ومضينا.. كنت أدفعه دفعا وهو لا يزال يصيح ويشتم الشيوعيين: كمنست ختم.. "نجيب" خر.. عرب كوماندوز، كان حافى القدمين فقلت له كوماندوز حافى؟ فضحك وقال هكذا الموضة.

وجاء "صديق" التونسى من "باكستان" لينضم إلينا بعد أن قضى بعض الحاجات فى "بيشاور" وكان معه "عبد الله الرومى" و"أبو دجانة" اليمني الذى كان مصابا ومكث للعلاج والنقاهة حوالى شهرين فى "كؤيتة"، كان شاباً وسيم الملامح أبيض البشرة قصير القامة نحيف الجسم ككل أهل "اليمن" كان هادئا مطمئن النفس ومنذ أول وهلة قرأت فى وجهه آيات الشهادة، لقد جاءوا فى المساء وفى صباح اليوم التالى خرجت و"أسد الله" لتدمير هذا "الزوكوياك" وألّح "أبو أحمد" السعودى و"أبو دجانة" اليمنى أن يأتوا معنا، وقد وضعنا خطة لهذه العملية، كانت الفكرة هى التأكد أن "الزوكوياك" فى الحصن (لأنه متحرك يصعد للرماية ثم يهبط بطريقة ميكانيكية) ثم نجتهد فى إدخال قذيفة آر بى جى خلال فتحة الحصن الضيقة المستطيلة وبذلك ندمر "الزوكوياك" ونقتل الرامى اللعين، كنت قد أنفقت ساعات طويلة أضبط المنظار، وكان هذا الأمر يتطلب قلبا جسورا مثل قلب "أسد الله" لأن الرامى عليه أن يقف مكشوفاً ليس فقط فى مواجهة "الزوكوياك" بل فى مواجهة أمهر قناصين صنعتهم عشر سنوات من الحرب وذخيرة بغير حدود، ولكن كان لزاما علىّ أن أقوم بهذا العمل لأن السلاح تخصصى وأنا الذى ضبط منظاره.

قام "أسد الله" بوضع "أبو دجانة" و"أبو أحمد" فى مكان آخر مواجه للعدو وكان عليهم أن يستفزوا العدو حتى يصعد "الزوكوياك" لأعلى ويفتح نيرانه، انبطحت و"أسد الله" أمام فتحة أسفل جدار مواجه للزوكوياك، ورأيناه وهو يرمى.. إذن هو فى المكان المطلوب، وجاء إلينا "أبو دجانة" مسرعا وأخبرنا أن "الزوكوياك" فى ذلك الحصن، قلنا له لقد رأيناه. والآن جاء دورى.. علىّ أن

أصعد السلم إلى السطح وأصوب لأُدخل القذيفة داخل الحصن خلال فتحة جد ضيقة.

صعدت السلم وأنا واجف القلب.. ربما لا أنزل من هذا السلم ثانيةً أبداً.. جلست على أعلى درجة وأحنيت جذعى حتى لا يرانى العدو، رحت أرقب بحذر شديد مواقع العدو وأستعد لأقف وأصوب، وفجأة صاح "أبو دجانة" انتظر حتى أذهب لأراقب الهدف، لقد كان يريد أن يرى هل ستصيب القذيفة أم تخيب، ورجع إلى مكانه الأول وكذلك ذهب "أسد الله" إلى الفتحة أسفل الجدار وانتظرت لزمن يكفى لوصولهما ثم استجمعت عزيمتى ووقفت ووضعت علامة الصليب على فتحة التحصين وأطلقت القذيفة، لم أنتظر لأرى النتيجة بل ألقيت نفسى من السلم وأسرعت نحو "أسد الله" حيث كان منبطحاً ليرقب الهدف فانبطحت بجواره فإذا به يلف ذراعه حول عنقى ويقول لى (تا بسيار خوب) أى أنت ممتاز، لم أصدق نفسى ونظرت فإذا الدخان يتصاعد من داخل التحصين، فرحت كما لم أفرح فى حياتى ولكن الفرح دائماً قصير الأجل، لقد جاء "أبو أحمد" مسرعاً وهو يصيح وينادى علينا، فسألته عما حدث فقال قُتل "أبو دجانة".. شعرت بخنجر يغوص فى صدرى، قلت له تقصد أنه أصيب، قال لا بل قُتل. أسرعت مع "أسد الله" إلى حيث "أبو دجانة"، رأيت المكان لأول مرة.. لقد وضعهم "أسد الله" فى مكان جد خطير، إنها ساحة مكشوفة لا يفصلها عن قناصة العدو سوى سور معظمه متهدم، كان "أبو دجانة" و"أبو أحمد" يجلسان قرب فتحة كبيرة متهدمة من السور يرقبان، وهو نفس المكان الذى رموا منه منذ قليل، وعندما رأى "أبو دجانة" القذيفة تدخل الحصن لم يتمالك نفسه فوقف وصاح "الله أكبر"، ولكن أحدهم كان له بالمرصاد فأتته الطلقة فى جبينه بين عينيه، فخر من فوره وانتقل إلى جنات وعيون.. سبحان الله.. لحظة.. بل جزء من ثانية هى الفاصل بين عالم الغيب وعالم الشهادة.

أسرعنا إلى حيث "أبو دجانة" لكننا لم نسطع الاقتراب منه لأن الساحة مكشوفة والرصاص سيمزق مَنْ يجرؤ على الظهور. أرسلنا "أبو أحمد" ليخبر مَنْ بالمركز، ثم بعزمة من عزمات "أسد الله" ركض نحو الجثة والرصاص يمرق من

حولـه ولم أجـد بـداً مـن اللحاق به. انبطحنا بجوار الجسد المسجى، كان وجهه شـاحبا ورأسـه فـى بركة من الدماء وذراعيه مفتوحتان على أقصى زاوية، اشتدت الـرماية عليـنا وشـعرت أننا التقمنا الطعم وسنشرب من نفس الكأس التى أسقيناه لهم أول يوم، فقلت لـ "أسد الله" يجب أن ننتظر حتى يأتى المجاهدون فأصر أن نحملـه، فقلـت له مـا أن نرفع رءوسنا حتى يحصدونا، ولكنه كان لا يبالى بشىء وقـال لى: سـوف أحملـه وحـدى وعليك أنت انتظار المجاهدين، وما كنت لأفعل ذلـك بطبـيعة الحـال، فوضـعنا السـلاح خلف الظهور وأمسك "أسد الله" بذراعيه وأمسـكت بقدمـيه وركضـنا بأسـرع مـا تسمح بـه الظـروف وسط طوفان الرصاص المـنهمر، ولم أصـدق أنـنا نجونـا، احتميـنا فـى البيوت المهدمة وما لبث أن جاء المجـاهدون مـع "أبـو أحمد" ومعهم نقالة وضعنا فيها الشهيد وحملناه إلى المركز. شـعر الجمـيع بالأسـف إلا "أسـد الله" كـأن شـيئا لم يحـدث، وكان يتأمل وجه الشـهيد بعيون كلها غبطة بل ربما حسد، وردد كلمات بهذا المعنى: "بسم الله ما شاء الله.. انظـر.. انظر إلى وجهه.. إنه يبتسم.. شم.. شم رائحة عمامته.. إنـها رائحـة المسك.. إنـه يستحق.. ظـل يعـالج شهرين ثم جاء مرة أخرى.. إنه كان مصراً على الشهادة"، ـ وقبله عدة مرات كأنه يقبل شخصاً حياً وليس جثة.

لم يضع "عبد الرازق" وقتا إذ سرعان ما حملناه إلى مقابر قرية قريبة وفوجئت بـنحو سـتين عربـياً تجمعوا من كل مراكز قندهار ولا أدرى كيف فشا الخبر بهذه السـرعة، ومشـى خلف الشهيد عدد كبير ووصلنا المقابر وبدأ أهالى القرية يحفرون القبر وتمنيت من الله أن يدفن بغير مشاكل من محدودى الأفق ولكن هيهات، لقد بـدأ الاعـتراض والصـياح حـتى عـلى طـريقة الحفر، وكما توقعت أراد الأفغان أن يصـلّوا علـيه واعـترض العـرب بشـدة، وكـان "عـبد الرازق" حكيماً كما كان يريد إرضـاء العرب فصرف الأفغان عن رأيهم ودفن الشهيد ولما يمضى على مجيئه نحو نصف يوم، جاء فى الليل ودفن فى منتصف النهار {*وما تدرى نفس ماذا تكسب غداً وما تدرى نفس بأى أرض تموت*}.

لم تكن هذه هى نهاية قصة "أبو دجانة" فقد نقل الجواسيس للعدو أن تجمعا كـبيرا من العرب فى هذه القرية يدفنون شهيداً لهم، وما أن انتهينا من الدفن ولم

نبرح المقابر بعد إذا بالمدافع الثقيلة تدك المقابر، حتى الموتى لم يسلموا من أذاهم، أسرعنا بالمغادرة ولكن القذائف كانت تلاحقنا فى الطريق وكأنهم يروننا رؤى العين، احتمينا فى دكان على طرف القرية، واشترينا من الرجل كميات كبيرة من الطعام والحلوى حتى كاد ينفد ما عنده، وفرح الرجل جدا وكلما هممنا بالانصراف رجانا أن ننتظر حتى يهدأ القصف، وكنا قد اخترنا أميراً للعرب أثناء الجنازة فأبديت له ملاحظة بأن من الخطأ تجمعنا فى مكان واحد، ولذلك انصرفنا على دفعات فى كل دفعة حوالى سبعة أفراد، وبمجرد مغادرة آخر مجموعة للدكان نزلت قذيفة فوقه مباشرة فدكته دكاً وقتل صاحب الدكان ولما يهنأ بما ربحه منا، كان من الواضح أن هناك جاسوسا يوجه مدفعية العدو لاسلكياً، وهذا هو التفسير الوحيد لما حدث.

عبد الله الرومى
يقتل أمير حزب الدعوة والجهاد

كان من عادة "عبد الرازق" أن ينتقم للشهداء، ففى المساء ونحن نستعد للنوم دخل غرفتنا وطلب من "أسد الله" أن يتبعه.. وجدناه قد أعد صاروخ ١٢٢ وحمله "أسد الله" وسار خلف "عبد الرازق" ولم ندر أين يذهبون.. بعد فترة دوى انفجار هائل ولما عادوا أخبرنا "أسد الله" أن "عبد الرازق" هذا رجل لم تلده ولادة، لقد تسللوا إلى داخل مواقع الشيوعيين ووضعوا الصاروخ أمام غرفة مبيت الضباط وفجروهم، وعندما سألت "أسد الله" عن دقة إصابة الهدف غرق فى الضحك وقال لقد كان بين الصاروخ وبين باب الغرفة بضعة أمتار.

كان قد جاء مع "أبو دجانة" مجاهد مصرى هو "عبد الله الرومى"، كنت أنوى أن أتجاهله فى هذه المذكرات لأنه لم يفعل شيئاً ذى بال ولأنه كان شخصية مهزوزة ولم يطل به المقام بالمركز، ولكنى سمعت مؤخراً وبعد أن تركت ساحة الجهاد أنه أقدم على شىء بشع جعل من واجبى أن أذكر ما أعرفه عنه لله وللتاريخ، لقد أقدم "عبد الله الرومى" على قتل الشيخ "جميل الرحمن" أمير

حـزب الدعـوة والجهـاد (وهـو الحـزب السـلفى الوحيد فى "أفغانستان") بثلاث رصاصات ثم قتل نفسه بالرابعة.

كان "الرومى" قصير القامة أمرد اللحية تقريباً نحيل الجسم عصبى المزاج،كان يعمـل مراسـلاً لمجلة "الجهـاد" العربية التابعة للشيخ "عبد الله عزام". لم يخبرنا بذلـك عـندما أتـى للمركز بل لم يظهر الكاميرا خوفاً من اعتراض السلفيين العرب عـلى التصـوير فلمـته عـلى ذلـك وقلت له ليس هناك إجماع على تحريم التصوير الفوتوغـرافى ولـو كنـت مكانـه لأظهرت الكاميرا ولما اهتممت باعتراض المعترضين وأوضحت له مذهبى فى أن التصوير المنهى عنه ليس هو الفوتوغرافى لأنه لم يكن عـلى عهـد الرسـول، فالمقصـود مـن الأحاديـث هـو تحريم التصوير باليد لأن فيه مضـاهاة القـدرة الإلهـية وادعاء إبداع بينما الله هو المبدع البارئ، أما الفوتوغرافيا فهـى حـبس ظـل كمـن ينظر فى المرآة والصورة الناتجة هى خلق الله ولا يستطيع ملـتقطها أن يدعـى أنـه هـو الذى خلق هذه الصورة، المهم أنه أبدى سروراً عظيماً بـرأيى هـذا وانطلـق ينـتقد عـلماء السـلفية الذين يحرمون التصوير وتمادى وتملكه الحـنق الشـديد حـتى أن كـلماته أثارت غضب "أسد الله" لما فيها من تهجم على العـلماء فنهره بشدة وكاد يبطش به لولا أن تدخلنا وأنقذناه من براثنه ، وكما هى عـادة "أسد الله" ندم على تسرعه فذهب واعتذر له بكلمات رقيقة ولكنه حذره من العودة لمثلها.

والـذى أستخلصـه مـن تتـبعى لشخصـية "الـرومى" فى هذه الفترة أنه انفعالى عـاطفى متعصـب لـرأيه ولديه قدرة هائلة على الحقد، كما أنه يستطيع أن يمتص غضـبه ويبـتلع أيـة إهانـة فى لحظات كأن شيئاً لم يحدث، ظاهرياً على الأقل، كمـا أنه لم يكن شجاعاً بل كان مهتز الأعصاب بدرجة كبيرة حتى إنه لم يحتمل رؤيـة الجـرحى والقتـلى فـرحل عـن المركز قبل أن يصيبه شىء من ذلك وإن كان ليس من العار الفرار من إمارة "عبد الرازق".

كـان مـن الواضـح أنه يكره السعوديين بصفة عامة حكومةً وأفراداً ومذهباً (إذا اعتـبرنا عدم التمذهب مذهباً)، وكان من الواضح أنه ينتمى للإخوان المسلمين وإن كنت متأكداً أنه انتماء فكرى فحسب، لأن الإخوان ينتقون أعضاء جماعتهم انتقاء

دقيقاً لا يسمح لمثل هذه الشخصية الغامضة المهتزة أن يكون عضوا منظما بها، وليس عمله فى مجلة الجهاد دليلاً على ذلك لأن الشيخ "عزام" كان يستعين بمن يستطيع مهما كان انتماؤه أو أفكاره.

وقابلت "الرومى" مرة أخرى فى "بيشاور" بعد تصفية مركز "عبد الرازق"، وقد ألّح علىّ أن أكتب له عن شهداء المركز ففعلت وقدمها للنشر، وكان مصابا وقتئذ بالصفراء ولاحظت أن عينيه صفراء بالفعل ونشاطه محدود، وربما كان لهذا المرض علاقة باضطراب أعصابه، والأطباء هم خير من يفتى فى هذا الأمر.

وقد جعلنى أشك أنه يتعامل مع المخابرات وذلك بسبب تناقض أحواله وأسئلته المريبة وتصرفاته الغريبة ، وبالطبع طردت هذه الخواطر بسرعة على أساس القاعدة العظيمة (إن بعض الظن إثم)، وقابلته مرة أخرى عندما اعتزمت الحج وكنت أسعى لأنهى إجراءات سفرى وأهمها وأخطرها هو خطاب من السفارة المصرية ترجو من السفارة السعودية منحى تأشيرة للحج، وكان معنى حصولى على هذا الخطاب هو تسجيلى فى السفارة، وبالطبع يتم إدراجى فى القائمة السوداء لأن أى مصرى فى "باكستان" هو فى نظر السلطات المصرية إما إرهابى وإما تاجر مخدرات، كان عدد كبير من المصريين يُزور هذا الخطاب وخاصة أن الباكستانيين هم أساتذة التزوير ولا يستعصى عليهم ختم من الأختام، حتى قيل إن الحكومة السعودية تشك فى التأشيرات الصحيحة ولا تشك فى المزورة، المهم كنا نقيم فى الاستراحة الخاصة بالاتحاد (سياف) فى "إسلام آباد" حتى ننهى الإجراءات وكان "الرومى" مقيماً فى استراحة الشيخ "جميل الرحمن"!! وكان يتردد علينا من حين لآخر على أنه هو أيضاً يريد الحج ويسير فى الإجراءات، وفى هذه الفترة أيقنت أنه يتعامل مع المخابرات حيث كان يتلهف على معرفة أسماء من حصلوا على خطابات مزورة، كنت قد أخبرته أنى سأحصل على خطاب مزور ولكنى ذهبت إلى السفارة وسجلت نفسى وحصلت على خطاب صحيح، وكاد يهلك نفسه إلحاحاً ليعرف ممن حصلت على الخطاب الذى يظنه مزورا، وبعد أن أمضى نحو شهرين يتسكع فى "إسلام آباد" ليعرف

من يقوم بتزوير ختم السفارة المصرية بحجة أنه يريد الحج، ومع ذلك لم يذهب للحج رغم سهولة الإجراءات.

وحدث شيء غريب أيد شكوكي، إذ كان كعادته يجادل أحد السعوديين في بعض الأمور الدينية ثم فجأة وقد اندمج في الجدال تبدل حاله فبعد أن كان يتعتع ويتلعثم ويتكلم بكلام فيه من الخلط شيء كثير، إذا به يتكلم بقوة ومنطق وهب واقفاً في حزم ورأيته لدهشتي قوى البنية على غير ما يبدو عادةً بل رأيته أطول مما كان يخيل إليّ، ثم كأنه تدارك نفسه فعاد لتلعثمه ووضع الباكولي على رأسه كالمعتاد بطريقة مزرية وعاد شكله كما كان تقتحمه العين وتزدريه، وتأملت الباكولي الذي يرتديه، لماذا يصر علي هذا الباكولي الواسع جداً ـ ضعف حجمه الطبيعي ـ مما يعطيه مظهراً ساذجاً بل مضحكاً، ثم تأملت ملابسه، لا يمكن لشاب تخرج من الجامعة أن يرتدي ملابس غير متناسقة إلى هذا الحد المضحك إلا إذا كان يتعمد أن يبدو في هذه الصورة الساذجة.

وبلغ من يقيني بكونه "مخابرات" أني كلمته محذراً إياه بلهجة بين الجد والهزل: إني إذا سافرت إلى مصر وقبض عليّ فسأعلم أن ذلك بسببك لأنك الوحيد الذي يعرف اسمي الحقيقي، ولم يعلق أدنى تعليق على كلامي وكأني لم أقل شيئاً.

وقدر لي أن أقابله مرة أخرى عندما أصبت ورقدت في مستشفى "أفغان سرجيكل" ثم "الهلال الأحمر" الكويتي حيث جاءني وطلب مني أن أكتب له عن الشهداء العرب في المعركة التي أصبت فيها، وكنت في حالة لا تسمح بالكتابة ولا بالتركيز، ولكنه ألح عليّ ثم زارني عدة مرات لنفس الغرض وطلبت منه بعض الكتب والمجلات فأحضر لي عدداً كبيراً منها، فشكرت له ذلك وندمت على شكوكي السابقة ولكن سرعان ما ردني إلى تلك الشكوك.

كان في زيارتي يوماً ثم أخذ الكتب التي قرأتها وانصرف، وما إن مضى حتى جاء لزيارتي اثنان من المجاهدين الليبيين كانا معي في "قندهار"، وكان "عبد الله الرومي" يعرفهما بالطبع، كانا طوالاً عراضاً ذوي لحى هائلة، يوحي مظهرهما أنهما إرهابيان بل زعماء إرهاب، رغم أنهما مجاهدان عاديان طيبا

القلب وليس لهما انتماء لأى تنظيمات، ولكن "الرومى" خُدع بمظهرهما وبجنسيتهما الليبية وكأن كل ليبى إرهابى. فعاد سريعاً بعد أن انصرف وزعم أنه فقد كراسته ثم ذهب للحمام وعاد سريعاً وجلس على السرير المجاور لى وكان خالياً، وشاركنا فى بضع كلمات ثم رقد نائماً، وبالطبع لا يمكن لأى شخص أن ينام فجأة هكذا فى مكان غريب عليه ولم يكن الوقت متأخراً، لكنه ظن أننا سنتكلم فى أمور مهمة وسرية وأننا لن نشك أنه فى سبات عميق، وتندر أخوة "ليبيا" على سرعته فى النوم بينما عزمت على الكتابة لمجلة الجهاد أحذرهم منه، ما أن همّ الليبيان بالانصراف حتى صحا من نومه وانصرف معهم، وظللت بضعة أيام متردداً هل أكتب للمجلة أم لا ثم انصرفت عن ذلك على أساس أن الفتنة أشد من القتل وإن بعض الظن إثم، وإن كان بعضه أيضا من حسن الفطن.

ونسيت الأمر تماماً حتى فوجئت بالخبر فى مجلة المسلمون ("عبد الله الرومى" يقتل الشيخ "جميل الرحمن" بثلاث رصاصات فى رأسه وينتحر بالرابعة)، دهشت لأقصى درجة.. "الرومى" الذى تبول فى سرواله عندما رأى "أبو مالك" ويده مقطوعة يجرؤ على الانتحار؟!.. كيف حدث هذا؟! يبدو أن الإقدام على الموت ليس دائماً دليلاً على الشجاعة، بقى أن أذكر أن "الرومى" كان من مدينة "الإسكندرية" وخريج كلية الحقوق أو هكذا أخبرنى، وقد اجتهدت فى نقل صورته بصدق وأمانة كما رأيته وحسبما شعرت نحوه، ولا أدرى على وجه اليقين هل كان إنساناً مضطرب الأعصاب أم كان عميل مخابرات أم الاثنين معاً؟، ولم آسف على شىء أسفى على انتحاره فالمنتحر خالد فى جهنم، لقد كان يعرف ذلك بلا شك فلماذا أقدم على الانتحار!!، الأرجح لدى أن حرس الشيخ جميل عاجلوه بالطلقات، وإنما القول بانتحاره هو مجرد قول لغلق باب الفتنة.

لا أملك سوى أن أدعو الله أن يغفر له ويرحمه وعسى أن يكون فعل هذا تحت تأثير اضطراب عقلى ونفسى يعفيه من المسئولية أمام الله، وأنا على ثقة تامة أن مكتب الخدمات ومجلة الجهاد والإخوان المسلمين ليس لهم أى علاقة بهذه الفعلة الحمقاء، وأخذت أفكر فى الفتنة التى سوف تسببها هذه الجريمة، فسوف تسوء العلاقة بين السلفيين والإخوان المسلمين وبين المصريين والسعوديين

وبين الأفغان والعرب، ورغم الخلاف الشديد بين الأفغان الأحناف ومواطنيهم السلفيين، ورغم أن أغلب الأفغان يتمنى أن يقتل الشيخ "جميل" إلا أنهم سوف يغضبون لأن قتله كان بيد عربى، وسوف يفقد العرب حب وولاء الأفغان حتى السلفيين منهم سوف يبغضون العرب بعد أن كانوا يحبونهم أكثر مما يحبون أنفسهم وأولادهم، وسوف تتوتر العلاقة بين الحزب الإسلامى (حكمتيار) وبين حزب الدعوة والجهاد (جميل الرحمن)، وربما أدى الأمر إلى قتال بينهما خاصةً فى ولاية "كونر"، ياله من حجر قد يضرب سبعين عصفوراً فى رمية واحدة.

الصّديق السكندرى

انضم إلينا فى مركز "عبد الرازق" مجاهد مصرى آخر، كان صديقاً بمعنى الكلمة، لم أر فى حياتى أطهر منه قلباً ولا أعف منه لساناً ولا أصفى منه نفساً، إنه "عبد الرحمن" المصرى، وهو سكندرى كذلك، كان طالباً فى كلية الهندسة وترك الدراسة قبل التخرج بعام واحد، كان طويلاً عريض الأكتاف يميل للشقرة عريض الجبين بهى الطلعة، وتنضح عيناه بالتقوى والطيبة، كان حافظاً لكتاب الله وإن كان يعترض على هذا اللفظ بشدة إذ يعتبر أن الله حافظ كتابه الكريم *{إنا نحن نزلنا الذكر وإنا له لحافظون}*، وكان يحفظ القرآن عن ظهر قلب بتمكن عجيب حتى أنه يعرف رقم كل آية والآيات التى تشبهها فى المعنى أو فى أحد الألفاظ، بل يعرف الآيات السابقة كما يعرف اللاحقة، والمدهش حقاً أنه كان ضعيف الذاكرة لدرجة يرثى لها، فربما ناولنى الشىء وبعد دقيقة واحدة يبحث عنه متحيرا، كانت ذاكرته فى كل شىء تكاد تكون صفراً إلا فيما يخص القرآن فسبحان المعطى الكريم، لم يكن يكتفى بحفظ القرآن بل كان يحفظ تفسير كل آية فإذا سألته عن أى كلمة أو آية قال لك إن القرطبى قال فيها كذا والطبرى قال كذا... إلخ، كان يرتل القرآن فى كل لحظة حتى أثناء نومه، وكان هو بالطبع إمامنا فى الصلاة، ولم يكن الأفغان يطيقون الصلاة خلفه فكثيراً ما ينسى نفسه فيتلو جزءا أو جزأين فى الصلاة الواحدة.

وبالطبع لم يولد صديقاً هكذا بل نشأ شاباً عادياً فى أسرة عادية ولكن أتته صحوة روحية طالما تأتى للشباب الذى يتطلع دائماً إلى المثل العليا، فمرحلة

الشباب هى المرحلة الوحيدة فى حياة الإنسان التى يتاح له فيها الانقلاب الفكرى والروحى، وقد قال الأمين عليه الصلاة والسلام {*نصرنى الشباب*}، وأراد الله لصاحبنا الخير العظيم، لأن الله يطلع على قلوب البشر فيهدى أتقاها إلى صراطه المستقيم.

رأى "عبد الرحمن" الناس يصطرعون ويقتتلون على حطام فان والموت ينتظر الجميع القوى والضعيف الغنى والفقير الصغير والكبير، إنه لا يدع أحداً، ياله من حق أشبه بباطل، مَنْ من الناس يوقن بالموت، قرر أن يعمل لآخرته قبل أن يتوه فى دروب الدنيا المظلمة وعزم على حفظ كتاب الله ولكن كيف؟ والدراسة والأسرة لا يدعان له ساعة من ليل ولا نهار، قرر أن يترك الدراسة والبيت معاً، استأجر غرفة فى حى آخر وعكف على القرآن واكتفى من الزاد بما لا يقيم الأود، فحفظ القرآن فى عامين، واشتاق إلى بيت الله وقد صفت نفسه وشفت روحه حتى كان لا يمل من ذكر الله أناء الليل وأطراف النهار حتى وهو نائم لا يتوقف لسانه عن ذكر ربه.

ذهب للأراضى المقدسة واعتكف فى الحرم الشريف، أظمأ نهاره وقام ليله وكان يطوف بالبيت العتيق مئات المرات فى اليوم الواحد، كان يكتفى بماء زمزم لأيام ولا يزيد على (سندوتش) فول فى أيام أخرى، وقد عُرِفَ فى "مكة" ببركة دعائه فكان الناس يدعونه لبيوتهم ليدعو لمرضاهم بالشفاء، وكان يكسب بعض المال من دروس الرياضيات التى يعطيها لبعض التلاميذ فى ساحة الحرم الشريف ويأبى تقاضى أى أجر على دروس التجويد، وكان معى فى الحج وأنا شاهد عيان على ما سأقول.. لقد كان يسمع تلبية الجماد ولن أروى التفاصيل وكيف سخرت منه فى البداية، فأسمعنى الله لبرهةٍ تصديقاً له، وبالتأكيد أنا آخر إنسان يمكن أن يتوهم وقد رأيت عشرات الشهداء يزعم الحاضرون أنهم شموا ريح مسك ولم أشم شيئاً وأنكرت هذه الكرامات المزعومة وما جاملت أحدا فى هذا الأمر رغم يقينى أنهم شهداء.

وقد سمع عن الجهاد وهو فى "السعودية" فأبى إلا أن يمتطى ذروة سنام الإسلام لم ينتقل من ذروة إلى ذروة بل ضم ذروة إلى ذروة، كان أى إنسان يراه لا

يملك إلا أن يحبه حباً جماً هل لطيبته التى قد تصل إلى حد السذاجة؟ هل لتواضعه؟، هل لأنه يألف الناس بسرعة؟، هل لبشاشته وانطلاق وجهه؟، إنها ولا شك علامة على حب الله له. ولمّا جاء للجهاد قضى فترة تدريبية طويلة جداً (نحو ستة أشهر) فى معسكر "صدى" مما جعله يتقن الكثير من الأسلحة والألغام وخاصة أنه طالب هندسة فكان يجيد حسابات المنظار والتصحيح.

وأتى على قَدَر إلى "قندهار" وانضم إلينا فى مركز "عبد الرازق"، والتصق به "أسد الله" الذى كانً ظمآنا إلى القرآن ظمأ حديثى العهد. لقد كان "عبد الرحمن" فى زيارة عادية للمركز ولكنه سُحِرَ به وافتتن افتتاناً وهام به حباً وكان يطوف على المراكز الأخرى ليلقى دروساً فى التجويد فكان يكلمهم عن "عبد الرازق" ومركزه كأن ليس فى كل "أفغانستان" جهاد إلا فى هذا المركز، ولقد كونت معه ثنائيا فى الاشتباك والقصف المدفعى كما كنت و"أسد الله" ثنائيا فى قنص النهار.

لقد كنت أضبط نيشان الآر بى جى وكلما مر علىّ الأفغان ابتسموا فى أكمامهم فلما أَصبتُ "الزوكوياك" فوجئت فى اليوم التالى مباشرة بـ"عبد الرازق" يقول لى: أنت تضرب على الهفتا دو بانج (مدفع عيار ٧٥مم) وكان ملقيا فى المخزن بلا استعمال، قلت له: إن هذا المدفع هو السلاح الوحيد الذى لم أتدرب عليه، فقال لى: ـ مشكل ندى، أى ليس هناك مشكلة.

ـ سنجا دى؟ دغ سلاح بالكل معلوم ندى! أى كيف ذلك؟ إننى لا أعرف شيئا عن هذا السلاح!

ـ مشكل ندى.. تا أول لاس مرمى خراب.. شل مرمى خراب.. بعد..تا خوب. أى بعد عشرة أو عشرين قذيفة طائشة سأكون قد أصبحت رامياً ماهراً، ما أهون التدريب.

وإنى فى كثير من الحالات أذكر الحوار باللغة التى تم بها وذلك لسببين، أولاً: لأن ذلك يصور تماماً الحالة النفسية وينقل الموقف بدقة، وثانياً: لأنى أحببت هذه اللغة وطريقتهم فى محاولة توصيل المعنى إلى أناس لا يتكلمون لغتهم وأستمتع جداً عند تذكر هذه الجمل والعبارات، المهم.. أصبحت المسئول عن

المدفع ٧٥مم في كل عملية وهذا المدفع يزن نحو ٥٠ كجم وكان عليّ أن أحمله حتى مكان الرماية ثم أعود به لأنظفه من آثار الرماية، وكنت أمضى الساعات الطويلة في محاولة ضبط المنظار وقد استعرت مذكرة بذلك من أحد الزملاء، وعندما انضم إلينا "عبد الرحمن" وجده "عبد الرازق" طويلاً جسيماً فجعله زميلاً لى في الرماية على المدفع ولحسن الحظ كان قد تدرب عليه تدريباً ممتازا فكنّا نضبط الرماية في الصباح ثم نجرب هذا الضبط في المساء حتى اقتنعنا بمستوى الرماية به، وكثيراً ما كانت تتعارض وجهة نظر كل منّا حول ضبط المنظار فكان الفيصل هو الرماية الفعلية، حقاً إن الحرب هي خير وسيلة للتدريب على الحرب، فالسلاح الذى لم أتدرب عليه صرت خبيراً فيه، وكنت عند ظن "عبد الرازق" فبعد أقل من (لاس مرمى خراب) كنت أجيد الرماية تماماً. كنا نذهب بالمدفع إلى ناحية بعيدة عن المركز بحوالى خمسمائة متر ثم نثبت المدفع على قاعدته في مواجهة مواقع العدو لا يحمينا منها شيء، ثم نرمى من نفس المكان كل يوم وفي نفس الوقت تقريبا، كان من الطبيعى أن يرصدنا العدو ويرمى علينا بغزارة حتى قبل بدء العملية فكنا في كثير من الأحيان نثبت المدفع ونضبط التنشين أثناء انهمار الرصاص من حولنا.

ومن رحمة الله أنى بمجرد أن أصل إلى المكان وأبدأ في تثبيت المدفع أذهل عما حولى فلا أشعر بالرصاص يمرق من حولى، ويتوقف ذهنى تماماً إلا عن شيء واحد هو كيف أصوب المدفع وأرمى ما معى من ذخيرة، كان "عبد الرازق" يقسّم المجاهدين إلى مجموعات تتربص كل منها بجهة من الجهات على طول خط المواجهة و لكل مجموعة قائد أفغانى وإشارة بدء العملية هى صاروخ ١٢٢ الذى يرميه "عبد الرازق"، لم أكن أدرك خطورة موقعى أثناء استعمال مدفع ٧٥مم، وذات مرة غاب قائد المجموعة الأفغانى فأرسلنى "عبد الرازق" كقائد للمجموعة وأرسل مجاهد آخر مع "عبد الرحمن" على المدفع ٧٥مم، وأثناء العملية نظرت جهة المدفع ٧٥مم فرأيت كيف ينهمر عليه الرصاص والقذائف أثناء الرماية ولم أصدق أننى يومياً أواجه هذا الموقف إذ كنت حقيقةً لا أشعر بذلك بتاتاً، وعندما عدت طلبت من "عبد الرازق" تغيير مكان رماية المدفع ٧٥مم ولكنه لم يقتنع، وفي أحد الأيام بينما كنا نرمى على ميس الضباط في مواقع الشيوعيين إذا بضوء

باهـر أمـامى، لم أعـره الـتفاتا، قذيفـة مـثل مـئات القذائـف الـتى تـنفجر أثـناء الاشـتباك، وعندما دخلنا الخندق بعد انتهاء العملية إذا بمجاهد أفغانى يأتى من قِبل "عـبد الـرازق" عـلى غـير العادة ويسأل عنى وعن "عبد الرحمن" فلما اطمأن عاد يبشر "عبد الرازق"، وعندما عدت قال لى "عبد الرازق" أنت مُحق سوف نغير هـذا المكان لفترة من الزمن، لقد رأى من مكانه فوق إحدى البنايات ـ حيث يرقد ليشـهد الاشـتباك ـ القذيفـة الـتى رماهـا العدو نحو المدفع وكيف لم يحجزها عنا سوى شجرة تبعد عنا عدة أمتار إلى اليمين، واقتنع أيضاً أن يغير موعد العملية.

لكـن الموقـع الجديد الذى شرعنا فى الرماية منه كان أشد خطورة، هذا الموقع بعـيد عـن المركـز نوعاً ما وإلى جهة اليمين وهو يواجه شارع الموت ولكن على بعد كـاف، والمكان عبارة عن مبان أو كانت فى يوم من الأيام مبانى ثم دكت وسويت بـالأرض تقريـباً وأصبح المكان مكشوفاً إلى حدٍ بعيد، والموقع الذى اخترناه قريب من هاون المجاهدين فهو بهذا مكان معروف ومرصود تماماً، ومن هذا المكان يكون مبنى الإذاعة واضحاً تماماً وقد جعلناه هدفاً لرمايتنا ولكن "عبد الرازق" أخبرنا ألا فـائدة مـن رمايـة المبنى نفسه ولكن علينا أن نسقط القذيفة أمام المبنى مباشرة لأن هـذا المكان ملئ بمعسكرات الخاد (المخابرات العسكرية)، وأذكر يوماً بسبب خطأ فـى الحسـاب لم تسـقط القذيفة أمام المبنى بل صعدت إلى السماء حتى غابت عن أنظارنـا، وقـال لى "عـبد الـرحمن" إنهـا ستنزل عـلى أطـراف المدينة من الجهـة الأخـرى وحـزنّا لذلـك خوفاً على الأهالى، ولكن العيون أخبروا "عبد الرازق" أنهـا كانـت مؤثـرة جـداً، وفى يوم آخر خرجنا للرماية والتزمت كل مجموعة بمواقعها واسـتعدت لـلحظة الـبدء، وكـان الوقـت ظهـراً حسـب النظام الجديد، وجلست و"عـبد الـرحمن" استعداداً لإشارة البدء وإذا بقذيفة هائلة تسقط خلفنا مباشرة مع انفجـار هـائل رج الأرض رجـاً وإذا بـنا وقد غطانا التراب حتى كاد يردمنا ولكن المدفع ظل فى مكانه وكذلك كل منّا، وقد استخفنى الطرب وشعرت بشعور غريب مـن المـرح لا أدرى ألأنـنا لم نصب أم حـباً فـى المغامـرة، وعـندما قـال لى "عـبد الـرحمن" يجـب أن نلجأ إلى الخندق قلت له بهدوء مرح: لم نؤمر بهذا، وبالفعل كنـت أريـد أن نـبقى حيـث نحـن ونطـلق ما معنا من ذخيرة، ولكن جـاء "عبد الوكيل" مسرعا وأخبرنا بأوامر "عبد الرازق" بالعودة إلى المركز فامتثلنا.

عبد الوكيل الشيعى المتحنف

كان "عبد الوكيل" هذا أفغانياً عجيباً، شاب فى ريعان الشباب فى حوالى التاسعة عشرة، طويل القامة، شديد البياض، وفى غاية الطيبة ودماثة الخلق، كان يتهته فى الكلام ولكنه كان فى غاية الشجاعة، كان يعتبر نائب "عبد الرازق" وساعده الأيمن، كان فى الغالب يقوم بتوزيع مجموعات المجاهدين على مختلف أماكن المواجهة ويقوم بنقل الأوامر والتعليمات من "عبد الرازق" إلى كل مجموعة، كما يقوم بتجميع المجاهدين بعد فترة الاختباء فى الخنادق ويطمئن أن الجميع بخير وكان يكتب الرسائل ويقرؤها لـ "عبد الرازق" الذى كان أمياً، كما كان يقوم بتصويب وإطلاق قذائف P. M، قذائف ١٢٢ وهى قذائف لا تحتاج لمدفع بل يمكن وضعها على الأرض أو على أى مسند من الطوب أو الخشب ثم توصيلها بسلك كهربى متصل بعدة بطاريات راديو عادية، وعند توصيل التيار ينطلق الصاروخ، كان "وكيل" يتسلل ويضع الصاروخ فى مواجهة المواقع الحساسة لدى العدو ويضبط اتجاهه تماماً وقد أتقن ذلك بسبب مئات القذائف التى رماها.

حدث مرة أن رآه الجنود وهو يضبط وضع الصاروخ نحوهم فانهالوا عليه بالرشاشات فتوارى واحتمى بالجدار ولكن الرصاص لم يهدأ، وبرغم ذلك أصر أن يوصل السلك بالصاروخ رغم الرصاص المنهمر ولم يعبأ بنداء المجاهدين له ليرجع، ويبدو أن الإنسان فى المعارك يفعل أشياء فى منتهى الخطورة وهو لا يشعر أن ذلك تهور أو فيه خطورة، إنه ثبات من الله ولا شك فى هذا.

والعجيب أن "وكيل" كان شيعياً ثم اعتنق المذهب الحنفى أو هكذا زعم للمجاهدين كما نزعم نحن أننا أحناف، والشيعة فى "قندهار" لهم كيان ووضع مذكور، فهناك العديد من مراكز المجاهدين الشيعة، وبعضهم كان يحاول استمالة "عبد الرازق"، ولكن من المستحيل أن يستميلوا أفغانياً واحداً فهذه بلاد أبى حنيفة بلا منازع.

كـان "وكيل" من سكان مدينة "قندهار" وكان يزور عائلته فى المدينة من حين لآخـر، وكـان "سـياف" المصـرى مسئولا عـن الهـاون فاستبقى "وكيل" معه أثناء الـرماية لـيتحقق مـن دقـة الـرماية، وعـند إطـلاق أول قذيفة راقبها "وكيل" وهى تصـعد فـى السـماء بإعجـاب متمتماً: خوب.. خوب.. بخى خوب..، ولكن عند نـزولها بـدأت ملامحـه تكفهـر ثـم صـرخ: مسـلمان.. مسـلمان، وهـو يكاد يبكى وأخـبرنا أن بيته فى هذا المكان الذى سقطت فيه القذيفة، وسمح له "عبد الرازق" أن يتسـلل لـيلاً ليطمـئن على أهله ووجدهم بخير وأحضر معه أخاه الصغير ليمرح فـى مركـز "عـبد الـرازق" الـذى يخشـى الـرجال أولى الـلحى والمناكب من مجرد الاقـتراب مـنه، والأكـثر طرافة أن هذا الطفل الصغير الذى لا يتجاوز السابعة من عمـره كـان ضمن قائمة الحراسة فننام فى المكان الذى ذبح فيه اثنى عشر مجاهداً وهـم نـائمون ويحرسـنا طفـل فـى السابعة ويتبادل النار مع الجنود أثناء الحراسة بشجاعة تفوق شجاعة الكبار.

عبد الواحد شهيداً

وذات صـباح والوقـت باكـراً ولمّـا نشـرب الشـاى بعـد، إذ أتت مجموعة من المجـاهدين لـيقوموا بعملية، وهذا أمر عادى ومتكرر وإنما سبب سرد هذه العملية هـو أنهـا انتهـت بشـهيد أفغـانى هـو "عـبد الواحـد" الـذى كـان ضمن مجموعة المجـاهدين الزائـرة، بمجـرد أن تكـلم قـائد تلـك المجموعـة مـع "عـبد الـرازق" استدعانا وفـى دقـائق كـنا على أتم استعداد، خرجنا إلى مواقع الرماية ولم يلفت "عبد الواحد" نظرى فهو كغيره من آلاف المجاهدين، ولكنه لفت نظر "أسد الله" إذ رآه حـافى القدمـين والأرض مليـئة بالجلـيد والشوك فقرر أن يعطيه حذاءه بعد العملـية، وتوزعـنا عـلى المواقـع كالعـادة، كنت فى مكان بعيد عن "عبد الواحد" بيـنما كـان "أسد الله" قريباً منه فتمكن من رؤيته، كانت العملية عبارة عن رماية بالرشاشـات والصـواريخ والمدافـع عـلى مواقـع العـدو فى وقت الصباح الباكر غير المـتوقع ثـم الـلجوء للخـنادق لنحـتمى من رد العدو بكل أسلحة الحرب، وأعطى "عـبد الـرازق" أوامـره لحملـة الكلاشنكوف ألا تزيد رمايتهم عن خزينتى ذخيرة،

ولكـن "عـبد الواحـد" اسـتمر يرمى دون توقف حتى بعد اختباء المجاهدين ورغم نـيران العـدو الرهيـبة، وقـف "عبد الواحد" وحيداً يرمى وهو فى منتهى السعادة حـتى سقطت قذيفـة هـاون خلفـه مباشـرة وألقـته بعـيداً بعـد أن مزقت الشظايا جسـده، لم يشـعر بـه أحـد مـن المجاهدين، وعندما هدأ قصف العدو خرجنا من الخـنادق لـنعود إلى المركـز، ووجـده "أسـد الله" ملقـى على الأرض وسط بركة من الدمـاء (و"أسـد الله" رابـط الجـأش إلى أبعـد الحـدود) فـاقترب مـنه ووجـده ينادى: يا رسـول الله.. يا رسول الله..، فقال له لا تشرك بالله بل قل يا الله، فأخذ "عبد الواحد" ينادى ربه.

أخبر "أسد الله" المجاهدين وبسرعة تعاونا على حمله إلى المركز حيث وضعناه عـلى نقالـة وتبادلـنا حمله أثناء الطريق الطويل الموصل إلى أوطاق "حاجى عسكر" حيـث كـان بـه أفغـانى مـتدرب عـلى أعمـال الإسعاف وعندما وصلنا أسرع ذلك الطبيـب فقـص ملابسـه ونـزعها عنه فرأينا حفراً كبيرة و عميقة فى ظهره بسبب الشـظايا، كـان من الواضح أنه يحتضر وأشار الطبيب للقمندان ألا فائدة، فحملناه مسـافة أخـرى إلى مركـزه الذى خرج منه، كان يهدأ وتخمد حركته رويداً رويداً، وصـلنا المركـز ومـازال به رمق فوضعوه فى غرفة ولم يكن حاضراً من العرب سواى و"أسـد الله" فطلـب مـنا الأفغـان أن نمكـث معـه حتى يلفظ آخر أنفاسه لا أدرى لـماذا، أغلقـوا عليـنا الباب، وأخذنا نتأمل وجهه وهو يعالج سكرات الموت، كان الألم بادياً على ملامحه ولكنه كان يخمد رويداً، وفجأة انفرجت أساريره واستضاء وجهه وابتسم.. أقسم أنه ابتسم، ثم فارق الحياة بينما الابتسامة عالقة بوجهه.

كـبرّ "أسـد الله" وانكفـأ عـلى الشـهيد يقـبله، ثم توضأنا وصلينا عليه بعد أن تأكدنـا مـن إغـلاق الـباب، صـلينا رغـم الدماء على ملابسنا ولا أدرى أتلك صلاة صحيحة أم لا، ثـم خرجـنا وأخـبرناهم أنـه قد توفى وأردنا الانتظار حتى ندفنه ولكن "عبد الرازق" رفض و قال: هيا.. هيا.. أمامنا عمل كثير، وفى طريق العودة أراد أن يـرفه عـن العـرب فجمـع لـنا عدداً كبيراً من السرطان (الكابوريا) المنتشر انتشارا كبيراً فى قنوات وبرك "قندهار"، تعجبت من مسلكه هذا فأنا أعرف مدى اشمئزاز الأفغـان من هذا الحيوان بل أيضا يـحرمون أكـله، لكن "عبد الرازق"

لم يكن يبالى بشىء فى سبيل إرضاء العرب، ولكنه أوصانا أن نشويه فى سرية ونأكله فى مكان بعيد حتى لا يرانا أحد من الأفغان، وعندما رأى "عبد الرازق" أحد العرب وفى فمه السرطان كاد أن يتقيأ ولكنه تمالك نفسه وقال: "والله ليس للسلاح ضرورة.. يكفى أن يضع كل عربى فى فمه سرطانا ثم تهجمون على العدو فيفرون مرعوبين".

أسد الله يحرق المصاحف

حدث موقف خطير ولكنه دل أوضح دلالة على سعة أفق "عبد الرازق" وتمسكه بالعرب بغير حدود، ولولاه فى هذا الموقف لانتهى الأمر بمذبحة مروعة، فالمكان الذى هو منطقة نشاطنا العسكرى عبارة عن ضاحية من ضواحى المدينة، كلها بيوت مهدمة مهجورة ويبدو أن الأهالى قبل أن يهجروها قد جردوها من كل شىء، أو أن الأثاث والمتاع قد استخدم بواسطة المجاهدين (كمصدر للحطب غالباً)، والشىء الوحيد الذى تُرك فى كل بيت هو المصحف، هل تُرك ليحفظ البيت؟ أم أن من نهبوا البيوت خجلوا أن يسرقوا المصاحف؟ كان "عبد الرازق" يدلل على عدم حرص الناس على القرآن فيقول: إنى لم أجد فى أى بيت روبية واحدة بينما المصاحف فى كل مكان، المهم أن المصاحف كانت منتشرة فى هذه الخرابات، وكانت مصاحف عتيقة أكل عليها الدهر وشرب، وهى مخطوطات نادرة كتبت باليد ربما منذ مئات السنين، لكن وجودها فى هذه الأماكن الخربة جعلها عرضة للتلف والبلى ومع شديد الأسف كنا نجد بعضها وقد استخدم فى الاستنجاء، وهذا عمل لا يفعله سوى الروس فحتى الشيوعيين الأفغان لا يجرءون على ذلك، المهم أن "أسد الله" تأثر بهذا جداً وسأل بعض العرب عما يجب أن نصنعه بهذه المصاحف، أفتاه الشباب غفر الله لهم بإحراقها ولم يراعوا تقاليد الأفغان وما شاع بينهم من فقه، فطاف "أسد الله" بالخرابات وجمع معظم هذه المصاحف وأخذ يشعل فيها النار.. وأين؟.. فى المطبخ ودون أى احتياطات تحول دون رؤية الأفغان له، ودخل اثنان من الأفغان المطبخ وشاهدا هذا المشهد الرهيب.. "أسد الله" يلقى بالمصاحف فى أتون النيران.

بهت الأفغان وتسمروا فى أماكنهم وقد أذهلتهم المفاجأة، ثم همس أحدهم وهو مشدوه.. (كومونست) إذ ظنوا أن "أسد الله" شيوعياً لأنه جرؤ على حرق المصاحف، ثم انطلقوا بسرعة ليحضروا أسلحتهم واقتحموا المطبخ شاهرين السلاح فى وجه "أسد الله"، وإذا بـ "عبد الرازق" يلحق بهم وينهرهم، لطمهم على الوجه ونزع منهم السلاح، وأمر "أسد الله" بإطفاء النار ولكنه أصر على المضى لولا أن تدارك العرب الموقف فحملوه خارج المطبخ حملاً وأطفئوا النيران.

أخذ العرب يشرحون لـ "عبد الرازق" ما تتعرض له هذه المصاحف من تلف ومهانة وأنه فى مذهبهم يجب إحراقها، وسألوه عما يجب فى المذهب الحنفى فى مثل هذه الظروف، فقال لا يجب إحراق المصاحف بحال من الأحوال، بل الوسيلة الوحيدة فى المذهب الحنفى هى نقعها فى الماء حتى يزول الحبر من الأوراق ثم يوضع فى النهر.. وأخبرهم أنهم صدموا مشاعر الأفغان إلى أبعد حد بحرقهم كلام الله الذى يقاتلون من أجله طوال عشر سنوات، ولكنه أبدى تفهماً فما دام هذا هو رأى أحد المذاهب الأربعة فسمعاً وطاعةً، والشعار الخالد فى "أفغانستان" (سلور مذهبنا حق).

وقد تكفل "عبد الرازق" بإقناع الأفغان أن ما فعله العرب ليس كفراً ولا مروقاً من الدين، ولكن أحدا لم يجرؤ على إعادة الكَرّةِ ولا حتى على نقعها فى الماء وأعيدت المصاحف إلى أماكنها، وسرعان ما عادت المياه إلى مجاريها وكأن شيئاً لم يحدث، وظل "أسد الله" هو العربى الأثير لدى الأفغان لشجاعته ولعصبيته، فرغم كثرة شجاره معهم إلا أنهم كانوا يحبون فيه هذه الخصلة بالذات ويقولون عنه: "أسد الله" طبيعت قندهارى، ـ أى له مزاج قندهارى صميم، فهو دائم المرح معهم والشجار من حين لآخر والمزاح بالأيدى والمصارعة التى يعشقها القندهاريون، إضافة إلى حميته وحماسته ومحاولته الدائبة للتفاهم معهم بكلمات لا هى عربية ولا هى أفغانية مما يثير لديهم المرح وإن كان لا يقصده.

مهمة انتحارية

فى هذه الأثناء كان الشيوعيون يكثفون الرماية على المركز وتزداد مع الأيام دقة إصابتهم للهدف وحدث شىء بالغ الخطورة إذ وضع العدو مدفع "الزوكوياك" فى "اللسوالى" وهو مبنى مرتفع عدة أدوار وبه عشرات النوافذ وكان مقر والى "قندهار" قبل الحرب، وبسبب ارتفاع المبنى أصبح هذا "الزوكوياك" يهدد منْ فى المركز وتقتحم طلقاته الغرف، وأصبح التنقل من غرفة لأخرى مجازفة خطيرة بل إن الطلقات كانت تخترق الجدران فلا نأمن منها حتى داخل الغرف، وهذا بالطبع أمر لا يمكن السكوت عنه، والمشكلة هى كيف نحدد النافذة التى تخرج منها الطلقات من بين عشرات النوافذ؟ تكلمت مع "أسد الله" فى هذا الأمر واتفقنا على ضرورة التسلل ليلاً إلى هذا "اللسوالى" وقتل من فيه وتدمير "الزوكوياك"، كانت المشكلة هى الألغام فعرضنا الأمر على "عبد الرازق" الذى أبدى اعتراضات فنية، كنا نظن أن الألغام هى المشكلة الوحيدة ولكنه قال إن الألغام ليست مشكلة على الإطلاق لأنه يعرف دروباً خالية منها، وإنما المشكلة أن هذا المبنى ليس له باب ولا سلم ولا يمكن تسلقه، وأن من فيه يحصلون على الذخيرة والتموين بحبال يدلونها، ويتبادلون الورديات بسلالم من الحبال بعد تبادل كلمة السر، وحاولنا إقناعه أن هذه المشاكل يمكن حلها بطريقة أو بأخرى ولكن دون جدوى، وكنت أرى أن هذه الأعمال لا تزيد خطورتها عما نقوم به من عمليات ولكن ميزتها أنها توقع خسائر فادحة فى صفوف العدو وتبث الرعب والهلع فى قلوبهم، كما تمكن المجاهدين من الاستيلاء على سلاح وذخيرة العدو.

أراد "عبد الرازق" تحديد مكان "الزوكوياك" لتدميره بالرماية، فكلف "أسد الله" بمهمة انتحارية يعرف تماماً أنها ستلاقى هوى وأى هوى لدى "أسد الله"، لقد طلب منه أن يصعد فوق سطح المركز ويرمى بضع طلقات باتجاه "اللسوالى" وذلك لاستفزاز "الزوكوياك" فيرمى بينما "عبد الرازق" فى مكان قريب يرقب أى النوافذ هى التى تطلق النيران. فرح "أسد الله" بهذه المهمة وأخذ يرمى دون انقطاع، وطلقات "الزوكوياك" الرهيبة تمرق من حوله ولا يبالى بها، طلبت منه النزول لأن "عبد الرازق" أمره بعدة طلقات فحسب ولا بد أنه قد رصد مكان

"الـزوكوياك" الآن، ولكـنه زمجر وكشر عن أنيابه فعلمت أن لا شيء سوف يثنيه عن عمله هذا وأيقنت أنه لن ينزل حياً ولم أرغب في رؤيته يُصرع فدخلت إحدى الغرف وأنـا أتمـيز غـيظا، ولـما نفـد ما معه من ذخيرة نادى على الأفغان ليعطوه ذخـيرةً فـانطلقوا يجمعون له الذخيرة وقد أخذهم المرح وهم في غاية السعادة ربما لأن مـنهم مـن لا يخـاف الموت إلى هذا الحد، ولم ينزل إلا بعد أن نفد كل ما في المركز من ذخائر.

وعـندما نـزل حـياً لم أصـدق نفسـي، إنـه حتى لم يصب بخدش واحد، حقاً "احـرص عـلى المـوت توهـب لك الحياة"، لقد آمنت وصدقت بهذه الحكمة تماماً ولقـد نجـا "أسـد الله" قـبل ذلك من موقف مشابه وإن كان أشد هولاً، إذ لم يكن يفصـله عـن "الزوكوياك" سوى عرض شارع كما ذكرت سابقاً، واعتقادى أنه ليس عـلى ظهر الأرض إنسان أصلح من "أسد الله" في العمليات الانتحارية، وأتعجب كـلما تذكـرت أنهم رفضوه في "القاعدة"، لا شك أنه كان غير ميال للضبط والربط العسـكرى ولكـن كـل شيء يمكن اكتسابه إلا الجرأة والشجاعة إذ هي في الغالب الأعم فطرة جبل عليها البعض ولا يمكن اكتسابها بالمران إلا في حدود جد ضيقة.

عـاد "عـبد الـرازق" بعد أن رصد مكان "الزوكوياك"، وكانت مهمتى في اليوم الـتالى هي إصابة "الزوكوياك" بواسطة مدفع ٧٥مم (هفتا دو بانج) وخرج معى في هـذه المهمـة "أبـو عامر" الفلسطيني الذى تدرب معنا في دورة "القاعدة" وجاء مع "أبـو الشـهيد" و"عكرمة" وآخرون ضمن وفد "القاعدة" الذى كان يجوب الولايات يـدرس مخـتلف الجـبهات لـتحديد جـبهة تركز فيها "القاعدة" نشاطها. أرشدنا "عـبد الـرازق" إلى المكـان المناسـب للـرماية عـلى "الـزوكوياك" ولكـنه كـان مكاناً مكشـوفًا، كـان محصوراً بين شجرة وغرفة شبه متهدمة، فكان علينا أن نشرع في العمـل في غبش الغروب، قمنا أولاً بحذر وبطء بالتمويه بفروع الشجر لستر المدفع قـدر المسـتطاع ثـم قمـت بضبط النيشـان ثـم طلبـت من "أبو عامر" أن يعيد ضبط النيشـان حسبما يـتراءى له ففعـل واستبشـرت بذلـك لأنـى أعتقد أن "أبو عامر" شـخص مـبارك وهـو فـى نظرى قد بلغ مرتبة الولاية، وقد تحدثت عنه في صدر هـذه المذكرات عندما كان معنا في دورة التمحيص، ولخطورة موضعنا أثناء الرماية

لم نشرع فى الرماية إلا بعد هبوط الظلام وإن كان هذا قد حرمنا من معرفة مدى دقة الإصابة وعلى أية حال فإن "الزوكوياك" لم ينطلق من "اللسوالى" بعد ذلك أبداً فإما أنه أصيب ذلك اليوم أو أنهم نقلوه إلى مكان آخر.

أبو الشهيد فى مركزنا

لا أستطيع أن أصف فرحة "أسد الله" بوفد "القاعدة" فقد كان يتمنى أن يلتحق بها كما قرر أن يعود معهم لينضم إلى صفوفها وخاصة بعد أن أخبروه أن أول دفعة يقبل منها أى شخص دون إعادة تمحيص، وكان أمير الوفد مجاهد ليبى على قدر كبير من الدماثة واللباقة وقد نسيت اسمه ولكنى تعجبت كيف لم يؤمروا عليهم "أبو الشهيد"؟! إنه ذو موهبة قيادية فذة وتدريب عسكرى راق وشجاعة نادرة وأخلاق رفيعة وعقل راجح، وقد أقام الوفد فى مركز قريب وكانوا يأتون إلينا كل يوم تقريباً يشاركوننا فى الاشتباكات، وأقام "أبو الشهيد" معنا وأفسح له "أسد الله" مكاناً للمبيت وتبناه تماماً فكان يصحبه معنا طوال النهار فى أماكن لا يعرفها أحد من المجاهدين، وربما أن "عبد الرازق" نفسه لم يصل إليها، وقد دهش "أبو الشهيد" عندما أخذنا نتسلل من خرابة إلى أخرى حتى وصلنا إلى مكان خلف العدو وأريناه الجنود يقفون وظهورهم لنا ولكننا للأسف لم نكن نستطيع الرماية لأن فى ذلك حتفنا.

خاض معنا "أبو الشهيد" اشتباكات جنونية وكنت ألحظ محاولته الجاهدة لكتمان دهشته مما يرى فقد أمضى معظم فترة جهاده فى معسكرات التدريب كمُتَدَرب ثم كَمُدَرب، ثم إن "قندهار" تختلف عن أية ولاية أخرى و"ملجات" تختلف عن كل "قندهار" ومركز "عبد الرازق" يختلف عن كل "ملجات"، ولكنى أشهد أنه كان مثالاً رائعاً للشجاعة والثبات.

لقد وقفنا مرةً للقنص ورمينا بغزارة على أحد الجنود وكان موقعنا مكشوفا، وانهالت علينا الرماية من كل حدب وصوب ونحن ما نزال نبادلهم الرماية، ثم أصابتنا قذيفة آر بى جى.. نعم أصابتنا.. فقد جاءت فوق رءوسنا ببضعة أشبار وانفجرت فى الحائط الذى نسند إليه ظهورنا وتغبرنا بهباب القذيفة، فقال

"أسـد الله": يـبدو أنهم رأونا، فلم يتمالك "أبو الشهيد" دهشته وضحك رغم شدة تحفظه وقال: (توهم شافونا)؟!.

كـنا قـد أخـبرنا "عبد الرازق" أن "أبو الشهيد" هو أستاذنا الذى علمنا القتال فأكـبره وأعطانا تصريحاً مفتوحاً نفعل أى شىء بأى سلاح وفى أى وقت. خرجنا بمدفـع P M ذى الفوهـة الواحـدة ونصبناه فـى المكان الذى كدت أصاب فيه مع "عـبد الـرحمن"، وكنـت فـى غايـة السعادة لأن "أبو الشهيد" ماهر جداً فى هذه النوعـية مـن الـرماية وكنـت عـلى ثقـة مـن إصابة أهداف ثمينة بدقة كبيرة. كان الوقـت ظهـراً والمكـان مكشـوفاً فقمـنا بـبطء وحـذر بالـتمويه بفـروع الشـجر حتى نستطيع نصب المدفع فى أمان وإن كان لابد أن يكتشف بعد أول قذيفة، وقد كان فـبمجرد أن خرجـت أول قذيفـة انهالـت عليـنا قذائـف "الهـاون" و"الزوكوياك" و"الدومـيلا" و"الشـلكا" و"الرشاشـات"، ولكـن "أبـو الشهيد" كان رائعاً فقد ثبت بـرباطـة جـأش لا افـتعال فـيها ولا حـتى انفعـال أو توتـر، واستلقى بخفة الفهد يعـدل ضبط النيشان ورأيت طلقة "زوكوياك" تزيل التراب من تحت رأسه، ولكنه لم يفزع ولم ينزعج، وإن كان من الطبيعى أن نترك المكان على وجه السرعة.

فـى يوم آخر أخذنا صاروخ ١٢٢ وحملناه إلى شارع الموت وأردنا أن نصيب به موقعـاً نعـلم أن بـه الكـثير مـن الجـنود (هذا الصاروخ مداه بضعة عشر كيلو متراً يسـتخدم هنا لمسافة بضعة عشر متراً)، وأثناء نصب الصاروخ حدث لنا ما حدث لـ "عبد الوكيل" من قبل إذ رآنا العدو وانهالت علينا جميع أنواع السلاح بكثافة جنونـية، وفعـل "أسـد الله" كما فعل "عبد الوكيل" إذ تملكه الحنق الشديد وأصر أن يوصـل الصاروخ ويطلقه، ولم يكن "أبو الشهيد" من النوع المتهور رغم شجاعته ولكـنه لم يحـاول أن يثـنى "أسد الله" ولم يشأ أن يتركه يواجه الأمر وحيداً، أما أنـا فقد انبطحـت خلـف الجـدار ولكـن مـاذا يغـنى الجـدار؟ لقد كانت طلقات "الشـلكا" تخترقـه كأنـه جدار من ورق. لم نتمكن من ضبط الصاروخ للرماية وأصر "أسـد الله" ألا يتركـه يتلف من الرماية عليه فحملناه رغم ما فى ذلك من مجازفة وعدنـا بـه، ولم أصدق أنـنا خرجـنا مـن هـذه الـنيران أحـياء وكانت دهشة "أبو الشهيد" كبيرة لأنه لم يكن يتخيل أن فى "أفغانستان" قتال على مسافة قريبة إلى

هـذا الحـد، ومـن العجيب أنه عندما أصيب لم يكن ذلك فى مركزنا بل فى مركز أقل خطورة بكثير، كانت إصابة طفيفة بالنسبة لإصابات "قندهار".

أبو مالك يفقد ذراعه

فـى هـذه الأثـنـاء تـزايد عنف القصف الثقيل على المركز وبدأت الرماية تزداد دقـة كل يوم وأصبح من المألوف أن تسقط القذائف فى وسط المركز، وأخيراً حدث المحـذور، كـان العـدو يـتخير أوقـات الصـلاة ليركـز قذفـه لعـلمه أن المجاهدين يجـتمعون للصلاة، وبالفعل سقطت القذيفة وقت الصلاة ولكن من لطف الله كانت بعـيدة عـن المصـلين الذيـن يـربون عـلى الـثلاثين عربـياً ولـو نزلت عليهم لكانت كارثة، ولكن للأسف نزلت على "أبو مالك" الفلسطينى وهو يتوضأ فهدمت المكان علـيه وحفـرت حفـرة فى الأرض يبلغ عمقها متراً. كانت قذيفة من الهاون الثقيل الذى يسمونه (غرنى) أى الجبلاوى.

كنـت فـى الغـرفة عـندما رجـت القذيفـة المكـان ولكـنـها لم تثر التفاتى، وإذا بأفغانى يدخل المركز صائحاً: عربيان.. عربيان..، ففهمت أن أحد العرب أصيب وأسرعت إلى مكان الوضوء فرأيت "أبو مالك" مدفوناً إلى منتصفه تقريباً ويصيح من الألم.. قمـنا بإزالـة الـتراب من حـــوله بسرعة ووجدنا يده مهشمـــة قرب الكوع ولا يصلها بجسمه سوى جزء من الجلد، حملناه إلى المركز وكان يتألم بشدة، وقام شـيخ "بـابو" بلـف ذراعـه بالشاش كيفما اتفق وحملناه إلى أوطاق "حاجى عسكر" حيـث الطبيـب الأفغـانى (تـدرب عـلى الـتمريض لعدة أسابيع)، ولما رأى الجرح أشـار لى وأخذنـى إلى غـرفة جانبـية وقـال لى: لا فـائدة .. لابد من قطع يده..ما رأيـك؟؟ قلـت له: إن ابـن خالـته "أبـو بـلال" معـنا وهـو أولى منى بهذا القرار، ناديت "أبو بلال" وأخبرته بما يقول الطبيب فقال له أفعل ما تراه صواباً.

أعطـى الطبيـب لـ "أبـو مـالك" عـدة حقن مخدرة دون جدوى فقد ظل يتألم بشـدة وقـام "الطبيـب" (ما أيسر الحصول على هذا اللقب فى "أفغانستان") بقطع السـاعد وخـيط العـروق الكـبيرة وقفـلها وطهـر الجـرح ولفه، وذهبنا به إلى أوطاق "محمـد أيـوب أغـا" حيـث أخذنـا سيارة إلى أوطـاق "أسد الله" لأن به مستشفى

وطبيب عـربى حقـيقى، وعـندما وصـلنا أدخلـوه مباشـرة إلى الغـرفة المخصصـة لـلجراحة وأعطـوه مخـدراً وبـدءوا يعملون، ولكن العجيب هو قلة تأثر "أبو مالك" بـالمخدرات لقـد كـان يـتألم رغـم ما أخذ من المخدرات، لم أقو على منظر المشارط تقصب لحمه فخرجت.

كـان "أبـو مـالك" ذا شخصـية قويـة وعنيفة، كان طويلاً متين البنيان عصبى المـزاج وكـان وسيماً إلى حد كبير، وله قصة عجيبة حكاها لى ولا أدرى أيغضب لو ذكرتها أم يصفح عن ذلك.. سأذكرها على أى حال لما فيها من عبرة.

كـان "أبـو مـالك" يعيش فى "أمريكا" حياة أمريكية بما فى الكلمة من معنى، لقـد هـرب مـن الأردن بعـد أن حـاول اغتـيال الملك "حسين" لأسباب سياسية لا علاقـة لهـا بـالدين إذ لم يكـن يـدرى عـن الديـن شيئاً آنذاك، وعندما استقر فى "أمـريكا" عـاش كـأى عـازب فـى بـلاد الفـرنجة، وذات يـوم إذ هو ينتظر فتاته الأمريكـية انـتابه الغيظ لتأخرها وطال انتظاره، ثم بدأ يفكر.. أدرك فجأة أنه فى ضـلال مـبين، عجيـبة والله هـذه الـنفس التى خلقها الله فسواها وألهمها فجورها وتقواهـا، قـرر فجـأة وبغـير كـثير تفكـير أن يتوب ويكون مسلماً حق الإسلام وأن يجـاهد فـى "أفغانسـتان".. هكـذا دفعـة واحـدة من النقيض إلى النقيض، وما أن وصـل إلى هـذا القـرار حـتى طرقـت الفتاة الباب فطردها شر طردة ودخل فاغتسل وصلى ربما لأول مرة فى حياته، وأخذ يتلمس طريقه إلى بلاد الأفغان، ودهش ابن خالـته "أبـو بـلال" الذى كان يحيى حياة لا تختلف عن حياته للتحول الفجائى المذهـل فـى شخصـية صـديقه وقريـبه وحـاول إثناءه عن عزمه بكل الوسائل دون جدوى، وبدأ هو أيضاً يدخل فى صراع نفسى كبير حتى أنه وهو يركب "الباص" ويجلس هادئ المظهر بينما صراع رهيب يدور بداخله، وفجأة قفز من المقعد وصاح بأعـلى صـوته: "أبـو مـالك" عـلى حـق.. "أبو مالك" صح وأنا غلط! ذهل ركاب الـباص وظـنوه مجـنوناً. وجـاءا سوياً إلى أرض الكفاح وبعد فترة التدريب ذهبا إلى ولاية "كونر" وشاركا فى فتح عاصمتها، وكان قائد عملية الفتح هو الشيخ "جميل الرحمن" أمير حزب الدعوة والجهاد لأنها ولايته التى ينتمى إليها، وكان نصيب العـرب مـن الغنائم شيئاً كثيراً ولكن أمير العرب قرر من عند نفسه ودون استشارة

من معه من المجاهدين أن العرب لا يريدون شيئاً من الغنيمة فغضب لذلك "أبو مالك" (وله كل الحق) وترك الولاية والتحق بنا فى "قندهار".

بمجرد موقف أو موقفين أدركت أن "أبو مالك" ليس شخصاً عادياً، إنه شخص شجاع، عنيف مندفع غير هياب ولكن من الصعب جداً أن يسلس قياده لأحد، لذلك قررت أن أجنبه الاصطدام مع الآخرين وأسندت إليه عملاً مهماً يتطلب جرأة تشبع غرائزه القتالية وفى نفس الوقت يكون مستقلاً عن الآخرين، فكنت أدربه على المدفع ٧٥مم لأعهد به إليه، وقد سر بذلك جداً ولكن الوقت لم يمهله وأصابه ما أصابه وظل فى "بيشاور" مدة طويلة ليتلقى العلاج، ولأنه لا يستطيع أن يذهب إلى أى مكان آخر، وقد ظلت يده تؤلمه حتى بعد التئام الجرح ربما بسبب التلوث الشديد الذى أصابها، وقد قابلته بعد نحو عام فى "بيشاور" فوجدته محطماً ويائساً وساخطاً على تحزب العرب وصراعاتهم الفكرية والعنصرية وحزنت جدا، فليس هذا "أبو مالك" الذى عرفته قوياً جريئاً مندفعاً غير هياب، وأظن أن أهم أسباب حيرته وتعاسته هو أنه لم يعد يجد لنفسه دوراً فى الجهاد ولم يكن ليرجع إلى جاهلية "أمريكا"، ولم يكن حتى يستطيع أن يذهب إلى أهله فى الأردن ولم يعد يطيق "بيشاور" ولا يطيق عربها.

عندما أوصلت "أبو مالك" وابن خالته إلى أوطاق "أسد الله" كان معنا "عبد الله الرومى" الذى قتل الشيخ "جميل الرحمن" فيما بعد، وقد روّع لما أصاب "أبو مالك" واختار أن يعود معه إلى "باكستان"، وقابلت فى أوطاق مُلا "أسد الله" أفغانيا يجيد العربية بادر إلى سؤالنا عن مركزنا ولما عرف أنه مركز "عبد الرازق" أبدى معرفته به لأنه جاهد هناك عدة أسابيع، ولما سألته لماذا تركه، ضحك وقال لأنى غير متعجل دخول الجنة.

عدنا بالسيارة الجيب الروسية الفظيعة، وفى طريق عودتنا طاف بى أخو القمندان ونائبه مراكز "ملجات"، واستغلنى فى تسول الذخيرة من هذه المراكز، وكانت العادة أن يعتذروا له بأن الذخيرة قليلة أو غير موجودة، ولكن عندما يرون العربى ملطخا بدماء زميله العربى ويطلب ذخيرة.. كانوا يفتحون (السلاكوت) لنحمل منها ما نشاء، كانوا يقبلون يدى ويحتفون بى، وفى أحد المراكز نادوا

على المولوى (الشيخ) ليتكلم معى بالعربية فإذا به يخجل خجلاً كبيراً ويظل صامتاً لا يتكلم رغم تأنيبهم له: كيف تزعم أنك تعرف العربية ولا تتكلم مع العربى؟ وقد ظل صامتاً حتى سمع منى الكثير من الكلام العربى فاطمأن قليلاً ثم قال: أنا أقرأ العربية كثيراً وأفهمها ولكنى لم أتحدث بها من قبل مطلقاً.

وعندما عدنا إلى مركز "محمد أيوب أغا" أرادوا استبقائى لعدة أيام ربما لمزيد من التسول ولكنى لم أطق ذلك ورجعت إلى مركز "عبد الرازق" الذى صار لى بمثابة بيتى لم أكن أخرج منه إلا لدفن شهيد أو توصيل جريح، وإذا تأخرت فى أى مكان لبضع ساعات أشعر كأنى جالس على جمر.

المركز يتهدم

تزايدت دقة مدافع الشيوعيين فهدمت أجزاء كثيرة من "الأوطاق" ثم أصبح لكثرة ما تهدم غير صالح للإقامة ولم يكن إعادة بناء ما تهدم حلاً إذ سرعان ما يدكه أعداء الله، فقرر "عبد الرازق" نقل "الأوطاق" إلى مكان آخر هو أقرب للعدو وكأنه يتحداهم ويعاقبهم على دكهم للأوطاق بمزيد من الجرأة عليهم.

شرعنا فى تحصين الغرف التى وقع عليها الاختيار فبنينا حوائط سميكة من الداخل ولكننا تركنا السقف كما هو، كنا نعمل فى هذا المكان بتكتم ونجتهد ألا يرانا العدو وبصعوبة أقنعت "عبد الرازق" أنه من الضرورى ألا يعرف العدو هذا المكان الجديد، فمُنِعَ الجهر بالأذان وجعل الطبخ فى المكان القديم حتى يظن العدو أننا مازلنا فيه، حتى مخزن السلاح والذخيرة تركناه فى مكانه القديم لأن غرفته كانت محصنة ولأن مبيت المجاهدين بجواره فيه خطورة.

كان "أبو الشهيد" القطرى و"عكرمة" الجزائرى يعملان معنا فى المركز الجديد بجد ونشاط ويوم احتفلنا بالبناء الجديد قرر "عكرمة" بعد أن استأذن من أميره الليبى أن يبقى معنا فى مركزنا.

انضم لنا مجاهد من مصر، إنه "أبو أيمن" وهو موظف فى لجنة الدعوة فى "كؤيتة" ولكنه من حين لآخر يشارك فى العمليات، كان خفيف الظل إلى أقصى

درجـة وبالمصـادفة كـان مـن محافظـة الغربـية أى بلديـات "أسـد الله" وكـان من الطبـيعى أن نتبناه خلال الأيام التى سيقضيها فى المركز فكان يخرج معنا صباحاً للقـنص، وبـرغم خبرته القتالية المحدودة وبرغم نظارته السميكة فقد استطاع قتل جـندى شـيوعى وأوصـانا أن نكـتم الأمـر خشـية الرياء، وسرعان ما رحل بعد أن أشاع جواً من المرح، وحمل ذكريات أعتقد أنها لن تنسى بسهولة، وعندما أصبت كـان مـن المواظبين على عيادتى فجزاه الله خير الجزاء، وجاءنا أيضا "أبو حمزة" الأردنـى، كـان مسـئول مكتـب الخدمـات الـتابع للشـيخ "عـبد الله عـزام" فـى "كوَيـتة"، وكـان أيضـاً فـى غاية المرح يشيع البهجة من حوله، وإنه لمن الطريف حقـاً أن المـرء فـى الجهـاد لا يكـاد يقـابل شخصـاً ثقيل الظل، كان "أبو حمزة" يطـوف بالجبهات من حين لآخر يوزع المساعدات (قوماق) وينحر الكباش (بيسة) ثم يقفـل إلى "كوَيـتة"، وعـندما جاءنـا كـنا ننهى أعمال البناء فى المركز الجديد وكـان علينـا أن نسـرق بعـض الأبـواب مـن البـيوت ليكـتمل البـناء، وكانت هذه البـيوت فـى مـنطقة نفـوذ العـدو وكـان كـل المجاهدين مشغولين فى أعمال البناء فطلبت من أحد مرافقى "أبو حمزة" أن يأتى معى ليحرسنى أثناء معالجة الباب، وعدنا بأحد الأبواب المتينة وضحك "أبو حمزة" كثيراً من ذلك الموقف وكان عندما يـزورنى فـى المستشـفى يصـيح: إيـه يـا حـرامى الأبواب.. لقد رأيتك بنفسى فلا تنكر.

كـان "عبد الرازق" يزيد من الضغط على العدو كلما تهدم المركز وكأنه يريد أن يقول لهم إن ذلك لن يغير من الأمر شيئا، ورغم الانشغال الشديد فى أعمال البناء إلا أن العملـيات لم تـتأثر بهـذا. وفى ليلة حـالكة السواد شديدة البرد غزيرة المطر قـرر "عـبد الـرازق" مهاجمـة العـدو فقـد أعجبـته أخـيراً الأوقـات غـير المتوقعة، وخرجـنا لا يرى أحدنا يده ولا نكاد نحفظ توازننا من أوحال الطريق، وكان "عبد الـرحمن" أشـدنا معانـاة فقـد كـان ضـعيف البصر فكان ينزلق كل بضعة خطوات ويصطدم بالجدران ويعطل طابور المجاهدين. كان يسير خلفى وشعرت أنه اختفى فعـدت ألتمسه فوجدته واقفاً خلف أحد الجدران يظن الطابور متوقفاً، وأراد "عبد الـرازق" أن يجنـبه هذه المعاناة فطلب منه أن يجلس حيث هو حتى نرجع إليه،

ولكنه أبى وكاد يبكي ويتوسل حتى رضى أن يصحبه.. والحق أن العملية كانت مفاجئة للعدو، وقبل أن نبرح الخنادق سمعنا دوى سيارات الإسعاف.

عبد الباسط عبد الصمد يحارب معنا

كان "سياف" المصرى من ريف مصر من قرية قريبة من قرية "أسد الله" وكان لهما معارف مشتركون ولكنهما لم يلتقيا إلا فى "قندهار"، لقد أعطت محافظة الغربية بالذات شهيدين للجهاد الأفغانى يرقدان متجاورين على أرض "قندهار" فى ضاحية "ملجات"، المهم كان "سياف" المصرى موهوباً موهبة لا تضارع فى تلاوة القرآن الكريم بصوت كبار المقرئين فلا يشك السامع أن هذا صوت "عبد الباسط" أو "المنشاوى" أو "الطبلاوى" وبالطبع فإن معبود الأفغان (قارى باسط) كان يحظى باهتمام خاص.

كنا قد ابتدعنا تقليداً، وكان أول مرة نتبعه له وقع غاية فى التأثير، ففى إحدى العمليات جعلنا "سياف" يحمل مكبر صوت، وكان العدو يرمى رمايته العشوائية المعتادة، واتخذ كل مجاهد موقعه، وبدأ "سياف" بتلاوة سورة "الكافرون" بصوت (قارى باسط) وإذا بالعدو ينصت ويتوقف عن الرماية العشوائية، واستمر سياف يجود ويعيد { *قل يأأيها الكافرون* } ولم ينتقل للآية لتالية إلا بعد أن أعادها نحو خمس مرات بمختلف أساليب التجويد، والعدو ينصت وقد أخذ بحلاوة التلاوة وجمال الصوت ودهشة الموقف، وما أن انتهى من السورة حتى فتحنا النيران بكثافة مبالغ فيها ومقصودة، فارتبك العدو وكان رده يعكس هذا الارتباك، وكدنا نهلك من كثرة الضحك فى تلك الليلة، وفى اليوم التالى ما أن بدأ "سياف" يستفتح التلاوة حتى انهالت علينا القذائف وكان موقف أشد طرافة، واستمر "سياف" يتلو كلما أردنا أن نستفزهم حتى لو لم تكن هناك عملية.

وداعاً أبــا أيــوب

ذكـرت مـن قبل كيف رحل "أبو تميم" وكان أمير العرب في الأوطاق، وعندئذ أراد العـرب انـتخاب "أسـد الله" أمـيراً ولكـنه دهـش لذلك جداً وأبى بشدة لكنه اخـتار "أبـو أيوب" الجزائرى، وكان له فى هذا غرض، إذ كان "أبو أيوب" على عكس غالب أهل "الجزائر" لين العريكة سهلاً ومرناً ولا يتشبث برأيه مما يتيح لـ "أسـد الله" أن يغامـر مـا عنـت له المغامـرات، ولكـن "أبـو أيوب" رحل بعد مدة وجـيزة. كـان شـاباً مثقفًا قارئاً معتدلاً فى آرائه غاية الاعتدال، ولكنى علمت بعد ذلـك أنـه الـتقى فـى "بيشـاور" بعدد من الجزائريين أصحاب فكر التكفير وكانوا كـثيرين خاصـة بـين الجزائـريين، وهـم لا يشـاركون فـى المعـارك بـل يستوطنون "بيشاور" يصدون عن سبيل الله، وأصبح "أبو أيوب" يرى أن المجاهدين مشركون يحـاربون الملاحـدة.. تعجبـت جـداً مـن هـذا الانقـلاب فـى أفكـار "أبـو أيـوب" واسـتبعدت جـداً عـلى شخص فى مثل اطلاعه وميله الطبيعى للاعتدال أن يعتنق فعـلاً هـذه الأفكـار المـتطرفة، ولم يحـدث فـى الجـبهة ما يبرر ذلك، ولم أستطع تفسـير هذا الأمر إلا على محمل واحد، لقد كانت الظروف فى مركز "عبد الرازق" قاسـية إلى حدٍ بعيد، وكانت وطأة ذلك على نفسه ثقيلة، ولم يستطع إيجاد تبرير لانصـرافه عـن الجهـاد إلا هـذا الموقـف.. وأعـنى بالطـبع تـبرير عقلـه الـباطن، فبالتأكـيد لا يفعل "أبو أيوب" ذلك عن وعى وعمد.

كـان لهـؤلاء المكفـرين مراكـز تدريـب داخـل "أفغانستان" وكان من يستجيب لأفكـارهم يأخذونه لتلك المراكز للتدريب فقط دون مشاركة فى أى جهاد، وجاءت غـارة مـن الطائـرات عـلى ذلـك المركز وواجه "أبو أيوب" الغارة بشجاعة غريبة، وأصابته شظية فى رأسه، ولقى ربه شهيداً مغفوراً له إن شاء الله تعالى.

صراع على السلطة

بعـد رحـيل "أبو أيوب" عن الأوطاق أصبح علينا اختيار أمير للعرب بدلاً منه وأردنـا أن يخـتاره لنا "عبد الرازق" ولكنه أبى وقال: أنا ليس عرب.. أنتم عرب تخـتارون أميركـم، اجتمعـنا فـيما يسـميه الأفغـان (شـورى) وأرادوا أن يختارونى

ولكنى تنصلت وزكيت لهم "صديق" التونسى فهو أكبرنا سناً كما أنه ضابط سابق فى الجيش التونسى والقيادة وظيفته ووافق الجميع، وقد سبق وتحدثت عن "صديق" التونسى وأود أن أكرر أنه شخص صادق ومخلص ولا أدرى سبباً لما أشيع عنه بعد ذلك من أن له صلة بالمخابرات ولا يمكن لإنسان أن يخفى حقيقة أمره فى مواقف عصيبة كتلك المواقف التى كنا نمر بها، فالرجال بل أدهى الرجال يصبح كتاباً مفتوحاً تقرأ على وجهه ما يدور بصدره، أقول ربما أن المخابرات التونسية التى أغاظها هروب طيار مقاتل من سلاحها الجوى هى التى أشاعت ذلك عنه ولا يستبعد أن تلفق دليلاً على ذلك.

كان "أبو خبيب" أمير كل عرب "قندهار" متغيباً منذ بضعة شهور فى "السعودية" وظهرت الحاجة الماسة لاختيار شخص يصرِّف الأمور، وكان اجتماع كل العرب فى مكان واحد لاختيار أمير لعرب "قندهار" فيه خطورة، فاعتبرنا أن أمير كل مركز يمثل العرب الذين معه واجتمع أمراء العرب من كافة المراكز لاختيار أمير لعرب "قندهار".

والذى أثار هذه القضية وسعى إلى اختيار أمير للعرب بدلاً من "أبو خبيب" هو "أبو ذر" الليبى ثم القندهارى، وهو من المجاهدين القدماء وأمضى معظم فترة جهاده فى "قندهار" وأتقن البشتو وكان على صلة وثيقة بالشيخ "سياف" ويعد من مسئولى حزب "اتحاد إسلامى"، كان شخصاً ودوداً تألفه بسرعة ولكنه كان حاد لذكاء بل داهية من دواهى العرب، وكان قد تلقى تدريبات راقية وخاصة فى المتفجرات وكان يقوم بعمليات تخريب لمخازن ذخيرة العدو وعمليات أخرى يمكن أن تسمى إرهابية فقد كان يفخخ السيارات ويضعها فى أماكن حيوية فى المدن التى مازالت فى حوزة الشيوعيين، وفى هذه الأثناء أتى إلى "قندهار" وظل معتكفاً فترة من الزمن فى أوطاق قريب منا وكان خلال ذلك منهمكاً فى تفخيخ شاحنة كبيرة بكمية هائلة من المتفجرات تمهيداً لإدخالها المدينة، وكانت السيارة بجوار الأوطاق ناحية المزروعات. كان القائد الأفغانى فى "الباكستان" وكان نائبه شاباً يافعاً من سكان المدينة وأهله مازالوا هناك، وكان بالطبع يعترض على هذا الأسلوب ولكنه اعتراض على الطريقة الأفغانية إذ ترك "أبو ذر" حتى كاد ينتهى

مـن عمله ثم قام بتفجير السيارة بقذيفة آر بى جى، كان من الممكن أن يمحوا هذا الانفجـار المركـز بمـن فـيه محـــواً ولكـن لحســـن الحظ أو بحرص من "أبو ذر" كانـت السـيارة فـى وضـع مـائل مـيلاً كـبيراً عكس اتجاه المركز مما جعل الموجة الانفجاريـة تـتجه عكـس مكـان المركـز، وقد رأيت الجزء الأكبر من الموتور الثقيل جـداً عـلى بعـد ٢٠٠مـتر مـن مكـان السيارة ويكاد هذا الجزء أن يكون هو الشىء الوحيد الباقى منها.

أراد "أبـو ذر" بإثـارة موضوع انتخاب أمير بدلاً من "أبو خبيب" أن يكون هو هـذا الأمـير المنتخـب، ولكـن خـاب رجـاؤه واخـتار الأمراء "صديق" التونسى فلم يـيأس إذ وجـد "صـديق" حديـث عهـد بالجهـاد ولا يـدرى شـيئاً عـن معضلات "قندهار"، فأصبح يوجهه حيث أراد بأسلوب غاية فى اللطف والذكاء، وأرجو ألا يفهـم مـن كلامـى أن "أبـو ذر" شـخص انـتهازى أو غـير مخلـص بل هو شخص مخلـص ولكنه أذكى من المعدل الطبيعى وله انتماء حزبى وطموح لا حد له، ومثل "أبـو ذر" أنفـع لأى قضـية مـن عشـرات المخلصين الأغبياء، ولا يوجد على ظهر الأرض إنســان يسـتطيع أن يتجرد تجرداً تاماً طوال الوقت وإلا لصار ملاكاً وليس على الأرض ملائكة يمشون مطمئنين.

وعـندما عاد "أبو خبيب" وجد أميراً للعرب غيره.. والحق أن "أبو خبيب" له خـبرة كـبيرة جـداً فى إدارة شىءون العرب والتعامل مع القادة الميدانيين ومسئولى الأحزاب والهيئات الخيرية، وظن أن "صديق" قد استأثر بأمور المجاهدين العرب فكـان أول لقـاء بيـنهما جافـاً بعـض الشــىء وأعطى "صديق" بعض الأموال والمؤن لـيوزعها عـلى العـرب، ولكـن "صـديق" قـال له: أنا أمير مؤقت ريثما تعود أنت فـالآن تـول مكانك كما كنت، وفرح "أبو خبيب" وعاد يدير شىءون العرب ويوزع المساعدات على الأفغان بجدارة واقتدار.

و"أبـو خبيـب" شخصـية بسيطة جداً وغاية فى الطيبة التى قد يظنها البعض سـذاجة، وهـو دائـم المـرح يحـب المجاهدين حباً جماً لم أر له مثيلاً، وهو جدير بالـثقة الـتى يتمـتع بهـا سواء بين الأفغان أو العرب. وقد وقع فى يدى ذات يوم عـدد قديـم مـن مجلـة الجهاد العربية وكان "أبو خبيب" هو مراسل الجنوب وقد

ذكر في التقرير الأسبوعي أن القندهاريين قد خاضوا معركة ودمروا فيها أربعين دبابة، ضحكت وقلت له : (واسعة دى شوية يا "أبو خبيب")، ولكنه اندهش من كلامي وأكد أن الرقم صحيح، ولم أقتنع إلا عندما مررت بساتر لا تقع العين على نهايته من الطرفين، كان هذا الساتر عبارة عن الدبابات المحطمة جمعها الروس من أنحاء قندهار وبنوا بها هذا الساتر لحماية مناطق نفوذهم من هجمات المجاهدين، كان هذا الساتر بطول بضعة عشر كيلومترا وبه ولا شك عدد هائل من الدبابات تجعل رقم أربعين دبابة في يوم واحد شيئا معقولا، وللأسف بعد سقوط هذه المنطقة في أيدى المجاهدين (كانت قريبة من المخبز الآلي التابع للجيش) أخذ هذا الساتر يذوب، فقد تحول أغلب الأفغان إلى جامعي خردة وصُبت أنهار الحديد في "باكستان"، ومن حسن الحظ أن عديد من العدسات سجلت هذا المنظر الرائع قبل أن يذوب الحديد.

وقد زارنا "أبو ذر" في مركز "عبد الرازق" ودهش لمواقعنا الخطيرة وجلس مع "عبد الرازق" وشيخ "بابو" وأشار عليهما برأى حكيم وهو أن نقتصر على القنص لأن أحد المستسلمين ـ وكان ضابط أمن ومسئول عن القطاع المواجه لمركزنا ـ قد أبلغه أن معظم القصف لا يُحدث أى ضرر لأن تحصينات الجيش غاية في المتانة، وعندما أراد "أبو ذر" أن يصطحبه إلى مركزنا أبى بشدة وقال إنما استسلمت لأنجو بنفسي لا لأهلكها، ورسم خريطة دقيقة لمواقع الجيش المواجهة لنا وقد أعطانيها "أبو ذر" واستفدت منها كثيرا.

كان "عبد الرازق" وشيخ "بابو" يستمعان له باحترام شديد ودهشت عندما قالا لى إن "أبو ذر" مسئول مهم في حزب "اتحاد إسلامى" أى ليس مجاهدا عابرا مثلنا، ولكن عندما رحل تجاهل "عبد الرازق" مشورته تماما، وكان لديه بعض الحق فلولا القصف الذى لا يكاد يحدث ضررا (كما يزعم ذلك الضابط) لما استسلم للمجاهدين.

عبد الستار شهيداً

توالى شهداء المركز وكان الدور هذه المرة على "عبد الستار" الأفغانى الساعد الأيمن لـ "عبدا لرازق"، وكان متغيباً لعدة أسابيع فى "باكستان" ولقى ربه فى نفس يوم عودته تماماً مثلما حدث مع "أبو دجانة".. ولا يوجد تفسير لهذه الظاهرة سوى أن العنف المتبادل يزيد بمعدل كبير جداً بحيث أن عدة أسابيع فى "باكستان" يكون الوضع قد اختلف فى المركز، ويأتى المجاهد وهو متعود على مستوى معين من الحذر فينفذ قدر الله، أو أن المجاهد بعد شهرين من الحياة المدنية الوادعة يحتاج لفترة تأقلم حتى يصبح فى كامل لياقته البدنية والعصبية.

كالعادة لم تهتز شعرة فى "أسد الله" رغم ما بينهما من صداقة بل بدا و كأنه يحسد "عبد الستار" على ما ناله من نعيم مقيم، ورغم وجود مقابر قريبة ومحفورة جاهزة للطوارئ إلا أن زملاء الشهيد أرادوا أن يدفنوه فى قريته أو على الأصح فيما كان يوماً قريته بجوار رفات من استشهد من أقاربه، وتبادلنا حمله لمسافة طويلة، وكان "محمد أيوب أغا" حاضراً الدفن وبعد انتهاء المراسم اصطف الجميع وأخذ "أيوب أغا" يوزع علينا الحمص والحلوى وأبدى كل المجاهدين الأفغان احتراماً كبيراً له ولكننى لاحظت نفور "عبد الرازق" من قائده ولا أدرى كيف يوفق رجال "عبد الرازق" بين الولاء له والولاء لـ "أيوب أغا".

أسـد الله يتوهـج

لَمّا تكاثر العرب فى المركز أصبح هناك ثلاث جماعات للصلاة بسبب ضيق المكان فانبرى "أسد الله" ليوحد جماعة المصلين ببناء مسجد يسع ذلك العدد، وأخذ يجمع الطوب من البيوت المهدمة ونظم العرب فى أداء هذا العمل وصار يبنى بمهارة وكأن مهنته هى البناء، وكان لا يكل ولا يمل طوال النهار ومعظم الليل، يضع جنبه لساعة أو لساعتين ثم يقوم ليحرس من الثانية إلى الثالثة وقد حجز هذا الموعد لنفسه لا يتغير مثل الآخرين وذلك ليتسنى له إحضار الماء من البئر بعد الحراسة وإشعال النار لتسخينه للمجاهدين ثم يصلى ما شاء الله أن يصلى ويتسحر ثم يوقظ المجاهدين لصلاة الفجر. وقد أحب المجاهدين حباً

لا يوصف، وكان فى هذه الفترة قد دخل فى طور جديد، صار شعلة من الإخلاص والتفانى والإيثار، وكنت أرقب ذلك فيه، وربما لم يشعر هو بهذه التغيرات التى تزيد مع الأيام حتى صار يذوب إخلاصا وتفانيا، وكلما ازداد قربا زاد حب من حوله له حتى صار "أسد الله" رمزا للمجاهد الحق عند عرب "قندهار" وعند كل من عرفه.

أخذ "أسد الله" يزداد مع الصوم نحولا وصلابة وأكسبته كثرة الذكر هدوءا ووقارا، وكف عن شجاره المعهود وأصبح مرحه مجرد ابتسام وبعد أن عدنا من دفن عبد الستار طلب منى أن أسامحه فعجبت له وسألته عن السبب فقال وهو ينظر إلى الأفق كأنه يقرأ الغيب: عما قريب تتبادلون حملى كما تبادلنا حمل "عبد الستار" اليوم، تبسمت وقلت له ممازحا: لا تحزن.. عهدا علىّ أن أحملك من المركز إلى المقابر لا أبدل مع أحد، ولم أكن أدرى أنى سأضطر إلى الوفاء بهذا العهد فى وقت قريب .. جد قريب.

وداعـــا أســـد الله

عندما حضر المجاهد الأفغانى الذى وعد "أسد الله" أن يزوجه أخته طلب منى ومن "صديق" أن نصحبه إلى مركز "أيوب أغا" ليحدد معه موعدا للزواج، ولكنى اشترطت عليه ألا يثور إذا تملص منه هذا الأفغانى فقال لى لا لم أعد "أسد الله" الذى تعرفه. كان قد حصل على ثمانية آلاف روبية باكستانية من الشيخ "عقيل" لهذا الغرض، ولكن الأفغانى قال له إن أباه متغيب فى جبهة أخرى وعندما يعود يتم الزواج، وعدنا لمركزنا، وفى تلك الليلة رأى "أسد الله" رؤيا قصها علىّ فى الصباح إذ كنت قد اكتسبت شهرة ذائعة فى تفسير الأحلام. لقد رأى أنه فى بيته فى "مصر" يتكلم مع شقيقه عن إحدى جاراته ليذهب لها ويخطبها له وأثناء الحديث سمع الأذان من مسجد القرية فترك أخاه وهرع إلى المسجد، كانت رؤية واضحة لا تحتاج لكثير تفكير فبشرته بالشهادة ففرح بذلك وتهلل وجهه.

فى اليوم التالى رأى نفسه يمشى وخلفه أربعة عرائس ورأى له أحد المجاهدين رؤيا أكثر إثارة إذ رآه يقود باصا مليئا بالعرائس. وكان لمثل هذه

الرؤى تفسير واحد لا يختلف، فليس معناه الموت بل الحياة.. الحياة الحقيقية.. إنها بشرى بالجنة، وبشر الصابرين، ثم أخيراً رأى رؤيا مختلفة.. رأى أن في الغرفة الكبيرة التي نأكل فيها شهيداً عربياً ملفوفاً في بطانية، والعرب من حوله في حزن عميق، قلت له: ربما يستشهد أحد العرب قريباً ولكني لم أخمن أنه "أسد الله" نفسه.

وفي عملية ليلية عادية لم أشارك فيها مع الأسف، كان "أسد الله" مع اثنين من الليبيين ومعهم آر بي جي، كان أحد الليبيين يستعمل هذا السلاح لأول مرة وكان موقعهم في بيت متهدم يطل على مواقع العدو عبر شارع الموت، وكان على رامي الآر بي جي أن يصعد على السلم حتى السطح ويقذف الصواريخ عند بدء المعركة، ومن المعروف أن المبتدئ على هذا السلاح لابد أن يقع في أخطاء محددة إذ ينسى وضع القذيفة في الوضع الصحيح فلم تخرج القذيفة فعدل له "أسد الله" وضع القذيفة، وعندما حاول مرة أخرى لم تخرج أيضاً بسبب قيد الأمان ففتح له "أسد الله" قيد الأمان وأخذ منه السلاح ليريه كيف يرمي، كل هذا استغرق وقتاً كان المجاهدون قد كفوا عن الرماية تقريباً وبدأ العدو يرد بعنف وغزارة وما كان "أسد الله" يبالي إذ صوب نحو مصادر النيران وهتف هتافه المعهود (الله أكبر) بأعلى صوته ورمى القذيفة وفي نفس اللحظة أصابته طلقة جرينوف في رأسه فكانت كلمة (الله أكبر) هي آخر ما لفظ من كلام وهي ختام رائع لصحيفته البيضاء ناصعة البياض.

لا أستطيع أن أصف كيف حزن عليه العرب والأفغان، والغريب أن أخانا الليبي لم يبال بسقوط "أسد الله" من السلم بل أخذ السلاح ورمى ما معه من قذائف بعد أن علمه "أسد الله" كيف يرميها ثم لما نزل فوجئ بـ "أسد الله" قد فارق الحياة وكان يظنه أصيب إصابةٍ بسيطة، وحُمِلَ "أسد الله" إلى المركز وصعدت روحه إلى باريها، وكان صائماً فعسى أن يكون قد رُوِيَ من أنهار الجنة، ولم أملك نفسي عندما جاءوا به صريعاً وشعرت بالكون من حولي وقد لفه السواد، لُفَّ الشهيد في بطانية، وهي أول مرة يلف أي شهيد في بطانية، إنها إحدى

الأغطية التى أحضرها للمجاهدين من الشيخ "عقيل"، وكان فى جيبه مهر عروس لم ولن يراها أبدا.

التف العرب حوله فى الغرفة الكبيرة وهو ملفوف فى بطانية كما رأى تماما، وبتنا ليلة لا يعلم بها إلا الله، إن "أسد الله" لم يكن شخصا عاديا، وأثناء الليل حُفر له قبر بجوار "أوطاق" "محمد أيوب أغا" بجانب قبر مجاهد عربى آخر نسيت كنيته.. ولا يضره أن ينساه خلق الله جميعا مادام رب الناس يذكره.

وفى الصباح وضعنا الشهيد على النقالة وحملت أنا و"عبد الرحمن" من الجهة الأمامية وسرنا نحو المقابر، وكانت العادة أن نتبادل الحمل لأن الطريق طويلة ولكنى تذكرت عهدى معه وإن كان مزاحا إلا أنى شعرت أن لزاما علىّ الوفاء به، ولما رآنى "عبد الرحمن" أرفض أن أبدل فعل مثلى وإن لم يكن يدرى ما السبب.

لا أدرى كيف عرف العرب فى كافة أنحاء الولاية بالخبر ومشوا جميعا خلفه إلى المقابر، ولم أستوعب الموقف تماما إذ شعرت بدهشة أن نهيل التراب على وجه "أسد الله" ولم أستطع أن أسدى له هذه الخدمة الأخيرة.

ومكثت عند قبره ساعة بعد انصراف المشيعين أدعو له وأقرأ القران، وغضب "عبد الرازق" لما ظنه جزعا منى على "أسد الله"، لقد ترك "أسد الله" فراغا كبيرا أحس به كل عرب "قندهار"، وأصبح الأوطاق موحشا وأصبحت العمليات مملة حتى القنص فقد رونقه، لذلك شعرت أن لـ "سياف" بعض العذر لما أصابه من حزن، فقد كان بينهما ارتباط وجدانى عميق أدى إلى رغبة لا تقاوم للحاق به.. سبحان الله، ليس "أسد الله" أول شهيد عربى أو مصرى نصاب به، ولكنه كان شخصاً فريدا قلما يجود الزمان بمثله.

أعدنا المهر إلى الشيخ "عقيل" مرة أخرى، وكان رحمه الله قد أوصانى مشافهة أن كل ما يتعلق به يوزع على المجاهدين حال موته، ولكن "عبد الرحمن" أراد إرسال حقيبته وكل ما يخصه إلى ذويه فى "مصر". وبعد بضعة أيام جاءنى أحد الأفغان وقد اعتراه خجل كبير وقال لى: ماذا ستفعلون بمتاع "أسد الله"؟، على الفور قال له "أبو حمزة": ناد زملاءك، وأخذ يوزع عليهم ما فى متاع الشهيد، ولم أعترض بناء على وصيته السابقة لى وإن كان "عبد الرحمن" قد

غضب جداً لهذا التصرف وقال لى: أنت لا تدرى القيمة المعنوية لهذه الأشياء بالنسبة لأهله، فقلت له: ربما زادت وجددت أحزانهم.

ومن غرائب "أسد الله" أنه أرسل عنوان مركز "عبد الرازق" لأهله فى "مصر" وجاءه خطاب من قريته إلى مركزنا بهذا العنوان العجيب (كؤيتة ـ قندهار ـ جبهة ملجات ـ أوطاق محمد أيوب أغا ـ أسد الله المصرى)، كيف خرج هذا الخطاب بهذا العنوان من تحت أنف السلطات المصرية وكيف وصل إلى مجاهل "قندهار" يحمل أختام بريد لا حصر لها؟!

والحقيقة كان خطاباً أليماً.. حمدنا الله أنه وصل بعد أن رحل "أسد الله".. كان من أخيه يؤنبه ويسخر منه ويعيره بما اقترض من إخوته ليسافر، حتى الحذاء عيره أنه استعاره منه.. ولم يدر هذا الأخ سامحه الله أن أخاه كان يوزع مئات الأحذية على المجاهدين الحفاة ولا يحتفظ بواحد لنفسه ويسير على الجليد والأشواك حافى القدمين، وكلما أعطاه أحد العرب حذاءً سرعان ما يعطيه لأحد الأفغان الحفاة، وعيره أيضاً بأنه ترك أبويه شيخين فانيين وذهب "ليصيبع" فى بلاد بعيدة ولم يشغل باله كيف سيعيش أبواه ومن ينفق عليهما؟!، بكى "عبد الرحمن" من هذا الخطاب حتى احمرت عيناه وذهب به إلى الشيخ "عبد الله عزام" فى "بيشاور" وقال لى إن الشيخ تأثر جداً بالخطاب وترقرقت عيناه وأخرج كل مَنْ عنده وظل أربع ساعات يكتب خطاباً لأهل "أسد الله" وأرسل لهم مبلغاً من المال. كان شيخاً ربانياً رحمه الله وأسكنه فسيح جناته، وقد علمت فيما بعد عندما زرت قريته أن أهله لم يصلهم أى شىء بل ظلوا يشكّون فى موته حتى أكدته لهم بعد سنوات عديدة، والغريب أن والدته شعرت بارتياح فاليأس إحدى الراحتين، وعندما سلمت على شقيقه مودعاً هالنى الشبه الشديد بينهما فبكيت كأنى أودع "أسد الله" المصرى.

وستمر الأيام.. وتمر السنون.. وربما عمرت فى هذه الدنيا برهةً من الزمان.. وربما أنسى كل شىء.. ولكن حتى لو نسيت اسمى فلن أنساك يا إبراهيم.. سلام على إبراهيم.. سلام على إبراهيم.. سلام على إبراهيم فى العالمين.

عكـــرمة شهــــيداً

عـندما رآنـى شـيخ "بـابو" حزيـنا عـلى "أسد الله" أخذنى من يدى ذات يوم وقال سأريك شيئا، مشيت معه من خرابة إلى أخرى حتى بعدنا جدا عن مركزنا، وإذا بـه يصـل إلى جـثة.. بـل هـيكل عظمـى فـى زى عسكرى وقال لى إنه ضابط كومنست وأخذ يطلق عليه الرصاص تشفيا.. نـهيته عن ذلك وانصرفنا.

أصبحنا الآن فـى "الأوطـاق" الجديد الذى يعد أقرب للعدو من الأوطاق الأول الـذى تهـدم، وظـل مخـزن السـلاح والذخـيرة والمطبخ فـى الأوطاق الأول، ومنع الجهـر بـالأذان وإشـعال الضـوء لـيلا ورغـم ذلـك سـرعان ما اكتشف العدو المركز الجديد ولم نهنأ طويلاً بالسخرية منهم وهم يرمون مركزا خاليا من المجاهدين.

انضـم إليـنا "عكـرمة" الجزائرى بعد أن استأذن من أمير القاعدة وقد تحدثت عنه فى بداية هذه المذكرات، كان فارع الطول متين البنيان مفتول العضلات طويل الوجـه حـاد الملامـح، كان نموذجاً للجندى المثالى شجاعة وانضباطا عسكرياً وقوة بدنـية وقوة شخصية، حتى إن "عبد الرازق" لمّا خبره فى بعض المواقف قال: لو عندى عشرون مثل "عكرمة" لفتحت بهم مدينة "قندهار".

كـان "عـبد الـرازق" قـد قـرر أمرا بدا لنا عجيبا، فقد أراد أن يمنع السير فى الشـارع الخلفـى المـوازى لشارع الموت، فقرر بناء غرفة محصنة خلف سور متهدم يطـل هذا السور على ناصية تقاطع هذا الشارع مع شارع عمودى عليه، وهو شارع هـام وحـيوى وتمر عليه عشرات المصفحات والسيارات العسكرية والضباط والجنود والأهالى أيضا.

شرعنا فى بناء هذه الغرفة مستترين بالظلام وبمنتهى الحذر والهدوء، وجعلنا الجـدران سمـيكة ومـن الطـوب اللبن وبارتفاع حوالى ١٥٠سم، وصنعنا السقف من جذوع الأشجار وغطيناه بالطين والصخور وجعلنا فى الحائط المواجه للعدو فتحات ضـيقة للـرماية، وكانت الغرفة بجوار شجرة توت، ولا أدرى أكان العدو يعلم بها أم لا، فقـد تـركونا حـتى أتممـنا بـناءها، واحتفلـنا فـى الليل بمناسبة قطع ذلك الطـريق بـدءا مـن صـباح الغـد. كانـت فكـرة "عـبد الـرازق" أن يتواجد اثنان من

المجـاهدين طـوال ٢٤ساعة بالتـبادل ومعهـم "آر بى جى" و"جرينوف" لمنع أى مشاة أو آليات من السير فى الطريق.

كنـت أشـعر أن "عـبد الرازق" يزداد جنوناً كل يوم، وما كان لخطة مثل هذه أن تفلح أبدا، إلا إذا كانت كما تعودنا أن نقتنص ثم نلوذ بالخنادق تحت الأرض لا فـى حجـرة فـوق الأرض مهما كان تحصينها، بل ومكشوفة للعدو تماماً من كل الجهـات، ولكـنه بـدا واثقـاً مـن نجـاح فكـرته. فـى الصباح أعطى "عبد الرازق" "الجريـنوف" لـ "عكـرمة" وأعطى "الآر بى جى" لمجاهد يمنى، فبدا القلق على "عكـرمة" وكـلم "عـبد الـرازق" فـأخذ مـنه "الآر بـى جـى" وأعطانـيه مما جعل "عكـرمة" يـتفاءل، إذ كـان يـرانى ماهراً على هذا السلاح. وانتخب "عبد الرازق" كذلك مجموعة من المجاهدين العرب والأفغان ليكون أول يوم يوماً كثيف النيران.

وقفنا خلف جدار قرب الغرفة الجديدة نرقب الطريق فرأينا سيارة جيب تقف وينـزل مـنها ضـابط يتكـلم مـع عـدد مـن الجـنود، أشـار لى "عبد الرازق" لأسرع وأضربها فذهبت على الفور للغرفة مع "عكرمة" ومجاهد أفغانى اسمه "محمود"، ورجـانى "عكـرمة" أن يضـرب هـو السـيارة فتبادلنا السلاح فإذا به يتسلق الغرفة ويقـف عـلى سـطحها ويصـوب الآر بـى جى نحو السيارة ويدمرها ويهبط فرحانا جزلا، ويدخل الغرفة بينما طلقات وقذائف العدو تنهمر علينا كالسيل العرم.

كنـت أضـع السـلاح فـى إحدى الفتحات الضيقة وأرمى دون أن أنظر بالطبع ودون أن يكـون جسـمى مواجهـاً للفـتحة وكذلـك كـان يفعـل "محمود"، وبمجرد دخـول "عكـرمة" دنا من إحدى الفتحات لينظر إلى السيارة المحترقة، وما أن دنا مـنها حتى طرح للخلف، لقد تم الأمر فى أقل من ثانية وبمجرد دخوله الغرفة لم أفهـم مـا حـدث.. وتعجبت ما الذى طرحه للخلف وعندما نظرت له انخلع قلبى مـن مكانـه... كـان منظراً غاية فى البشاعة.. لقد رأيته مستنداً بظهره إلى الجدار الخلفـى و... ولـيس لرأسـه غطاء.. كان مخه كاملاً وفى مكانه ولكن عظام الرأس من فوق الحواجب غير موجودة.. ولو سودت مئات المجلدات لأصف شعورى فى هـذه الـلحظات مـا أفلحـت. المأسـاة أنـه كان حياً وظل حياً لبضع ساعات، لقد

رأيت الدم يتدفق من رأسه كأنه حنفية حريق، دماء كثيفة وغزيرة بطريقة غير عادية كأنها نهر لا يريد أن ينضب.

وفى هذه اللحظات العصيبة صب العدو جام غضبه على الغرفة بطريقة لا يمكن وصفها، فكانت الصواريخ تنفجر مزلزلة للأرض وطلقات "الزوكوياك" و"الشلكا" و"الدوميلا" تخترق الجدران بينما طلقات "الجرينوف" وغيره من الرشاشات تدخل من الفتحات. هرب "محمود" لا يلوى على شيء وهرب باقى المجاهدين بما فيهم "عبد الرازق" أو لم يستطيعوا الاقتراب من الغرفة، ولم يخطر ببالى أن أترك "عكرمة" هكذا وأهرب، حاولت رغم كثافة وبشاعة وتركيز القصف أن أسحب "عكرمة" من تلك الغرفة اللعينة، ولكنه كان عملاقاً ثقيل الجسم بدرجة كبيرة، كما كنت أحاول سحبه مع الحفاظ على رأسه فى وضع عمودى حتى لا يندلق مخه!! كان يتنفس بعنف.. يأخذ شهيقاً طبيعياً تقريباً ولكنه يلفظه بعنف.

تصورت أن فى الإمكان إنقاذه فجمعت عظام رأسه ووضعتها فى جيبى وعبثاً أحاول سحبه ورأسه عمودية، النيران كثيفة والمجاهدون هربوا و"عكرمة" يتنفس بقوة.. شعرت بعجز هائل وقلة حيلة، وأخذت أضرب الأرض بيدى بعنف.. أريد أن أفعل له أى شيء ولا أستطيع، لو كان فارق الحياة لما كانت هناك مشكلة، ولكن شعورى بضرورة إنقاذه وبأسرع وقت وعجزى عن ذلك وهروب المجاهدين وكثافة النيران كل ذلك أصابنى بما يشبه الانهيار العصبى. بعد مدة لا أعلمها خفت وطأة العدو قليلاً وجاء المجاهدون، كان "عكرمة" مازال حياً ويتنفس بعنف، سحبناه بعناية وذهل "عبد الرازق" لأنه رغم هذه الإصابة البليغة مازال حياً، حملناه مسافةً كبيرة إلى مركز "أيوب أغا" وظلت أنفاسه تهدأ تدريجياً وعندما وصلنا كان قد فارق الحياة.

كنت منهكاً ولابد أن أبتعد عن المركز لبعض الوقت، وكان فى أوطاق "أيوب أغا" اجتماع للقادة (شورى) وكان "أبو ذر" حاضراً هذا الاجتماع ولاحظ أنى على وشك الانهيار فقال لى: أنا ذاهب اليوم إلى "كؤيتة" وأنت ستأتى معى، لم أعترض ولكنى قلت له استأذن من "عبد الرازق" أولاً فكلمه "أبو ذر" فجاء إلىّ

وقال لى: تريد أن تذهب؟؟ قلت له: نعم لبضعة أيام ثم أعود، قال لى: سوف تعود؟؟ فأكدت له أننى لن أغيب أكثر من أربعة أو خمسة أيام، فقال لى: اذهب، وفى آخر لحظة تذكرت عظام "عكرمة" فناولتها للمجاهدين لتدفن مع الليث الهصور الذى يرقد فى "قندهار"، تذكرت ليلة أمس حيث كنا نتجادل أشهداء الجزائر مليون أم مليون ونصف المليون وأصر "عكرمة" أنهم مليون ونصف المليون وأخذ ينشد بحماسة قصيدة مشهورة:

شعب الجزائر مسلمٌ وإلى العروبةِ ينتسب

وتذكرت أيام التدريب فى "جاجى" وقصة الحمار الذى أثار غضب "عكرمة" فقتله بالكلاشنكوف، وكيف أمره الشيخ "عبد الله عزام" بالاستغفار ودية الحمار.. تذكرت مواقفه الجريئة وقول "عبد الرازق" لو عندى عشرون مثل "عكرمة" لفتحت بهم المدينة، إيه يا "عكرمة" أيها الفارس المغوار.. لو عشت لكان لك شأن وأى شأن.. إيه أيها الحَبْرُ الراهب لم تكتف بحفظ كتاب الله وآلاف الأحاديث وأبيت إلا أن تمتطى ذروة سنام الإسلام فطوبى لك مقام الشهداء فأنت أحب إلى الله، لأن المؤمن القوى أحب إلى الله من المؤمن الضعيف، وقد كنت قوى البدن قوى النفس قوى الإيمان.. اللهم لا تفتنّا بعدهم ولا تحرمنا أجرهم واغفر لنا ولهم آمين.. آمين.

أبو أنس الولى اليمنى

عندما وصلت إلى "باكستان" شعرت بسلام وهدأت ثائرة نفسى ولم يمض يوم أو اثنان إلا وجاءنا خبر استشهاد "سياف" المصرى وإصابة "أبو أنس" إصابة بالغة، تألمت لذلك ألماً لا يعلمه إلا الله، ليس لمقتل "سياف" ولا إصابة "أبو أنس" ولكن لأنى لم أكن معهم، وشعرت أنى المسئول عما أصابهم فلو كنت موجوداً لما سمحت لـ "عبد الرازق" بتكرار حماقة هذه الغرفة اللعينة أبداً.

فعلى عادة "عبد الرازق" قرر الانتقام للشهيد بعملية كبيرة فى اليوم التالى مباشرة فحشد رجاله فى الغرفة وحولها واستعد بكميات كبيرة من الصواريخ

والرشاشات وكان موقع "سياف" و"أبو أنس" إلى جوار الغرفة جهة اليمين خلف السور المتهدم أكثره، وأثناء الاشتباك نزلت قذيفة P M بينهما فقتل "سياف" وأصيب "أبو أنس" إصابات كثيرة كان أخطرها شظيتين اخترقتا رأسه من الخلف ومرتا خلال المخ إلى قرب جبينه، وقد أدت هذه الإصابة إلى شلل نصفى وفقدان الذاكرة وتخلف عقلى وعدم القدرة على الكلام، لقد أصبح جثة يمكنها أن ترتجف، وعندما وصل إلى المستشفى لم يشك الأطباء أنه على وشك الموت فتركوه ينتظر مصيره، ولكنه لم يمت وتعجب الأطباء لذلك جدا واستدعوا طبيبا باكستانيا كبيرا متخصصاً في مثل هذه الحالات وأبدى هو الآخر دهشته الشديدة، وأجرى له عملية لاستخراج الشظيتين من جبينه، وعندما زرته فى المستشفى تألمت كثيراً لما أصابه، ومن أعجب الأمور أنه عرفنى رغم فقدانه الذاكرة وابتسم لى ابتسامة كبيرة ودهش لذلك مرافقوه!!

كان يحرك نصف فمه فقط و يحرك يده اليمنى ورجله اليمنى حركة دورية منتظمة كأنه يسبح على ظهره، وردود أفعاله تشير بوضوح إلى تخلف عقلى، لقد عاد طفلا، حتى الكلام نسيه تماما.

"أبو أنس" شاب يمنى والإيمان يمان وأهل اليمن أرق قلوبا، وكما قال المصطفى عليه الصلاة والسلام {*علموهم الصلاة يعلموكم الدعاء*}، أهل اليمن أفضل الجنسيات التى تعاملت معها رقة وأدبا وخلقا وصفاء نفس وتواضعا، وكان "أبو أنس" من أفضل اليمنيين الذين رأيتهم، كان فيه إخلاص وتقوى وتفان وتواضع وإخبات إلى الله مما أعجز عن وصفه، وكان من أبناء مدارس الإخوان المسلمين فى اليمن ولله درها من مدارس إذ تخرج شابا مثل "أبو أنس"، وقد التحق بكلية الشرطة وكان على وشك التخرج إذ جاشت نفسه بأشواق الجهاد فتركها والتحق بكتائب الغرباء.. فطوبى للغرباء.. طوبى للغرباء.

قلت له يوما ألم يكن من الأفضل للإسلام أن تتخرج فى كلية الشرطة وتترقى فى سلك البوليس فربما نفع الله بك المسلمين نفعا كبيرا وعندئذ تعد على ثغرة عظيمة من ثغور الإسلام .. نظر إليّ مليا وتأملنى ولم ينطق ولكنه قال الكثير

الكـثير، وعرفت أنى أمـــام رجل غير عـــادى... إنه ولى... {*ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون*}.

بعـد فـترة جـاء أخـوه مـن الـيمن وعـاد به إلى وطنه، وقد فرحت جداً عندما علمـت أن حالـته فى تحسن فقد بدأ يتعلم الكلام من البداية فعسى الله أن يتولاه برحمته ويظهر لنا عجيب قدرته.

سياف المصرى شهيداً

أمـا "سـياف" المصـرى فلـه قصـة طويلة فيها من العبر الشىء الكثير، إنه من إحـدى قرى محافظة الغربية وهى لا تبعد كثيراً عن قرية "أسد الله"، قرية هادئة مطمئـنة ومـزارعون بسطاء طيبون وأسرة رقيقة الحال كثيرة العيال كلهم صغار عدا "سـياف"، وأب وأم عـلى الفطرة الطيبة البسيطة، "سياف" المصرى مصاب بشلل أطفـال ويعرج فى مشيته عرجاً واضحا، حصل بطلنا على دبلوم فى فن الخطوط، وارتحـل إلى "الأردن" لضـيق الحـال فـى "مصـر"، و عمل فى "الأردن" فى محل يرسـم يفـط الإعلانـات، كـان "سـياف" رغـم عشـقه وطـربه بالقـرآن متساهلاً فى الفـروض الديـنـية، يصـلى حيناً ولا يصلى أحياناً، وتصادف أن زملاءه فى العمل والسـكن كـانوا مـن شـباب الصحوة الإسلامية فكانوا يحضّونه على الانتظام فى الصـلاة وهـو يـتهرب ويـتملص، ونقطـة الـتحول فـى حـياة "سـياف" عندما كان منسجماً فـى الرسـم وإذا بزمـيل له يـلح علـيه لـيترك العمـل ويذهب معه لصلاة العشـاء، ولم تفـلح كافـة الحجج للروغان، ولما تمادى هذا الأخ فى الإلحاح فلتت أعصـاب "سياف" وأفلتت منه كلمات قد تعد مروقاً من الدين، فتولى ذاك الداعية حيران أسفاً، وران ظلام حالك على قلب "سياف" وشعر بفداحة موقفه فقعد على الأرض مذهولاً ثم انتفض من مكانه وهرول إلى المسجد فاغتسل وظل يبكى رغم أنه قـد لحـق الجماعـة، ومـنذ ذلـك الـيوم تغـيرت حـياة "سياف" وساعدته الصحبة الصـالحة إضـافة إلى سـلامة فطـرته ونشـأته الريفـية الديـنـية بطبعها، وبدأ يهتم بالقراءات الدينية ويتتبع المجلات الإسلامية.

وذات يوم وقعت فى يده مجلة الأمة التى كانت تصدر فى "قطر" وكان بها موضوع كبير عن المجاهدين الأفغان، وسلب هذا الموضوع عقله وخلب لبه وأصابه جنون الجهاد الأفغانى كما أصاب آلاف المجاهدين من كافة جنسيات العالم، ومن ذا الذى يستطيع مقاومة سحر الجهاد والاستشهاد والبطولة والفداء ورايات التوحيد تحملها الأيدى المتوضئة، من ذا الذى يستطيع مقاومة أحلام دولة الخلافة.. دولة القرآن.. دار الإسلام التى تنتظم المسلمين من السنغال إلى الفيليبين.

حاول "سياف" بكل وسيلة الحصول على تأشيرة "باكستان" ولكن كان الزمن زمن "خنازير بوتو" فكان هناك تضييق شديد فى منح التأشيرات، أهمل "سياف" عمله وكثر تغيبه يطوف على السفارات والقنصليات لا ييأس ولا يثنيه تكرار الرفض، حتى عندما يعمل كان ذهنه شارداً، ولاحظ صاحب العمل ذلك ولما علم بنيته حاول إثناءه عن غرضه، وقال له مراراً وتكراراً إنهم ليسوا مجاهدين، إنهم عصابات من قطاع الطرق وزراع الحشيش. كان الرجل فلسطينياً مسنا فأكد لـ"سياف" أنه يعرف "عبد الله عزام" جيداً منذ صباه لأنه كان جاراً لهم وأن هذا الشيخ ما هو إلا عميل للأمريكان، وبالطبع لم ينطل هذا الهراء على "سياف".

ولكى تصعد الدراما إلى ذروتها ابتلى كذلك بزملائه ودعاته الذين هدوه إلى الصراط المستقيم فإذا بهم يثبطونه، تارةً لأنه أعرج وليس على الأعرج حرج، وتارةً لأن الجهاد فرض كفاية والأفغان ليسوا فى حاجة إلى الرجال، وظنى أن السبب الحقيقى هو غيرة الأستاذ من تلميذه الذى تفوق عليه أو أن موقف "سياف" قد أظهر لهم تقصيرهم وكشف عن حبهم للدنيا، وتعذب "سياف" واصطلى بنيران الشوق حتى صار يهذى وخيف على قواه العقلية، وأخيراً رق صاحب العمل لحاله وربما تأثر بإخلاصه، وكان لهذا الرجل زوجة باكستانية فأخذها مع "سياف" إلى سفارة "باكستان" وقال لهم: هذه زوجتى.. وهذا ابن أختى ونريد زيارة أقاربنا فى "باكستان"، وحصل "سياف" أخيراً على تأشيرة دخول الجنة، وكاد يجن من الفرح، وخرج من السفارة يهرول ويرقص ويلوح بجواز السفر.

واشـترى تذكـرة السـفر بالنقود التى ادخرها ليرسلها إلى أبويه المعوزين اللذين نـاءا بحمـل ثقـيل، وتـدرب صـاحبنا فـى معسـكر "صـدى" وكـنى نفسه "سياف المصـرى"، وقـاتل فـى "كونـر" وشـارك فـى فـتحها ضمن مجاهدى حزب الدعوة والجهـاد، ولما استقر المجاهدون بـ "كونر" ارتحل معظم العرب إلى ولايات أخرى بحـثاً عـن معـارك جديـدة، واختار "سياف" ولاية "قندهار" لما لها من سمعة فى عنف المعارك وشراستها.

ولأنـه جـاء مـع مجـاهدى حـزب الدعـوة والجهـاد فقـد اسـتقر فـى مـنطقة "تـرنكوتال" و"تختـبول" وهى مناطق بعيدة تتاخم المطار من الجهة الأخرى وليس مـن جهـة المديـنة، وهـى مـناطق صـحراوية مكشـوفة وبعـيدة عن العدو بمسافات كـبيرة. لم يكـن للحزب أى وجود فى مناطق "ملجات" وحول المدينة وسبب ذلك هـو التعصـب القـندهارى الشـديد تجـاه السـلفية الـتى يديـن بها الشيخ "جميل" وحـزبه، كـان القـندهاريون لا يـترددون فى ذبح مجاهدى هذا الحزب إن تجرءوا على إنشاء مركز لهم ناحية "ملجات" أو باقى النواحى المأهولة، إذ كانوا يعتبرون الوهـابى أشـد كفراً من اليهود والنصارى ومن الخلقيين والبرتشام، ولكن لم يكونوا يـبخلون علـيهم بلقـب مجـاهدين بـل ويعترفـون أن الشيخ "جميل" من أوائل من أطلـق رصـاص فـى هـذا الجهاد الكبير، وكانوا ينسقون معهم العمليات ولكن هذا شيء وأن يسمح لهم بالتواجد حول المدينة شيء آخر.

قضـى "سـياف" بضـعة أشـهر فـى هـذه المراكـز الصحراوية البعيدة، لم يطلق خلالها رصاصة واحدة، ولم ير الأعداء ولا تخايلت له بيارقهم الحمراء، وشعر أنه خـدع بمـا لـ "قندهار" من سمعة، أين ما يقولون عن المعـــارك الطاحـــنة؟! وكان لا يفـتأ يسـأل الأفغـان: أيـن الـتعرض؟ ولم يكـن يـدرى أن هـذه المناطق قد تظل سـاكنة عـدة شـهور وربمـا سـنة كاملة ولكن معاركها هى الجحيم بعينه، فإما أن يقـتحم المجـاهدون المطـار الـذى هو القاعدة العسكرية الأساسية للعدو وإما يقتحم العـدو مواقـع المجـاهدين فـتدور معـارك طاحـنة فـى صـحراء مكشـوفة، وشـارك "سـياف" فـى صد هجوم كبير لجيوش العدو على مناطق المجاهدين، كان هجوماً بالمدرعـات والمشـاة تساندهما الطائرات والمدفعية، ولمَّا أسرعت بعض المراكز حول

المدينة لنجدة هذه المناطق أدرك "سياف" ولأول مرة أن فى "قندهار" مراكز أخرى وعرباً آخرين، فلمّا اندحرت جيوش الشيوعيين لم يكن لـ "سياف" أن ينتظر بضعة أشهر أخرى لملاقاة العدو فجاء إلى "ملجات" واستقر فى مركز "عبد الرازق" وصار من أعلام هذا المركز.

كان "سياف" مرحاً لأقصى حد، وكان قادرا على إضحاك طوب الأرض، وكانت له موهبة فذة فى تقليد الأشخاص وموهبة خارقة فى تقليد أصوات المقرئين، فكان بحق هو فاكهة هذا المركز المرهوب، وتخصص على مدفع الهاون وأصبح ماهراً فى الرماية ولم يكن يهتم بالاشتباك ولا بالقنص، وارتبط مع بلدياته ارتباطاً وجدانياً عميقاً فلمّا لقى "أسد الله" ربه إذا بـ "سياف" ينقلب حاله رأساً على عقب، اختفى مرحه واكتسى وجهه بالجد والوقار وأصر أن يخرج فى جولات القنص، وأن يشارك فى الاشتباك وترك الرماية على الهاون تماماً وخاصة عندما رأى رؤية أرقته، كان بجوار أحد مساجد المدينة مواقع كثيرة للعدو وكان "سياف" يرميها ولا يبالى لو سقطت بعض القذائف على المسجد فرأى فى المنام أنه يرمى بالهاون كالمعتاد وبعض القذائف تسقط على المسجد كالمعتاد، وإذا بحمام أبيض يحمل تلك القذائف التى كادت تصيب المسجد ويبتعد بها، شعر "سياف" بفداحة إصابته للمسجد، وأولت له الحمام الأبيض بالملائكة فصمم على ترك الرماية بالهاون، وحل محل "أسد الله" فى رحلات القنص ودهش للأماكن التى كنا نستخدمها ولاحظت أنه يريد اللحاق بـ "أسد الله" بأى وسيلة، وكثرت رؤى الشهادة التى أصبح يراها كل يوم تقريباً، ومنها أنه رأى نفسه فى خرائب كالتى حولنا وهو يحاول الخروج منها، وكلما تسلق شباكاً أو اقتحم باباً يجد أنه مازال فى تلك الخرائب إلى أن فُتح باب وولج منه فإذا هو فى بستان غاية فى الروعة والجمال وعجز عن وصف مدى اخضرار الأشجار، فبشرته بالشهادة والجنة فكان فرحه لا يوصف.

فلَمّا استشهد "عكرمة" وحدث ما حدث لقى "سياف" المصرى ربه شهيداً مضرجاً فى دمائه، وكان قد أوصى أن يدفن إلى جوار "أسد الله" ولا أدرى أأنجز المجاهدون له وصيته أم لا، رحمك الله يا "سياف" وأسكنك فسيح جناته مع

الأنبياء والصديقين والشهداء ومع "أسد الله" الذى باع نفسه لله فربح البيع، وصدق الله العظيم: {*من المؤمنين رجال صدقوا ما عاهدوا الله عليه فمنهم من قضى نحبه ومنهم من ينتظر وما بدلوا تبديلا*}، أما أنا فما زلت فى كفن الألفاظ أحتضر، رحمك الله يا "سياف" إذ عذرك الله فما عذرت نفسك ورفع عنك الحرج فما رفعته عن نفسك، وويل للقاعدين .. ويل للمتفيقهين الذين يقولون ما لا يفعلون.. يأمرون بالبر وينسون أنفسهم، وكان الله فى عون أبويك الشيخين فقد كنت أكبر الأبناء وما كان لهما عائل ولإخوتك الصغار سواك.. لا أظن أن أحداً أحب الجهاد والمجاهدين كما أحببتهم، فجزاك الله عنا وعن الإسلام كل خير وارقد فى سلام فمكانك محفوظ فى عليين إن شاء الله تعالى {*وعد الله لا يخلف الله وعده*}، {*ومن أصدق من الله قيلا*}.

العرب يتركون عبد الرازق

لمّا تلاحقت الأنباء عن شهداء المركز أصدر الشيخ "عبد الله عزام" تعليماته لـ"أبو خبيب" بإخراج العرب من عند "عبد الرازق"، وكان يوماً عصيباً عليه إذ كان اعتماده الأساسى على العرب بعد أن أفنى رجاله من الأفغان، وأخبرنى "صديق" أنه غضب غضباً شديداً وقال لـ "أبو خبيب" خذهم كلهم.. لا أريد أحداً منهم.. يكفينى "أبو جعفر".. لقد وعدنى أنه سيعود ولما تأخرت عليه سار يهذى ويكلم نفسه مردداً: سيعود.. "أبو جعفر" سيعود.. لقد وعدنى بهذا، حتى ظنوه قد جُن.

وفى هذه الأثناء (وبمجرد سماعى نبأ "سياف" و"أبو أنس") كنت قد توجهت إلى "قندهار" ثانيةً ولكن هذه المرة حجزتنى السيول الجارفة، وقضيت عدة أيام فى انتظار جفاف السيول مع قوافل الإمدادات، لأن معركة "قندهار" الكبرى قد بدأت وأرسلت كافة الأحزاب السلاح والذخائر والمجاهدين لمساندة العملية، ولكن للأسف كانت السيول رهيبة، وهى عبارة عن أنهار عظيمة العرض شديدة السرعة وضحلة، تخترق الصحراء من الشمال إلى الجنوب، ورغم ضحالتها إلا أن السيارة التى تحاول العبور تغوص فى رمال القاع حتى تدفن وكأنها رمال متحركة.

لمّا طال انتظارنا لجفاف تلك السيول عدنا إلى الحدود عند "چمن" واستضافنا طبيب مصرى شاب كان المسئول عن وحدة لإسعاف الجرحى، كنّا عددا كبيراً من العرب جاءوا من الولايات الأخرى للمشاركة فى فتح "قندهار"، وتوالت علينا أفواج الجرحى ومنهم من كانت جروحه فى حالة تعفن شديد لأن السيارات التى نقلتهم قد غرقت فى السيل وظلوا عدة أيام فى الماء ليس فوق الماء سوى رءوسهم، وتعجبت كثيراً لأن معظم الجروح كانت خطيرة وعميقة.. بتر وخلافه، جروح كهذه مغمورة فى ماء ملوث دون أى علاج أو منع للنزيف!! نعم تعفنت بشدة ولكن كيف لم يموتوا رغم هذه الظروف؟! إنه أمر عجيب، كانوا كذلك متجلدين لا يصرخون ولا حتى يتأوهون، إن أبدانهم صخور بشرية، إن "قندهار" منجم رجال، والرجال فى هذا الزمان أندر من الخل الوفى.

المعركة الكبرى فى "خوش آب"

سبق وتكلمت عن استعداد المجاهدين لاقتحام المطار وكيف ظلوا عدة شهور يحفرون خندقا يخترق مزارع العنب والأحزمة الأمنية المحيطة بالمطار، وتم هذا العمل المعجزة دون أن يشعر به العدو، كان الخندق بعرض نحو ثلاثة أمتار وعمق مترين، ورغم مواقع العدو عن يمين وشمال لم يلحظوا أى شىء، إذ كان الحفر يتم ليلا وبسرية وتكتم شديدين، وامتد هذا الخندق حتى كاد يلامس ممر الطائرات، لقد برع القندهاريون فى مفاجئة العدو براعة منقطعة النظير.

أعود وأكرر إن اقتحام المطار كان على غير رغبة قادة الأحزاب فى "بيشاور" إذ كانوا يفضلون اقتحام المدينة، ولكن القادة الميدانيين أشفقوا على الأهالى وقرروا اقتحام المطار بدلا من المدينة رغم ما فيه من قوات وعتاد، وهذا التغيير هو الذى أفقد الجبل المذكور سابقا أهميته إذ كان يُخشى توالى الإمدادات على قوات المدينة من المطار ولم يكن يُخشى العكس، لأن قوات المدينة أقل مما فى المطار بكثير.

وأمر آخر فى غاية الأهمية، فإن استمرار المجاهدين فى حفر هذا الخندق لعدة شهور وبالتناوب مع جميع المراكز دون أن يصل الخبر إلى العدو ليس له سوى معنى واحد.. هو أن المجاهدين غير مخترقين على الإطلاق، ولا يوجد

بينهم منافق واحد ولا جاسوس. كانت الخطة هى الاستيلاء على مواقع العدو على جانبى الخندق، وهى مواقع حصينة على تباب عالية وملغمة، ثم الاندفاع إلى المطار وتحطيم قوات العدو تحطيماً، وهى خطة غاية فى الجرأة والإقدام، سميت هذه المعارك بمعارك "خوش آب" أى الماء العذب لأن المنطقة كانت مليئة بعيون الماء المنبثقة من الأرض.

ومما يذكر بالفضل للمجاهدين هو تقديرهم لمواهب الرجال، فعلى الرغم من الجفاء المتبادل بين "عبد الرازق" وقادة "قندهار"، إلا أنهم فى مجلس الشورى قرروا بالإجماع اختيار قمندان "عبد الرازق" كقائد لعملية الفتح الكبرى، وجاء هذا الاختيار فى وقته المناسب تماماً حيث كان "عبد الرازق" فى أشد حالات الضيق لانصراف العرب عنه، وشارك فى هذه العمليات كل مجاهدى الولاية تقريباً، فعلى حين غفلة أصبح "عبد الرازق" قائداً وأميراً لنحو خمسة آلاف مجاهد.

أدى "عبد الرازق" عمله على نحو رائع فاكتسح المواقع على جانبى الخندق، وكان يزيل الألغام بنفسه ويتقدم مجموعات الاقتحام، وكما هى العادة فى "قندهار" فقد أذهلت المفاجأة العدو تماماً وشلت حركته وتفكيره، إن فى هذه المعارك عظة وعبرة عظيمة القدر أحب أن أنقلها للأجيال القادمة من المجاهدين المسلمين ليعرفوا قيمة الصبر ولو كان من فرد واحد ولو كان هذا الفرد كافراً، ففى بضعة أيام اكتسح المجاهدون المواقع على جانبى الخندق ولم يبق إلا موقع واحد فى نهاية الخندق على تبة عالية، موقع واحد ويصل المجاهدون إلى ممر الطائرات ويستولون على المطار والعدو فى غاية الذعر والارتباك، وقد فر كل جنود المليشيا المدافعين عن هذا الموقع إلا فتى واحدا صمد وحده فى هذا الموقع وأوقف تقدم المجاهدين إلى المطار لمدة أسبوعين تقريباً.

وداعاً "عبد الرازق"

ومن سوء حظ المجاهدين أنهم فقدوا "عبد الرازق" قبل أن يعطلهم هذا الوغد الشجاع، ولا أظن أبداً أن فرداً واحداً كان يستطيع أن يوقف "عبد الرازق" مهما أوتى هذا الفرد من بسالة، كان "عبد الرازق" يتقدم مجموعة الاقتحام إذ أبصر

قنبلة يدوية معلقة على الشجرة أى أنها مفخخة، تنفجر بمجرد اللمس، ولما كان "عبد الرازق" خبيراً بالألغام فقد اتجه نحوها ليؤمنها ولكن لم تكن القنبلة مفخخة فحسب بل كانت طُعماً إذ كان مدفوناً تحتها قذيفة PM مفخخة لتعمل كلغم.

وهكذا تمزق الجسد النحيل الذى كانت وطأته على العدو وطأة جيش بكامله، وهكذا تَرجّل الفارس لأول مرة منذ عشر سنوات، لأول مرة يرقد ليستريح، لن يزعجه بعد الآن هدير المعارك بل إن شئنا الدقة.. لن يطربه بعد الآن هدير المعارك، وقد مَنّ الله علىّ برؤيا عرفت منها أن "عبد الرازق" من الشهداء المكرمين، ففى الوقت الذى كنت فيه خلف السيول لا أعرف أن "عبد الرازق" يشارك فى معركة "خوش آب" ولا أعرف أنه قُتل، ورغم ذلك رأيت فى المنام أنى أتجول فى المنطقة حول أوطاق "عبد الرازق" فإذا به قد ارتدى ملابس ناصعة البياض وعمامة بيضاء ووجهه مضىء أبيض وجسمه ممتلئ صحةً وعافية وهو جالس على الأرض فأقبلت عليه فرحاً مسروراً ولكنه أعرض عنى، فما زلت مقبلاً عليه حتى ابتسم لى وأقبل علىّ يحدثنى بسرور وفرحة.

وعندما علمت بما حدث له أدركت مغزى الرؤيا.. إنه من الذين تقبل الله منهم جهادهم وإعراضه عنى أول الأمر لأنى تأخرت فى الرجوع إليه، وإقباله علىّ بعد ذلك لأنه أدرك أن السيل هو الذى عطلنى، لقد أحبنى هذا الرجل، وأحببت فيه شجاعته وصبره واصطباره العظيم وجلده وإصراره وحميته، كل هذه الصفات على هذا الجسد النحيل والملابس الرثة والهيئة المزدراة، إن خلف كل هذه المظاهر جوهرة نفيسة لا يعرف قدرها إلا من خبر المعارك والرجال.

ارقد هانئاً "عبد الرازق" ففى هذه اللحظات التى أسطر فيها هذه الكلمات لم يعد ثمة اتحاد سوفيتى ولا خلقيين ولا برتشام ولا نجيب الثور ولا عصمتيين ولا جوزجانيين ولا جبارين ولا بشتون خوا..، وأصبحت "أفغانستان" دولة إسلامية دستورها القرآن ومذهبها هو المذهب الحنفى، إن هذه النتائج الباهرة بفضل الله أولاً ثم بفضل نفوس أبية وقلوب فتية مثل قلبك و "أحمد الله" و"مستقيم" و"عبد الله خان" و"عبد الواحد" و"أبو دجانة" و"عكرمة" و"سياف"

المصرى و"أســد الله".. دمـاء طاهـرة زكـية غسـلت أديـم "قـندهــار" مـن رجز الملاحدة الفجار.

وغــدٌ شجــاع

نعـود إلى ذلـك الوغـد الشـجاع الـذى أوقـف تقـدم المجـاهدين إنه من مليشيا "عصـمت خان" أى ليس جندياً بل مرتزقة من شرار خلق الله يقاتلون مقابل المال والخمر والنساء، وليس لهم فضيلة سوى حمية الجاهلية التى أودعها الشيطان فى نفوسـهم فـلا يفـرون مـن معـركة أبـداً ولا يمكـن أن يُؤْسَر أحدهم طالما بقيت معه رصاصة واحدة. كان هذا الزنديق ثابت الجنان إلى حد بعيد فرغم فرار زملائه بقى وحده فى أعلى التبة فى حصنه الحصين ومعه طعام وذخائر لا ينضب لها معين، وسـلاحه هـو الجرينوف الخفيف ذلك السلاح الرائع الذى لم يخترع بنى الإنسان أروع منه لفرد المشاة (فى الجيش المصرى يسمى الرشاش الثقيل).

كانـت جميع قذائف المجاهدين لا تؤثر فى ذلك الحصن العجيب وهذا الوغد لا يـنام لـيلاً ولا نهـاراً ويوقـف برشاشـته أى تسلل أو اقتحام من أى جهة كان، ويمـنع كذلـك المجـاهدين مـن الـتدفق إلى المطار، وكان المجاهدون يتنصتون على اتصالاته اللاسلكية بالمطار ويعرفون من ذلك أنه فرد واحد ويسمعونه وهو يستغيث بـالعدو أن يرسلوا له الماء.. فقط الماء لا يريد ذخائر ولا طعام.. ويتعهد لهم ألا يمر مجاهد واحد إلى المطار.

حـاول المجـاهدون معـه كـل الطرق دون جدوى، وأخيراً قرر القائد الذى حل محـل "عـبد الرازق" أن يصعد بنفسه إلى ذلك العتل الزنيم فاختار قادة مجموعات الاقـتحام وهـم صـفوة الصفوة، وفى الهزع الأخير من الليل البهيم أخذوا يزحفون صـاعدين للحصن نازعين للألغام يريدون أسر ذلك الرجل دون الاشتباك معه، ولما صـاروا قـاب قوسـين أو أدنـى مـن الحصـن أفلـت زمـام أحـد المجاهدين وخانته شـجاعته، كانـت التعلـيمات واضـحة وحازمـة بعـدم إطـلاق النار بتاتاً ولكن هذا المجـاهد الـرعديد قـام وأطلق النار قبل الوصول للحصن فانتبه اللعين وفتح نيرانه عـلى المجـاهدين وهـم أسـفل مـنه، وتبادلوا معه النيران ولكن موقعه كان حصيناً

ومـرتفعاً وهـم مكشـوفون فكانـت النتـيجة معـروفة، إذ عـادوا يلعقـون جـراحهم ويحملون شهداءهم.

خـلال هـذه الأيـام العجيـبة أفـاق الجيش من ذهوله ولم شمله وتمالك جأشه وتدفقـت الإمـدادات مـن الولايـات الأخرى ومن المدينة وبدأ الهجوم المضاد، ومما يسـجل لمجـاهدى "قـندهار" بأحرف من نور هو صمودهم الفريد فى ذلك الخندق أمـام زحـف المدرعـات وقصـف الطائـرات وقذائـف المدفعـية وتدفـق فـرق المشـاة والمليشـيات مـا يقـرب من شهر كامل عجزت خلاله كل هذه الألوية المدرعة وفرق المشاة عـن زحـزحة المجـاهدين عـن الخندق، وتكبد المجاهدون خسائر فادحة، نحـو خمسـمائة شـهيد ونحو ألفى جريح، وأخيراً أدرك المجاهدون أن لا جدوى من الاستمرار فانسحبوا من الخندق.

وأصـبحت معـارك "خـوش آب" عبئاً نفسياً كبيراً على المجاهدين خاصة بعد تعـثر قـوات المجاهدين فى "جلال آباد" أمام المطار أيضاً وذلك بعد اكتساح رائع خـلاب من حدود "باكستان" وحتى مطار "جلال آباد"، نفس القصة تقريباً جرت فى "قندهار".

وهكذا أدى صمود فرد واحد لم يَهَبْ الردى إلى كل هذه النتائج المؤسفة، وهذا درس وأى درس لـمن يظـن أن النصـر يـأتى بسبب العدد أو العُدة، إنما النصر مع الصبر، وإنمـا الـتفوق هـو تفـوق الـنفوس لا تفـوق العدد والسلاح فاعتبروا يا أولى الألـباب، وهـذا الوغـد قـد يكـون كافـراً نجسـاً ولكن لا شك أن نفسه قوية وقلبه جرىء.. لعنة الله عليه.

فتنـة فى الصـف

فـى هذه الأثناء ومعركة "خوش آب" على أشدها حدث أمر غاية فى الخطورة إذ اجـتمع مجلـس كبير من علماء "قندهار" وأصدر بياناً أن العرب وهابيون كفار، وطالـب كـل قـائد بالـتخلص مـن العـرب الذيـن معـه أو طردهم وإنى أسجل هذا

الموقف لأنى آليت على نفسى أن أروى كل ما رأيته ولا أخفى منه شيئا، ولأن طبيعة الحياة وطبيعة البشر ألا يستقيم الأمر أبداً على حال.

وهذا الحدث لم يأت من فراغ بل له مقدمات ضاربة فى أعماق التاريخ، وقد سبق وذكرت الكثير عن مشكلة الوهابية فى "أفغانستان" وأعود وألخص هنا سبب المشكلة، فقد استقر فى عقول المسلمين منذ نحو ألف عام أن المذاهب أربعة وأن عدا ذلك ضلال وإفك مبين والسبب فى ذلك هو الفرق والنِحَل التى لا حصر لها والتى دوخت علماء المسلمين بآرائها وفلسفتها وجدلها وأهوائها بل وثوراتها العنيفة، ثم أصبح التعصب للمذاهب شيئاً مريعاً حتى عُد من ينتقل من مذهب إلى آخر كافراً، ثم جاء الغزو الأوربى وفى أعقابه الغزو الثقافى، فنسى الناس المذاهب بل كادوا ينسون الإسلام ذاته، إلا فى "أفغانستان" التى لم تعرف الاستعمار فظل التعصب المذهبى فيها كما كان فى العصور الوسطى.

ثم أتت الدعوة الوهابية ثورة على ما أثقل كاهل الإسلام من خرافات وشعوذة وتصوف هو الشرك بعينه، جاءت الدعوة الوهابية ثورة على ما تسلل إلى الإسلام من إسرائيليات وعقائد المجوس والهندوس واليهود والنصارى، جاءت ثورة على انحطاط فقهاء المذاهب المتأخرين وعلى هوس التقليد والعجز عن الاجتهاد لمواجهة معضلات العصر. كانت دعوة بعث وصحوة عارمة ودماء جديدة تسرى فى جسد الإسلام المحتضر، كانت أيضاً ثورة مسلحة ضد الدولة العثمانية التى تعد رمز الخلافة ويدين لها المسلمون بالولاء فى كافة أنحاء العالم، لأنها تحارب الدول الأوربية والقارة الروسية منذ "عثمان أرطغل" وحتى "وحيد الدين"، لقد بدا الأمر كخيانة عظمى للخليفة وللإسلام أن تطعن الدولة العثمانية من الخلف وهى تجاهد الكفار وتحمى العالم الإسلامى من طوفان النصارى الجارف.

كانت هذه الثورة الوهابية قوة لا يستهان بها إذ اكتسحت أرجاء الجزيرة العربية واستولت على "مكة" و"المدينة" وهما مدينتان غاية فى الأهمية بالنسبة للدولة العثمانية، فكيف تخرج الأماكن المقدسة من حوزة دولة الخلافة وكيف تصبح عندئذ دولة خلافة؟؟ وبدأت جحافل الوهابيين تتدفق على العراق ولا يثبت أمامهم جيش عثمانى، واستعان الأتراك بـ"محمد على" وباقى القصة معروف،

ولكـن المهـم أن العثمانـيين كان لابد لهم أن يشوهوا هذه الدعوة الجديدة وينعتوها بأبشع الـتهم ليصـرفوا الـناس عـنها، ومع هيمنة الترك السياسية والدينية كانت النتيجة مفروغاً منها.

كذلـك تصـدى للدعـوة الوهابـية مشـايخ الطـرق الصـوفية، وهذه الطرق كانت تسـيطر عـلى الحـياة الروحـية لكافـة الشـعوب الإسـلامية، وكانـت معركتها مع الوهابـية معـركة حياة أو موت، ولما كان الوهابيون يكفرون المتصوفة فإن أبسط رد مـن هـؤلاء المتصـوفة أن يكفـروا الوهابـيين، ولا ننسى فقهاء المذاهب الذين خافوا على مذاهبهم ومكانتهم أو تأثروا بالدعاية المركزة من كافة الجهـات.

ولم يقـف الأمـر عـند هـذا الحـد بل إن الاستعمار وخاصة الإنجليز قد أججوا الـنيران وأشـعلوا الفتـنة وصـبوا الأمـوال صبا على كل من يهاجم ويكفر الوهابية، والسبب أن الإنجليز يعرفون تماما السبب وراء انحطاط المسلمين، ويودون أن يظل المسـلمون نـياماً فـى تكايـاهم أو سـكارى فـى موالدهـم مشـغولين بقـبور الأولـياء وكـراماتهم وفـتوح السـحر والشـعوذة لا فـتوح الـبلدان، كانـت كـل الـثورات ضد الاسـتعمار ثـورات ديـنـية قـبل أن يـزرع المسـتعمرون فـى الأرض الإسـلامية بذور القومية والاشتراكية والديموقراطية.. إلخ.

لم يكـن من المعقول أن يثور أهل التكايا والموالد والحشيش بل كان دعاة الثورة عـلى الاسـتعمار هـم مشـايخ الوهابـية (لا عـبرة بمـا يجـرى الآن) كما حدث فى "الهـند" و"الجزائـر" والصحراء الكـبرى و"السـودان"، فمـن المعـروف أن مهـدى السـودان زار "الحجاز" وتأثر بشيوخ الوهابية ثم عاد فثار على الإنجليز وطردهم، فكـان مـن الطبـيعى أن يوجه الإنجليز عنايتهم الفائقة لحرب الدعوة الوهابية فلم يكـتفوا بالدفع لمن يهاجم الدعوة بل راحوا ينشئون الفرق والنحل التى تزعم النبوة بـل الألوهية للبشر مثل القاديانية والأحمدية والبابية والبهائية..إلخ، ومن الأركان الركينة لهذه الفرق هو إلغاء الجهاد وتكفير الوهابية.

وقـرب "أفغانسـتان" من "الهند" وتأثرهـا بالهند ومدارسـها وعلمـائها شىء لا يحـتاج لبـيان وخاصـة أن مذهـب مسـلمى "الهند" هو المذهب الحنفى، بل إن تأثـر "أفغانسـتان" بـ"إيران" شىء لا يمكن إنكاره رغم أن المذهب هناك شيعى إلا

أنهـم حكموا "أفغانستان" فترات طويلة كما حكمهم الأفغان، وثقافة "إيران" ثقافة رفـيعة وعـريقة ومنتشرة فى آسيا انتشاراً واسعاً، والكتب الدينية فى "أفغانستان" و"الهـند" تكتـب باللغـة الفارسـية رغم أنها كتب سنية، ونصف الأفغان يتكلمون الفارسية، والشيعة كما هو معروف من ألد أعداء الوهابية كما أن الوهابية من ألد أعداء الشيعة.

كـل هذه التأثيرات التاريخية والجغرافية والثقافية تفاعلت وأتت بهذا الوضع الفـريد فى "أفغانستان"، إذ تعاون شدة تمسك الأفغان بالتراث والتقاليد وانعزالهم عـن العالم المحيط بهم وشدة تدينهم وتعصبهم المذهبى الذى لم تخفف منه الثقافة الأوربـية لأنهـا دولـة لم تُستعمر، كذلـك الأمـية المتفشـية وسيطرة ملالى التصوف الجهـلاء عـلى التعلـيم الديـنى، كـل ذلك أدى إلى رسوخ الأفكار المعادية للسلفية رسوخاً هائلاً.

ولَمّـا ثارت الجماعة الإسلامية الأفغانية على الحكومات العميلة كانت التهمة جاهزة، إنهم وهابيون وإخوان مسلمون (يعتبر الأفغان ألا فرق يذكر بين الوهابيين و الإخـوان)، ولكـن بحـدوث الغزو السوفيتى اضطر الشعب اضطراراً وعلى مضض إلى الانضـمام لهـذه الأحزاب الوهـابية حتى يتمكن من دحر الروس، وسرعـان مـا أقامـت أمـوال "أمـريكا" أحـزاباً أخـرى اخـتير قادتهـا بعـناية ليكونوا أعداءً طبيعيين لأحزاب الإخوان والسلفية.

وعـندما كنـت فى "أفغانستان" كانت الحرب الدعائية على أشدها، "نجيب" وعصـابته الشيوعية ارتدوا قناع التقى والصلاح وزعم أنه هو الذى طرد الروس وأنه الآن يحـارب الوهابـيين الأشـرار مـن عرب وأفغان!! "إيران" لا تكف عن حربها الدعائية ضد الشيطان الأكبر (أمريكا) والشيطان الأصغر (السعودية) وضد الوهابية بطبـيعة الحـال!! "أمـريكا" والغـرب بعـد أن كانوا يساعدون المجاهدين مساعدة ذات بـال أصـبحوا الآن يخـافون من استيلاء المتشددين على الحكم وأصبحوا الآن يصنفون القادة فأصبح "حكمتيار" ..القائد المتشدد "حكمتيار"، وأصبح المجاهدون العـرب .. الوهابيون العرب، وإذاعة صوت أمريكا وراديو لندن لا يكفان ليل نهار عـن العـزف على نغمة الوهابية، والهدف واضح إذ أصبحت مصلحة "أمريكا" أن

يقتتل المجاهدون وتصبح "أفغانستان" لبنان أخرى، و"نجيب" له عملاء من الملالى وجواسيس يغدقون الأموال لشراء المشايخ الذين لا يحتاجون إلى تشجيع لإثارة الفتنة بل يتسابقون لإيقاظ الفتنة النائمة لعن الله من أيقظها.

ورغم ما ذكرت فلا أعتبر نفسى وهابياً ولا سلفياً لأن لى تحفظات ذات شأن فى هذا المجال:

- فأنا أرى أنه لا بأس بالتمذهب كما أنه لابأس بعدم التمذهب.

- وتقطع عنقى ولا أقول أن الله خلق "آدم" على صورته بالمعنى الذى يقصده السلفيون.

- وأقول إن الله فى السماء أى فوق السماء فسبحانه لا تحده سماء، وشواهد لا حصر لها على أن (فى) تستعمل فى العربية بمعنى فوق ومثال ذلك {*ولأصلبنكم فى جذوع النخل*} وقوله تعالى {*والفلك التى تجرى فى البحر*}.

- وأعتبر التصوير المنهى عنه هو الرسم باليد، أما الصور الفوتوغرافية فهى حلال مادام موضوعها حلالاً، هذا إضافة إلى عشرات التفاصيل الأخرى ولكن هذا لا يجعلنى أقلل من الجوانب الإيجابية فى الدعوة السلفية، ولا أنكر أنى رأيت أولياء لله ورأيت لهم كرامات وهم سلفيون، كما رأيت أولياء لله ورأيت لهم كرامات وهم أحناف متمذهبون، ومن هؤلاء وهؤلاء من يعد النظر إليه ثواباً وأجراً عظيماً، وحديث صلاة العصر فى بنى قريظة معروف مشهور.

وكانت النتيجة الطبيعية للمؤثرات التى ذكرتها وللدعاية المركزة أن اجتمع مشايخ "قندهار" وأصدروا ذلك البيان، وللحق والحقيقة كان للعرب دور كبير فى هذا، فكان فيهم رعونة واستعجال فى الدعوة كما كان فيهم تعالٍ وتعالم وعنجهية، كما كان فيهم تعصب عجيب لأتفه الأمور بل كانوا لا يتعصّبون إلا لأتفه الأمور.

ورغم ذلك كان هناك سبب مباشر أدى إلى هذا البيان، فحزب الدعوة والجهاد المصنف كحزب وهابى قح، وهابى حتى النخاع، ومؤسس هذا الحزب هو مولوى "جميل الرحمن" قد درس فى "السعودية" ويعتبر من أوائل المجاهدين

وهـو مـن ولايـة "كونـر" المحررة ويتلقى مساعدات ودعماً مادياً كبيراً من المملكة، كمـا يهـتم بنشـر المـدارس الدينـية السـلفية بطبـيعة الحـال، وهذا الأمر بالذات يسـتفز الأفغـان لأقصـى درجـة إذ يعدونـه وكـل مـن معه كفاراً زنادقة مارقين من الدين القويم.

وقـد ذكـرت سـابقاً تواجد بعض المراكز التابعة له فى صحراء "قندهار" ناحية المطـار، وقـد بذلـوا جهـوداً كـبيرة ليسمح لهم بالتواجد حول المدينة وفى المناطق المأهولـة ولكن هيهات فالتعصب القندهارى شىء لا مثيل له، ورغم ما بذل الشيخ "عقـيل" (مديـر الهـلال الأحمـر السـعودى فى "كؤيتة") من أموال ورغم استخدام أسـاليب المـنح والمـنع والإغـراء بالعطـاء فقد فشل فى استمالة القندهاريين ليتقبلوا وجـود مركـز ـ ولـو كـان واحـداً ـ تابعـاً لحزب الدعوة والجهاد، ولكن لأن للمال نفـوذاً لا يقـاوم عـلى بعـض الـنفوس فقـد أعلـن أحـد القادة الصغار المغمورين فى "مـلجات" انضـمامه لـلحزب السـلفى وتلقـى أمـولاً وأسـلحة ومؤناً وذخائر وعرباً تـابعين لـلحزب، وقـد توعـد بـاقى القـادة هـذا المركز السلفى الجديد وتربصوا به ينـتظرون فرصة ينتهزونها، وللعرب فى المراكز التابعة للشيخ "جميل" وضع مميز ويعتـبرون أنفسـهم أساتذة ومرشدين، وهم صغار السن قليلو التجربة قليلو البضاعة مـن العـلم، ولكـنهم رغـم ذلـك مـتعالمون يسارعون فى الفتوى والتحليل والتحريم والـتكفير أيضـاً، وهذا القائد القندهارى لم يكن سلفياً وإنما تظاهر بالسلفية، فكان يـتحمل مـا يفعلـه العرب بصبر نافد وقلب مُلئ حقداً واشمئزازاً، إلى أن حدث ما استفزه وجعلـه يسـفر عـن هويـته، إذ كـان عائداً مع رجاله من عرب وأفغان من إحدى المعارك فمروا على قبور بجوار قرية مهجورة، وكما هى عادة الأفغان كانت قـبور الشـهداء مـميزة بصـوار طويلـة تحمل رايات بمختلف الألوان، ورأى العرب المصـاحبين له أن هـذه بدعـةٌ لا تطـاق، فشـرعوا يكسـرون هـذه الصوارى ويطئون القـبور ربمـا بغير قصد، وهذا المشهد كان كافياً لإسقاط القناع السلفى للقائد فشهر السـلاح فـى وجـوه العـرب وهددهـم بالقـتل وطـردهم مـن المركـز لاعـناً الوهابـية والسـعودية والشيخ جميل والشيخ عقيل، وربما كان هذا الموقف منه تجنباً لهجوم مجـاهدى "قـندهار" المرتقب إذ بدءوا بالفعل يتحرشون به، ولم يضع وقتاً إذ أخذ

يطوف على المراكز يخبرهم بالقصة ويخبرهم أنه لم يكن وهابياً قط وإنما فعل هذا ليخدع الشيخ "عقيل" ليحصل منه على السلاح والأموال.

وكانت هذه القصة وما صاحبها من دعاية هى السبب المباشر لاجتماع مشايخ "قندهار" وإصدار بيان الوهابية، وقد رفض القادة التخلى عن العرب رغم أنه ليس من السهل تجاهل نداء العلماء، وتحرك قادة الأحزاب على أعلى المستويات ليطفئوا هذه الفتنة، وحضر "حكمتيار" ليطّلع على حقيقة الأمر وأراد إقامة مركز خاص بالعرب ولكن "أبو خبيب" رفض الفكرة خوفاً من تألب القندهاريين على هذا المركز باعتباره مركزاً وهابياً، وتكفل قادة حزب إسلامى بحماية العرب، ورتب "حكمتيار" اجتماعاً لعلماء "قندهار" الموالين للأحزاب وأصدروا بياناً مناقضاً للبيان السابق.

ورغم كل ذلك فقد خاف "أبو خبيب" على العرب فقرر إبعادهم عن الولاية حتى تهدأ الزوبعة، وتوجه معظم العرب إلى ولايات أخرى ومنهم من عاد إلى بلاده، وظل بعض العرب فى "قندهار" ورفضوا أن يبرحوها ورفض قادتهم أن يتركوهم يرحلون، ولعل السبب فى ذلك هو أن هؤلاء العرب صاروا قندهاريين أكثر من أهل "قندهار" حتى لغة البشتو الصعبة أتقنوها كأهلها، ومن هؤلاء "أسد الرحمن" الجزائرى و "أبو جعفر" السعودى.

لمّا رأيت الأمور قد ادلهمت على هذا النحو وعلمت بمقتل "عبد الرازق" عدت إلى "كؤيتة" وقد ضاق صدرى وذهبت بى الظنون كل مذهب.

عبورى حكومت

وبينما أنا فى "كؤيتة" أجوب ضواحيها وأتنقل بين دفتر الاتحاد ومكتب الخدمات والهلال السعودى إذ أعلنت حكومة المجاهدين المؤقتة وسميت (عبورى حكومت)، وكان الشيخ "سياف" رئيساً للوزراء والشيخ "يونس خالص" وزيرا للداخلية و"حكمتيار" وزيراً للخارجية و"ربانى" وزيرا للتعليم على ما أذكر، وقد قوبلت هذه الخطوة باستبشار كبير بين المجاهدين والمهاجرين، وقد اعترفت

"السعودية" و"البحرين" و"ماليزيا" و"السودان" بهذه الحكومة ولا أنسى أبداً عندما كنا نصلى الجمعة فى مسجد كبير وكان أغلب المصلين من المهاجرين، فلما فرغنا من الصلاة إذا بالمصلين يلتفون حول العرب سود البشرة يصافحونهم ويقبلون أيديهم، دهشت لهذا الأمر ولم أفهم السبب حتى علمت أن "السودان" اعترف بحكومة المجاهدين، وظن الأفغان أن كل أسود اللون سودانى الجنسية، ففرحت بهذا الأمر جدا لأن هذا المشهد صحح لدى الصورة عن ولاء الأفغان لقادة الجهاد، ففرح جمهرة العوام باعتراف "السودان" يدل أوضح دلالة على مدى الحب والولاء الذى يتمتع به قادة الأحزاب.

ومن الغريب توالى زيارة قادة الأحزاب لـ "كؤيتة" فى هذه الفترة، فقد زارها كل من "يونس خالص" و"ربانى" و"حكمتيار" الذى دلف منها إلى "قندهار"، وقد قابلت الشيخ "خالص" الذى دعانا إلى لقائه فى مقر حزبه فى "كؤيتة" فجمعنا "أبو خبيب" ذات صباح وذهبنا إليه لتناول الإفطار معه، وقد عجبت لبساطة احتياطات الأمن فالحراسة كانت عبارة عن شخص أو شخصين يحملان الكلاشنكوف ويقفان بباب المنزل، وبمجرد أن رأى الحراس "أبو خبيب" رحبوا به وبمن معه دون تفتيش أو ما شابه، ودخلنا على الشيخ فقام لنا وصافحنا مع عناق قصير على عادة الأفغان. كان شيخاً مسناً واهن القوة ولكن بنيته تدل على سابق فتوة، وكان عظيم اللحية يدارى شيبها بالحناء، رحب بنا بلغة عربية سليمة، كانت طقوس الطعام هى هى لم تختلف قِيدَ أنملة ولكن كان الطعام ليناً شهياً.

وقد أخبرنا "أبو خبيب" أن السبب فى هذه الزيارة هو تفقده لأحوال قادته فى الجنوب وقد بدأهم قبل أن يطالبوه بالمدد والنفقات بأنه لا يملك مدداً ولا أموالاً، وإنه جاء خصيصاً ليخبرهم بهذا ويخيرهم بين الولاء له رغم هذه الظروف أو ينضموا لأى حزب شاءوا بغير أسف ولا ملام، وقد عبر له كل قادته عن ولائهم له وجددوا له البيعة وكفوه مؤنتهم حتى يعبر الحزب هذه الضائقة المالية. لم يتكلم الشيخ معنا كثيراً فلم أستطع تكوين فكرة عن شخصيته أو ميوله

وعقائده وإن كان من الواضح أنه ممثل الثقافة التقليدية فى "أفغانستان" مع بعض المفاهيم المتنورة.

لقـــاء مع ربـــانى

عـندما زار "ربـانى كؤيـتة" خطب الجمعة فى أحد المساجد باللغة العربية ثم بالباشـتو ثـم بالفارسـى، وقـد دعـاه الشـيخ "عقـيل" للعشـاء فـى الهـلال الأحـمر السعودى وكان كل العرب حاضرين هذا اللقاء، وتكلم الشيخ "ربانى" وأجاب عن تساؤلات العـرب فاستطعت تكويـن فكـرة واضحة عنه وعن شخصيته وأفكـاره، وعـندما خطـب الجمعـة فـى ذلـك المسجد، وجدت أنه يتكلم بلغة عربية سليمة وفصـيحة ولكـن خطبته البشتونية لم تعجب القندهاريين بل أثارت حفيظتهم لأنـه فـيما يبدو لا يعرف البشتو، وقد قال لى أحد الأفغان معلقاً على هذا بحنق شديد: إنـه يتكـلم البشـتو مـثلكم، لذلـك كانـت خطبته البشتونية قصيرة ومختزلة ولكنـه استفاض فى الخطبة الفارسية وانطلق لسانه بكلام بليغ وإن لم أفهم منه شيئاً ! !

وفـى الهـلال السعودى أعـد الشـيخ "عقـيل" ولـيمة فاخـرة نحر لها الذبائح وأتحفهـا بمـا لـذ وطـاب، وجـاء أسـتاذ "ربانى" فى كوكبة من أتباعه وحُرَاسـه، رأيـته ضئيل الجسم على غير ما يبدو فى الصور والمجلات، لاحظت دماثة خلقه أدبـه الشـديد، وكان معه ابن له يرتدى زياً عسكرياً مموهاً وكان لا يجاوز العشر سنين، أصاب شيخ "ربانى" قليلاً من الطعام.. لقيمات قليلة ثم حمد الله وأمسك. بعـد الطعـام رحـب الشـيخ "عقـيل" بالضيف الكبير ثم ألقى أستاذ "ربانى" كلمة شـكر فـيها الشـيخ "عقـيل" عـلى هذه الوليمة الفاخرة، وتكلم عن الأوضاع العامة للجهاد، ثم استأذن الشيخ "عقيل" فى إلقاء العرب بعض الأسئلة.

كنـت أول سـائل.. فقـد كـان يقلقـنى أشـد القلـق أن يضـيع على المجاهدين قطـافهم كمـا هـى العـادة فقلـت لـه: غـير خـافٍ عـلى أحـد مساعدة الهند لنظام "نجيـب"، وهـناك من يرى أن "الهند" مرشحة لتحل محل "روسيا"، وهناك من يظـن "إيـران" قبلـت وقـف الحرب مع العراق لتتفرغ لـ "أفغانستان" فهل استعد المجاهدون لهذه الاحتمالات؟

أجاب أستاذ "رباني" إجابة رغم قصرها إلا أنها كافية شافية إذ قال بالحرف الواحد: بعد ما حدث للروس في "أفغانستان" لا أظن أن أحداً يفكر في التدخل في شئونها، ثم توالت أسئلة العرب وكلها تدور حول البدع والخرافات المتفشية وتهمة الوهابية.. اعتذر الشيخ عن البدع بالجهل وقال: هل هناك شعب مسلم في العالم ليس لديه مثل هذه البدع؟! ربما كان يُعَرِّض بـ "السعودية"، ثم شرح تعلق الأفغان بالمذهب الحنفي وأوضح أن هذا ليس بدعة ولا شركاً وأن المذهب الحنفي جدير بالاحترام وخليق بالعرب أن يحترموا رغبة الأفغان في التمسك بهذا المذهب، وحكى قصة وقعت له من وقت قريب إذ كانت في "بيشاور" مدرسة كبيرة تكفل يتامى المجاهدين وتأويهم، وتنفق على هذه المدرسة إحدى المؤسسات الخيرية العربية، فحدث أن ثار الأطفال واعتصموا بالمدرسة وأحدثوا شغباً فاستدعى المسئولون أستاذ "رباني" لتهدئة الأحوال، فأسرع إلى المدرسة وعرف أن سبب هذه الثورة هو محاولة المدرسين العرب تلقين الأطفال الفقه السلفي بدلاً من الحنفي، ويحكي أستاذ "رباني" بتأثر شديد ما قاله طفل لا يتجاوز السابعة والدموع في عينيه: لقد قتل أبي في الجهاد دفاعاً عن المذهب الحنفي ولن أخون أبي أبداً.

كان معنا في هذا اللقاء شيخ أفغاني (مولوي) يعد من أخلص دعاة السلفية، وقد حاول أن يجرب حظه في "قندهار" فَمُنِيَ بفشل مرير وأصابه من القندهاريين أذى كبير، ولَمّا كان هذا المولوي بشتوني اللسان فقد كلّم أستاذ "رباني" باللغة العربية ففهمنا الحوار، فقد اشتكى الشيخ من العنت الذي لاقاه وهو يحاول تبصير أهالي "قندهار" بالبدع والخرافات وكانت دموعه تغلبه وهو يشتكي للأستاذ، ولكن رغم ذلك لم يبد على الأستاذ أي تعاطف معه بل أجابه إجابة مقتضبة وأعرض عنه، وقد سأله أحد العرب كيف يقبل المجاهدون في حكومتهم وزيرين من الشيعة على ما في عقائدهم من خبال وعلى سبهم للصحابة وعلى ما عاناه منهم المجاهدون طوال سنوات الجهاد؟! قال الأستاذ ما معناه أن هذا من باب السياسة الشرعية وأنهم يتألفون الشيعة بدلا من أن يحاربوهم، ثم قال نحن نعلم عقائد الشيعة وسبهم للصحابة ولكنهم ينكرون هذا تماماً ولو سألت أي شيعي لقال إنه يجل ويحترم كل الصحابة، ثم ابتسم ابتسامة ذات مغزى وهو يقول:

ونحن فى هذا الأمر ظاهريون (يقصد مثلكم) ولا نملك أن نحكم عليهم إلا بما يُظهرون.

وقد خرجت من هذا اللقاء بانطباع عن أستاذ "ربانى" بأنه حنفى المذهب يكره دعوة قومه إلى السلفية أو إلى أى مذهب آخر، وهذا شىء طبيعى حتى من وجهة النظر السياسية البحتة، فكيف تأتى شعباً هو على قلب رجل واحد حباً وولاءً لمذهب معين محترم ثم تفرقه مذاهبَ وأهواء؟! رأيت أيضا أن "ربانى" سياسى من الدرجة الأولى ويمكن أن نصفه بالدبلوماسية وهو ذكى ولماح ومنطيق لا تعوزه الإجابة المفحمة والمهذبة فى نفس الوقت، وهو دمث الأخلاق رقيق العبارة مع وقار وهيبة.

وفى النهاية شكر الشيخ "عقيل" على الدعوة وأثنى على مساعدة "السعودية" للمجاهدين واعترافها بحكومتهم،ثم انصرف وحدث أثناء انصرافه شىء جدير بالتسجيل.

ثـــورة المعاقـــين

لا أدرى كيف فشى فى أنحاء "كؤيتة" نبأ هذه الدعوة، فعندما ركب الأستاذ "ربانى" السيارة وهمت السيارة بالمسير، إذا بالشارع تسده جحافل من معوقى الجهاد مبتورى السيقان، وأراد السائق النفاذ لكنهم أوقفوا السيارة بأجسادهم، وحاول السائق إخافتهم بأن تراجع للخلف قليلاً ثم انطلق نحوهم بسرعة ليفسحوا له الطريق فما تزحزح منهم أحد، وارتفعت أصواتهم بالشكوى أو المطالب .. لم أفهم ما يقولون وإن كانوا فى الغالب يريدون ما يسد رمقهم وقد كانوا فى يوم من الأيام مجاهدين والآن لا يستطيعون العمل ولا التكسب ويعتبرون قادة الأحزاب مسئولين عنهم.

شعر الحراس بالخطر وأخذوا أوضاع الاستعداد ولكن أستاذ "ربانى" جعل الحراس يتراجعون وخاطب الجموع بما أرضاهم فأفسحوا له الطريق، وقد تأثرت جداً بهذا المشهد، إنهم شباب غض لم يتجاوز العشرين. شعرت بالمرارة التى تجعلهم يقفون هذا الموقف، وكنت على يقين أن لا "ربانى" ولا أى من قادة الأحزاب يمكنه مساعدتهم أو حتى يهتم بمساعدتهم إن استطاع، إنهم يواجهون

الحياة فى المهجر بهذه الإعاقة فكيف يعولون أنفسهم وأهليهم فى بلد لا يجد الصحيح فيه ما يكفيه؟! ولما كان هؤلاء القندهاريون صلاباً أباة النفوس فإنهم يترفعون عن المسألة والتسول وهذا الاحتجاج هو أقصى ما تسمح به طبيعتهم بعد أن أعيتهم الحيل.

محاولة فتح "مهترلاب"

أغلب الظن أن توالى زيارة قادة الأحزاب لـ "كؤيتة" كان بسبب معركة "خوش آب" التى كانت رحاها دائرة، وكانت الحكومة المؤقتة تعلق عليها الآمال الكبار وخاصة بعد تعثر هجوم "جلال آباد"، لم أجد معنى لبقائى فى "كؤيتة" فعزمت على المضى إلى "جلال آباد" وعدت إلى"بيشاور"، وكم حز فى نفسى أن أعود دون "أسد الله" وتذكرت رحلتنا فى القطار من "بيشاور" إلى "كؤيتة" وهاجت بى المشاعر وتذكرت طابور الشهداء وشعرت أنى أخذلهم إذ أذهب إلى جبهة أخرى، بل كانت تساورنى الشكوك عن جدوى ما نفعله وتساءلت أيجب أن أواصل الكفاح حتى تسقط حكومة "نجيب" أم أنفض يدى من الأمر؟ كان خاطراً يخطر لى من حين لآخر ولكنه كان من أشق الأمور على نفسى أن يطوف بها هذا الخاطر، وقد يستغرب الكثيرون هذا بل إنى أستغربه الآن، كان من السهل أن أعلل نفسى أن الأفغان لا يحتاجون العرب ولا يريدون العرب وهاهم يخرجون العرب من "قندهار"، ولكن فعلياً وواقعياً كان زوال الجبال الرواسى أهون على نفسى من ترك الجهاد بينما المعارك ما تزال مستمرة، إن الأيام التى أقضيها فى "باكستان" أشعر فيها بالاختناق وكأنى سمك خرج من الماء فكيف لو خرج من الماء والهواء معاً؟!

وعندما عدت إلى "بيشاور" كلّمت الشيخ "عبد الله عزام" بما يجيش فى نفسى، ويبدو أنى وقعت منه موقعاً فطمأننى وبث فىَّ روحاً من روحه الواثقة وقال لى: كيف تنصرف ونحن فى أشد الحاجة إلى أمثالك؟ وأراد منى العمل كمراسل لمجلة الجهاد فأوضحت له أنى لا أصلح لهذا العمل لأننى فى الجبهة

يذوب كياني كله في المعارك ولا أقوى على الالتفات لشغل آخر فقال لى: سوف أرسلك إلى "مهترلاب" وسوف تشبع معارك مادام هذا يرضيك.

كان الهدف الأساسى من إرسالى إلى ولاية "لغمان" هو انضمامى لمجموعة من العرب التابعين للشيخ حيث يقيمون مركزاً لتدريب المجاهدين الأفغان وخاصة القادة والمجاهدين البارزين، لم يكن مركزَ تدريب على السلاح ولا التكتيك ولكن يمكن أن نسميه مركز توجيه إيديولوجي يعمل على تثقيف المجاهدين ثقافة إسلامية حركية وتلقينهم مفاهيم الولاء والبراء والسمع والطاعة، وتوعيتهم سياسياً وتوضيح النظام الإسلامى كنظام شامل للحياة والحكم.

كان أمير هذا المركز شابا مصريا وكان يعاونه عدد من الجزائريين، وكانوا جميعاً فى ذلك الوقت فى "بيشاور" يتزودون بالمؤن والكتب والشرائط..إلخ فانضممت إليهم وبدأنا رحلة شاقة من "بيشاور" إلى "مهترلاب" عاصمة ولاية "لغمان"، وكان علينا أن نتسلق جبالاً شاهقة ونسير على الأقدام مسافات شاسعة، ومررنا "بخيوة" وعندما وصلناها كنا فى غاية الإعياء.

كان المجاهدون يستعدون على قدم وساق لذلك الهجوم المتوقع، وكانت الأحزاب تعلق أملاً كبيراً على هذه المعركة لأن سقوط "مهترلاب" يقطع طريق الإمداد البرى بين "كابل" و"جلال آباد" مما يعنى سقوط "جلال آباد" ولا شك، وكان المجاهدون فى هذه المنطقة تابعين لحزب إسلامى (حكمتيار)، وأشهد أن القادة قد بلغوا غاية المرام علماً ووعياً وفهماً صحيحاً للإسلام، كانوا جميعاً يتكلمون العربية وكانوا خريجي كليات الشريعة فى "كابل" أو الأزهر أو "باكستان"، وشعرت بفارق هائل بينهم وبين مجاهدى "قندهار" على الأقل بين القادة لأن العوام فى "لغمان" كانوا نسخة مكررة من عوام "قندهار"، ولا أنسى حين رأيت كتاباً فى يد أحد القادة فتناولته منه وقرأت العنوان وكان للمودودى.. فإذا بالقائد يرتعد ويقول لى اخفض صوتك حتى لا يسمع المجاهدون كلمة "المودودى".

كان الأمير المصرى (لا داعى من ذكر كنيته) فيه شيء من الأثرة وحب الإمارة، وربما ظن أنى مرشح لأحل مكانه فكان يتحرش بى ويعمل على إضجارى

من المكان.. وقد أفلح إلى حد بعيد رغم ما شعرت به من ود وترحيب وإكبار من جهة الأفغان، وكان هذا المصرى منذ تدرب لم يخض معركة أبداً لذلك كان يريد أن نقبع فى المركز ولا نشارك فى عملية الفتح، وتعجبت لرضى باقى العرب بهذا وأصررت على المشاركة فاضطر كارهاً إلى الانضمام للمجاهدين وقد أدهش ذلك الأفغان وأسفت لهذه الدهشة إذ تعنى أن فكرتهم عن العرب أنهم ليسوا أهل قتال ولا طعان.

وعلمت أنه حتى الأفغان لم يطلقوا رصاصة واحدة على العدو منذ سنتين، فقبل سنتين حرر هؤلاء المجاهدون كل أنحاء الولاية وحصروا الشيوعيين فى المدينة فقط ومنذئذ لم يشتبكوا معهم أبداً ولم يعترضوا القوافل العسكرية التى لم تنقطع من "كابل" إلى "جلال آباد"، وكانت تسليتى هى مراقبة هذه القوافل تمر على بعد حوالى كيلومترين منا، وهى عبارة عن طابور طويل من المصفحات والدبابات والشاحنات وتطير فوقها الطائرات العمودية للحماية.. يا للعجب إن هذا المشهد يعد مستحيلاً فى "قندهار"..أيطيق القندهاريون هذا المشهد؟ لا أظن أبداً فإنهم لابد مانعو هذه القوافل فوراً حتى لو تفانوا فى سبيل ذلك.. كانت خطة المجاهدين أن يقصفوا المدينة طوال النهار ثم يقتحموها قرب الغروب، فنصبوا المدافع وقاذفات الصواريخ على التلال المحيطة، وكان من نصيب العرب هاون على أحد التلال وأبيت إلا المشاركة فى الاقتحام.. وقد طاشت جميع قذائف هاون العرب رغم مزاعم الأمير بإجادة الرمى بالهاون.

كان قائد الاقتحام (قمندان تعرض) رجل شجاع اسمه مُلا"غيرت"، ولمّا سألت عن معنى "غيرت" أوضحوا لى أنها تعنى شدة الحماسة والحمية وقد يكون لقباً مكتسباً بسبب شجاعته، وظلت مدافع المجاهدين تدك المدينة طوال اليوم، وفى اللحظات الأخيرة مُنعت من الاشتراك فى أول موجة هجوم وكان تعليل ذلك أنى لا أعرف الداخل ولا الخارج ولا اللغة وأنهم يخافون علىّ أن أقع فى الأسر، وقالوا لى: فى مثل هذا الهجوم يكر المجاهدون ويفرون ونخشى ألا تفر بعد الكر، رضخت متبرماً، وأخذ ملا "غيرت" ورجاله مواقعهم وكانوا على اتصال بالقائد العام للعملية بجهاز لاسلكى وكنت بجوار هذا القائد العام، وعندما حان الوقت

المناسب سمعت القائد يأمر ملا "غيرت" بالهجوم ويرد ملا "غيرت" بأنه على وشك الهجوم وتكرر نداء القائد وتكرر رد ملا "غيرت" ولكن بغير هجوم، وكلما مر الوقت كلما أفلتت أعصاب القائد ولكن بلا جدوى، لقد تهيب ملا "غيرت" أو تهيب من معه من المجاهدين أن يهجموا مقتحمين المواقع التى تخرج منها نيران غزيرة وهم منذ عامين لم يطلقوا رصاصة واحدة، وهذا درس هام تعلمته، فإن مناوشة العدو فى غاية الأهمية حتى لا يفقد المجاهدين لياقتهم النفسية.. إن الجيش الذى لا يحارب حرباً معقولة كل بضع سنين ليس جيشاً حقيقياً، وربما كان هذا هو هدف اليهود عند توقيع معاهدة السلام مع "مصر".

والغريب فى الأمر أن هذا الموقف قد تكرر على مدى عدة أيام، فطوال اليوم قصف مدفعى وصاروخى وقرب الغروب تحفز للاقتحام ولكن دون إقدام، ولما رأيتهم يأبون إشراكى فى الاقتحام اخترت أن أساعد فى القصف بمدفع "هفتا دو بانج" لما لى من خبرة فى استعماله، فصعدت التل الذى يوجد عليه هذا المدفع وشاركت فى الرماية به، وكان الرامى شاباً أفغانياً متعلماً يجيد العربية، علمت منه أنه ضابط خريج كلية "سياف" الحربية، كان على قدر كبير من دماثة الخلق، أثار دهشتى ترك المجاهدين للمدفع والإسراع للخنادق لمجرد تحليق طائرة فوقنا، فقد عودنى القندهاريون ألا أبالى بالطائرات.

صوت صارخ فى البرية

وفى الخندق إذا بشاب أفغانى طويل عريض يكلمنى بلغة عربية فصيحة قائلاً:

- ماذا تفعل هنا يا شيخ؟؟

- أجاهد مع المجاهدين !!

- هؤلاء ليسوا مجاهدين.

- من هم إذن؟!!

ـ إن لهم عقائد كلها شرك وخرافة.. إنهم مشركون يحاربون دهريين.

ـ ولماذا تجاهد أنت معهم مع رأيك فيهم؟!

ـ أنا هنا للدعوة أساساً ولكنى لا أعتبر هذه الحرب جهاداً.

ـ هل أنت أفغانى؟!

ـ نعم أفغانى ابن أفغانى.

خمنت أنه من حزب الدعوة والجهاد (جميل الرحمن) ولكنى أعرف أن هذا الحزب لا ينكر أن هذا الجهاد جهاد إسلامى صحيح، ولا يصرح على الأقل بتكفير باقى المجاهدين، فى المساء عَرّفنى هذا الأفغانى بزميل له فى الأفكار ويجيد العربية مثله وتكلموا معى كثيراً وعلمت منهم أنهم درسوا فى مدرسة سلفية فى "البنجاب" منذ طفولتهم فأجادوا العربية وحفظوا القرآن ومئات الأحاديث وتشربوا السلفية حتى النخاع، وعلمت منهم أن الأفغان يكفرون خريجى هذه المدرسة ويسمونهم البنجبائيين، وقد حاولوا دعوة قومهم إلى الإسلام الصحيح فلقوا منهم عَنَتاً، أما رفيق الجبل فكان يائساً ويريد الهجرة إلى "السعودية" لأنها القطر الإسلامى الوحيد على سطح الأرض (على حد قوله)، أما الآخر فكان لا يزال يحاول دعوة قومه إلى الدين الصحيح وقد توجه للمجاهدين بكلمة بعد صلاة العشاء أخذ يعدد فيها البدع والخرافات، وتصايح عليه المستمعون وقاطعوه، وشعرت بالأسى لما يلقيانه من عنت وتعاطفت معهم وقدرت إخلاصهم ونصحهم لقومهم، ولكنى صارحتهم بأنى أخالفهم الرأى وإنى أعذر بدع الأفغان بالجهل وأعدهم مجاهدين مسلمين وأعتقد أن من مُدعى السلفية من هم أشد ابتداعاً وأضل عن سواء الصراط، وقد أدهشهم جداً أن أكون عربياً ويكون هذا رأيى، وسألونى إن كنت سلفياً أم متمذهباً؟ فأوضحت لهم أنى لا أتبع مذهباً معيناً ولكنى لا أنكر على أتباع المذاهب، فكل من لم يبلغ درجة الاجتهاد يعد مقلداً شاء ذلك أم أبى، ولماذا يكون مقلد "أبو حنيفة" متمذهباً ومقلد "بن باز" سلفياً؟! كلاهما مقلد ولا غضاضة فى التقليد، وأعرف جيداً أن كلامى لن يعجب كلا الطرفين ولكنه الحق والحق دائماً هو الوسط بين الأمرين ولا يعنينى أبداً كثرة الزبد ولا قلة المثيل.

خيانة قوات مسعود

ضاعف المجاهدون عُدة وعدد مجموعات الاقتحام لمواجهة كثافة نيران المدافعين عن المدينة، وبينما هم على وشك الهجوم الساحق إذ حدث شئ مرير، شئ جدير بالتسجيل لأنه يصحح الصورة ويعطى دلالات ذات معنى، سبق وأوضحت أن أغلب مجاهدى الولاية كانوا تابعين لحزب إسلامى (حكمتيار) وقد بلغوا غاية المرام وعياً وفهماً وإخلاصاً (القادة على الأقل) وليس فى هذا مبالغة.

ولاشك أن سقوط "مهترلاب" يغلق طريق الإمداد بين "كابل" و"جلال آباد" مما يعنى سقوط "جلال آباد"، وسقوطها يعنى سقوط "كابل" فى القريب، ولكن مع الأسف الشديد وبينما المعركة دائرة وبينما المجاهدون يحتشدون لاقتحام المدينة إذا بقوات "أحمد شاه مسعود" تتقدم من الشمال مكتسحة مراكز المجاهدين!! هل يريدون الاستيلاء على الولاية منتهزين فرصة انشغال المجاهدين بعمليات الفتح؟! أم يريدون عرقلة المجاهدين خدمةً للحكومة الشيوعية؟! لا أدرى على وجه اليقين، لكن النتيجة المؤسفة أن اضطر مجاهدو حزب إسلامى إلى إيقاف عملية الفتح والالتفات نحو غزاة الشمال لردهم عن مناطق نفوذهم.

لم أنس هذا الموقف أبداً ومهما حدث بعد ذلك ومهما نقلت الأخبار عن تطرف "حكمتيار" واشتباكه مع الأحزاب الأخرى فإن كل ذلك لن يمحو من ذاكرتى هذه الخيانة من جانب قوات "مسعود" أبداً، وعندما أبديت ذعرى واندهاشى من هذا الموقف رد علىَّ قائد قوات حزب إسلامى والكلمات تخنقه غيظاً وقهراً: إن "مسعود" لا يريد الجهاد ولا الإسلام إنما يريد أن يكون إمبراطوراً.

بالطبع ما كنت لأشارك فى مثل هذا النوع من المعارك فبقيت حول المدينة بضعة أيام، وأردت أن أرى قوافل الجيش عن قرب فحذرنى القائد من الألغام المنتشرة ووعدنى أن يصحبنى فى جولة استطلاعية عندما يتوافر دليل يقودنا خلال الألغام، وبالفعل توافر هذا الدليل وكان طفلاً لا يزيد على السابعة من العمر، كان راعياً للغنم فأكسبه ذلك معرفةً بالطرق الآمنة.

كـان مشهداً مدهشاً أن يسير القائد فارع الطول عظيم اللحية خلف هذا الطفل الضئيل وخلفه عدد من المجاهدين الأشاوس وكل منهم حريص على أن يقتفى أثر رويعـى الغـنم المهلهل الثياب الحافى القدمين! ! مشينا فى أدغال و أوحال حتى أصبحنا قاب قوسين أو أدني من طريق القوافل ومكثنا فترة من الزمن نرقب قوافل الإمـداد يـتلو بعضـها بعضـاً بـلا انقطاع، كانت القوافل تحت حراسة مشددة من المدرعـات والطائرات العمودية، وكنا مسلحين فقط للطوارئ وليس للهجوم كما كنا بضـعة رجال فحسب، ورغم ذلك خطر ببالى أن بإمكاننا إصابة دبابة أو اثنتين ثم نلـوذ بالفـرار، ولكن القائد رفض ذلك بطبيعة الحال، عدنا من حيث أتينا يقودنا هـذا الطفـل الصـغير، وكانـت مكافأتـه عـلى مجازفـته بحياته هى روبية أفغانية (قرش مصرى) تناولها من القائد وهو فَرِحٌ مسرور.

عثمان فوق الشجرة

كـان قـائد مجـاهدى حـزب إسـلامى فى هذه الولاية شاب متوسط العمر كان اسمه على ما أذكر "عبد الله خان"، وكان زميل دراسة لـ "حكمتيار" وكان قصيرا نوعاً وذا بنية متينة وقوة خارقة، كان أحمر الوجه يميل شعره للّون البنى.. وهذه الصفات هى الصفات النموذجية للعرق التركى، وكان ودوداً بشوشاً ويصحبنى معه أينما ذهب.

ذات يـوم جاءتـنا مجموعـة مـن الباكستانيين كانوا تابعين للجماعة الإسلامية الـتى تنتشـر فـى شبه القارة الهندية والتى أسسها "أبو الأعلى المودودى"، وكانوا بضع أفراد لا تتجاوز أعمارهم العشرين وأميرهم فى نحو الأربعين، يحملون أوراقاً بها أسئلة يطوفون بها على قادة المجاهدين فى أنحاء "أفغانستان" للإجابة عنها بغرض قياس الرأى ومعرفة ميول واتجاهات القادة الميدانيين.

وقـد فهمـت محـتويات الورقـة رغم أنها باللغة الفارسية، ولفت نظـــرى أن "عـبد الله خـان" رفـض الإجابة عن بعض الأسئلة منها مثلاً: بعد الاستقلال ممن يحصـل المجـاهدون عـلى السـلاح (أمـريكا ـ فرنسـا ـ مصر ـ باكستان ..إلخ) وقد

حيرنى رفضه اختيار دولة من الدول ولكن موقفه هـذا ينم عن ذكـاء، بل دهاء شديد.

كان هؤلاء الباكستانيون فى غاية الأدب ودماثة الخلق وقد أعربوا للقائد عن استعدادهم للمشاركة فى أى معارك، ورغم أنها (عزومة مراكبية) إلا أن القائد شكرهم وأعفاهم من ذلك، وقد قاموا بطبخ وجبة باكستانية من الأرز الملتهب بالشطة والبهار، وهذه الوجبة أصابتنى بحمى شديدة وكدت أهلك، فقد ارتفعت حرارتى ارتفاعا ينذر بالخطر ولا أذكر ما قلت ولكنهم أخبرونى أنى كنت أهذى، ولما خافوا علىّ أرسلونى مع هؤلاء الباكستانيين إلى "بيشاور".

وبرغم أنهم حملونى على حمار قوى إلا أن هذا الحمار المتمرد (على حد تعبير الأمير الباكستانى) قد أرهقنى غاية الإرهاق، فما أن وصلنا "خيوة" حتى كنت كالجثة الهامدة لا أقوى حتى على تحريك إصبعى.. كانت "خيوة" مكاناً خطيراً وقريباً جداً من مواقع الجيش ومليئة بالعملاء والمنافقين، وقد قتل فيها عدد من العرب غيلةً قبل وقت قليل، وكان علينا مغادرتها بأسرع ما يمكن ولكنى رقدت فى المسجد المهجور وأنا فى غاية الإنهاك، وكان معى مجاهد فلسطينى مقرب للشيخ "عزام" كان فى جولة تفقدية لأحوال "لغمان" وصحبنى من "مهترلاب"، وقد حاول أن يأخذنى معه ولكنى أخبرته أنى أفضل أن أقتل ها هنا ولا أتزحزح من مكانى هذا، ألحوا علىّ.. ولكنهم فى النهاية تركونى ورحلوا، وحز فى نفسى لأقصى درجة رحيلهم وتركهم لى وحيدا فى مكان خطير كهذا ، ولو أنى مكان أى منهم ما تركت رفيق السفر بهذه الطريقة أبداً وما كان يخطر فى بالى أن أفعل. قضيت يوماً لا يعلم به إلا الله، دون طعام ولا شراب وشعرت بوطأة الحمى وأيقنت أنى هالك لا محالة، فتوجهت إلى الله بكل جوانحى وقلت: يارب.. مجاهد.. وحيد.. مريض.. تقطعت بى السبل.. ففرج عنى كربتى، وما أن نطقت بهذه الكلمات حتى سُرِىَ عنى، وعلى الفور شعرت بالحمى تزول، وانخفضت حرارتى، وشعرت بخفة فقمت وشربت من ميضة المسجد وخرجت أترنح، فإذا بأفغانى يقول لى: (تا تشرى زه) أى إلى أين تذهب، قلت له "بيشاور"، فأخذنى من يدى وأجلسنى فى سيارة بيك آب وأنا مستسلم له وقلت فى نفسى ليذهب

بـى ولـو إلى الشـيوعيين، كـان هـذا السـائق الأفغـانى منتظراً مجموعة أخرى من الباكسـتانيين وظـن أنـى أحدهـم، وسـرعان ما جاء الباقون، ولما عرفوا أنى عربى رحـبوا بـى، وأخذونـى معهـم إلى أحـد مراكز المجاهدين حيث استرحنا وتنـاولنا الشـاى والطعـام، وانطلقـت بـنا السيارة إلى "بيشـاور"، وعرفـت أن الله سبحـانه وتعـالى قـد سمـع دعـائى وأجابـه خـير إجابـة *{أم من يجيب المضطر إذا دعاه ويكشف السوء}*.

كـان هـؤلاء الباكسـتانيون مـن الجماعـة الإسلامية أيضاً، وكانوا يؤدون نفس المهمـة وقـد توطـدت بينـنا الصـداقة خـلال الطـريق. كـان أغلبهم يعرف نتفاً من العربـية ويحـاولون تجربـتها معـى وكان بعضهم يفضل الحديث بالإنجليزية، ولما عـرفوا أنـى مصـرى زادت حفـاوتهم بـى وعرفـت أنهـم يُقدَرون الإخوان المسلمين ويعتـبرون أنفسهم والإخوان شيئاً واحداً وإن اختلف العنوان، وأخذوا يقصون علىَّ تاريخ الحركة الإسلامية فى شبه القارة الهندية واعتبروها تبدأ بثورة "السيد أحمد بـن عـرفات" وامـتدحوه وأتـباعه أعظم مديح وتحسروا على النهاية المفجعة لثورة عظـيمة ورجل عظيم وصفوة قل أن يجود الزمان بمثلها، والطريف أن الإنجليز ما قـدروا أن يخمـدوا هـذه الـثورة الجـبارة إلا بعـد أن أشاعوا عن قائدها أنه وهابى فـانفض الـناس مـن حوله، وكان هؤلاء الباكستانيون يحملون الكاميرا وكلما مررنا بدبابة محطمة أو مدفع نزلوا وتسلقوها والتقطوا الصور التذكارية، وشعرت أن هذا تصرف صبيانى وكأنهم سياح غرباء.

كـان مـن الواضـح أن الجماعـة الإسـلامية الباكستانية لا تشارك فى العمليات العسـكرية فـى "أفغانسـتان" وإن كـان لهم جهد مشكور محمود داخل "باكستان" دعمـاً وتأيـيداً للجهاد، ولا أنسى عندما جاءت "بنازير" إلى السلطة وضيقت على المجـاهدين أثـارت الجماعـة الإسـلامية المظاهـرات الصـاخبة المؤيـدة لـلجهـاد الأفغـانى، وكـلما حـاول الشيوعيون الباكستان انتقاد دعم الحكومة للمجاهدين أو المهاجرين تصدى لهم رجال الجماعة الإسلامية بما يردعهم.

ولا يعـنى هـذا أن الباكسـتانيين الذين يقاتلون فى "أفغانستان" قليلون بل هم أكـثرية المجـاهدين غـير الأفغـان عـلى الإطـلاق لكـنهم عـلى أصناف ولا ينتمون

للجماعة الإسلامية (المودودى)، فمنهم باكستانيو الحدود، وهم بشتون اللغة والعرق والزى لا يفرقهم أحد عن الأفغان وأغلبهم من إقليم بشتونستان الذى عاصمته "بيشاور" والذى كان جزءاً من "أفغانستان" ولطالما طالب به "داود"، ومنهم مجاهدو البنجاب ويسميهم الأفغان (بنجبائيين) وأغلبهم من إقليم البنجاب وينتمون لجماعات جهاد تشبه فى معتقداتها جماعات الجهاد المصرية، وتنعى على الجماعة الإسلامية (المودودى) أسلوبها وقبولها خوض الانتخابات تماماً كما يُنعى ذلك على إخوان مصر، والحقيقة أن هؤلاء البنجبائيين رغم ضآلة أجسامهم أسود شرى لا يشق لهم غبار ويضرب ببسالتهم الأمثال، ولهم جَلَدٌ عجيب رغم أنهم يقتاتون بما لا يكاد يقيم الأود، ولهم آيات وكرامات، ويخشاهم الروس والشيوعيون، ويأبون مبادلة الأسير منهم حتى بالروس ويفضلون قتلهم لما يذوقونه من بأسهم الشديد، وقد بزوا كلا من العرب والأفغان فى ضروب الجسارة والإقدام.

وعندما كنت فى المستشفى التقيت ببعض هؤلاء الباكستانيين البنجبائيين، كان منهم "عثمان" الذى كان يتناول إفطاره ذات يوم فى بيته فسمع فى الراديو أن القوات السوفيتية قد عبرت الحدود الأفغانية لاحتلال البلاد فلم يكمل إفطاره ولم يكلم أحداً وتوجه من فوره إلى بيشاور ومنها إلى داخل أفغانستان فى نفس اليوم، وظل طوال هذه المدة يقاتل بعنف وشراسة عجيبة، وقد أتقن البشتو والعربية من المجاهدين العرب وجاء إلى غرفتى فى المستشفى بساق واحدة يحجل على عكازين وأخبرنى أن ساقه قد بترت منذ سنوات بسبب الألغام وأنه استمر فى الجهاد رغم ذلك، ولما آلمته مؤخراً بسبب نمو العظام وضغطها على مكان البتر عاد للمستشفى لبتر الجزء الطرفى من العظام مرة أخرى، وكان يتكلم بحماسة شديدة ويؤكد لى أن ليس فى الجهاد موت، ولو كان فى الجهاد موت لكنت ميتاً منذ عشر سنوات، فهو يتبع نصيحة أبى بكر ـ رضى الله عنه ـ حرفياً (احرص على الموت توهب لك الحياة) فكان يحرص على الموت فى كل معركة.. ولكنه لا يموت.

وقد وجدت تاريخ الجهاد محفوراً على كل شبر من جسده فلا يخلو سنتيمتر من جسده من شظية أو رصاصة أو كسر أو حرق ولا يبالى بشيء من هذا.

طلبت منه أن يحكى لى كيف بترت ساقه فكانت أغرب قصة أسمعها.. لقد كانوا فى تعرض على قلعة روسية فوق تبة عالية وكان هو أمير مجموعة من البنجبائيين، وكانت العملية على عادة الأفغان قرب مغيب الشمس ولكن فى بداية الاقتحام قُتل خبير الألغام الذى يتقدم المقتحمين وفتح العدو نيراناً جبارة على المجاهدين فتراجع الأفغان، ولكن "عثمان" نسيج وَحْدِهِ فانطلق نحو القلعة وحده عازما على اقتحامها بمفرده دون مبالاة بالألغام المبثوثة، وعلى مسافة أمتار من سور القلعة انفجر لغم تحت قدمه فتمزقت رجله اليسرى أشلاءً وانهال عليه طوفان من الرصاص، ويقسم لى أن الرصاص كان يزيل التراب من تحت رأسه ويمرق بين ذراعه وجنبه ولكنه لم يحرك ساكناً حتى يظنه الجنود ميتاً وهكذا ظنوا فكانوا يطلقون عليه لاعبين، وظل هو ينزف بغزارة شديدة ولا يحاول وقف النزيف حتى لا يرونه يتحرك، حتى غربت الشمس وحل الظلام فأخذ عمامته وربط بها فخذه الممزق ربطاً محكماً حتى يوقف النزيف (إن كان قد بقى فى جسمه دم)، الآن كيف ينزل من هذه التبة الشاهقة وهو لا يستطيع حتى أن يقف؟! لقد دحرج نفسه لأسفل حتى وصل أسفل التل الملغم بمئات الألغام ولم ينفجر فيه لغم أثناء هذه الدحرجة !! ولم تمر ساعة إلا ويلتف حوله عدد من الكلاب شموا رائحة اللحم والدم، والكلب فى "أفغانستان" فى حجم الأسد، وأرادوا أن يأكلوه حياً ولمّا فشل فى إبعادهم بالطوب زحف نحو شجرة وتسلقها..يا إلهى أى بشر هذا؟..إنما يقدر معنى هذا الكلام واحدٌ مثلى أصيب بنفس الإصابة ويعلم جيداً حال من أصيب بها، ظل "عثمان" فوق الشجرة يومين كاملين !!! حتى مَّر أحد الرعاة فناداه "عثمان" وطلب منه إخبار المجاهدين عن مكانه، دُهش المجاهدون فقد ظنوه شهيداً ولكنهم اضطروا للانتظار إلى الليل حتى لا يراهم العدو أثناء حملهم لعثمان وبالفعل أنزلوه من الشجرة وأرسلوه إلى "باكستان" فى رحلة استغرقت ١٥ ساعة أخرى، وعندما وصل إلى المستشفى قال له الأطباء باندهاش شديد ليس فى جسمك نقطة دم.. كيف مازلت حيا؟!!

ولما سألته عن الألم وكيف تحمله أخبرنى أنه لم يشعر خلال كل ذلك بأى ألم سوى نوع من التنميل شعر به فى ساقه الممزقة !! حياك الله يا "عثمان"، إن رجلاً مثلك بألف رجل!!

يا ألف مليون وما تغنى الأعداد فى يوم الكفاح

هاتوا من المليار مليوناً ولكن صحاح من صحاح

هاتوا من المليار مليوناً أغزو بهم فى كل ساح

لا يُصنع الأبطال إلا فى مساجدنا الفساح

فى روضة القرآن فى ظل الأحاديث الصحاح

ورأيت أيضاً فى نفس المستشفى بنجبائياً آخر نسيت اسمه،كان يتجول فى المستشفى مربوط الرأس بالشاش الطبى ويحمل زجاجة متصلة برأسه لتصريف الدم النازف، كان لا يعرف العربية فحدثنى بالإنجليزية،إن قصته نسخة أخرى من قصه "عثمان" ولكن الإصابة فى رأسه بدلاً من ساقه، فعندما اقترب من سور القلعة أصابته طلقة اخترقت عظام جمجمته واستقرت داخل المخ !! وأقسم لى أنه لم يفقد وعيه مطلقاً (تماماً مثل "عثمان") ولم يشعر بألم وتصنع الموت مثل "عثمان" ورأى بعينه أجزاء بيضاء كالجبن من مخه خرجت من الجرح !! ومع ذلك قام لَمّا أظلمت السماء ونزل من التل وعاد ماشياً إلى موقع المجاهدين الذين أرسلوه إلى باكستان وذهل الأطباء ذهولاً، وكل ما فعلوه أنهم رقّعوا عظام الجمجمة بقطعه بلاستيك بدلاً من العظام المفقودة وشدو عليها فروة الرأس ولم يصب بأى ضرر، لاشلل ولا تخلف عقلى، بل لقد روى لى قصته بالإنجليزية.. إن الأطباء الذين عاصروا هذا الجهاد يستطيعون سرد أعاجيب لا يكاد يصدقها أحد.

واصلنا الرحلة حتى "بيشاور" وأصر أخوة "باكستان" ألا يتركونى إلاّ أمام بيت الأنصار، ورقدت بضعة أيام حتى تعافيت ثم توجهت مع بعض المجاهدين العرب إلى "جلال آباد".

فى جلال آباد

كنّا مجموعة من العرب مع بعض المؤن والسلاح فى سيارة بيك آب يقودها سائق مصرى هو "أبو عنتر" وكان شخصية عجيبة وفريدة، كان من فتوات أحد الأحياء الشعبية ثم هداه الله وكان مرحاً لأقصى حد و(خلاصة) ينفذ فى الحديد، لقد كان هناك تشديد كبير على الحدود من قبل الجيش و الشرطة الباكستانية وكان لا يسمح لأى عربى ولا بأى سلاح بالعبور، ولكن "أبو عنتر" كان يغدو ويروح يومياً بالنكات والمزاح والرشوة حتى أن مزاحه كان سخرية لاذعة من "بنازير" ومن الباكستانيين ولكنهم كانوا يتقبلون ذلك بمرح، وكان مجرد رؤية "أبو عنتر" يثير ضحكهم كما يتخم بطونهم.

كان علينا أن نترجل قبل الحدود بمسافة ونخفى الأسلحة تحت الملابس ونمر مع أفواج المهاجرين الأفغان فى ممر مصفوف فيه قوات الشرطة الباكستانية وكانت مشكلة بالنسبة لسود البشرة لأنهم يميزون بسهولة ويعرف أنهم عرب، ورغم ذلك مررنا بسلام واسترحنا بعض الوقت فى "طورخم" وهو المكان الذى انطلق منه المجاهدون فاكتسحوا قوات الحكومة اكتساحاً عجيباً وحرروا المسافة من "طورخم" إلى مدينة "جلال آباد" فى أيام قليلة وهى مساحة أكبر من مساحة فلسطين، وكان ذلك بقيادة القائد الفذ قمندان "خالد" ذى الساق الخشبية. انطلقنا مرة أخرى عبر شوارع إسفلتية ومناظر خلابة ودبابات محطمة ومدافع مجندلة حتى وصلنا إلى مقر العرب، وكانوا يختصون بقطاع من الجبهة ويتمركزون فوق بعض التلال ولهم أسلحتهم وإمداداتهم الخاصة بهم ولا يخالطون الأفغان إلا أثناء القتال، وكان هذا أمراً جديداً بالنسبة لى، وكان اسم "جبهة العرب" من باب التجوز فقد كان المكان يعج بالمجاهدين من "أندونسيا" و"ماليزيا" و"الفليبين" و"تركيا" و"أمريكا" (زنوج مسلمون)، وإن كانت الأغلبية الساحقة عرباً من كافة الجنسيات العربية، وخاصة من "السعودية" و"مصر" و"الجزائر" و"اليمن"، وكان المركز الرئيسى للعرب فوق ثلاثة تلال متلاصقة بين قممها ساحة فسيحة ويخترق هذه القمم أنفاق عميقة حفرها الإنجليز إبان محاولتهم الفاشلة لاستعمار "أفغانستان"، فكنا نتخذ هذه الأنفاق كمأوى ومخازن للسلاح، كان أمير كل

العرب هو "أبو عبد الله" (أسامة بن لادن)، وكان ينفق بسخاء على كل متطلبات الجهاد، وكانت مراكز العرب الأخرى تنتشر على التلال لمسافات بعيدة وكانوا على اتصال لاسلكى دائم بـ "أبو عبد الله"، كان المجاهدون قد تعرقل هجومهم الكبير على المطار وكانوا يلتقطون أنفاسهم ويستعدون لمحاولة أخرى.

قضيت بضعة أيام فى هذا المركز الرئيسى، كنا نصلى الصبح ثم نستمع لدروس دينية ثم نتناول الإفطار ونهبط إلى الأحراش حيث بعض البرك التى نتجت عن قذائف الطائرات فكنّا نسبح طوال اليوم تقريباً وفى الليل ساعة حراسة كما هى العادة، وكان يسقط بالقرب منّا صواريخ "سكود" من حين لآخر، وكان من الغباء الشديد إطلاق هذه الصواريخ على مجاهدين منتشرين على مسافات شاسعة ولا يجتمع فى مكان واحد اكثر من عشرة مجاهدين، وكانت هذه الصواريخ على كثرتها لا تحدث أى ضرر وإن كان أحدها قريباً منا بدرجة أكبر فأطاح بأحد المجاهدين الجالسين أمام النفق حتى ارتطم بنهاية النفق، ومشكلة الـ "سكود" أنه يفرغ الهواء، فكان قتلى الـ "سكود" سالمى الأجساد تماماً إلا من خيوط من الدماء تخرج من أنوفهم وآذانهم، وكانت الطائرات تُغير علينا من حين لآخر، ولا أنسى يوماً كنّا مجتمعين فى الساحة بين قمم التلال وإذا بالسماء تُظلم دون أى صوت، كانت طائرة أسرع من الصوت وعلى ارتفاع غاية فى الانخفاض حتى إنها حجبت سماء المكان، ثم دوى انفجار هائل لا أدرى أبسبب القذائف أم بسبب اختراق حاجز الصوت، كانت القذائف العنقودية تنفجر قبل الوصول للأرض وتتشظى آلاف الشظايا، وعندما أفقت من الذهول أدركت أن خسائرنا ستكون فادحة ولدهشتى الشديدة لم يصب أى مجاهد بأى خدش فيما عدا الحصان الذى جرح جرحاً غير خطير وعولج منه.

الأسير الناجى من باستيل "كابل"

فى هذا المكان تعرفت على "أبو محمد" التركى الذى كان من أوائل الأنصار وأُسر وقضى خمس سنوات فى سجون "موسكو" و"كابل". كان شخصية غاية فى الشجاعة أعاد لمخيلتى ذكريات فرق الانكشارية التى طالما سحقت الجيوش

الأوربية والروسية، إن التركى مقاتل من الطراز الأول بلا أدنى شك، كانت الحماسة تتفجر منه تفجرا، ومن يراه لا يصدق أنه أمضى فى "بل تشرخى" خمس سنوات كاملة، كانت بضعة أيام فى هذا السجن الرهيب كفيلة بتحطيم معنويات أشد الناس تحمساً فكيف بخمس سنوات؟! لقد قص علىّ "أبو محمد" قصته بتفصيل كبير، كانت مصاحبته للأسرى العرب مُعينًا له على التكلم باللغة العربية.

عندما غزت "روسيا" أرض أفغان كان "أبو محمد" شاباً يافعاً لم يصل إلى العشرين ولكنه اشتعل حماسةً فترك أمه العجوز التى هو وحيدها واخترق حدود "تركيا" وقطع "إيران" حتى وصل إلى "أفغانستان"، وكان يسير على قدميه أو يركب ما اتفق له من شاحنات، إنه أمر فى غاية الغرابة، وانضم إلى مجاهدى الشمال وأتقن الفارسية التى تتشابه مع التركية فى كثير من الألفاظ والقواعد.

شاع فى الشمال أن هناك مجاهدا تركيا يقاتل مع المجاهدين فظنه الروس جنرالاً تركياً وأن هذا تمهيد لتدخل أمريكى فكانوا يبحثون عنه، وعندما أُسر خدع آسريه وكلمهم بالفارسية وظنوه أفغانياً فكانوا يسألونه عن ذلك الخبير التركى الأمريكى الذى مع المجاهدين، لكن سرعان ما عرفوا بواسطة الجواسيس أن التركى قد أُسر، ولما كان لديهم أسرى كثيرون احتاروا أيهم هو التركى، ورغم التعذيب الشديد أصر أنه أفغانى ابن أفغانى، ولكنهم اكتشفوا أمره لأن لكل لغة خباياها مهما كان إتقانه لها.

ثم تعرض لمحن يشيب منها الولدان ليعترف أنه عميل للمخابرات الأمريكية أو ليعترف أنه جنرال فى الجيش التركى، ولما أعيتهم الحيل أرسلوه فى طائرة عسكرية إلى "موسكو" وهناك استمر استجوابه وتعذيبه، وأثار دهشتهم بتجلده واحتفاظه برباطة جأشه بل بعدوانيته رغم التعذيب الشديد، فكان يتحدى معذبيه ويسبهم أقذع سباب، ولما يئسوا منه أعادوه إلى "كابل" وأودعوه فى سجن "بل تشرخى"، وكان يسبب لهم مشاكل لا حصر لها فهو دائماً متمرد وعدوانى، يشتم الحراس ويضربهم !!!، ولم تفلح أية وسيلة من وسائل التعذيب فى كبح جماحه فلجئوا إلى طريقة همجية إذ حبسوه حبساً انفرادياً وأجاعوه لمدة شهرين لا يقدم له

إلا كسرة خبز كل يوم لا تكفى طفلاً صغيراً فأخذ جسده يزداد نحولاً حتى صار كالهيكل العظمى، وأخذ طبيب السجن يحذرهم أنه سوف يموت إن لم يُطعم، لكنهم لم يصغوا له وأصبح "أبو محمد" عاجزاً عن الحركة تماماً وبدأ يفقد بصره، وتدخل الطبيب بحسم هذه المرة فأخذه إلى عيادته وبدأ فى تغذيته وعلاجه حتى بدأ يستعيد قوته شيئاً فشيئاً وأصبح أقل عدوانية ولكنه ظل مهاباً لا يجرؤ أحد على التعرض له بما يكره، وقد علّموه فى السجن حياكة الملابس العسكرية وسخروه فى هذا العمل.

ربطت الصداقة بينه وبين أول مجاهد عربى فى كل "أفغانستان" وهو تونسى الجنسية وكان أسيراً معه فى "بل تشرخى" وقد حاولا الهرب عدة مرات ولكنهم فشلوا وكان يُنكل بهم عقب كل محاولة ولا يرعوون، وقص علىّ بتأثر شديد ما فعله الشيوعيون بأسير عربى آخر هو "عبد الرحمن" الفلسطينى إذ سحبوا منه كل دمه حتى مات، وأخذوا دماءه لإسعاف جرحاهم، ولم يفسر لى "أبو محمد" سبب هذه المعاملة الخاصة الدنيئة التى حظى بها "عبد الرحمن"، هل لأنه فلسطينى؟! أم لأن فصيلة دمه كانت نادرة ومطلوبة؟! إن كانت الدماء هى الغرض لكان من الأنفع لهم أن يحتفظوا به حياً ويستنزفونه من حين لآخر، وإن كان الغرض هو الانتقام منه فلماذا الفلسطينى بالذات دون باقى الجنسيات العربية رغم أن "فتح" كانت من أشد المؤيدين لحكومة "كابل"؟! بل يقال إن بعض فلسطينيي المنظمة كانوا متطوعين مع الحكومة فلماذا يحنقون على الفلسطينى بالذات؟! يبدو أن ما يقال عن أن الشيوعية من صنع اليهود هو حقيقة واقعة. ربما كانوا ينتقمون من الشيخ "عبد الله عزام" الذى ألب عليهم أفواج المجاهدين العرب والعجم فى شخص هذا المجاهد الفلسطينى.

قام الشيخ "سيّاف" بمبادلة المجاهد التونسى (وقد نسيت كنيته) بأحد الأسرى الروس، وذهب التونسى إلى فرنسا وتحدث إلى الصحف الفرنسية وذكر لهم الأسير التركى ونقل بعض الصحفيين الأتراك هذه المعلومة إلى الصحف التركية، فأصبح الأسير التركى فى "كابل" قضية رأى عام فى "تركيا" فتدخلت الحكومة التركية وطالبت بتسليمه، وتم التسليم رغم احتجاج "أبو محمد" الشديد

على تسليمه لبلاده إذ كان يريد مواصلة الجهاد، وفى "تركيا" خاض محن استجواب أخرى، ولكنه ثار فى وجوه المحققين وصرخ بأنه مجاهد كان يقاتل الروس وإنه سيواصل الجهاد شاءوا ذلك أم أبوا.

لم يسمحوا له بزيارة أمه العجوز بل أرسلوه مكبلاً إلى الجيش ليقضى فترة التجنيد الإجبارى، وفى الجيش لم يسمحوا له بأى أجازة طوال ستة شهور ربما لمعرفتهم بنواياه، وفى هذه الأثناء أرسل عدة خطابات إلى أصدقائه فى "بيشاور" يشكو لهم حاله ويبثهم أشواقه لساحات الوغى، وفى أول أجازة له من الجيش، زار أمه العجوز زيارة قصيرة ثم يمم شطر الحدود ماشياً على قدميه، واجتاز جبالاً وعرة وعبر الحدود إلى "إيران" وواصل المسير على قدميه فى أكثر الأحيان واجتاز "إيران" من الغرب إلى الشرق ودخل "أفغانستان" كما دخلها أول مرة، كان يرتدى زياً عسكرياً إيرانياً حتى لا تعارضه الشرطة الإيرانية كما كان يجيد الفارسية وحتى بغير ذلك لم يكن ليعوقه شيء عن المضى إلى هدفه المأمول.. بقى أن أقول شيئا عن "أبو محمد" التركى إن اسمه الحقيقى هو "تورجوت أُزال" وهو نفس اسم رئيس "تركيا"، يالها من مصادفة!!

سررت بالتعرف على "أبو محمد" وغيره من مجاهدى تركيا وشعرت أن الإسلام ضارب بجذوره فى الشعب التركى وأن "أتاتورك" وعصابته العلمانية لم يفسدوا سوى القشور، أما الأعماق فما زالت تمور بالعواطف الإسلامية، فبعد نحو خمسين عاماً من التغريب والعلمانية الصارمة مازال فى "تركيا" أمثال "أبو محمد" سليل "محمد الفاتح" و"بيازيد" و"سليم" و"سليمان"، ويكفى للدلالة على صرامة التغريب أن المجاهد التركى "باختيار" خريج الجامعة لم يعرف من هو "محمد الفاتح" ولا أى من خلفاء "إسلامبول" وقد تأثر هو بذلك وقال والكلمات تخنقه: أنت لست تركياً وتعرف هؤلاء وأنا لا أعرفهم!! حتى تاريخ بلادنا حرمونا منه! وزادت دهشته لما علم أنى أعرف حزب السلامة وأعرف "نجم الدين أربكان"..أدعو الله أن يوفقهم فى وقف تيار التغريب والعودة بتركيا إلى أحضان الشرق.

موقــع جـــديد

لـما زاد عـدد المجاهدين فى هذا المقر الأساسى قام "أبو عبد الله" بتوزيع كثير مـنّا على مختلف المواقع الخاصة بالعرب وكان نصيبى أنا ومجاهد ليبى صغير أن نذهـب إلى أبعـد هـذه المواقـع. كان هذا الليبى فى حوالى العشرين من العمر، كان قصـيراً نوعـاً ولكـنه كـان مـتين البنـيان وقـوى الجسم بدرجة غريبة وكان مرحاً لأقصى حد وكانت لهجته عويصة لأنه من بدو ليبيا ولذلك كنت أسميه "كوتشى" (بـدوى بلغـة الباشـتو)، وكان موقعنا فوق ربوة متوسطة الارتفاع وكان فوقها غرفة ومطبخ وباقى البيت مهدم كما كان فيها بئر مياهها عميقة جداً. كنا نحو عشرين مجـاهداً مـن "السـعودية" و"الـيمن" و"الجزائـر" و"سوريا" و"ماليزيا" وكان أميرنا شـاب سـعودى كـان معـنا فـى "قندهار"، كان أغلب اليمنيين من اليمن الجنوبى وكـان "أبو عبد الله" يضمهم إلى "القاعدة" دون أية تحفظات وكان لا يخفى نواياه بالقـيام بعمـل كـبير وحاسم ضـد الـيمن الجـنوبى، وكان هؤلاء اليمنيون يعتبرون بلدهـم دار كفـر ولا يـرون أنـه يحـل لهم العيش تحت سمائه إلا محاربين للنظام الماركسـى المـتطرف الذى كان يتهم "جورباتشوف" بأنه مرتد (عن الماركسية) لأنه ألـف كـتاب البيروسـترويكا، ولـما كـانوا لا يملكـون مقاومة النظام فكانوا يعتبرون الهجـرة فرض عين، وأحدهم أخبرنى كيف هاجر على قدميه مخترقًا الصحراء إلى الـربع الخالى فى "السعودية" وما لاقاه من أهوال الطريق، وقد لاحظت أن اليمنى الجـنوبى فـيه غلظة وخشونة وقوة بدنية كما أن ملامحهم أكثر خشونة من ملامح الشماليين.

كان معنا اثنان من السوريين "أبو طلحة" و"أبو محمد"، كان الأخير كبيراً فى العمـر فـى نحـو الخامسة والأربعين وكان مهاجراً فى "أمريكا"، ولقد لفت نظرى أن كـل جنسـية مـن العـرب مـتآلفة مـع بعضـها أكـثر مـن تآلفها مع الجنسيات الأخـرى وكنـت أندهـش مـن هـذا جـداً لأنـى كنـت بريـئاً ـ وما زلت ـ تماماً من المشاعر القومية، كنت أحب من أحبهم لِما يتصفون به من خلال مهما تكن وثائق سـفرهم، وكنـت المصرى الوحـيد فـى هـذا الموقع وكان الأمير يجعلنى نائبه عند تغيـبه، وكـان هـذا الأمر ثقيلاً على نفسى ولولا تفهم الجميع لمعنى الإمارة، ولولا

أنهم زبدة الحركات الإسلامية لكان من المستحيل أن يسلسوا القياد رغم تباينهم هذا التباين الكبير فى الجنسية والعمر والثقافة والجماعة والمذهب.

لمّا استدعى اليمنيون لتلقى دورة تدريبية على الدبابات طلبت الالتحاق بهم وكان التدريب بجوار موقعنا فكنا نتدرب طوال اليوم ثم نصعد لموقعنا فى المساء، كان التدريب على عدة دبابات ت٦٢، ت٥٤ التى غنمها المجاهدون فى المعارك الأخيرة، وكان المدرب أحد المصريين المجاهدين وكان ضابطاً فى الجيش المصرى فى سلاح المدرعات بالطبع، وقد أُخرج من الجيش فى حركة التطهير التى أعقبت اغتيال "السادات"، وكان مصاباً فى إحدى عينيه وكان يكن الولاء والاحترام للشيخ "عمر عبد الرحمن"، وكان لطيفاً مهذباً فليس أتباع الشيخ وحوشاً ضارية كما يتصور الناس.

بعد هذا التدريب شغلت نفسى بضبط الرماية (النيشان) على المدفع "شتادو دو"، ومدفع "هافتادوبانج" عيار ٧٥ مم وكذلك على "الجرينوف" الثقيل والآر بى جى، وكان "الكوتشى" الليبى ملازماً لى كظلى معجباً باللهجة المصرية أيما إعجاب.

معركة شيخ مصرى

كان الاستعداد على قدم وساق لعملية كبيرة بعد توقف الهجوم الكبير الذى أتى بالمجاهدين من حدود "باكستان" إلى مواطئ أقدامنا، وكانت العملية المنتظرة هى الهجوم على منطقة مهمة استراتيجياً، وهى ربوة تشرف على المدينة وتسمى منطقة "شيخ مصرى" ولا أدرى سبباً لتسمية الأفغان هذه المنطقة بهذا الاسم، وربما مات فيها أحد مبعوثى الأزهر قديماً فسميت بلقبه.

كان يزورنا من حين لآخر قمندان "خالد" قائد جميع مجاهدى "جلال آباد" وقائد الفتح الذى تم مؤخراً، وكان رجلاً ربانياً فى نحو الخامسة والأربعين، مضيء الوجه متعلماً رقيق الحاشية وفى غاية التواضع، وكثيراً ما رأيته منزوياً فى ظلال الأشجار يتلو القرآن، وكان يحب العرب حباً جماً، والغريب أنه كان معوقاً

وكانت ساقه خشبية ولكن ذلك لم يكن له أى أثر فكان يشارك فى عمليات الاقتحام بنفسه ويصعد الجبال الرواسى، حقاً إن المعوق هو معوق النفس لا معوق البدن.

كانت عملية "شيخ مصرى" هى أول هجوم للمجاهدين بعد تعثرهم فى المطار، وكان المجاهدون يعلقون عليها أملاً كبيراً لاستعادة سمعتهم العسكرية بعد تقهقرهم عن المطار، ولم يقصروا فى الإعداد للمعركة إذ استمرت إمدادات الذخيرة تتوالى وتتكدس على مدى شهرين أو يزيد، واستمر المجاهدون يحتشدون ويتربصون ويترصدون لموقع "شيخ مصرى"، وكنّا نرقب جنود الحكومة يزرعون الألغام حول الموقع ولم ندرك ماذا يفعلون، ولما حانت ساعة الصفر كان مركزنا هو نقطة تجمع وانطلاق مجاهدى "جلال آباد" بقيادة قمندان "خالد" لاقتحام هذا الموقع المصرى، انطلقت صفوف المجاهدين مدججين بالسلاح والذخائر وتقدموا بنظام دقيق يشبه الجيوش النظامية، وطوقوا الموقع من عدة محاور، كنت مع مجموعتى تحت القيادة المباشرة للقمندان "خالد"، وبدأت مدافع وصواريخ المجاهدين تدك المركز الشيوعى، ولكن المأساة أن المكان الذى انتشرنا فيه واتخذ فيه كل منا ساتراً طبيعياً تمهيداً للاقتحام كان حقل ألغام!! وكلما حاول أى مجاهد التقدم أو التأخر انفجر تحت قدميه لغم أطاح بساقه، وكان هذا مصير "أبو محمد" السورى.

ليس هذا فحسب بل إن الشيوعيين كانوا يعلمون هدف المجاهدين وموعد الاقتحام لهذا لم يفاجئوا بالأمر، بل استعدوا استعداداً هائلاً بحيث خرجت من هذا المركز كثافة نيران غير عادية وفى جميع الاتجاهات وبكل أنواع السلاح الثقيل والخفيف، فكان الرصاص والقذائف تمرق فوق رءوسنا والألغام تحت أقدامنا، ولم أمُر بمثل هذه الظروف من قبل أبداً فقد كنّا فى العراء تماماً، ولم يحدث فى "قندهار" أن علم العدو بموعد وهدف عمليات المجاهدين أبداً، فكان عنصر المفاجأة من أهم عناصر تفوق القندهاريين.

ظل "أبو محمد" يصرخ من الألم وقد بترت ساقه وتمزق فخذه أشلاء، ولم يستطع أى منّا أن يساعده فَمَنْ يرفع رأسه تنفجر لا محالة ومَنْ يخطو خطوة

تطيح ساقه لا محالة ، والشيء العجيب في القتال أن أمر القائد يطاع مهما كانت المخاطرة، إن هذا يعد سرا من أسرار النفس البشرية وآية من آيات الله للمجاهدين، لقد أمر قمندان "خالد" أن نرد على القصف حتى تخف وطأة العدو عنّا، كان قائد مركزنا السعودى (نسيت كنيته) يحمل مدفع ٨٢مم فقام ورمى العدو بما تيسر، وبدأ هاون المجاهدين يصيب الهدف تماماً بقذائف متوالية وفى الصميم، فخف ضغط العدو علينا وذهب بعض المجاهدين إلى "أبو محمد" السورى ليحملوه.

لقد أطاح اللغم بسروال "أبو محمد" فشعر بأيدى المجاهدين الذين يحملونه على جلده مباشرة فأدرك ذلك، وأخذ يسألهم: هل عورتى مكشوفة؟.. استروا لى عورتى..، يا سبحان الله، أما شغله ما هو فيه عن حياته، لقد ستره الله فى الدنيا والآخرة، فما تمزق رداؤه الداخلى، وأخذ "أبو محمد" يذكر الله باطمئنان وسكينة نفس ويقول للمجاهدين: مالكم مفجوعون هكذا؟ أليس هذا فى سبيل الله؟ أنا لا أشعر بشىء، ثم أخذ يناجي ربه: يارب.. لقد اشتقت إليك كثيراً.. عشنى عندك الليلة.. عشنى عندك يارب.. وحُمل إلى الخلف على أكتاف الرجال، ووضع على أحد البغال، ولم يصل إلى مواقعنا الأصلية إلا وقد استجاب له ربه.. وكان صائماً فعسى أن يكون الله قد أطعمه ثمار الجنة ورواه من أنهارها، هنيئاً لك "أبا محمد" فزت ورب الكعبة ".. اللهم لا تحرمنا أجرهم ولا تفتنا بعدهم واغفر لنا ولهم.. آمين.. آمين يارب العالمين.

ظل قمندان "خالد" على اتصال بالمحاور الأخرى لينطلقوا معاً مقتحمين الموقع حتى تتشتت نيران العدو، ولكن قادة المحاور الأخرى أحجموا لِما رأوه من استعدادات وكثافة نيران العدو، ولما كان اقتحام موقع كهذا من محور واحد هو عملية انتحار جماعي وخاصة فى ظروف الألغام، فقد أمرنا قمندان "خالد" بالتراجع، وكان التراجع فى نفس خطورة الاقتحام، فالألغام تحتنا والرصاص فوقنا، ولكن الله سلّم ولم نفقد سوى "أبو محمد" وإن كان هناك بعض الإصابات غير القاتلة.

عدنا إلى المقر الرئيسى للاقتحام وهو قريب من العدو ولكن فى حماية الجبال، وهناك كان هاون المجاهدين الذى لم يتوقف عن الرماية، وكان الرامى الذى أنقذنا مجاهداً عربياً أُرسل على عجل ليلحق بالعملية لِما له من دراية ومهارة فى الرماية بالهاون. بتنا هذه الليلة فى الموقع ريثما يضع القادة خطة بديلة للاقتحام ليلاً أو عند الفجر بعد أن يظن العدو أننا قد صرفنا النظر عن العملية، ولكن فى الصباح عدنا إذ لم يتفق القادة على الاقتحام ولم يريدوا المجازفة بمن معهم من مجاهدين فى عملية غير مضمونة.

جولة شيطانية وعودة للجهاد

بعد عملية "شيخ مصرى" كان من الواضح أن المجاهدين لن يكرروا الهجوم إلا بعد عدة شهور، وكان الحج على الأبواب، وإذا بأسراب المجاهدين العرب تطير إلى الأراضى المقدسة، وألح علىّ العديد منهم أن أؤدى الفريضة... وفى الحقيقة كان أغلب المجاهدين يشفقون أن يموتوا قبل أداء فريضة الحج، ولكنى كنت أدرك أن الجهاد أولى من الحج ولما اعتذرت لأحدهم بأنى لا أملك النفقة فإذا بالتذكرة وتكاليف الحج توضع فى حجرى فى اليوم التالى، وكنت بالفعل فى حاجة للاستجمام فتوكلت على الله وشرعت فى الإجراءات، وكان رفيقى فى هذه الرحلة المقدسة "أبو عبد الرحمن" المصرى الرجل المبارك، وقد فقدنا نقودنا وتصعلكنا فى مكة بعض الوقت، ثم بعد أداء المناسك عدت إلى مصر لأتزوج... وأريد أن أوضح العلاقة السيكولوجية العجيبة بين القتال وبين الرغبة فى الزواج فقد لاحظت أن خوض القتال يولد رغبة جامحة فى الزواج، فقد رأيت العديد من العزاب ولَمّا يمض عليهم شهر واحد فى الجهاد تلح عليهم فكرة الزواج فيفعلون، ثم يعودون لمواصلة الجهاد مرة أخرى.. إن الحرب تجعل الذى لم يفكر بالزواج قط لاشغل له إلا هذه الفكرة، وهذا فى رأيى نوع من غريزة حب البقاء، أو بقاء النوع وقد يكون هذا سبب زيادة معدلات المواليد زيادة كبيرة أثناء الحروب، وربما كانت ظاهرة كونية فحتى النباتات تزهر وتثمر قبل الأوان إذا واجهت ظروفاً صعبة.

كـان تفكـيرى أن أتـزوج وأعـود بزوجـتى ولكـن الأمـر لم يكـن بهذه البساطة فوجـدت أنـى فى حاجة للمال حتى يتم الزواج فسافرت إلى الكويت ببطاقة زيارة بحـثاً عـن عمـل ولكنى لم أوفق وكنت أذهب للعراق كلما انتهت مدة الزيارة. وقد رأيـت فـى العـراق مذبحـة بشـعة للمصـريين.. كنت أسكن فى فندق على الشارع الرئيسـى (لا أذكـر اسمـه) وكـان اليوم هـو يـوم فـوز الفريق المصرى على الفريق الجزائـرى وخـرج آلاف المصريين فى مظاهرة كبيرة يهتفـون بالروح والدم نفديك يـا "صـدام" وتحـيا مصـر.. فـإذا بسيارة ملاكى مسرعة تصطدم بالمتظاهرين فسقط عـدد مـن الضـحايا وظن الناس أن السائق سكران واستمرت المظاهرة بعد أن قُبض عـلى السائق ولكن سرعان ما تكرر الأمر بسيارة أخرى، فقتل المتظاهرون سائقها، فـإذا بالشـرطة تفـتح الـنار على المتظاهرين ويسقط العشرات مضرجين فى دمائهم. كانـت المذبحة أمام الفندق الذى أنزل فيه، وكأن الدماء هى قدرى الذى يطاردنى فـى كـل مكـان.. تفـرق الجمـع وحُمـل مـن حُمل من الجرحى وظلت الجثث فى الشـارع ودخـل المصـريون الفـنادق المنتشـرة هـرباً مـن رصـاص الشـرطة وهربا من الاعـتقال ودخـل فندقـنا أحـد الجـرحى محمـولاً وهـو يصـيح ويأمـرنا أن نتصـل بالسـفارة ونسـتدعى السـفير المصـرى وقد حاولنا ولكن كانت السفارة لا ترد.. ولم يتوقف الأمر عند هذا الحد بل سرعان ما امتلأ الشارع بفتيان الحزب الذين أخذوا يـرجمون الفـنادق ويكسرون النوافذ الزجاجية ويلتفون حول أى مصرى يجرؤ على الخروج للشارع فيوسعونه ضرباً أمام الشرطة حتى إذا أشرف على الهلاك اقتربت سـيارة الشـرطة فيبـتعد الفتـيان. كـنا نرقب هذا من فوق السطح وكانت محاولات المصـريين لا تـنقطع فكـل مـنهم يظـن أنـه يتقن اللهجة العراقية، فكانوا يكلمونه وبمجـرد أن يـرد يعـرفون أنـه مصـرى فيـنهالون عليه ضرباً، والغريب أن "صدام حسـين" قـد أعلـن فـى اليوم السابق فقط على هذه المذبحة أن أى اعتداء على أى مصـرى هـو اعـتداء علـيه هو شخصيا!! والغريب أن المصريين فى العراق يعبدون "صـدام حسـين"، وهـذا أكـبر دلـيل عـلى أنـنا شـعب الفـراعين، إن الدماء التى اختلطنا بها على مر التاريخ لم تغير من التكوين الوراثى لنا.

وقـد أتاحـت لى هذه السياحة أن أطلع على أحوال شعب عربى كبير وعريق، فـبادئ ذى بـدء نضـع خلـف أظهـرنا التعصـب ودعـوى الجاهلـية، فأمـا بُغـض

العراقيين للمصريين فهذا أمر أعذرهم فيه لأن مصر قد صَدَّرت لهم أوباشها ومجرميها الذين لا يتورعون عن الرذائل والخيانة.. ولأن العراقيين يبغضون "صدام" إلى أقصى حد ويخافونه لأقصى حد أيضاً، و"صدام" يدلل المصريين. وعلى قصر المدة التى قضيتها إلا أنى لاحظت أن من العراقيين من يحب المصريين حباً جماً، وأغلبهم محايدون بل يحترمون المصريين.

ولدهشتى وجدت المساجد عامرة ووجدت الشيعة يصلون فى مساجد السُنة وأهل السُنة يصلون فى مساجد الشيعة، ولكن الصحوة الإسلامية شيء لاوجود له (والمقصود بالصحوة هو الجماعات الإسلامية) فليس هناك ملتح فى العراق إلا عبدة الشيطان، حتى الجنود من هؤلاء يسمح لهم بإطالة لحاهم، لذلك كان من يرانى فى العراق يحسبنى من هذه الطائفة. وأذكر أنى يوماً صليت فى مسجد للشيعة فحسبونى شيعياً وملتحياً ولا أبالى بالحكومة فإذا بالنساء يرسلون الأطفال خلفى بالهدايا، والسنة العراقيون أحناف المذهب لا يصلون إلا مغطين رءوسهم (ووضع اليد وكل هيئات الصلاة التى يعانى منها عرب أفغانستان نجدها هنا) والمشايخ الرسميون شيء بشع، حضرت خطبة الجمعة فى مسجد الخلفاء الأثرى وقبل أن يستهل الخطيب لاحظ أن أحد المصليين يجلس مربعاً فأمره بجلوس جلسة التشهد فأصَّر الرجل على ألا يفعل (وكان رجلاً سميناً فله عذره) فإذا بالخطيب يشتمه وأهله ثم يأمر المؤذن بإقامة الصلاة.. هكذا دون خطبة جمعة!! كان شيخاً حليقاً كالح الوجه على سحنته غضب الله، ودهشت أيما دهشة عندما اشتريت جريدة عراقية ووجدت صورة هذا الشيخ وله مقال كبير ثابت يومياً!! أى أن هذا الرجل له حيثية ومكانة علمية ولما قرأت المقال أصابنى الغثيان فقد حكى أنه عندما زار الصين رأى تمثالاً لـ"جنكيز خان" فى ميدان كبير فتعجب لبلاده كيف غفلت عن عمل تمثال عظيم لـ"صدام حسين" رغم أنه أعظم من كل أباطرة الصين!!

رأيت فى الفندق بعض رجال الجيش لا ينامون حتى يصلوا قيام الليل، كانوا جنوداً وصف ضباط. إن العراقيين شعب مسلم بكل إيجابيات وسلبيات أى شعب مسلم معاصر فيهم الصالح وفيهم الطالح، ولا أنسى صاحب الفندق، كان شيخا

كبيراً ملتحياً ولا يفتر عن التسبيح وذكر الله وكان قلبه يعتصر يوم المذبحة، ولمّا رأى مجموعات الضرب حوقل وحسبن وقال إنهم جهال الحزب (عيال الحزب) حتى خشيت عليه من وجود جاسوس يشي به فمجرد تذمره كان كافياً لذبحه أمام فندقه، وكانت أجواء الحرب مسيطرة على الأوضاع . الزى العسكرى منتشر فى كل مكان ووحدات الشرطة العسكرية فى كل ميدان، وقد لاحظت أن الأوربيين ينظرون بإعجاب شديد لهذه الوحدات.. هل كان أداء الجيش العراقى فى الحرب مع إيران أداءً مثيراً للإعجاب؟ أم يشعرون بالامتنان لأن هذا الجيش قد أوقف عواصف الثورة الإسلامية أن تصل إلى بلادهم؟ وقد رأيت صفوفاً بائسة طويلة من النساء المتشحات بالسواد أمام المجمعات الاستهلاكية كما فى مصر السبعينات تماماً وعجبت أن أرى هذا المشهد فى دولة من كبرى دول البترول فى المنطقة والعالم.

أما فى الكويت فكان الوضع مختلفا تماماً.. نظام ونظافة وهدوء وجمال ولكنى شعرت أنها أصغر من أن تكون دولة، وإذا بى أقول لصديقى ـ وكأنى أقرأ الغيب: إذا جاء الجيش العراقى لاحتلال الكويت مع أى جانب تقف؟ ولكن صديقى رفض الإجابة عن سؤال مستحيل.. وجاء الشيخ "عبد الله عزام" إلى الكويت وخطب فى جمعية الإصلاح يحث الناس على البذل فى هذه الفترة الحرجة من الجهاد ويشرح الأوضاع فى "أفغانستان".. وكنت حاضراً وبدا الشيخ محطم النفس نوعاً ولكنه كعادته ألهب الحماس من حوله، وقد جلس بجوارى شاب أفغانى رأيت عينيه متأثرتين تأثراً عميقاً وقدرت شعوره لأنى أمر بمثله فهو هنا فى رخاء وأمان.. وأهله وعشيرته يُقتّلون ويُذبّحون.. وأردت أن أزيده غماً بغم فكلمته بالبشتو فاندهش وسألنى: أنت أفغانى؟ قلت لا.. أنا عربى، ولكنّى تعلمت البشتو فى "قندهار"، ثم سألنى ماذا كنت تفعل؟ هل كنت توزع مساعدات؟ قلت له لا لقد كنت أجاهد وأخذت أعدد له الولايات التى جاهدت فيها، فإذا به يجهش باكياً كطفل صغير.

وكنت أتوارى خجلاً أن يرانى الشيخ ولما التقت أعيننا لم يتكلم ولكن عينيه قالت كل شيء.. لعنت الزواج وإبليس الذى زينه لى.. فقررت العودة إلى ساحات

الوغى فوراً وحجزت فى أول طائرة ونزلت "كراتشى" كما نزلتها أول مرة ومنها إلى "إسلام آباد"، ونزلت من التاكسى أمام بيت ضيافة الشيخ "جميل" وما أن رأيت المجاهدين من كل لون ووطن حتى رجعت إلىّ روحى وهدأت ثائرة نفسى.. قضيت الليل فى بيت الضيافة، ولاحظت أحد المجاهدين آسيوى الملامح منزوياً يبكى شيئاً ما، لاطفته لأسرى عنه فعرفت أنَّ حِمله ثقيل فقد تسلم خطاباً علم منه أن زوجته وطفله الصغير قد توفاهما الله.. دعوت الله له بالصبر والسلوان.. وفى الصباح ركبت السيارة إلى بيشاور "بيت الأنصار" ثانيةً وبعد خمسة شهور كالحة بعيداً عن الجهاد.

تقهقر المجاهدين

عندما قررت الذهاب للحج كنت أظن المجاهدين فى "جلال آباد" لن يحركوا ساكناً قبل عدة شهور، وكان تقديرى سليماً من هذه الناحية ولكن لم يخطر ببالى أن الشيوعيين سيفعلون، فبعد معركة الشيخ المصرى وبينما المجاهدون يلعقون جراحهم إذا بالحكومة تهجم هجوماً كاسحاً بمئات الدبابات والمصفحات وفرق المشاة والطائرات، لقد بوغِتَ المجاهدون تماماً حتى أنَّ الأفغان انسحبوا دون أن يبلغوا العرب بالأمر وفوجئ العرب بالجيش أمامهم وكان أبو عبد الله "أسامه بن لادن" موجوداً وكان أمير العرب فأصدر أوامره على الفور بالانسحاب إلى "طورخم" وجمع كل الأسلحة الثقيلة وألقاها فى بئر عظيم ودمرها تدميراً وأفلت ومن بقى معه لتدمير هذه الأسلحة من الأسر بالكاد.

أبى ثلة من العرب الانسحاب وكان معهم أفغانى مجاهد، كان هؤلاء الأبطال "أبو تميم" المصرى الذى قص علىّ هذا القصص والذى كان أمير عرب أوطاق "عبد الرازق"، وكذلك "أبو معاذ" النجدى مولوى عرب "قندهار"، إنَّ "قندهار" مدرسة نضال.. لقد رأوا أن الانسحاب فرارٌ من الزحف فوقفوا يواجهون جيشاً كاملاً واشتعل الجبل ناراً ودماراً وصُبَّ عليهم صواعق من نار ونحاس وقُتل "أبو معاذ" وبدأت موجات المشاة تتسلق الجبل فلم يبق على الجبل سوى "أبو تميم" والمجاهد الأفغانى الذى اشتعل حماساً فنزل يواجه الجنود الصاعدين

ويفتح عليهم نيران رشاشته وسرعان ما أصيب بطلقة في بطنه فجثى على ركبتيه وأشار بيده وهو يهوى كأنما يستدعى الأفواج من خلفه وهكذا ظنَّ الجنود فولوا هاربين وبهذا نجا "أبو تميم" من أسرٍ محقق.

اغتيال عبد الله عزام شيخ المجاهدين

جرت فى "بيشاور" محاولة لاغتيال الشيخ "عبد الله عزام" فقد وجِدّت كمية كبيرة من المتفجرات تحت منبره ليفجروه وهو يخطب الجمعة، ثم أخيراً وقعت الواقعة وفُجِّرت سيارة الشيخ وهو متوجه لصلاة الجمعة مع ولديه، فقد وضعت المتفجرات فى بالوعة المجارى وعند مرور السيارة فوقها انفجرت بالتحكم عن بعد، ولقى الشيخ المجاهد ربه شهيداً مع ولديه رحمهم الله تعالى وأسكنهم فسيح جناته.

وكنت قد قرأت كل مشاكل الجهاد على وجهه.. كان الرجل مقتولاً لا محالة، لقد كانت روسيا وأمريكا وإسرائيل وباكستان - بنازير كل أولئك يطلبون رأسه.. ودّعَهُ آلاف المجاهدين العرب والأفغان والمهاجرين وأمَّ الشيخ "سياف" صلاة الجنازة وأبّنهُ بعد الدفن فبكى وأبكى حتى تخضلت اللحى وتخلجت الصدور.. إيه أيها الجهاد إن المسرح يهيأ لأمر جَلل وإنَّ رائحة الخيانة لتفوح، رحمك الله يا "ضياء الحق" وجزاك عن الجهاد خَير الجزاء.

كان من الصعب علىّ أن أصدق أنَّ الأراضى الشاسعة التى حررها المجاهدون والتى عشت فيها وجست خلالها كل هذا أصبح فى يد الشيوعيين ثانية، وتذكرت لهجة التهكم فى خطاب "نجيب الثور" حينما كان المجاهدون يكتسحون الولاية فقد ظهر فى التلفاز يقول بتحدٍ واستخفاف "لو سقطت "جلال آباد" فسوف أترك "كابل" للمجاهدين بقشيشاً"، وهذا دفع بعض العرب إلى القول أن عملية "جلال آباد" من أولها كانت استدراجا للمجاهدين حتى يستنفدوا قواهم، وقد يكون فى هذا القول مبالغة كبيرة ولكن فى اعتقادى الشخصى أنَّ أى هجوم على غير "كابل" هو عمل لا جدوى منه.

فى "بيت الأنصار" تكلمت مع أحد المجاهدين الجدد.. كان مصرياً وعندما سألته عن كنيته قال لى "أبو جبل" المصرى، اهتززت من الأعماق وقد فَجَّرَ الاسمُ الذكريات.. سألته ولماذا هذه الكنية؟.. قال لى ألم تسمع عن الشهيد "أبو جبل" المصرى؟ قلت له.. لا لم أسمع عنه.. مُنهياً الحديث لأخلو لنفسى، وشعرت أنى من جيل قديم، جيل أصبح مجرد ذكريات. علمت أنّ أحوال العرب فى "قندهار" قد عادت سيرتها الأولى ولم أحاول مقاومة نداء الدماء التى تطلب الثأر، إنّ لى ثأراً لدى جنود "قندهار".

عودة إلى "قندهار"

لما علم "أبو خبيب" أنى فى "بيشاور" اتصل بى وقال: أقبل "أبا جعفر" وأحضر معك صفيحتى "جبنة" فوعدته بأن استقل طائرة اليوم التالى.. وبالفعل حملت "الجبنة" من مخزن "بيت الأنصار" وركبت الطائرة إلى "كوَيتة"... منذ أكثر من عام قمت بنفس الرحلة من بيشاور إلى "كوَيتة" ولكنها كانت بالقطار وبصحبة "أسد الله"، وشتان بين الرحلتين كنت فى الأولى أتفجر حماساً وتفاؤلاً أمّا هذه المرة فالوضع مختلف بعد أن خَبَرتُ مشاكل ومآسى الجهاد الأفغانى وبعد أن أدركت أنّ النصر ما زال بعيد المنال بل وغير مأمون العواقب.. ولم أنس بَعدُ الفتنة الوهابية بين العرب والأفغان.. ورغم ذلك كان شىء ما يجذبنى نحو "قندهار" جذباً لا يقاوم..

قابلت فى دفتر "اتحاد إسلامى" نفس الضابط الأفغانى الذى شاركنا رحلة القطار أنا و"أسد الله" إنه "محمد رسول"، وعندما سألته عن زميله "دين محمد" علمت أنه لقى ربه شهيداً، وكان "محمد رسول" شخصاً آخر، لقد شعرت أنه محطم النفس لقد ذهب مرحه وتفاؤله وإن كان قد أصبح صلباً واضح العزيمة وقد لوحته الشمس وازداد نحافة، كلانا فقد رفيقه وكلانا فقد تفاؤله وإن ضوعفت العزيمة ربما بسبب المرارة وطلب الثأر للدماء والأعزاء الذين فقدناهم.

كذلك وجدت "محمد يوسف" الليبى وزميله "أبو ذر" القندهارى، ثم الليبى ومعهم "أبو هانى" المصرى خفيف الظل والذى كان زميل دراسة لى وإن لم تتوثق

علاقتنا إلا فى "قندهار". كان "أبو هانى" يعمل مندوب وكالة أنباء "البنيان المرصوص" التابعة لحزب "اتحاد إسلامى" وكان له مكتب فخم فى دفتر الحزب، كان يذهب إلى مختلف جبهات الجنوب ويبث المراسلين فى كل مكان ويجرى التحقيقات الصحفية المصورة لتنشر فى مجلة "البنيان المرصوص" التى تصدر باللغة العربية.

وبحكم عمل "أبو هانى" فى مجلة "البنيان المرصوص" كان كثيرا ما يلتقى بالشيخ "سياف"، وقد حكى لى مرة عن لقاء ضم الشيخ "سياف" و"محمد ياسر" (الرجل الثانى بعد الشيخ "سياف") والشيخ "عمر عبد الرحمن".. كان "محمد ياسر" بحكم موقعه فى الحكومة المؤقتة يجوب البلاد ويلتقى بحكام كثير من الدول، وكان يفتخر فى هذا اللقاء أنه عندما يجلس معهم إلى الطعام يأكل بأصابعه ويقول لهم هكذا كان يأكل رسول الله وهكذا يأكل قومى من الأفغان.. كان الشيخ "عمر" ينصت إليه صامتا ثم قال له: أجلست معهم؟! أجاب "محمد ياسر" باندهاش نعم.. فقال الشيخ: أأكلت معهم؟!.. فأجاب "محمد ياسر" بتوجس نعم، فقال الشيخ: إذن تبعث يوم القيامة معهم إن شاء الله، فانفجر الشيخ "سياف" ضاحكا.

كان "أبو خبيب" داخل "قندهار" وقمت مع "أبو هانى" بتجهيز سيارة بيك آب ببعض متطلبات الجهاد وخاصة أننا كنا فى رمضان فأحضرنا الكثير من التمر والمؤن والأدوية والكتب وشددنا الرحال إلى "قندهار". وصلنا إلى "جمن" الحدودية وكانت نقطة العبور مغلقة تماماً وعليها مراقبون من الأمم المتحدة ولاحظت جدية التفتيش عند البوابات الباكستانية وجفاء المعاملة، اضطررنا إلى ترك الطريق الإسفلتى ومشينا فى الرمال لنتفادى البوابة الحدودية المراقبة دولياً ونزلنا عند أوطاق ملا "عبد الصمد" وهو على الحدود مباشرة ولكن فى الجانب الأفغانى.. كانوا يعرفون "أبو هانى" جيداً وأعطونا سلاحاً وذخيرة وهى أشياء لا غنى عنها للمسافر خلال "قندهار" ثم واصلنا المسير.. كان" أبو هانى" ومعه أحد العرب يجلسون فى الكابينة بجوار السائق وكنت أرقد فوق البضائع فى الخلف وما إن انطلقت السيارة ثانيةً وتأملت سماء "قندهار" وجبالها الرواسى والسلاح فى يدى

مـرة أخـرى حـتى شعرت عـندئذ بنشوة عجيبة تسرى فى عروقى فأخذت أشدو صائحاً (واللا زمان يا سلاحى.. اشتقت لك فى كفاحى.. يا حرب واللا زمان) ثم أخـذت أطلـق وابـلاً مـن الرصـاص فـى الهـواء، فـإذا بالسـائق يـنحرف بالسيارة ويوقفهـا، ونـزل "أبـو هـانى" يسألنى ما الخبر فقد ظنوا أننا وقعنا فى كمين فلمّا عـلم قـال لى ضـاحكاً: لا داعـى لهـذه الأشياء لأن السـائق منبطح داخل السيارة وأعتقد أنه لن ينجب بعد الآن.

وصـلنا أوطـاق "قاضـى صاحب" وكان به كل عرب "قندهار" تقريباً فالأمور لم تعـد لطبيعـتها بالنسـبة للعـرب سـوى حديـثاً ومازال "أبو خبيب" يتلّمس موضع قدمـه بحـذر، كـنّا نحـو ثلاثين عربياً ونكاد نزيد على عدد الأفغان فى الأوطاق، وكان هناك بعض العرب فى المراكز المجاورة وخاصة مركز "لالاكا أغا".

احتفل "أبو خبيب" بصفائح الجبن فهى شىء ليس له وجود فى "أفغانستان" ولا "باكسـتان" ووجدت هناك "أسد الرحمن" الجزائرى رفيق أوطاق "عبد الرازق" ووجدته قد أصبح قندهارياً تماماً يتكلم البشتو كأهلها بل إن لغته البشتونية أفضل مـن العربـية بمـراحل، لـيس اللغـة فقـط بـل الزى والعادات ولولا الملامة لتعاطى النسوار أيضـاً، كـان يدخـل المديـنة على أنه قندهارى مسالم ويجتاز نقاط العبور ويتكـلم معهـم بالبشـتو ولا يفطن له أحد ويتجول فى المدينة.. أعتقد أنه هو نفسه قـد نسـى أنـه عـربى، عـندما شـعر ذات مـرة أنه مغبون فى قسمة الغنائم جادل القمندان الأفغانى وأثبت له أن نصيبه لا قيمة له فضحك القمندان وأقسم أن "أسد الرحمن" قندهارى وليس عربياً.

كمين فى الفجر

خرجـت مـن هـذا المركز مجموعة قتالية كبيرة من العرب والأفغان وذلك لعمل كمـين عـلى الطـريق الإسفلتى عند مدخل المدينة، سرنا وقت السحر مسافة كبيرة واخترقـنا حقـول العنـب ومراكـز العـدو وربضـنا فـى خنادق العنب مشرفين على الطـريق، كـان بجوارنـا (كشـمش خانـه) وهـو مبـنى ضـخم من الطوب اللبن وبه

فتحات للتهوية يعلق به العنب حتى يتحول إلى زبيب، وقد وضع القمندان بعض المجاهدين فى هذا المبنى لحماية أفراد الكمين من جهة المدينة.

وعند تباشير الصباح جاء باص ملىء بالضباط والجنود وأمامه وخلفه دباباتان للحماية، والدبابات تقصف جوانب الطريق بالرشاشات قصفاً وقائياً دون أن ترى أفراد الكمين... ولمّا أصبح الهدف أمامنا إذا بجهنم تنفتح على الأعداء.. كان معى آر بى جى، وكذلك معظم أفراد الكمين (حوالى ٢٥ رجلا) وانفجرت الدبابات والباص واشتعلت نيران هائلة.. أما المجاهدون فى (الكشمش خانه) فقد فوجئوا بعددٍ من الجنود يهرولون نحوهم للاحتماء عندهم .. بهت المجاهدون أولاً ثم أفاقوا والجنود على بعد أمتار منهم ففتحوا عليهم الرشاشات وأردوهم قتلى، تمت العملية فى ثوان قليلة وصاح القمندان بالانسحاب وقد انصبت علينا نيران هائلة من مختلف أنواع السلاح (رشاشات ـ زوكوياك ـ شلكا ـ دوميلا ـ هاون ـ مدافع ـ دبابات..) بكثافة جنونية ولولا خنادق العنب لهلكنا جميعاً بلا جدال، فمراكز العدو حولنا من كل جانب وعلينا الآن الانسحاب فى ضوء النهار تحت أنظارهم.. وحتى بعد أن بعدنا عن المكان بنحو كيلومترين وأصبحنا فى أرض مستوية ظلت المدافع تلاحقنا وتنفجر على بعد أمتار منا.. وكان كميناً رائعاً ولم يخدش أى مجاهد.

أبو سليمان المكى الرجل المبارك

كانت العملية الثانية بعد عدة أيام وهى الهجوم على المستشفى العسكرى، عندما أبديت اعتراضى على الهجوم على المستشفى وذكرت لـ"قاضى صاحب" أن الإسلام لا يجيز الإجهاز على الجرحى ضحك الرجل وقال لى هذه كانت مستشفى فى الماضى، أما الآن فهى موقع عسكرى ولنا سنتان نقصفها بالصواريخ، خرج فى هذه العملية عدد كبير من العرب وكذلك الأفغان وركبنا سيارتين بيك آب بعد صلاة العشاء وسرنا بهما مسافة كبيرة حتى أصبحنا على تخوم المدينة، ونزلنا بحذر شديد وسرنا فى دروب وحوارى قرية ملاصقة للمدينة على البعد من أحد البيوت الكبيرة وذهب القمندان وتفاهم مع أهل البيت بكلمة

السر وفتحت لنا الأبواب ودخلنا إلى إحدى الغرف. كان المطر يهطل علينا بغزارة أثناء الطريق وملابسنا مبتلة تماماً والبرد قارس، كنا نرتجف من البرد والجوع وجاءنا أهل الدار بالخبز والشاى ولكن ظل البرد شيئاً لا يحتمل، حاولنا إشعال النار للتدفئة ولكن الحطب كان مبتلاً بسبب الأمطار الغزيرة. خرجنا فى نحو الثالثة صباحاً وكان المطر مازال مستمراً والظلمة حالكة وسرنا مسافة طويلة نخوض الأنهار والمياه تصل إلى الرقاب ولا نمشى بضع خطوات إلا وينزلق أحدنا فهذا يكب على وجهه وهذا على جنبه وذاك على ظهره، ولم أمر قبل ذلك بمثل هذه المشقة.. المهم وصلنا إلى بغيتنا بعد أن تسللنا عبر مبانى المدينة المهجورة وأصبحنا نطل على المستشفى العسكرى، وضعنا الصواريخ فى اتجاه المبنى واتخذ كل منّا مكانه ومع تباشير الصباح قصفناها قصفاً عاصفاً.. وفى وقت غير متوقع البتة واشتبكنا مع المواقع المحيطة بالمستشفى ثم قفلنا راجعين وقد أصابنا فى العودة ما كابدناه فى الذهاب وزاد عليه هطول الأمطار مرة أخرى وزادت حالات الانزلاق، وقد التفت إلى أحد العرب يشد من أزرى قائلاً: "كلما زادت المشقة كلما زاد الأجر"، ولكنه فوجئ بى ساكن النفس طلق الوجه وقلت له: "عن أية مشقة تتحدث.. إنها متعة وليست مشقة".. وحقيقةً كنت أستمتع بهذه الأشياء متعة ليس بعدها متعة..

وكان الرجل هو "أبو سليمان" المكى.. كان رجلاً ربانياً.. إنه من أولياء الله ﴿ألا إن أولياء الله لا خوف عليهم ولا هم يحزنون﴾ لم أر ولن أرى إنسانا أكثر منه ورعاً وإخلاصاً وتواضعاً، وبرغم أنه من العلماء فقد كان من علماء الحرم الشريف الذين يلقون الدروس لتعليم وتوجيه الناس وكان بالطبع يتقاضى أجراً محترماً عن هذا العمل.. وكنت لابد سائله هذا السؤال (ألست فى وضع المعلم والمرشد تحض الناس على الخير وتنهاهم عن الشر وتعرفهم دينهم الحق.. ألست عندئذ على ثغرة من ثغرات المسلمين وتكون عندئذ أنفع منك هنا؟) فقال لى بأسىٍ رغم وجهه الطلق: (لم أستطع) فألححت عليه (لِمَ لم تستطع؟) فقال لى: (كنتُ أخرج من الحرم فأرى البنوك الربوية أمامى ولا أستطيع أن أقول فى درسى اليومى إنها حرام فشعرت أنى أخون الله ورسوله والأمانة التى فى عنقى)، وكان "أبو سليمان" داعية قلما يجود الزمان بمثله فقلما يجمع الداعية بين العلم وطلاقة الوجه والتودد للناس

والإخـلاص العظيم لله وقد جمعها "أبو سليمان" لذلك فقد أحببته حبّا جماً وتعلقت نفسي به فهو بحقٍ رجـل مبارك، وحب النـاس يشهد بحب الله له.

أبو هاشم ورؤياه السودانية العجيبة

كـان معـنا شـاب مكـى اسـمه "أبو هاشم" كان من آل البيت وكان لا يفارق أبـو سـليمان"، وكان هذا الشاب العلوى متوسط الطول قمحي اللون معتدل البنية خفـيف العارضـين مـن يـراه يحسبه شخصاً عادياً ولكنه كان أمةً وحده، فلم يكن بـين جنبـيه قلـب مـن لحـم ودم بل كان قطعة من الفولاذ.. لا يأبه للموت ويلقى بنفسـه فـى كـل تهلكـة كـأن الله لم يخلـق المـوت بعد.. وفى معركة فتح "زابل" رأيـت مـنه عجـبا لقد اقتحم القلعة وحده وليس فى يده سلاح سوى الطوب. وقد رأى "أبـو هاشـم" رؤيـا عجـب لهـا وقصـها علـيّ فعجبت لها أيما عجب.. كان الانقـلاب العسـكرى فى السودان حديث عهد ولم يفصح بعد عن هويته الإسلامية بـل كان "البشير" يتملق النظام المصرى حتى حسب الناس أنه انقلاب مصرى بل إن حكومـة مصـر نفسـها ظنت ذلك، وإذا بالمجاهد العلوى يرى فى المنام أنه فى "السـودان" يجاهد مع مجاهدين سودانيين فى ملابسهم البيضاء التقليدية.. ويرى كأنـه عائد معهم من إحدى المعارك متوجهين نحو "عمر البشير" وهو جالس بزيه الأبـيض عـلى الأرض وحولـه الـناس وبـيده اليمنى مسبحة بيضاء وبيده اليسرى مسـبحة سـوداء يسـبح بهمـا، فجلـس "أبو هاشم" ومَنْ معه مع الجالسين ثم أذن المـؤذن للصـلاة.. فاصطف الـناس ولم يـتقدم أحـد للإمامة فقال "عمر البشير" مَنْ يـتقدم للإمامـة فلم يخرج أحد فأعادها حتى قال "أبو هاشم": أنا.. وتقدم وصلى بالـناس وخلفـه "عمـر البشـير".. ثـم بعـد الصـلاة رفـع "أبو هاشم" يديه بالدعاء فقـال.. الـلهم إنى أسألك بأسمائك الحسنى وصفاتك العلا.... وغلبه البكاء فبكى وقـال الـلهم إنّا مظلومون فانتصر.. اللهم إنّا مظلومون فانتصر.. اللهم إنا مظلومون فانتصر.. وصحا من نومه وهو يرددها.

سـألت "أبـو هاشـم" عـن مدى معرفته بالسودان وأهله، فقال لى إنه لا يعرف عنها شيئاً البتة ولا يعرف شيئاً عن ذلك الانقلاب ولم يزر "السودان" ولا خطر له

علـى بـال، قلـت له هذه رؤيا حق من الله تعالى.. وهذا الانقلاب انقلاب إسلامى و"عمـر البشير" رجل مخلص لله والمسبحة البيضاء هى القرآن الكريم والسوداء هى السـنة المطهـرة.. وسـتذهب إلى السـودان وتجـاهد هـنـاك وتجـتمع علـيكم الأعداء وتبايع هناك بالإمامة العظمى.

ذهـل "أبـو هاشـم" للعبارة الأخيرة وقال لى لم أفكر قط فى هذا الأمر ولا خطر عـلى بالى وما كنت أتقدم لها ولو نودى ألف مرة.. كنت أعلم ميوله السلفية فقلت لـه أتـتقدم أم تـترك الأمـر لمخرفة الصوفية؟ فسكت يقلّب الأمر ويعجب من الرؤيا ومـن الـتأويل سواء، وتشـاء الأقـدار أن يسـقط الـنظام الشـيوعى فى "أفغانستان" ويـنـتهى دور المجـاهدين العـرب هـناك وتوصـد أمامهم أبواب بلادهم فلا يجدون مـأوى إلا فى "السودان"، وتمر الأيام ويسفر النظام السودانى عن هويته الإسلامية ويشـرع فـى الجـهاد ضد متمردى الجنوب المدعومين من "أمريكا" و"إسرائيل" ومن الغرب عموماً.

ولا أدرى ولكـنى عـلى يقـين أن "أبـو هاشـم" يجـاهد هـنـاك، وهـا هى بوادر تكالـب الأعـداء وتحـالفهم ضد "السـودان" فسـبحـان الله.. والحمـد لله الـذى علمنى التأويل.

مع مجاهدى قمندان عبد الصمد

عـلم "أبـو خبيب" بوجود "يونس خالص" فى "كؤيتة" فأخذ عدداً من العرب وأنـا ضـمنهم وذهبـنا للقائـه.. كما قام "أبو خبيب" بتغيير مقر بيت الخدمات إذ تـرك البيـت الـذى ظـل "بيت الخدمات" لسنين طويلة وأخذ مقر "حزب إسلامى حكمتـيار" بعـد أن انـتقل الأخـير إلى مكان آخر.. وكان العجب العجاب أنَّ مقر "حـزب إسـلامى" الـذى أخذنـاه كـان ملاصقاً لمقر منظمة "بشتون خوا" وزعيمها الذيـن يقـاتلون المجـاهدين فـى "قـندهار" أشـرس قـتال.. كلا المقرين كان تحت حراسـة مشـددة مـن الأتـباع المسـلحين بالرشاشـات والقذائـف الخفـيفة.. إن "باكسـتان" هـى أعجـب دولـة فـى العـالم إذ كـيف تسمح لمواطنـيها وللمنظمات الأجنبـية بحمل السلاح ثم لا يختل الأمن والنظام العام وبالتأكيد لم يترك "حزب

إسلامى" هذا المقر بسبب ذاك الجوار وإلاّ لما أعطاه للعرب.. وكان دفتر "الاتحاد الإسلامى" قريباً أيضاً من مقر مليشيا العصمتين.. ولا أدرى والله أتدعم "باكستان" المجاهدين أم تدعم كل من يحمل السلاح.

بعد لقاء الشيخ "يونس خالص" جاءنا "أبو ذر الليبى" يسألنا التبرع بالدم بسبب نقصه فى المستشفى وكثرة الجرحى، فذهب معظم العرب معه وقبل أن نصل للمستشفى عرج بنا على أحد المطاعم وطلب لنا كباباً وشربنا عصيراً وكان ذلك مادة للفكاهة، وفى المستشفى كان الأفغان ينظرون لنا ونحن نتبرع بالدم بهلع وتعجب.. فهذا الشعب البدوى لديه أفكار ساذجة عن الدم وأهميته القصوى للصحة ويحسبون أنّ مَنْ يتبرع بدمه يظل بقية عمره ضعيفاً عليلاً لا يستطيع الاقتراب من زوجته!! كما أن جهال المشايخ يحرمون التبرع بالدم لأن هذا فى ظنهم يؤدى إلى اختلاط الأنساب إذ يعتقدون أن المنى يتخلق من الدم!!

كان من الواضح أنّ "أبو خبيب" سيمكث فترة طويلة فى "كؤيتة" وسأضطر لانتظار إحدى قوافل المجاهدين للعودة إلى "قندهار"، ولكن لحسن الحظ أن زارنا فى دفتر "الاتحاد" مجاهد عربى هو "أبو يوسف" الفلسطينى، عندما رأيته لأول وهلة حسبته قندهاريا صميما بل نموذجا إنثروبولوجيا للسلالة البشتونية، نحيف متوسط الطول طويل الوجه حاد الملامح فاحم الشعر له شارب هائل ولحية لابأس بها إضافة إلى زيه وعمامته، وأبديت دهشتى ليس لهيئته فقط بل لأنه يتقن لغة البشتو كأهلها وعلمت أن له حوالى سنتين فى مركز واحد هو مركز ملا "عبد الصمد" الذى نمر عليه ذهاباً وإياباً على الحدود مباشرة، والحقيقة أن المركز الحدودى هو المقر الخلفى للمركز وله مقر متقدم بالقرب من المطار من جهة الصحراء. وكانت هذه الزيارة الخاطفة لـ"كؤيتة" هى من المرات النادرة التى يغادر فيها "أبو يوسف" مركزه الذى أصبح فيه شخصية مهمة ومحبوبة، وكان أيضاً مُفتيهم وإمامهم فى الصلاة.. قرر عدد من مجاهدى فلسطين مصاحبة "أبو يوسف" والانضمام إلى أوطاق ملا "عبد الصمد" وذهبت معهم بدلاً من الانتظار فى "كؤيتة"، وكان معنا اثنان من الفتيان أبناء أحد العاملين فى "لجنة الدعوة" كان سورى الجنسية وهارباً من بطش "حافظ الأسد" ولا أذكر هل كان اسم أكبرهما "أبو بكر" أم

أنَّ أباهما هو الذى كان يدعى "أبو بكر".. كانا يعرفان البشتو معرفة تامة فهم مهاجرون فى هذه البقاع منذ سنوات طويلة ويدرسون فى مدارس تلاميذها من الأفغان والباكستانيين الناطقين بالبشتو. وصلنا المركز الرئيسى عند الحدود ومكثنا فيه يوماً أو يومين ريثما تخرج سيارة المؤن إلى المركز المتقدم، وقد شعرت للوهلة الأولى بالاختلاف بين مجاهدى ملا "عبد الصمد" ومجاهدى "ملجات"، فقد كان مجاهدو "عبد الصمد" صغار السن أغلبهم لم يصل إلى العشرين، وكانوا غاية فى المرح يقضون الوقت فى التهريج والمصارعة والمناوشة وكانوا متفتحين نوعا ما مقارنة بمجاهدى "ملجات" ربما لقربهم من الحدود وربما لنشأتهم فى "باكستان"، وبمجرد أن أوصلنا "أبو يوسف" إلى المقر المتقدم عاد فى نفس السيارة فقد كان لديه ما يجب إنجازه فى "بيشاور" وقد قص علىّ "أبو هانى" مفارقة طريفة عندما قابل "أبو يوسف" الشيخ "سياف". كان ضمن عدد من العرب فأخذ الشيخ يرحب بالعرب فرداً فرداً.. "كيف حالك.. أنت بخير؟".. وعندما جاء الدور على "أبو يوسف" كلّمه الشيخ بالبشتو "سنجا يه.. إستالى ماسى".. واستمر الحوار بينهما بالبشتو لعدة دقائق ثم انفجر العرب ضاحكين وأخبروا الشيخ أنه يكلم شخصا عربياً وليس قندهارياً وتعجب الشيخ "سياف" ليس فقط من هيئته بل من إتقانه للبشتو القندهارى إتقاناً تاماً، فقالوا له لدينا عربيا آخر فى "ملجات" يفسر القرآن بالبشتو هو "أسد الرحمن" الجزائرى وقد أبدى الشيخ سروراً كبيراً بهذا الأمر.

أما المركز المتقدم فكان قطعة من الجنة، المفروض أنها منطقة صحراوية ولكنها صحراء مليئة بالنباتات الرعوية المتباعدة.. هذا يكون صيفاً.. أما فى الربيع فعبارة عن بساط أخضر رائع الجمال.. ورغم أن الوقت كان صيفاً فإن عيون الماء تنبثق فى قلب الصحراء وتجرى منها النهيرات النحيلة (جداول) لمسافات شاسعة وكل كيلومتر أو اثنين نجد بستاناً وحقلاً وبيتاً بدوياً أو بضعة بيوت تعتمد على ذلك النهير الذى لا ينضب معينه طوال العام صيفاً وشتاءً ليلاً ونهاراً، وعندما يصادف هذا النهير منطقة منخفضة أو حفرة ناتجة عن قذيفة طائرة فإنه يكون حوض سباحة رائع الجمال.. إضافة إلى هذه النهيرات الصغيرة الناتجة عن عيون الماء فإن هناك أنهاراً كبيرة نوعاً تنحدر فى الوديان من الشمال إلى الجنوب، وعن روعة المنظر وجمال الطبيعة وتنوع الحياة البرية فحدث ولاحرج ولو خيرت لما

اخترت لى وطناً إلاكِ يا أرض أفغان.. إذا جاز أن نسمى ثلاثة بيوت قرية فقد كان المركز فى قرية من تلك القرى الواقعة على نهير ماء، كان أهل بيتين منهما مهاجرين والثالث باقٍ على حاله وقد شغلنا أحد هذه البيوت المهجورة، وهذه القرى تعد قرى بدوية حرفتهم الرئيسية هى الرعى والبيت عبارة عن عدة غرف متجاورة ومطبخ مقابل للغرف وسور من البوص يحيط بفناء واسع حتى يأوى قطعان الغنم (بيسه). وكان نظام المعيشة غريباً فالمرأة تكدح من الفجر حتى الليل تحضر الماء وتخبز وتجهز الطعام وتغسل وتنظف.. إلخ، والأطفال يسرحون بالغنم والرجل لا عمل له على الإطلاق.. يجلس طوال اليوم فى الظل خالي البال يدخن ويشرب الشاى ويتسامر مع المجاهدين فى الليل.. وكان بالقرب منا بستان فاكهة فيه اللوز والتين والتوت والخوخ وحقل قمح، وكان المجاهدون يزرعون بعض الخضراوات للسلطة والطبخ. كانت الحياة فى هذا المركز متعة حقيقية فطوال اليوم فى البستان للاستمتاع بالقراءة تحت ظلال الأشجار والتقاط بعض الثمار أو الاستحمام فى البرك المحيطة، وكان الغذاء منوعاً وفيه خضر وفاكهة ولحوم كل يوم تقريباً ومناظر جميلة ساحرة وصحبة مرحة ضاحكة، ولم يكن فى هذا المركز عيب سوى التعطل عن القتال.

كان قائد العمليات ونائب مُلا "عبد الصمد" هو "دوست محمد" وكان شاباً فى نحو الخامسة والعشرين قصيراً نوعاً مفتول العضلات غزير الشعر كث اللحية.. كان جسوراً متهوراً وكان أخوه "نور الدين" هو القائد فلما استشهد حل "دوست محمد" محله، وقد رأيت صورة "نور الدين" وسمعت عنه ما يشبه الأساطير فقد كان متخرجاً من كلية الشريعة وكان على قدر هائل من التقوى والإخلاص والشجاعة وعلمت أن مجاهدى هذا المركز هم الذين حرروا هذه البقاع الشاسعة، وأنْ لدى "عبد الصمد" عدداً وافراً من المجاهدين ولكن كان الوقت أوان حصاد القمح ومعظم المجاهدين منصرفين لهذا العمل.. وطريقة زراعة القمح فى هذه المناطق غاية فى البساطة فقبل موسم هطول الأمطار يحرث كل مزارع ما تيسر له من الصحراء الشاسعة ويبذر فيها القمح ثم يذهب لجبهات القتال وتهطل الأمطار الغزيرة فينبت القمح وينمو، ثم يأتى الصيف بشمسه اللافحة فينضج الحب وعندئذ يترك المجاهدون مراكزهم ويذهبون لحصاد القمح. ورغم ظروف الحرب

والتشرد فقد كانت الشاحنات التى تنقل القمح والتبن من "أفغانستان" إلى "باكستان" لا تنقطع هذا فضلاً عن الفاكهة.

خرجت عدة مرات للاستطلاع (الترصد فى لغة الباشتو) وصعدت ذات يوم جبلاً شاهقاً يطل على واد أخضر ملىء بالأدغال والبساتين ويخترقه نهر كبير، ورأيت على حدود الأفق مواقع الشيوعيين. كان المنظر من فوق الجبل هو الروعة ذاتها والهواء لطيف منعش. ثم أدمنت صعود هذا الجبل، وحدث موقف واحد مثير فقد كان "دوست محمد" فى طريقه إلينا من الحدود وكان يركب سيارة بيك آب ومعه عدد من المجاهدين فإذا به يقابل أربعة من العصمتين (مليشيا موالية للحكومة الشيوعية) وهم لا يفترقون فى هيئتهم عن المجاهدين فوقف كل فريق مواجه للآخر والأيدى على الزناد وسألهم "دوست محمد" عن هويتهم فقالوا إنهم مجاهدون فسألهم لأى قائد ينتمون فعجزوا عن الرد فنزل من السيارة بدون سلاح ونزع سلاح أولهم فلما أبى لطمه على وجهه فاستسلموا للأسر.. وهذه معجزة حقيقية لمن يعرف كيف يقاتل هؤلاء العصمتيون.

أخذنى "دوست محمد" فى زيارة لمراكز المجاهدين المحيطة.. كانت على مسافة شاسعة بعكس الحال فى "ملجات" ومررنا فى الطريق على رجل يعيش وحيداً فى جنة حقيقية وسط الصحراء الشاسعة، جبل صغير فيه كهف وأمامه عين ماء عذب فرات لم أذق ماء ألذ منه وبضعة شجيرات من التوت واللوز وبضع عنزات تمرح حوله. والرجل ولاشك يستمتع بالهدوء والجمال والظل والماء وتمنيت لو كنت مكانه. استرحنا عنده قليلاً وتزودنا بالماء وأعطيناه بعض المؤن ثم واصلنا المسير ووصلنا إلى بغيتنا. وسبب ذكر هذه الزيارة أنى وجدت لدى مجاهدى ذلك المركز أسيراً كان صف ضابط فى نحو الأربعين وقضى حياته كلها فى الجيش.. رأيت المجاهدين يتخذونه مادة للسخرية ويأمرونه أن يأتى بحركات بهلوانية، وكان يستجيب ويتمادى مدعياً العبط وقد غضبت لهذا ونهيت القائد عن ذلك.. فقال لى إنه خبير ألغام ومجرم حرب.. قلت له ولو.. إما أن تقتله وإما أن تعامله كإنسان.. وفهم الأسير الحوار رغم أنه فارسى اللسان ورمقنى بنظرات لا أدرى أهى حقد أم احترام أم مزيج منهما.

وأراد "دوست محمد" أن يعرف قدراتي القتالية وربما سمع شيئا عن اتقاني الرماية فأخرج لى من "السلاكوت" مدفعاً عديم الارتداد مثل مدفع٨٢ ومدفع٧٥ ولكنه نوع حديث لم أره قبل ذلك فى "أفغانستان"، وطلب منى أن أصيب صخرة صغيرة على جبل بعيد. نصبنا المدفع ورحت أتأمل المنظار الخاص بالمدفع حتى فهمت كيف يعمل وطلبت منه أن يضرب هو أولاً ففعل وكانت رمايته ممتازة وكنت أرقبه بدقة متناهية وعندما جاء دورى لم يخذلنى الله وأصبت الصخرة من أول طلقة بمدفع لم أره قبل ذلك ورفضت أن أرمى أكثر من طلقة حتى لا يكون ذلك تبذيراً فالله وحده يعلم كيف يجمع المسلمون القرش على القرش لشراء هذه الذخائر.

ذات يوم شعرت باضطراب بين الأفغان فقد التفوا حول أجهزة اللاسلكى وأخذوا يبثون ويستقبلون رسائل محمومة، وعرفت منهم أنه قد جرت محاولة لاغتيال قمندان "عبد الصمد" فقد كان يسير بسيارة بيك آب ويجلس بجوار السائق وأثناء مروره بالقرب من مراكز مجاهدى "نور زى" انطلقت نيران كثيفة فأصيب ملا "عبد الصمد" وقتل السائق ولكن نجح "عبد الصمد" فى الفرار بالسيارة وانقلبت "قندهار" رأسا على عقب.

فولاية "قندهار" بها قبيلتان رئيسيتان هما "نور زى" و"أجكزى" وبالمناسبة فإن "زى" تعنى أبناء أى "بنى نور" و"بنى أجك"، والقبيلة الأخيرة أكثر عدداً من الأولى ولكن مجاهدى "نور زى" أكثر عددا من مجاهدى "أجكزى"، ولذلك عينت الحكومة المؤقتة (عبورى حكومت) والياً على "قندهار" من أبناء "نور زى" وهذا الأمر أحنق مجاهدى "أجكزى" أشد الحنق، وكنت أجادل "دوست محمد" لماذا هو غاضب من الوالى لمجرد أنه ليس من قبيلته فرد علىّ بانفعال إنه يقابل أبناء قبيلته ببشاشة ويعبس فى وجه أبناء قبيلة "أجكزى".

ولما حدث ما حدث إذا بـ "محمد نور"، بطريقته الجحوية يأخذ الموقف الخطير بمنتهى التهريج ويصيح فى باقى المجاهدين أنه "نور زى" ويتحدى كل "الأجكزى" فى الأوطاق، وكان بالفعل النور زى الوحيد فى هذا المركز وإذا بالأمر

يتحول إلى مسرحية هزلية فيهاجمه كل المجاهدين من كل ناحية لاعبين وهو بقوته الخارقة يطوح بمن تصل إليه يده، وهذا طمأننى أن الأمر سوف يمر بسلام.

وفى المساء أخبرنا "دوست محمد" أن هناك كمينا سيقومون به على قافلة للعدو، وذهبت معه ومع عدد من الأفغان مسلحين بالصواريخ والرشاشات وتسلقنا تبة تطل على طريق إسفلتى وأخبرنى "دوست محمد" أنّ العدو سوف يمر فى هذا الطريق وسهرنا طوال الليل فى وضع الاستعداد متأهبين للمعركة ولكن أشرقت الشمس ولم يمر أحد مما أحبطنى ولكن سرعان ما أدركت بشاعة ما كنت سأتورط فيه بغير علم، فقد كان هذا الكمين ضد مجاهدى "نور زى" وليس ضد الشيوعيين وحمدت الله أنّ أحدا من الـ "نور زى" لم يمر تلك الليلة.

والحقيقة أنّ الحياة قد شُلت فى هذه المنطقة من "قندهار" تماما فكل من الـ "نورزى" و"الأجكزى" يتربص بعضهم ببعض، وغضبت من "دوست محمد" إذ كاد يورطنى فى هذا الأمر وقررت مع بعض العرب مغادرة "قندهار" حتى تمر هذه الفتنة العمياء، وفى الطريق إلى "كوَيتة" كان التحفز الشديد واضحا فى كل مكان والدبابات والمدافع مليئة بالذخيرة ومتجهة نحو مواقع المجاهدين فى انتظار إشارة ليسحق المجاهدون بعضهم بعضا. وعندما مررنا على المركز الحدودى علمنا أنّ "عبد الصمد" فى مركزه الحدودى وتوقفنا كما هى العادة فى هذا المركز وأخبرونى أنّ ملا "عبد الصمد" بخير وأنه موجود فى الغرفة التى هى قاعة طويلة ودخلت لأسلم عليه ولكنّى فوجئت بالغرفة مليئة بشيوخ لهم لحى عظيمة ناصعة البياض يجلسون بوقار شديد ويتوسط هذا المجلس الخطير مُلا "عبد الصمد" فشعرت بإحراج لاقتحامى عليهم وصافحتهم جميعا وسلمت على ملا "عبد الصمد" وخرجت من فورى وعلمت بعد ذلك أنهم شيوخ قبائل "أجكزى" جاءوا يعلنون عن تضامنهم مع ملا "عبد الصمد" ويعبرون عن استعدادهم لخوض معركة الثأر مهما كلفهم الأمر.

ولكن كان ملا "عبد الصمد" رجلا ربانيا، كان متعلما ومتنورا وعلى قدر كبير من الفهم والإخلاص، كان من تلاميذ شيخ "سياف" ومن المقربين إليه، فشكر شيوخ قبيلته وأخبرهم أنه لن يطلق رصاصة واحدة ضد أى مجاهد مهما حدث،

أما إصابته فقد سامح فيها وأما السائق المقتول فقرر أن يطلب منهم ديته ويسلمها لأهله وأقنع شيوخ قبيلته بهذا، فأكبرت الرجل ودعوت له، ولو كان عشر معشار قادة الأفغان مثل ملا "عبد الصمد" لكان لهذا الجهاد شأن آخر.

صدام حسين خليفة المسلمين

فى هذه الأثناء قام العراق بغزو الكويت، وقد اندهش الأفغان بهذا الغزو كثيرا وكان تعليقهم هو (والله عراق بخى بادماش). و"البادماش" هو البلطجى الشرس، فهم يعرفون أن العراق قد غزا إيران وظل يحاربها ثمانية أعوام وما أن أوقف الحرب مع إيران حتى غزا الكويت. وهم لا يعرفون حجم الكويت لكنهم لم يجانبوا الصواب إذ لا يمكن أن تتركه أمريكا يفوز بهذا الصيد الثمين. وعندما بدأ التحالف الأمريكى فى ضرب العراق كنت أرقد فى مستشفى "أفغان سيرجيكل" فى "بيشاور" الباكستانية وقد رأيت والله عجبا، لقد كان الباكستانيون والمجاهدون والمهاجرون الأفغان على قلب رجل واحد مع العراق بل مع "صدام حسين" ضد أمريكا وحلفائها، لم يكن هناك دكان فى "بيشاور" إلا وعلق صورة "صدام حسين" فى زيه العسكرى ومكتوب تحتها (صدام حسين صدر أعظم إسلام) أى خليفة المسلمين. حتى الشيخ الفانى الذى كان يمسح الأحذية أمام المستشفى علق على صدره هذه الصورة!! كان فى كل شارع وكل ميدان خيمة للتبرع بالدم للمجاهدين العراقيين الذين يحاربون أمريكا والعالم كله فى سبيل الله، وكانت السيارات تجوب الشوارع بمكبرات الصوت تحض على التبرع بالمال والدم من أجل معركة الإسلام الفاصلة. كان الناس يلتفون حول أى عربى يرتدى العقال ويوسعونه ضربا وشتما لأنه فى نظرهم سعودى أو كويتى دنس الأرض المقدسة بالجيوش الأمريكية. وكان الناس واثقين ثقة غريبة بانتصار صدام حسين على كل هذه الجيوش الجرارة. وكنت أحاول إفهام المرضين الأفغان والباكستان أن بين صدام حسين وبين الإسلام شوطا بعيدا ولكن هيهات. كانوا جميعا يرددون الحلم الذى رواه "صدام حسين" بأن الرسول قد قلده سيفا وأمره بقتال الأمريكان، وكان هذا بالنسبة لهم دليلا كافيا على أن "صدام حسين" هو خليفة المسلمين وأنه

لابـد ساحق الأمريكـيين سـحقا. ورغم علمي بحال "صدام حسين" وحزب البعث العراقى ورغم تأكيدى لهؤلاء المرضين أن "صدام حسين" سوف ينهزم إلا أنى فى داخـل نفسـى كنت أتمنى أن ينتصر العراق وأن يسحق الأمريكان فى موقعة لعلها تكـون ذى قـار أخرى. كان معنا مجاهدون عراقيون كانوا فارين من الجحيم الذى نصـبه "صـدام حسـين" لكـل مـن يشم منه رائحة الإسلام وقد أخبرونا عن أهوال المعـتقلات السياسـية الـتى لـو رويت بعضها لأغمى على السامعين، وبعض هؤلاء ذاق بـالفعل هـذا العـذاب ولكن سبحان الله كان موقفهم عجبا لقد كانوا يغتصبون مـنابر الجمعـة ويخطـبون السـاعات الطويلـة مؤيديـن لـ "صدام حسين" ولاعنين أمـريكا ومـن حالفها، كانوا يبكون حتى تبتل لحاهم وهم يخطبون. فإذا قيل لهم ألستم من أخبرنا عن كفر "صدام حسين" وعن أبشع أساليب القهر والتعذيب التى يمارسـها ردوا بأنـه تـاب وآمن ويجاهد الآن فى سبيل الله. وهم بالطبع معذورون فالقصـف الوحشـى الـذى لا مثـيل له والذى يصب على أهليهم فى المدن العراقية أنسـاهم كل خطايا "صدام حسين". وقد أخبرنى المرضون الباكستانيون عن أشياء ربمـا لم تذع فى بلادنا، وربما كانت من اختراع العقل الجمعى المناهض لأمريكا، فقالوا إن قائد الجيش الباكستانى الذى كان ضمن التحالـف الأمريكى رفض الخطة الأمريكـية الـتى كانـت تقتضـى أن يـتقدم الجـيش الباكسـتانى والمصرى لاحتلال الكويـت وأخبر القائد الأمريكى أن الجيش الباكستانى هنا لهدف واحد هو حماية الأراضـى المقدسـة مـن الغزو العراقى، فأخرج القائد الأمريكى مسدسه وقتل القائد الباكستانى، فقام الجيش الباكستانى بالهجوم على المواقع الأمريكية وقتل سبعين أمريكيا، وقد تكتمت هذه الأنباء حتى لا تتسع الفتنة.

ولا أحد يستطيع تصوير خيبة الأمل التى انتابت الباكستانيين والأفغان عندما انهـزم "صـدام حسـين" وتوسـل لوقف إطلاق النار، لقد جاءونى ذات يوم منكسة رءوسـهم وقـالوا لى لقـد كنـت أنـت على حق ولكن كيـف عرفت أن الرجل سوف يهـزم؟ فقلـت لهـم أهـل مكـة أدرى بشعابها. لقد خرجت من هذا الأمر بانطباع خطـير.. وهـو أن شـعوبنا الإسلامية المنكودة على أحر من الجمر فى انتظار صلاح الديـن لـتقف وراءه صفا واحدا تقاتل العالم كله لتعيد للإسلام مجده التليد، ولكن متى تظهر يا صلاح الدين.

مؤامرة تونسية

توجهت إلى "ملجات" ثانية ووجدت "أبو خبيب" هناك فأرسلني إلى قائد اسمه "عبد الرازق"، وربما ظن أني لن أجاهد إلا مع قائد اسمه "عبد الرازق".. كان "عبد الرازق" الثاني من نوعية "عبد الرازق" الأول.. كان طويلاً.. نحيلاً معروق الساعدين ضخم الكفين.. كتلة من العضلات والأعصاب، في كفيه قوة خارقة تفوق قوة العضلات البشرية كان أشقرا شقرة مخففة.. نادراً ما يتكلم ولكن له صوت عميق أجش وئيداً رزيناً وكان في وجهه آثار حروق.. لما قص قصتها تذكرت أني رأيته في المستشفى السعودي في "كؤيتة" في العام الماضي وكان الوحيد في قسم الحروق في ذلك الوقت، وكان وجهه وصدره متفحمين تماما، ولم أطق النظر إليه ساعتها فوليت مسرعاً. كان "عبد الرازق" وقتئذ هو قائد عمليات قمندان "نور الدين" وفي إحدى المعارك وبينما يمر خلف أحد حملة مدفع ٨٢ إذا بالمجاهد يطلق المدفع فيخرج اللهب الخلفي ليحرق "عبد الرازق" على هذا النحو البشع ولحسن الحظ أن هذا اللهب لا يستمر سوى ثوان معدودة أو ربما ثانية واحدة، فرغم شدة اللهب عاد جلد الوجه طبيعياً تقريباً أو قل نما له جلد جديد طبيعي ونبت شعر رأسه ولحيته مرة أخرى ولكن المشكلة كانت عينيه، فقد أصبح بصره ضعيفاً والسوائل اللزجة تنزف منها باستمرار ومن حين لآخر يضع لها المراهم.. ورغم ذلك فإن شفاءه على هذا النحو يعد معجزة وآية من الله تعالى!! وعندما تماثل "عبد الرازق" للشفاء عاد إلى مركز "نور الدين" ليواصل الجهاد ولكن "نور الدين" كان يعتبره قد انتهى كمجاهد فكان يرفض إشراكه في العمليات وأصبح وجوده في المركز غير مرغوب فيه ثم أصبح يسمع "نور الدين" يتساءل (لماذا عاد مرة أخرى.. كيف يجاهد وهو هكذا؟).. ونسي "نور الدين" أنه هو نفسه معوق مبتور الساق وفاقد إحدى عينيه وربما لهذا السبب بالذات كان يرفض وجود "عبد الرازق" معه حتى لا يوصف مركزه بمركز المعاقين.. وقد أحدث هذا الموقف في نفس "عبد الرازق" جروحاً دامية وكان لا ينعت "نور الدين" إلا بالظالم وتركه بالفعل، وأبى ثلة من رجاله إلا مصاحبته حيثما ذهب وغضب له كل قادة "قندهار" لِما كان له من مكانة في النفوس بسبب جسارته وبأسه عند اللقاء وإخلاصه للجهاد وابتغائه وجه الله، ووجدوا أن مجرد ضمه لأحد المراكز لا

يكفي لرد اعتباره فأعطوه سلاحاً من كل نوع وذخائر واختار هو أحد البيوت المهجورة لتكون مقراً لمركزه الجديد وأمده "أبو خبيب" بالمال والرجال العرب وهكذا أصبح قائداً من قادة "قندهار" ونداً "لنور الدين" الذى طرده.

كان معى فى هذا المركز ثلاثة فلسطينيين منهم "أبو حمزة" والآخران نسيت كنيتهما، وللأسف فإنى أكمل هذه المذكرات بعد مضى خمس سنوات لذلك فقد ضاع كثير من الأسماء والتفاصيل الصغيرة.. كما كان معنا شاب فى نحو الثالثة والعشرين من الجزائر، كان يشبه الشهيد "عكرمة" الجزائرى إلى حدٍ مذهل نفس طوله ووجهه ولحيته وكان حاملاً لكتاب الله أيضاً..لم أصدق نفسى وظننت أن "عكرمة" قد بُعث حياً وكانت كنيته "أبو دجانة" الجزائرى فكنت دائماً أسهو وأناديه "بعكرمة" وتعجبت من نفسى فأنا على يقين أن "عكرمة" قد توفاه الله وأن هذا شخص آخر فكيف كلما ناديته ناديته "بعكرمة"؟ كان الفارق الوحيد بينهما هو العمر والقوة فرغم أن "أبو دجانة" كان له نفس طول وهيكل "عكرمة" إلا أن "عكرمة" كان عضلى الجسم خارق القوة ولأنه كان حافظاً للقرآن الكريم كان هو إمامنا فى الصلاة.. وقد حرصت على أن يكون هو أمير العرب فلم يمانع باقى الإخوة، وكان معنا ثلاثة مجاهدين من ليبيا أحدهم كان صف ضابط بالجيش الليبى وفر من تشاد حتى لايشارك فى حربِ القاتل فيها والمقتول فى النار.. فعندما لاحظ قائده أنه يتفادى قتل التشاديين أحضر له شيخا تشاديا فانيا له لحية بيضاء وأمره بإطلاق النار عليه، فلما وجه صاحبنا السلاح نحوه رفع الشيخ أصبعه إلى السماء وردد الشهادتين فما كان من صاحبنا إلا أن قتل قائده بدلا من الشيخ التشادى وفر من "تشاد" ووصل إلى "أفغانستان".

كان "أبو حمزة" الفلسطينى شاباً فى نحو الثانية والعشرين أشقر أحمر الوجه نحيلاً، وكان هو ومواطنوه منتمين لحركة حماس والإخوان المسلمين، ورغم أنى لست منتمياً لا لهذه ولا لغيرها إلا أنى أنسجم فكرياً تماماً مع هؤلاء وأضرابهم، وقد سرهم جداً أنى أوافقهم فى كثير من القضايا الفكرية والسياسية.. وكان "عكرمة" الثانى على نفس الخط تقريباً وكان أحد هؤلاء الفلسطينيين عائداً من "طاجيكستان" التى لا يفصلها عن "أفغانستان" سوى نهر "أموداريا" وهى فى

ذلك الوقت جزء من "الاتحاد السوفيتى"، ولكن كما فشل "الاتحاد السوفيتى" فى غلق الحدود الأفغانية الباكستانية فشل كذلك فى غلق الحدود الأفغانية السوفيتية.. لقد ذهب ذلك الأخ الفلسطينى ضمن مجموعة من مجموعات "حكمتيار" ليطوف على الخلايا السرية التى نظمها "حزب إسلامى" ليعلمهم التجويد ومبادئ اللغة العربية وربما ليُشعرهم أن حزب "حكمتيار" حزب عالمى إذ ينتمى له عديد من الجنسيات. وقد يكون لهذه المجموعات دور كبير فى الانقلاب الإسلامى الذى حدث عقب سقوط "الاتحاد السوفيتى" والذى مازال يكافح انطلاقاً من الأراضى الأفغانية.. وربما لهذا تخشى الدول المجاورة والقوى الاستعمارية من تولى شخص لا حد لطموحه مثل "حكمتيار" الذى لن يكتفى أبداً بحكم "أفغانستان" إذا تمكن من حكمها، وأثلج صدرى حماس شباب "حماس" ووعيهم وحسن إدراكهم للأمور.. وقد قصوا على الكثير من أخبار "فلسطين" والجيل الإسلامى الصاعد ذى البأس الشديد والذى لا تأخذه فى الله لومة لائم.. وكانوا يتندرون بحركة "فتح" وبالحزب الشيوعى الفلسطينى الذى لم يطلق رصاصة واحدة ضد "إسرائيل" منذ تأسيسه، وكلما عايرهم باقى التنظيمات بذلك قالوا نحن نُعد الرجال، ولمّا أصبح الملام لا يطاق قرروا القيام بعملية ضد "إسرائيل" من باب دفع الأذى فاختاروا أكثر العناصر ولاءً للماركسية والذين لهم عشرون عاماً يعدونهم ليكونوا ماركسيين مخلصين وفى الطريق إلى العملية توقف الشباب أمام بركة ماء فأغتسلوا واصطفوا للصلاة وسط ذهول ودهشة فيلسوف الحزب الذى استنكر بشدة مافعلوا فقالوا له: "ماركس على عيننا ورأسنا، ولكن إذا متنا فى هذه العملية نريد أن ندخل الجنة ونكون شهداء.. إذا نفعنا ماركس فى الدنيا فلن ينفعنا فى الآخرة"!!

وذكرت لهم ما قصه علىّ "صديق" التونسى الذى كان طياراً مقاتلاً فى إحدى القواعد الجوية التونسية وقت قصف الطائرات الإسرائيلية لمقر منظمة فتح أثناء اجتماع "عرفات" بقادة المنظمة المعارضين للتفاوض مع إسرائيل، وقد خرج "عرفات" قبل القصف بعشر دقائق فنجى من الموت؟؟ ذكر "صديق" أنهم قبل يوم من القصف جاءت الأوامر بفك الصواريخ من جميع الطائرات وإدخالها للمخازن؟! وفى صباح ذلك اليوم جاءت الأوامر لجميع الطيارين التونسيين

بالتحليق بالطائرات الخالية من الذخائر فوق أقصى جنوب تونس؟؟ ورصد ضباط الرادار الطائرات الإسرائيلية قبل وصولها بمدة طويلة وأبلغوا أعلى قيادة بذلك ولكن كان الجواب هو الصمت التام. وأكد لى "صديق" أن جميع العاملين فى القاعدة الجوية كانوا على يقين من أن الحكومة التونسية متواطئة مع "إسرائيل" و"عرفات" فى هذه العملية القذرة.

كان معنا نحو أربعة أفغان فقط، وكان لـ"عبد الرازق" نحو سبعة رجال آخرين متغيبين لبعض شأنهم، وكان يزورنا أحد الأفغان كبير السن بعض الشيء ويمكث معنا مدداً طويلة ولكنه لم يكن يشاركنا فى القتال.. وعلمت من "عبد الرازق" أنه كان قائدا لنحو ٥٠٠ مجاهد يقاتل بهم القوات المتمركزة فى المطار، ولكنه الآن لاحول له ولاقوة يهيم على وجهه من مركز لآخر وأبى أن يخبرنى عن السبب ولكن سرعان ما اكتشفته.. إنه الإدمان اللعين.. لقد رأيته ذات يوم وهو مسطول تماماً وظل هكذا عدة أيام ولابد أنه الأفيون أو الهيروين الذى يستمر مفعوله مدة طويلة هكذا، ولكن الحق يقال كان هذا الرجل على قدر هائل من الإخلاص للجهاد وحب الله ورسوله فقد كان كل هذيانه مناجاة لله ودعاء للمجاهدين واحتراماً كبيراً للعرب!! فقد كان يصر على تقبيل أيدينا فرداً فرداً مراراً وتكراراً وإذا كانت المخدرات تُظهر سريرة الإنسان فإن سريرة هذا الرجل كانت نقية.. وكان متين البنية عظيم القوة رغم أنه تجاوز الخمسين وكان من آ ل الرسول ـ صلى الله عليه وسلم ـ .

كنا نخرج مع "عبد الرازق" لفتح ثغرات فى حقول الألغام لعدة مواقع شيوعية، وكنا نجتاز الحقول فى الليل مسلحين تحسباً لأى اشتباك مفاجئ، وعندما نصل إلى حقل الألغام المواجه للمواقع الشيوعية يبدأ "عبد الرازق" عمله، وكان خبيراً على درجة فائقة من الخبرة بكل أنواع الألغام المدفونة والسطحية والشراك الخداعية، وكنا نعود بحصيلة محترمة من الألغام والمتفجرات كل يوم، كنا نخرج فى الثلث الأخير من الليل ونعود مع تباشير الصباح، ولأننا كنا نعود فى ضوء الصبح فقد كنا نخفى السلاح تحت الملابس ونُظهر أدوات الفلاحة ونتظاهر أننا فلاحون يباشرون زراعتهم، وذلك لأن بعض المناطق كانت ذات ألغام

وتدية مفخخة بسلوك غاية في الدقة وهذه لا بد من معالجتها في ضوء النهار فكان "عبد الرازق" يعالجها على ضوء الفجر ثم نعود بهذه الطريقة المسرحية.. أما الألغام المدفونة فكان من الأفضل معالجتها ليلاً لأن "عبد الرازق" يكتشفها بدون أجهزة إلكترونية ولا حتى بأسياخ ينكث بها الأرض.. لقد كان يربّت على الأرض وينقرها نقراً خفيفاً بأصابعه ويكتشف اللغم بكفاءة مائة في المائة وإلا لما بقى حياً.. والحقيقة أن "عبد الرازق" الثاني كان شخصاً جديراً بالاحترام الشديد فقد كان على جانب عظيم من الشجاعة والجسارة والبأس الشديد، كان خبيراً بكل أنواع السلاح المعروف في "أفغانستان" وكان إنسانا متحفظاً لايتكلم إلا بحساب ويعد من القلائل الذين يجاهدون لايبتغون إلا وجه الله، ولأنه كتلة من الأعصاب فقد كان يفقد أعصابه أحياناً وربما لطم أحد رجاله الأفغان لخطأ فعله، ورغم ذلك كانوا يحبونه حبا جماً ويحترمونه احتراماً كبيراً.. كان في نحو الثامنة والعشرين ولم يتزوج أيضاً مثل "عبد الرازق" الأول وإن لم أجرؤ على الخوض معه في هذه الأمور.

في إحدى المرات توغلنا في حقول الألغام حتى وصلنا إلى الأسفلت عند مدخل المدينة، هذا الأسفلت هو الموصل للمطار، وكنا قاب قوسين أو أدنى من نقطة التفتيش عند مدخل المدينة وكنا متوارين في الأعشاب الطويلة ونسمع حديث الجنود العادى. كنت مع أحد الأفغان نحمل الرشاشات لحماية "عبد الرازق" وهو ينزع الألغام، وكان معنا شقيق "عبد الرازق" وهو طفل في نحو العاشرة، وعندما ارتفع أذان العشاء من عشرات المساجد أردت أن أغوص في عقل هذا الصغير فأبديت له اندهاشي (ما هذا الأذان؟ إنهم مسلمون إذن! نحن نحارب مسلمين!) فقاطعني مسرعاً (لا.. لا.. هذا أذان البشتون.. هذه مساجد البشتون).. يا إلهي إنها حرب الفرسوان والبشتون إذن.. وليست حرب الإسلاميين والشيوعيين.. إن هذا الطفل دون أن يدرى عبّر عن الوعي الباطن للمجاهدين أو عن الوجه الآخر للعملة.

وأكبر دليل على مدى تعمق الروح القبلية في "أفغانستان" هو أن الضبّاط من أصول شمالية كانوا لا يسلمون أنفسهم إلا لـ"شاه مسعود"، بينما الضبّاط البشتون

يسلمون أنفسهم لـ"حكمتيار" لأنه بشتونى مثلهم، حتى "شاه نواز تاناى" وهو وزير الحربية ومجرم الحرب عندما أراد الاستسلام، سلم نفسه لـ"حكمتيار" لأنه كان بشتونى مثله، وقد أقامت باقى الأحزاب الدنيا ولم تقعدها لأن "حكمتيار" قد صفح عن مجرم الحرب مبيد النساء والأطفال بالنابالم والغازات السامة، وكانت وسائل إعلام "اتحاد إسلامى ـ سياف" من أشد المهيجين، ولكنّا فوجئنا بالشيخ "سياف" نفسه يخبرنا أن "حكمتيار" بقبوله استسلام "تاناى" لم يأت بدعاً من الأمر لأن المجاهدين قد أصدروا عفواً عاماً عن أى ضابط أو جندى يستسلم للمجاهدين مهما كانت جرائمه. ولما سألناه فلماذا تهاجمه وسائل إعلام "الاتحاد" على هذا النحو، قال إنها السياسة، لعنة الله على السياسة.

أول إصـــابـة

كان الحر قائظاً فى تلك الفترة من السنة، وكنا نذهب لنسبح فى إحدى الترع القريبة وقت الظهر ونصطاد بعض الطيور البرية ثم نعود لنصلى العصر.. وفى المساء وبعد تناول الشاى كنا نجلس فى هدأة الليل ونسماته اللطيفة ويبدأ "عبد الرازق" فى إنشاد الأشعار الشجية ذات المعانى السامية ويحثنا على إنشاد الأشعار العربية ثم يسألنا عن معناها، وكما هى العادة التقط منّا اللغة العربية بسرعة مذهلة.

وانتهت علاقتى بهذا المركز نهاية درامية على نحو مفاجئ، فقد كنا جلوسا فى غرفة العرب نستعد للنوم والمصباح الزيتى فى وسط الغرفة و"أبو حمزة" ينظف سلاحه، وفجأة دَوّى صوت هائل وأظلمت الغرفة وشعرت بألم شديد فى ذراعى اليمنى.. لم يخطر على بالى مطلقاً أنّ هذا الصوت الجبار هو مجرد طلقة "كلاشنكوف"، فيبدو أنّ الغرفة المغلقة جعلت الصوت هائلاً.. لقد خرجت طلقة من سلاح "أبو حمزة"، دون قصد طبعاً، وهَشّمت ساعدى الأيمن قرب مفصل الكوع وخرجت من الجهة الأخرى، ومن رحمة الله أنها لم تصب المفصل وإلا لبُتر ساعدى.. صرخت من الألم وهرول كل مَنْ فى المركز نحوى وحضر "أبو يحيى" الطبيب الجزائرى المجاهد أو المجاهد الطبيب.. إنه طبيب حقيقى وليس

كالأطباء الأفغان.. أعطانى حقنة مسكنة للألم ولَمّا تحسس الذراع ووجد العظم مهشماً وضع ذراعى فى جبيرة من الورق المقوى وطلب من "أبو خبيب" نقلى فوراً إلى "باكستان" وفى انتظار السيارة أخذ "عبد الرازق" يطمئننى ويقول لى (إنه لحمُ.. ليس عظمُ)، أى أن الإصابة فى اللحم وليست فى العظام، أمّا "أبو حمزة" فقد كانت حاله حالا.. لقد شعر بالأسف بل بالأسى وظل إلى جوارى ينظر إلىّ ولا يجد كلمات يعبر بها.. أخيراً قال لى: سامحنى يا أخى..ابتسمت له ابتسامة عريضة.. وقلت له: (على أى شىء أسامحك.. أنت لم تقصد وهذا قدر الله) وأحضر لى بعض الطعام وأصر أن يطعمنى بنفسه لقمة..لقمة.

جاءت السيارة فى الليل البهيم وركبت بجوار السائق وودعنى عدد كبير من العرب، وفى الطريق عرجنا على أحد مراكز المجاهدين وبتنا عندهم تلك الليلة وفى الصباح واصلنا المسير، وكان معى بعض الأقراص التى أوصى بها "أبو يحيى" عندما يشتد بى الألم وقد أراحتنى كثيراً.. وحدث شىء نادرا ما يحدث إذ واجهنا كميناً شيوعياً.. كان عبارة عن طائرة عمودية تقف فى الصحراء على بعد من الطريق تنتظر هدفاً ملائماً.. لمحها أحد المجاهدين فجعل السائق ينحرف نحو قرية صغيرة (عدة بيوت) وأخفينا السيارة بين الأشجار ورحب بنا الأهالى، لكن ربما ظلت الطائرة فى مكانها طوال اليوم وربما عدة أيام ولا يمكن أن ننتظر.. حمل أحد المجاهدين "الجرينوف" الخفيف ووقف فى الصندوق الخلفى وأمسك به عالياً كأنه يهددهم به وانطلق السائق بسرعة جنونية حتى ابتعدنا عن الطائرة واختبأنا فى إحدى القرى المهجورة وتركنا السيارة بعيداً عن المكان الذى نختبئ فيه حتى إذا أدركتها الطائرة نجونا من قصفها، ولَمّا اطمأن الأفغان أنّ الطائرة لم تتبعنا واصلنا المسير إلى "كؤيتة"، وعندما كنا نمر على القرى والمدن الباكستانية كان شباب المهاجرين القندهاريين يتعلقون بالسيارة مستفسرين عن موقع حدوث الإصابة، وعند أى قمندان تدور هذه المعارك ولم يلحظوا أنى عربى.

وصلنا مستشفى "الهلال الأحمر السعودى" فى الليل، عندما كشف دكتور "أحمد" على ذراعى أمر بإعداد غرفة العمليات فوراً وأحضر لى "أبو بكر" طعاماً فاخراً، ولكنى كنت فى حالة بشعة بعد الكشف العنيف على ذراعى، وتناولت

المسكنات حتى ذهبت فى نوم عميق ولم أفق إلا صباح اليوم التالى بعد إجراء الجراحة، أول ما شعرت به هو عطش فوق احتمال البشر.. أخذت أطلب الماء ولا مجيب بل شعرت بمن حولى يتواصون ألا يعطونى ماءً، صرخت بالبشتو والعربى والفارسى والإنجليزى طلباً للماء.. ولكن دون جدوى.. أقصى ما سمح لى به أن أمتص قطعة شاش مبللة بالماء.. ولا أدرى لماذا يكون الماء خطيراً للجرحى. أفقت تدريجياً وأصبح الألم فى ذراعى حاداً لا يطاق وأمضيت فى المستشفى عدة أيام ثم وضعوا ذراعى فى الجبس ومن المصادفات أن "أبو يوسف" الفلسطينى المرابط مع قمندان "عبد الصمد" كان على السرير المقابل لى ومصاباً فى ذراعه أيضاً بطلقة "جرينوف" فى إحدى العمليات، وتآلفنا فى هذه الأيام وأخبرنى بقصة حياته وبخبرته فى الجبهات، وقد جاء قمندان "عبد الصمد" لزيارته فى المستشفى وأبدى عواطف جياشة تجاه "أبو يوسف" وأخرج مبلغاً ضخماً وأعطاه إياه ولَمّا أبَى "أبو يوسف" أقسم مُلا "عبد الصمد" بأغلظ الأيمان أن يأخذه وأن آخذ أنا أيضاً مبلغاً مثله، ولَمّا غادرنا أخبرنى عنه "أبو يوسف" ما أثار عجبى وتعجبى.. لقد أمضيت مع رجاله بعض الوقت ولكنى لم أحتك به عن قرب إلا فى المستشفى.

رأيت فى المستشفى حالات بائسة ونماذج لعذاب البشر.. منها طفل لايتجاوز الرابعة من عمره يرافقه شيخ جاوز السبعين ولكنه كان مستقيم الظهر قوى الجسم.. ظننته جده وفوجئت أنه أبوه، كانت ذراع الطفل مبتورة وممزقة أشلاءً وكانت عملية الغيار على الجرح هى العذاب بعينه، كان الأب الشيخ يمسك بطفله حتى لايتحرك والطفل يصرخ و.. وأصبحت الآن أفهم البشتو.. فقد كان يقول له.. أنت لست أبى.. لو كنت أبى لرحمتنى.. وتحدثنا مع الرجل فقال لنا والأسى يعتصره..لقد كان يلعب تحت الأشجار فوجد قلماً وفراشات بلاستيكية وما إن أمسكها حتى انفجرت فيه.. ثم قال قولا يلخص أسباب اندحار السوفييت.. قولا يفصح عن الأخلاق الحربية التى تحطمت على صخرتها الإمبراطورية الماركسية.. قال: لو كان مجاهداً مثلكم.. لو أصيب فى الجهاد مثلكم.. لما حزنت عليه!!

كنا فى عنبر كبير فيه نحو أربعين جريحاً وقد أبيت أن يحضروا لى طعاماً خاصاً من بيت الخدمات، وكذلك أبيت أن يرافقنى أحد من العرب فالإصابة لا تعوقنى عن الحركة وجاءنى الحبر المبارك "أبو سليمان" وأخذ يلح أن يبيت على الأرض بجوار سريرى ولكنى أبيت تماماً رغم أنى أستمتع ليس فقط بصحبته بل بمجرد النظر إليه، وبمجرد أن وضعوا ذراعى فى الجبس لم يعد لوجودى فى المستشفى معنى، فذهبت إلى دفتر "الاتحاد" الذى صار لى بمثابة بيتى.. وأصبحت أهيم على وجهى فى"كوّيتة" بلا هدف، وكنا نُدعى من وقت لآخر لتناول الطعام فى بيوت العرب العاملين فى المؤسسات الخيرية أو فى الهلال الأحمر السعودى، وفى إحدى هذه الدعوات قابلت "نصر الله كاكا" مرةً أخرى وقد أبدى أسفه الشديد لما أصابنى وجدد دعوته لى بالانضمام إليه، ولكنى أخبرته أن لا طريق لى سوى الجهاد.. وقد كُلّفَ "أبو هانى" المصرى برئاسة وكاله أنباء "البنيان المرصوص" فى "بيشاور" وأراد أن أحل محله فى الفرع المسئول عن الجنوب ولكنىأبديت نفس العذر. وجاءنى فى الغرفة المخصصة للعرب مُلا "فيض الله" الذى كان أول قائد لعملية اقتحام الجبل ثم عُزل بسرعة.. فرحت به جداً ورحبت به وأراد أن أتوسط له لدى قمندان "عبد الله خان" ليوافق على مبلغ كبير للمركز التابع له فذهبت معه إلى غرفة "عبد الله خان" وقلت للحارس يستأذن لنا ولكن الحارس أدخلنا على الفور دون استئذان، وكان "عبد الله خان" يجلس مع أحد الأشخاص فلما رآنى هَبَّ واقفاً وسلم علىّ بترحاب شديد.. قدّمت له الطلب وقلت له إنى أعرف "فيض الله" فأخذ الورقة منى ووقعها فوراً دون أن يقرأها.. وقال لى ونحن أيضاً نعرفه ولكن شفاعتك لا ترد.. وأخذ "فيض الله" يقول لقد فتحت الجبل مع "أبو جعفر" بعشرة مجاهدين فقط (كنا حوالى ١٥٠مجاهداً).. وتعجبت للسرعة التى وافق بها على المبلغ الذى سبق أن رفضه.. يبدو أن العربى الجريح له سحر لايقاوم.

والحقيقة أن "عبد الله خان" وهو من ولاية "وردك" كان معجباً غاية الإعجاب بالقندهاريين، ولكنه كان يخفى عنهم هذا الإعجاب ويتعمد أن يقلل من شأن أى إنجاز يقومون به، وكان يبدى لنا إعجابه الشديد بجسارة القندهاريين، فعندما مزقوا استحكمات الروس والشيوعيين وحرروا "سبين بولدك" و"أرغنداو"

فـى أيـام قلائـل وكـان عنده بعض قادة المعركة يفخرون بما فعلوا ، قال لهم ببرود لـيس لكـم أى فضل فى هذا الفتح.. فتعجبوا وسألوه عن صاحب الفضل فقال لهم الفضل للنساء العجائز اللاتى يدعون الله فى السحر.

تعـــرض فى الصحـــراء

كـان علىّ أن أقضى شهرين فى الجبس، وكان التعـــطل لمدة شــــهرين شىء لا يطـاق.. ولَمّـا علمـت بتحضـير المجاهدين لعمليات تعرض ضخمة فى الصحراء (ريـج) كمـا يسمونها عزمـت على المشاركة فيها، وانضممت وذراعى ما تزال فى الجـبس معلقـة فـى رقبـتى إلى مجـاهدى قمندان "عبد الصمد"، حيث كانت هذه العمليات الصحراوية فـى نطـاق نفوذه، وكانت قوات كبيرة من مجاهدى جميع الأحـزاب مشـاركة فـى هـذه العملـيات ولكـن كـان "عـبد الصمد" هو القائد العام للعملـية.. كانـت الحكومـة تـريد تعزيـز قوتهـا فـى "قندهار" بعد خسائر "خوش آب"، كمـا كانـت تـتوقع هجومـاً آخـر للمجاهدين على المطار والمدينة ، وكان من العسير وربمـا المستحيل إمداد المدينة المحاصرة بواسطة الطائرات بسبب صواريخ "ستنجر" الموجودة فى أيدى المجاهدين، وكان لابد من تأمين سبيل برى للقوافل العسـكرية.. فكانـت الحكومة تضع قوات ضخمة من الجيش والمليشيا الموالية لها مـثل "العصـمتين" و"الجـبارين" و"البشـتون خـوا" و"البلوش"، كانت تضعهم فى نقاط حصينة على امتداد الطريق البرى الواصـــل بين "قندهـــار" و"هلمند" وربما قاعدة "شندياند".

كانـت مواقعهـم تلـك عـلى الـتلال الرملـية ومـتقاربة بحيـث تحمـى القوافل العسكرية، وكانـت المليشيات من شرار الخلق الذين جُبلوا على القتال ولايهـابون الردى وكانت قوات الجيش من الكوماندوز ذوى الملابس العسكرية السوداء، كانوا فـارعى الطـول متيـنى البنـيان.. ومسلحين تسليحاً ممتازاً ولديهم دبابات ومدافع وصـواريخ ورشاشـات خفـيفة وثقـيلة، كانوا يحفرون الأنفاق فى أعلى هذه التباب ولكـن المـيزة الوحـيدة الـتى كانـت فى صالح المجاهدين هى خلو هذه التباب من

الألغام.. ما كانت الألغام تعوق المجاهدين عن الاقتحام العاصف لمثل هذه المواقع، فما بالك وهم يعلمون بعدم وجود ألغام؟

انتقل مجاهدو "عبد الصمد" بقيادة الفتى المتهور المغوار "دوست محمد" إلى قرية بدوية مهجورة عبارة عن أربعة أو خمسة بيوت هى المقر الشتوى لعدد من الرعاة، وكنا فى قيظ الصيف والصحراء حولنا من كل ناحية والحرارة أفظع من حرارة الصحراوات المصرية بمراحل، ولم نكن نستطيع السير وقت الظهيرة مهما كان سمك الحذاء فكنا نمشي وكأننا نمشي على الجمر من حرارة الرمال، ولم يكن ينافس هذه الصحراء في حرارتها سوى صحراء الجزيرة العربية،كان الثلج يصل إلينا من "جمن" يومياً مع المؤن والذخائر، وكان ذلك رفاهية فوق الحد بالنسبة لمن رابط فى "ملجات" من قبل.

مكثنا فى هذا المكان نحو أسبوعين وكانت المراكز تظهر حولنا تباعاً.. وكان منها مركز "الطالبان" أى الطلاب، ذهبنا لزيارته يوماً مع "دوست محمد" فرحبوا بنا وتناولنا معهم العشاء فوق السطح وكان كل مجاهدى هذا المركز الطالبانى شباباً صغيراً فى نحو الخامسة عشرة أو السادسة عشرة، كانوا جميعاً وبلا استثناء من طلبة العلم ويجيدون اللغة العربية إجادة تامة، وجاء أيضاً مجاهدو ملا "عزيز الله" ولدهشتى الشديدة وجدت فيهم "محمد رسول" وقد صار قمندان التعرض ولَمّا رآنى كأنما وجد كنزاً ضائعاً.. أصر أولاً أن أترك ملا "عبد الصمد" وأنضم إلى مركز "عزيز الله" فلمّا شرحت له أن هذا سوف يضايق رجال "عبد الصمد" أصبح يلازمنى معظم النهار ومعه مولوى مركز "عزيز الله" وكان يدعى "عبد الله" وفى وقت الغداء يصر أن أذهب معه لأتناول الغداء فى مركز "عزيز الله".. كان "محمد رسول" مازال يحفظ ويحلو له أن يردد الكلمات العربية التى تعلمها منى فى "قارى زك". كان مظهره قد تغير الآن فأصبحت ملابسه نظيفة أنيقة وكان له احترام كبير بين رجاله وإن ظل مرحاً خفيف الظل خشن الفُكاهة إلى حد بعيد، وقد سألنى كثيراً عن بيلوت "صديق" وتأسف لَمّا أخبرته أنه تزوج فقد كان يعتبر الزواج هو نهاية الجهاد.

أما المولوى "عبد الله" فكان شابا فى نحو الثامنة والعشرين متوسط الطول قمحى اللون غزير شعر الجسم بدرجة غير طبيعية ومتقارب العينين ولولا حديثه الودى المرح لكان من المفزع النظر إليه، لقد كان فى عينيه عمق وإرهاب.. يصلح تماما أن يكون شخصية إرهابية أوعصابية سادية، ولكن والحق يقال كان أبعد ما يكون عن ذلك.. كان يجيد اللغة العربية بدرجة ممتازة ويحب أن يثرثر بها معى ويفخر أنه يتكلم ويتفاهم مع شخص عربى اللسان ولا يطيق أن يضيع دقيقة دون حديث.. وكان يلح علىّ إلحاحا أن أترك ملا "عبد الصمد" وأنضم إلى مركز "عزيز الله" فى "ملجات"، ولم أجد بدا من ذلك فيندر أن يجد العربى فى "قندهار" كل هذا الترحيب فوعدتهم بعد هذه المعارك الصحراوية أن أعود معهم، وكان مولوى "عبد الله" يؤكد لى أن ملا "عزيز الله" لا نظير له فى كل "أفغانستان" وهو قريب ملا "عبد الصمد"، بل هو ابن عمه وكان هو مولويا لمركز "عبد الصمد"،ولكنه تركه وفضّل عليه "عزيز الله".. وهذا شىء نادر فى "قندهار".

ومن فضل الكلام أن أشرح ما كان عليه مجاهدو مُلا "عبد الصمد" من حداثة سن ومرح، فكانوا يمضون الوقت فى مباريات المصارعة والمناوشة والضحك بسبب وبغير سبب، والشخصية الوحيدة التى تستحق الذكر هنا هو "محمد نور" على ما أذكر اسمه.

كان "محمد نور" عملاقا يصل طوله إلى مترين، وكان عريض الأكتاف مفتول العضلات له قوة غير عادية، كان مصابا فى إحدى عينيه وكان يعرف طرفا من اللغة العربية.. وكان الأفغان يسمونه مُلا "نصر الدين"، وملا "نصر الدين" هو "جحا" الأفغانى..وذلك بسبب صوته العجيب وطريقته فى نطق الكلمات وإجاباته الجحوية فيشيع من حوله جوا من المرح لم يقصده، ولكنى فوجئت به فى المعارك أسد شرى لايشق له غبار. كانت طرائف جحا الأفغانى باهتة لم أدر لماذا يضحكون عليها، ولما قصصت عليهم بعض طرائف جحا المصرى ضحكوا حتى ارتموا على الأرض.

كـان معـنا أيضـاً مجـاهد تجـاوز الخامسـة والسـتين، كـان يعتـبر نفسه زعيم المجـاهدين فـيأمر ويـنهى طـوال الـيوم بمرح وفكاهة، كان يلقب نفسه (بخى غط بريـتونا) أى ذى الشـارب الضخم جداً أو أبو الشوارب، وكان شاربه بالفعل هائل الحجـم، كـان لا يمـل مـن الـتفاخر أنـه أبـو الشـوارب أول مجـاهد فـى كـل "أفغانسـتان"، وبـالفعل أكـد لى باقى الأفغان أنه أول مَنْ أطلق صاروخ آر بى جى فـى هـذا الجهـاد أطلقـه على السفارة الروسية فى "كابل" عام ١٩٧٩، وذات يوم سجلنا له تفاخـره دون أن يشعر ثم أدرنا الجهاز فى القاعة بعد تناول الغداء وإذ بصـوته الجهـورى يخـرج من الكاسيت متفاخراً (بخى غط بريتونا أول مجاهد فى كـل "أفغانسـتان"..إلخ) فـإذا به يبكى ويسـرع بالخروج ليدارى دموعـه، مما يرجح لدىّ صدق هذه القصة.

كـان معـنا عـدد مـن العـرب مـنهم "أبو الأسود" الليبى، ورغم كنيته فقد كان أبـيض اللـون قصـيرا ونحـيفاً وفـى نحو الثامنة عشرة.. كان يتمتع بقدر هائل من بسـاطة الـنفس وسلامة الفطـرة، وكان يشق على نفسـه فى الطاعات ويحمّـلها ما لا تكاد تطيقه وكاد يغرق فى الطريق فقد أتى معى من "ملجات" ذات مرةٍ وكنا مجموعة كبيرة من العرب وعندما وصلنا "أرغنداو" كان بها نهر كبير، وبينما أدبر أمـر سيارة تقلنا إلى الحدود جاءنى أحد الجزائريين يستأذن أن يسبح ليرطب عن نفسـه قـيظ الظهـيرة فأذنـت لـه، فـإذا بكل العرب يُلقون أنفسهم فى النهر وكان مـنهم "أبـو الأسـود" الـذى جرفه التيار وهوى إلى القاع عدة مرات، ولم ينقذه إلا الأفغـان إذ ربطـوا "الـباتو" بعضـه فى بعض وألقوه إليه وجذبوه.. ولا أظن مؤلف كـتاب "فوائـد الـباتو" قـد ذكـر هذا الاستخدام الفذ للباتو، ورغم الانتقاد المستمر لهـذه الكنية كان يُصر عليها وإن كان قد رضى أخيراً أن يغيرها، وقد سمعت أنه لقـى ربه فى "خوست"، وما كان مثله ليطول به الأجـل رحـمه الله وأسكـنه فسيح جناته.

الدبابــة العجيبــة

حدث فى هذه الأثناء موقف لا ينسى.. إذ كان الطريق الحربى على بعد كبير من موقعنا هذا، وكانت إحدى الدبابات مغروزة فى الرمال فى مكان قريب من مواقع الجيش التى كنّا نعد العدة لاقتحامها، وكان الجيش يحاول إخراجها تارة ويحاول المجاهدون ذلك تارةً أخرى، ولكن المجاهدين كانوا أكثر دهاءً فعقب كل محاولة وعندما ييأسوا من إخراج الدبابة كانوا يدفنون ألغام دبابات أمام وخلف الجنزير حتى إذا نجح الشيوعيون فى إخراجها انفجرت بهم.

وذات يوم خرج "دوست محمد" مع رجاله فى سيارتين بيك آب وترصدوا المكان، فإذا بالجنود حول الدبابة يحاولون إخراجها فعاد المجاهدون أدرجاهم، وفى هذا الوقت انطلقت أنا والسائق بسيارة أخرى نحمل الطعام للمجاهدين عند الدبابة، وعاد "دوست محمد" من طريق غير معتاد لذلك لم نقابله فى الطريق، وعندما وصل سأله المجاهدون أين "أبو جعفر" والسائق لقد أرسلناهم لكم بالطعام، وقع الكلام وقع الصاعقة.. وصاح "دوست محمد": الجنود عند الدبابة لقد أرسلتم "أبو جعفر" إلى أسر محقق، وصرخ فى المراكز الأخرى لإنقاذ العربى من الأسر وعلى الفور كان نحو خمس سيارات بيك آب محملة بالمجاهدين مدججين بالسلاح تنطلق بأقصى سرعة نحو الدبابة المغروزة فى الرمال.

عندما اقتربنا من الدبابة لم نجد عندها أحداً وتلفتنا يميناً وشمالاً ثم لمحنا الجنود خلف التباب القريبة فكأن شيطاناً من الجن مس السائق فقذف بنفسه داخل السيارة واستدار بها وانطلق بسرعة جنونية ولم نتحرك بعيداً حتى قابلنا "دوست محمد" ورجاله، كان منظراً رائعاً أن ينفر المجاهدون هذه النفرة العمرية عازمين على استرجاع العربى الأسير وإن تفانوا فى سبيل ذلك، ولكن بحمد الله كفى الله المؤمنين القتال وعدنا من حيث أتينا، وكان السائق مازال مضطرب الأعصاب تجنح به السيارة يمينا وشمالاً.. وكان سمينا قصير القامة ظريفاً خفيف الروح.. فعندما سأله المجاهدون لو وقعت فى الأسر ماذا كنت تفعل؟ فقال لهم (كنت سأخبرهم أنى جئت لأسلم نفسى للجيش وقد خطفت لكم العربى لتأسروه).

التعــرض الكــبير

أخـيراً حانـت سـاعة المعركة.. فى صباح أحد الأيام وبعد استكمال الاستعداد مـن حشـد الـرجال والسـلاح والذخائـر نـودى عـلى المجـاهدين بالتجمع ووقفت سيارات بيك آب صفاً طويلاً وبدأ رجال كل مركز يصعدون إلى سياراتهم مدججين بالسـلاح، وعـندما هممـت بالـركوب إذا بـالقائد "دوست محمد" يمنعنى دوناً عن سـائر العـرب، ويقـول لى كـيف سـتحارب ويدك فى الجبس.. حاولت إفهامه أن ذلـك لـن يعوقـنى وأمسكت الكلاشنكوف بيدى اليسرى بينما أصابع اليد اليمنى عـلى الـزناد فهـى خارجـة مـن الجبس وحرة الحركة، رغم ذلك لم يقتنع ولكنى أصـررت إصـراراً حـتى قَبل عـلى مضض، ومن نافلة القول أن يدى كانت تؤلمنى ولكـنه ألم مـتحمل، ولم نتوجه مباشرة إلى المواقع المستهدفة بل نزلنا فى منتصف الطـريق وانتشـرنا فـى سـفوح الـتلال الصـغيرة وعـادت السـيارات لتحضـر المؤن والذخائـر ومـزيداً مـن الـرجال. قمـنا بجمـع النباتات الصحراوية التى على هيئة كرات ضخمة وحفرنا الأرض بعض الشىء ووضعنا هذه الشجيرات فوقنا فكان لها مـيزتان، التظلـيل والـتمويه. كان الحر قائظاً فوق احتمال البشر ومع ذلك أمضينا الوقـت فـى المـرح والضـحك، كـان مـلا "نصر الدين" هو أمير العرب نظراً لإلمامه باللغـة العربـية رغـم أنه كان إلماماً جحوياً، كان معنا مجاهد أفغانى يشبه الشيخ "سياف" إلى حـد مذهل على الأقل فى طولـه وعرضه وهامته ولحيته، وكان يذرع الأرض جيـئة وذهابـاً بفخـر وتـيه فـلما قلت له إن هذه المشية حرام.. قال لى نعم حـرام إلا فـى الجهـاد. أيضاً كان بعض المجاهدين يشبهون "حكمتيار" فيبدو أن قادة الأحزاب نماذج أنثروبولوجية للسلالات الأفغانية.

ويـبدو أن اسـتطلاع المجـاهدين فـى هـذا الوقـت كان يبحث عن أقرب مكان للعـدو يمكـن أن يبيت فيه المجاهدون ليفاجئوا العدو عند الفجر، وبالفعل انتقلنا إلى ذلـك المكـان قبل أن تغيب الشمس وكان عبارة عن أرض منبسطة يحجبها عن العـدو سـاتر تـرابى بارتفـاع نحـو متريـن، وعندما ألقيت نظرة على المكان هالنى العـدد الضـخم للمجاهدين، كنا حوالى (١٥٠ ـ ٢٠٠) مجاهد.. إن هذا العدد يبدو

تافهـاً فـى أى جـيش نظـامى، فهـو بالكـاد سرية لا حول لها ولا قوة ولكنه فى "أفغانستان" عدد كبير يفعل الأعاجيب، ولمّا قلت لشبيه الشيخ "سياف" كم عدد الشيوعيين قال لى نحو خمسين، فأبديت له امتعاضى وقلت ١٥٠ مجاهدا ضد ٥٠ شيوعيا.. لقد كان الصحابة فى بدر ٣٠٠ صحابى ضد ١٠٠٠ كافر وكذلك فى كل المعـارك، فقـال لى (صـحابة زياد إيمان..أوس لجلجل إيمان) والحقيقه أن المقارنة العدديـة غير منصفة فالشيوعيون لديهم دبابات ومدافع ثقيلة وتحميهم الطائرات، وفـى غير هذه الموقعة تحميهم الألغام أيضاً فضلاً عن وجودهم فوق جبال منيعة أو تباب عالية ومواقع محصنة، وبعد المعركة اكتشفت أن تقدير شبيه "سياف" لعدد الجنود كان متواضعاً جداً.

بتـنا تلك الليلة بكامل السلاح والإستعداد وقمنا عند الفجر رغم أن الكلام كان همسـاً إلا أنهـم جمعونـا عـلى هيـئة نصف دائرة وقام أحد القادة خطيباً كما كان يفعـل "نابلـيون"، فشـرح أهـداف هذا الجهاد وحض على الإخلاص وابتغاء وجه الله ووجـه الشكر للباكستانيين الذين يشاركون فى هذه المعركة، ويبدو أنه لم يكن يعـلم بوجـود العرب ضمن السامعين. سرنا فى غبش الصبح مسافة كبيرة جعلتنى أتعجـب لماذا كـنا نهمس ليلة أمس وأخيراً وصلنا نقطة الانطلاق، وتوارينا خلف سـاتر تـرابى فـى انـتظار لحظة الهجوم. كنا نحو ستة من العرب وكان أميرنا هو مُلا "نصر الدين" الذى راح يجمع النباتات الصحراوية ويثبّتها حول رأسه وجذعه ورغـم أن مـا يفعلـه صـحيح تماماً مـن الوجهة العسكرية إلا أن مثل هذه الأعمال الجحوية كانت تثير ضحك الأفغان وتندرهم. الأيدى على الزناد والصمت الرهيب فـى انـتظار لحظة الهجوم.. رحت أتأمل مواقع الجنود، رأيت عملاقاً فى ملابس عسـكرية سـوداء يمشـى الهويـنا ولا يـدرى مـا يخبئه القدر.. أخيراً دَوّت صيحة الحـق ـ الله أكـبر ـ وإذ بعاصفة من النيران تنفتح على الأعداء، انطلق المجاهدون يركضـون نحـو المواقـع الشـيوعية الـتى كانـت على مسافة نحو كيلو متر.. وأثناء الهجـوم سمعت مُلا "نصر الدين" ينادينى من ورائى وتذكرت "فيض الله" وظننت مُـلا "نصـر الديـن" مـرعوباً مـثله.. وقد آليت على نفسى ألا أولى الأدبار أبداً وألا أكـون إلا فـى مقدمـة أى هجـوم ولهذا لم ألتفت إليه، وإنى أدرك الآن أنى كنت مخطـئاً ونلـت جزاء خطئى.. فلم يكن مُلا "نصر الدين" جباناً بل أسداً لايشق له

غبار وما كان ينادينى لنتقاعد سوياً بل ينادينى لنلتف حول العدو، فمن خبرته الكبيرة وبسبب حدة ذهنه (عكس ما يبدو) أدرك أن العدو سيفر وسيترك بعض الأفراد يناوشون ويعرقلون تقدم المجاهدين فقرر أن يلتف من حول تباب العدو ليصطاد هؤلاء الفارين، وبالفعل أدرك عدداً منهم وكانوا من مليشيا الجبارين وهم رجال ضخام الأجسام ولهم شوارب هائلة وهذه الهيئة هى سبب التسمية، وكان تسليح مُلا "نصر الدين" هو المسدس وليس الرشاش وكان ذا قوة بدنية مهولة، فعندما أدرك ذاك الجبار شل حركته بيد واحدة ثم قال له افتح فمك فقال الجبار لماذا؟ قال مُلا "نصر الدين" سأعطيك حلوى.. ولما فتح فمه أطلق رصاصة من مسدسه داخل فمه، وبهذه الطريقة الجحوية قتل مُلا "نصر الدين" ثلاثة جبارين آخرين.

كان "أبو الأسود" الليبى مع مُلا "نصر الدين" خلف خطوط العدو، أما أنا فقد تقدمت مع المجاهدين نحو التباب العالية حيث المدافع والدبابات والخنادق التى يحتمى فيها الشيوعيون، كانت لحظات عبقرية كنت أشعر شعوراً قوياً ساطعاً أن الله فوق رءوسنا مباشرة وينظر إلينا.. عندما وصلنا إلى التباب بدأت النيران تخرج منها بغزارة وهو موقف غاية فى الإحراج لأن المجاهدين مكشوفون فى صحراء مستوية والعدو أعلى منهم، ولكن لم يتوقف تدفق المجاهدين وبدأت الدبابات والمدافع تدّوى والمجاهدون أكلت قلوبهم الحماسة لايعبئون بشىء.. ووجه مجاهد ضرغام قاذفه الصاروخى نحو الدبابة فجعلها أشلاء، وفر رجال المليشيا من أول تبة إذ وجدوا المجاهدين لا يوقفهم شىء، وصعدنا التبة الرملية وأول ما صادفنى هو ثلاث جثث لرجال المليشيا فى الخنادق وحاول أحد المجاهدين استلاب سلاحهم ولكن مجاهداً آخر أراد منعه من هذا وإذا بثالث ظنهم يتنازعون الغنيمة فهوى بكعب البندقية على الاثنين والأمر كله سوء فهم، فالمجاهدون يتورعون عن أتفه الغنائم أشد التورع وربما أعنتوا أنفسهم لهذا السبب.. كان فى الموقع عربة مصفحة وسيارة ضخمة (شاحنة) ومدفع، ركضنا خلف بعض الهاربين وانطلقنا نحو التبة المجاورة التى كانت ترمينا بغزارة، ولكن عرقلنا أحد المدافع حتى طوح به أحد المجاهدين بقذيفة عيار ٨٢ مم، انطلق المجاهدون ليصعدوا التبة ولكن كان أحد رجال المليشيا فى أعلاها ثابت الجنان أبى الفرار واستطاع

بالجرينوف الخفيف وقف تقدم المجاهدين، كان أحد الأفغان يحمل ذخيرة لزميله حامل المدفع ٨٢ مم ولَمّا رأى الأمر على هذا النحو أراد أن يأخذ منى سلاحى ليتقدم به ولكنى دفعته بحدة وانطلقت خلف الفتى المغوار "دوست محمد" وعدد من متهورى الأفغان، ولاحظت ملاحظة غريبة وأنا صاعد التبة لقد كان الرجل الذى نرى عمامته وماسورة رشاشته لا يهتز أدنى اهتزاز رغم كثافة النيران حوله وعندما وصلنا أدركنا الخدعة لقد ثبّت السلاح فى الأرض ووضع العمامة عليه وفر هارباً وبهذه الطريقة أعطى لنفسه فسحة من الوقت لينجو قبل أن يصعد المجاهدون.

وبهذه الطريقة استولينا على باقى التباب ثم انطلقنا خلف القوات الفارة نتبع آثار جنازير الدبابات وعجلات العربات الهاربة، أدركنا شاحنة بفضل التفاف مُلا "نصر الدين" وقتل مَنْ فيها، ثم أدركنا دبابة غرزت فى الرمال فتركها الجنود وفروا راجلين نحو المطار، تعمقنا جداً فى الصحراء خلف الهاربين وكانت الشمس قد توسطت السماء وترسل لهيبا من أشعتها يشوى الوجوه مع الجرى والحرب طوال اليوم.. كان كل مجاهد يحمل علبة مياه المفروض أنها تكفيه طوال اليوم ولكنّى ابتلعتها فى أول ساعة ولم ترو غلتى، وأثناء المطاردة فى الصحراء شعرت أن الظمأ سيقتلنى فذهبت لمجاهد أفغانى كان يكلمنى فى الصباح قبل المعركة يريد أن يقبّل يدى عرفانا بالجميل ويقول لى (أنتم أتيتم من بلاد بعيدة وتركتم أموالكم ونساءكم وجئتم لتقاتلوا معنا.. نحن نفديكم بأنفسنا وأولادنا..إلخ)، عندما أطلب الماء من غير هذا الرجل يسقينى؟ ولكن كانت المفاجأة أنه أبَى ولكنّى لم أغضب منه، بل رأيتنى أضحك للمفارقة حتى ظننى مجنونا والعجيب حقا أنى لم أكتف بعدم الغضب، بل شعرت بعطف شديد نحوه وعذرت ضعفه البشرى وربما بل فى الغالب لو كنت مكانه لفعلت نفس الشىء.

توقفنا عن مطاردة المشاة ورجعنا للدبابة المغروزة، حاولنا إخراجها ولكن دون جدوى فلم يضع المجاهدون وقتا ففكوا الرشاش من الدبابة وقصفوها بالآر بى جى.. وجلسنا فى الصحراء منهكين لا نستطيع رجوع هذه المسافة الشاسعة ولا نجد ظِلاً يحمينا من وهج الشمس الشنيع.. ولكن لم يطل بنا المقام وإذا بدبابة

من الغنيمة تحمل المجاهدين تريد مواصلة المطاردة، ولكننا أخبرناهم أنهم فروا من مدة وربما وصلوا المطار الآن وركبنا معهم عائدين. يالها من معركة رائعة لا تنسى وياله من نصر مؤزر ويالها من غنائم عظيمة.. ولم يقتل أحد من المجاهدين وكل الإصابات إصابات بسيطة (غير قاتلة).. ولم يمض على رفض الرجل إعطائى الماء سوى ربع ساعة حتى كنت أتجرع الماء من المؤن التى وصلت على عجل إلى أرض المعركة، وغنم المجاهدون خمس دبابات (ت ٦٢) وثلاث عربات مدرعة وشاحنتين وثلاث سيارات جيب وسيارة بيك آب ومدفعاً وعدداً كبيراً من الرشاشات والقنابل، هذا غير الدبابات والسيارات التى دُمرت أو هَربت، ولا يمكن أن تكون كل هذه المعدات لخمسين جندياً أبداً، إن الأفراد فى هذه المواقع لايقلون عن مائتين بحال من الأحوال.

رحت أتأمل جثث القتلى.. رأيت العملاق فى زيه العسكرى الأسود ممددا على الأرض، وقد رأيته من قبل وهو يُصرع، الطلقات تخترقه وهو يأبى إلا أن يطلق الرصاص ويقاوم ليقف ويرمى.. ياله من عتل زنيم.. تأملته برهة من الزمان.. إنه تمثال للقوة والفتوة والوسامة فقد كان أشقر مليح الوجه، وتعجبت له ماذا ينقم من ربه حتى يحارب دينه هذه الحرب الشعواء؟ لقد أعطاه الله الصحة والعافية والجمال وزاده بسطة فى الجسم ثم هو يقابل هذا بأن يقاتل فى سبيل الشيطان بكل حماسة وحمية ما أغبى الإنسان وما أشد عماه!

ولأنى عصيت نداء أميرى فقد فاتنى أن أفعل شيئاً مميزاً فى هذه المعركة، ولكن رغم هذا ارتفع رصيدى لدى المجاهدين بشدة لمجرد خوضى هذه المعركة وذراعى اليمنى فى الجبس، اجتمع القادة المشاركون فى هذه المعركة وأجروا مزاداً على الغنائم وبيعت الدبابة (للمجاهدين) التى تساوى عدة ملايين من الدولارات بما يساوى ٤ آلاف جنيه مصرى!! وهو ثمن أقل من ثمن "ركشا" حقيرة.. والأموال المتحصلة من هذا المزاد وزعت على المراكز المشاركة حسب عدد المجاهدين المشاركين من كل مركز، وتنازل العرب عن نصيبهم من الغنائم.

عدت إلى "كؤيتة" لأن موعد فك الجبس قد اقترب ومكثت هناك نحو عشرة أيام، ثم فككت الجبس ولكن كانت المفاجأة أن ذراعى ظلّت على نفس الوضع

وكأن المفصل قد تخشب تماما لا يتحرك لأعلى ولا لأسفل، فزعت من ذلك وهرعت إلى المستشفى فطمأننى الطبيب المصرى وقال لى بالتدريج والمران ستعود لطبيعتها وقد تحقق ذلك بالفعل وظلت تؤلمنى لعدة شهور حتى تصلبت العظام المكسورة تماما وأصبحت كأن لم تكسر من قبل ولم أعد أشعر فيها بأى ألم.

فى أوطاق عزيز الله

بمجرد أن فككت الجبس توجهت إلى "ملجات" وذهبت إلى "أبو خبيب" فى أوطاق "قاضى صاحب" وأخبرته أنى أريد الانضمام إلى مركز مُلا "عزيز الله"، ولكن كان هذا المركز تابعا للشيخ "صبغة الله مجددى" على ما أذكر، ورغم طول المدة التى قضاها "أبو خبيب" فى "قندهار" لكنه لم يدرك أنْ لا فرق بتاتا بين مجاهدى جميع الأحزاب.. نعم نحن كعرب نثق تماما فى أربعة أحزاب "سياف"، "حكمتيار"، "ربانى"، "يونس خالص". ونحسب أن ما عدا ذلك أحزاب صوفية مخرفة قامت بأموال أمريكية لتنافس الأحزاب الإسلامية الحركية الواعية.. قد يصح أو لا يصح هذا الكلام على مستوى قادة الأحزاب ولكن على مستوى المجاهدين بل على مستوى القادة الميدانيين فالأفغانى هو الأفغانى. قال لى "أبو خبيب" لم يسبق لنا أن تعاملنا معهم على الإطلاق ولا نعرف عنهم شيئاً فقلت له أنا أعرفهم جيدا وقمندان التعرض "محمد رسول" والمولوى "عبد الله" أصدقائى وقد ألحوا على كثيرا للانضمام لهم. أرسلنى "أبو خبيب" عن غير اقتناع وأرسل أحد العرب معى ليوصلنى بالموتوسيكل واستُقبلنا استقبالا حافلاً جعل رفيقى فى غاية الاندهاش.

كان مُلا "عزيز الله" هناك ووجدته بالفعل رجلا دمث الأخلاق ودودا ولطيفا وكان وجود العرب معهم شيئا هائلا بالنسبة لهم.. وأخذوا يسألوننى عدة أسئلة ليستكشفوا ميولى واتجاهاتى الفكرية ولكنّى كنت قد اكتسبت من الخبرة ما يجعلنى أقول كل ما أريد وأهاجم جميع معتقداتهم الراسخة ولا أفقد فى نفس الوقت حبهم وإعجابهم.. حتى أننى هاجمت قائد الحزب الذى ينتمون إليه

واتهمته بالميل إلى أمريكا وأبديت لهم إعجابى الشديد بـ"حكمتيار" وسقت لهم من الأدلة والبراهين ما جعل مُلا "عزيز الله" يقول لى: لو قضينا على الشيوعيين فأنا أول من يبايع "حكمتيار".. ولم يصدق زميلى العربى ما سمع وما رأى.. وعاد إلى "أبو خبيب" قائلاً إن بلدياتك هذا ساحر عجيب.

شاركت المولوى غرفته وكان لا يريد مفارقتى لحظة واحدة ولا يتوقف عن الحديث بالعربية ويستمتع جداً بأنه يتكلم بالعربية فأفهمه وأكلمه بالعربية فيفهمنى، وكان يتيه فخراً بهذا فمن يجيد اللغة العربية فى "أفغانستان" يسمو سمواً لايدانيه فيه أحد، ومشاركتى له فى الغرفة أتاحت لى الاطلاع على الكتب الدينية المولوية وجميعها باللغة العربية حتى كتاب المنطق لأرسطو طاليس وكتاب الحساب.. مسائل حسابية جبرية معقدة وليست بالأرقام بل بالكلام، والكتاب المعتمد فى الفقه هو "الهداية" ويسمونه (هدايت)، وفى أول صفحة تملكنى أشد العجب، ففى جميع أنحاء "أفغانستان" حديث شائع على كل لسان سواء لسان العالم أو العامى ولا يملون من تكراره فى كل مناسبة وبدون أية مناسبة، هذا الحديث هو (النعمان سراج أمتى) أى "أبو حنيفة النعمان" والذى أدهشنى حقاً أنى قرأت فى أول صفحة من كتاب "الهداية" الذى يعد الكتاب المقدس بعد القرآن هجوماً عنيفاً على التعصب المذهبى واستنكاراً حاداً لهذا الحديث بالذات وأحاديث أخرى تشبهه ولم يكتف باستنكار السند بل رده بالمنطق (على الطريقة الحنفية) لأن "أبا حنيفة" من التابعين وليس من الصحابة فكيف يذكر الرسول اسمه ولم يكن قد ولد بعد؟!!.. كيف يكون هذا الكلام فى أول صفحة فى الكتاب ولا يتطوع مولوى واحد ليقول للناس أن هذا الحديث غير صحيح؟ أعطيت الكتاب للمولوى وأشرت إلى الحديث واستنكاره فهزّ رأسه موافقاً وقال لى العوام يحبون هذا الكلام.

كان لدى ملا "عزيز الله" عدد ضخم من صواريخ "صقر" المصرية ويسمونها "سكربيس" ولم يكونوا يستعملونها لعدم وجود من يفهم فيها، وللأسف كنت أيضاً لا أعرف شيئاً عنها ولكن الطريف فى الأمر أن الصواريخ كان عليها بعض الكلمات والرموز بالأحرف العربية ومنها حرفى (س ع)، وبما أن المولوى عليم

باللغة العربية فقد أخبر باقى الأفغان أن (س ع) اختصار لكلمتى سنة عيسوية أى سنة ميلادية ولكنهم لم يقتنعوا فاحتكموا لى، قرأت لهم كل ما على الصاروخ وترجمته لهم ولكننى ضحكت لتفسير المولوى وإن لم أعرف ما معنى (س ع) هذه.لم يطل بى المقام فى هذا المركز حيث انتقل جميع العرب من "قندهار" إلى ولاية "زابلستان" للاشتراك فى فتح هذه الولاية المجاورة لولاية "قندهار" ولكن حدث أمر خطير فى مركز مجاور لمركز "عزيز الله"، إنها مذبحة مروعة كنت شاهدا عليها.

مذبحة فى الليل

كان مركز "عزيز الله" فى أطراف "ملجات" بعيدا عن المراكز الأخرى. وقد تناولنا العشاء وصلينا العشاء ورحنا فى سبات عميق.. وإذا بنا نفزع من النوم على صوت صارخ يستنجد بنا، فى ثوان التقط كل مجاهد سلاحه وانطلقنا لنجدة المركز الذى تعرض لهجوم ليلى، ركضنا مسافة كبيرة وعندما وصلنا وجدنا كل مجاهدى ذلك المركز قد قتلوا، كان اثنان منهم مازال بهما رمق، انطلق المجاهدون فى كل الاتجاهات ليلحقوا بالمعتدين ولكنهم لم يقعوا لهم على أثر، كان الذى أبلغنا بالكارثة هو أمير ذلك المركز وقد تظاهر بالموت فنجا وقد أخبرنا أنهم كانوا جلوسا يتناولون العشاء وإذا برجال المليشيا العصمتيين فوق رءوسهم بالسلاح وقد فتحوا النيران على الجميع وفى عماية الليل أصابوا قائدهم فأردوه قتيلاً وتركوه لينجو بأنفسهم وعندما فتش المجاهدون هذا المعتدى علموا من الأوراق التى يحملها أنه من مليشيا العصمتيين الذين يرتدون الملابس المدنية (نفس ملابس المجاهدين) ولهم نفس الهيئة من لحى وعمائم.

كان نائب "عزيز الله" قد وصل بالسيارة فحمل الجرحى وأخذنى معه لنسعفهم مع بعض المجاهدين وفى الطريق حدثت أمور عجيبة لم أستطع تفسيرها فى حينها، كان المفروض أن نتوجه بأقصى سرعة إلى أحد المراكز التى يوجد بها طبيب ولكن كان نائب القمندان يسير بالسيارة على مهل وكأنه فى نزهة خلوية بينما الجرحى يئنون من الألم، بل توقف عدة مرات مددا طويلة بغير مبرر أو

بمبررات واهية وكان يطوف على المراكز التى يعرف أن ليس بها أطباء.. ونتيجة هذا الاستهتار لفظ أحد الجرحى أنفاسه وشعر الآخر أنه مقضى عليه أيضاً فنادانى، عربيان صاحب، (وتنطق ساب) وتوسل إلىّ أن أذهب به إلى مركز العرب عند "قاضى صاحب".. طلبت من نائب القمندان بلهجة خشنة أن نذهب إلى مركز "قاضى صاحب" فاستجاب لذلك، طبعاً ليس خوفاً منّى ولكنه كان يحترمنى إلى حد بعيد ويعاملنى بمودة كبيرة، وعندما وصلنا المركز نزلت من السيارة واتجهت ناحية المدخل ولمحت "أبو سليمان" المكى جالساً فوق السطح يوجه سلاحه نحونا فى حزم.. ألقيت عليه السلام باسمه فاندهش جداً وسألنى خيراً يا "أبو جعفر"؟.. فقلت له: معى جريح فى السيارة.. أيقظ لنا دكتور "يحيى".. وعدت إلى السيارة وعاوننى أحد الأفغان على حمل الجريح إلى غرفة الطبيب.. قابلنى دكتور "أبو يحيى" الجزائرى بالود المعهود وأخذ يتفحص الجريح ويتخذ اللازم وقد شعر الجريح بالأمان بين يدى الطبيب العربى ونظر لى بعرفان.. وحكيت لهم ملخص القصة.. وعدت إلى السيارة ورجعنا إلى مركز "عزيز الله" وبتنا ليلة ليلاء، شغل بالى ذلك التصرف الغريب لنائب القمندان حتى عرفت من ثرثرة المولوى أن المركز المصاب تابع لحزب الدعوة والجهاد، وهو الحزب السلفى الوحيد فى كل "أفغانستان" بزعامة مولوى "جميل الرحمن" الذى نجح أخيراً فى إقامة مركز تابع له فى "ملجات".. وبهذا وضحت الرؤية.. لقد كان نائب القمندان متعمداً قتل الجرحى بالإهمال وبالفعل قتل أحدهم وشعر الآخر بهذا.. ما أبشع الخيانة.

هذا الذى فعله العصمتيون لم يسبق له مثيل على مدى سنين الجهاد، ولم يجرؤ أى من الروس أو الجيش أو المليشيا على مثل هذا العمل فى "ملجات" من قبل.. وقد خُطط بذكاء شديد فلن يخطر على قلب أحد أن الفاعل مليشيا بل سيتهم فى هذا العمل مجاهدى الأحزاب الأخرى وتقع الفتنة.. لولا أن الله أراد فضحهم فقُتل أمير العصمتين ونجا أمير المجاهدين.

فـى الحقيقة كان تصرف نائب القمندان تصرفاً شاذاً فقد التف المجاهدون من جميع الأحزاب حول المركز المصاب فى أسى شديد وسخط أشد على المجرمين وأقسموا أن يكون ثأرهم مما يحكى فى الأساطير.

فـى الصباح ذهب جرار بمقطورة إلى المركز المصاب ووضِعت جثث الشهداء فى المقطورة ملطخةً بالدماء ورُبطت جثة قائد العصمتيين من رجلها خلف المقطورة وسحلت فى الطريق من المركز المصاب إلى مركز "عزيز الله".. كان منظر المقطورة وهى مليئة بالجثث الممزقة كأنها ذبائح مجندلة منظراً بشعاً... أخيراً أصبحت لا أطيق رؤية الدماء.. فى أول عهدى بالجهاد كان مثل هذا المنظر لايترك فى نفسى أى أثر.. ولكن يبدو أن كل منظر كان يترك أثراً صغيراً غير ملحوظ وتتراكم الآثار حتى يطفح الكيل. اجتمع عدد كبير من مجاهدى "ملجات" فى مركزنا وشرعوا يحفرون عدداً كبيراًمن القبور بجوار المركز.. ولكنّى انزويت فى غرفتى حتى لا أشاهد المزيد من الدماء.

فتح زابل معركتى الأخيرة

عندما تصل القصة إلى هذا الحد أجدنى أغالب نفسى وأحمّلها ما لا تطيق حين أذكَرها بهذه المعارك الفذة التى خاضها المجاهدون لفتح مدينة "زابل" عاصمة ولاية "زابلستان"، فهذه المعارك هى التى أصبت فيها إصابة شنيعة غيرت وبدلت مجرى حياتى.. لم تغير جسدى فحسب بل غيرت نفسى وشخصيتى أيضاً.

عندما كنت فى مركز "عبد الرازق" الثانى رأيت فى المنام بغلاً عملاقاً شرساً كلما امتطاه أحد المجاهدين طوح به فوراً، وعندما امتطيته حاول طرحى بكل السبل ولكنى ظللت ثابتاً على ظهره وعندئذ التفت برأسه ونهش قدمى اليسرى نهشة لن أنسى ألمها أبداً.. لقد كان ألماً حقيقياً صرخت منه صرخة هائلة وارتميت على الأرض.. وعندما صحوت أدركت أنى مقبل على ابتلاءٍ شديد وقصصت الرؤيا على الزملاء وعندما أصبت فى ذراعى.. قالوا لى هذا تأويل رؤياك فقلت مصراً على قدرى.. لا الرؤيا تقول أن المصاب سيكون قدمى وليس ذراعى.

وبرغم هذا كنت أخوض المعامع وأصر على أخطر الأدوار.. كنت فى هذه المرحلة من الجهاد قد فقدت شغفى بالعنف وبالحياة معاً.. نعم أعترف أنّ ما دفعنى إلى الجهاد إلى حدٍ بعيد هو العنف المكبوت بداخلى والذى يتراكم ولا بد من تفريغه وإلا انفجرت معه.. وعلى مدى سنوات الجهاد استمتعت بالعنف أولاً ثم أصبح روتينياً لا متعة فيه، ثم صار عبئاً نفسياً ليس حباً فى الحياة ولا خوفا من الموت بل إنى فى هذه المرحلة كنت قد سئمت الحياة وتجرأت على الموت.. ولن يفهم النفس البشرية أحد أبداً.

ذات يوم جمع "أبو خبيب" كل عرب "قندهار" وأخبرنا أن مجاهدى ولاية "زابلستان" المجاورة لنا يستعدون لفتح مدينة "زابل" عاصمة الولاية وأننا سنتوجه لنشارك فى هذه المعارك.. ركبنا سيارات بيك آب وتوجهنا فى رحلة طويلة.. عندما وصلنا "زابلستان" نزلنا فى أحد مراكز المجاهدين وظل يتوافد علينا باقى العرب تباعاً كان معنا الحبر المبارك "أبو سليمان" المكى ورفيقه المقدام "أبو هاشم" المكى أيضاً وصاحب رؤيا "السودان"..كان تجمعاً ضخماً من العرب وبدأنا ننظم حلقات الدرس والقرآن ونتجول ونزور المراكز المجاورة، بعد بضعة أيام جاء "أبو خبيب" وقام بتوزعينا على عدد من مراكز المجاهدين، وكان نصيبى مع نحو عشرة من العرب أن نكون تحت إمرة قمندان "جلاد خان" وهو تابع لحزب "اتحاد إسلامى".. وقد زار شيخ "سياف" هذا المكان واتفق مع قادته على عملية الفتح وأمدهم بالذخائر والأموال.. كان "جلاد خان" طويلاً متين البنيان غليظ الحواجب كثيف الشارب، وربما هذه الهيئة هى سبب التسمية ولكنه والحق كان مرحاً خفيف الظل إلى حدٍ بعيد.

كان معظم العرب المصاحبين لى جدداً وربما هذه أول معركة كبيرة يخوضونها كان منهم "مصطفى" الجزائرى الذىكان طويلاً جسيماً مائلاً إلى الشقرة وكان يعيش فى فرنسا، عمره لايتجاوز العشرين وحديث عهد أيضاً.. كان يتحاشى الحديث عن فرنسا وعندما حاصرته يوماً انفجر يستنكر فجورها وبغضها للإسلام فحزرت الخبرات الأليمة التى مر بها فى بلاد الفرنجة.. وكان "مصطفى" شديد التحمس شديد التعطش إلى العبادة والتلاوة شأن حديثى العهد، أما "أبو صلاح"

الفلسطينى فكان حديث عهد أيضاً ولكنه كان مرحاً خفيف الظل، كان قصيراً نوعاً ما ممتلئ الجسم يميل إلى السمرة وكان يعمل سائق تاكسى فى الأردن وخبرته مع الزبائن معين لا ينضب للطرائف والمفارقات. كان معنا أيضاً شخصية جديرة بالتأمل إنه "أبو عماد" أو"أبو عدنان" لقد نسيت كنيته بالضبط لكن صورته مازالت راسخة فى ذهنى، إنه فلسطينى ولِدَ ونشأ فى "العراق" فى أسرة ميسورة الحال تمارس التجارة.. كان يحفظ الكثير من الأحاديث وواضح أنه أدمن كتب السلف وخاصة تلك التى تدحض الفرق والمذاهب الأخرى.. ولابأس بكل هذا ولكنه كان معتداً بنفسه إلى حد بعيد يعامل باقى المجاهدين بتعال وغطرسة استغربتها لندرتها بين المجاهدين سواء عرباً كانوا أو أفغاناً.. كان يلْقى درساً بعد صلاة العصر وذات يوم تطرق إلى مشكلة خلق القرآن وظل يورد الأدلة والبراهين على أن القرآن ليس مخلوقاً ويذكر المجادلات والمحاورات أيام "المأمون" و"المعتصم" ويفند آراء المعتزلة ويسفه أحلامهم.. قلت له يا أخى لماذا تثير هذا الموضوع الآن؟..هذه قضية ماتت منذ أكثر من ألف عام ولم يسمع بها ولم تخطر على بال أحد من مستمعيك.. أنت تحيى مذاهب ميتة لكى تحاربها!! هل رأيت معتزلياً فى هذا العصر؟.. ليتك تفند الشيوعية أو الوجودية أو البراجماتية أو الليبرالية أو القومية.. نظر إلىّ بازدراء وتعال ومضى يكمل حديثه كأنى لم أقل شيئاً، فى الحقيقة كنت أحترم فيه تجرده للعلم وتبحره فيه وحفظه وسلامة لغته كما أن له كتاباً فريداً فى بابه يتكلم عن الصوفية من الداخل فلم يكتف بما قرأ عن التصوف وخرافاته، بل أراد أن يلمس ذلك بنفسه فذهب إلى أحد الطرق الصوفية فى العراق على أنه مُريد جديد، أخذوا عليه العهد وأقسم قسمهم واندمج معهم لمدة طويلة وعرف الكثير من أسرارهم وفضائحهم ثم نشر ذلك فى كتاب لابد أنه مثير وطريف.

وأثناء معارك "زابل" قابلته فإذا هو إنسان آخر، لقد اعتنقنى فى ودٍ وتواضع وتعجبت لذلك جداً وحَزَرْتُ السبب فقد رأى الموت بعينيه ولم يستطع الإقدام عليه رغم علمه الواسع ويقينه الشديد ورأى الأميين الأفغان والعاميين العرب يتسابقون إلى الشهادة ولايستطيع هو مجاراتهم فى هذا.. سبحان الله الذى أنزل

الحكمة في قرآنه إذ يقول سبحانه {*والذين جاهدوا فينا لنهدينهم سبلنا*} فالجهاد.. والجهاد وحده كان هو دواء أخينا العزيز هذا الذى نسيت كنيته.

كنا في منطقة غاية في الروعة والجمال، بساتين وأدغال وبرك وأنهار، كان العرب من كافة المراكز يجتمعون وقت الظهيرة عند بركة ماء كبيرة محاطة بحدائق العنب التى تركها أصحابها وهاجروا وظلت الكروم تغل كل عام ولا تجد من يحصدها، الظاهرة الغريبة سواء هنا أو في "قندهار" أن المجاهدين كانوا لايحلون لأنفسهم حبة عنب بينما يحلونه للحشرات والعفن!! قليل من الحدائق سمح أصحابها للمجاهدين بالأكل منها قبل أن يهاجروا وهذه فقط كنا نرتع فيها ثم نسبح في بركة الماء ونمرح ونلهو والطائرات تمرق من فوقنا بين حين وآخر، فقد شعروا أن المجاهدين يستعدون لفتح عاصمة الولاية.. كان "أبو صلاح" لايعرف العوم ويلح عليّ أن أعلمه فكنت أشجعه وأسحبه إلى الأعماق ثم أتركه يرفس في كل اتجاه ويتوسل أن ينقذه أحد فيضحك الجميع، ولا يرعوى هو أن يلح مرة أخرى لأعلمه السباحة.

كان معنا "أبو جعفر" اليمنى وهو شاب ضئيل ولكنه كان جريئاً إلى حد التهور، كنا نذهب أحياناً إلى آخر حدود نفوذ المجاهدين ونترصد العدو فكان "أبو جعفر" يقف لهم ظاهراً للعيان ويشتمهم ويطلق عليهم الرصاص ولا يعبأ برصاصهم من حوله.. ولما قلت له ادخر هذه الشجاعة لوقت الاقتحام، قال سترى ما أفعل يوم الملحمة.. إيه يا "أبا جعفر" لقد ذكرتنى بأعزاء غيبهم الثرى، وكان معى في نفس المركز الحبر المبارك "أبو سليمان" المكى وقد أمّرناه على عرب الأوطاق فكان نعم الأمير.

كان كلما مر الوقت زادت استعدادات المعركة وهى معركة كبرى.. فتح ولاية، وفي مثل هذه المعامع الكبيرة ذات الخسائر العظيمة يهيئ الأفغان أنفسهم بأساليب مختلفة لرفع الروح المعنوية، ومن هذه الأساليب أنهم كانوا يتحلقون وتتشابك أيديهم ويرقصون رقصة الحرب وهى رقصة توحى بالعزم والتضامن.. ولكن كثيراً من العرب استنكر ذلك فإذا بالأمير"أبو سليمان" يحث العرب على

المشـاركة ويـبدأ بنفسه فانتظم فى الحلقة ورقص رقصة الحرب..أين الدعاة أمثالك "أبا سليمان"؟.. أين الموطئون أكنافا، أين الذين يألفون ويؤلفون؟؟

لما حانـت سـاعة الانطـلاق كـان ذلـك وقـت المغـرب، فـتح "جـلاد خـان" السـلاكوت وأخـرج السـلاح والذخائـر وقـام بتوزيع السلاح على المجاهدين وكان نصـيبى رشـاش خفـيف (سـتكا) الذى يسميه الأفغان (ديوانا) أى المجنون لكثرة أعطالـه.. وهـو شر دعاية للصناعة المصرية.. وقام الأفغان أيضاً بطقوس رمزية لها معـنى عظـيم رغـم استنكار البعض فقد لَفّوا مصحفا فى عمامة وأمسك اثنان منهما بطـرفى العمامة مشدودة وفيها المصحف وذلك أمام مخرج الأوطاق، وانتظم الأفغان صفاً مدججاً بالسلاح ويمرون واحداً واحداً من تحت المصحف ويلقون على الأرض كـل مـامعهم مـن متاع أومال عدا السلاح والذخيرة فى إشارة إلى التجرد من الدنيا فى سبيل الله وهو معنى جميل ورمز عبقرى.

انطلقـنا عقـب صلاة المغرب وكل منا يحمل ما لايكاد يطيق حمله، فقد كانت ذخائـر المدافـع تـوزع عـلى الجمـيع إضـافة إلى ذخائرنا الخاصة والسلاح والطعام والمـاء، وسـرنا مـن المغـرب حـتى الفجـر دون توقـف وبالطـبع كـان الإرهاق فوق الوصـف.. كـان عـدد المجـاهدين ضـخماً حـتى أن بعضهم لم يجد سلاحاً ومنهم وياللعجـب "أبـو هاشـم" المكـى ذو القلـب الجسور فكان يحمل ذخائر الجرينوف الخـاص بـأحد الأفغان.. كنا حوالى ٣٠٠ مجاهد عربى وأفغانى والذى علمناه بعد ذلـك أن كـل الأفغـان سواء القندهاريون أو الزابليون كانوا تابعين للشيخ "سياف" أى أن حـزب "الاتحـاد" لم يشرك باقى الأحزاب فى عملية الفتح وهو شىء نادر خاصة فى الجنوب.

لاحظـت أثـناء المسـير أن "أبـو مصطفى" الجزائرى يحمل حمولة ثقيلة جداً، فقـد كـان يبادر إلى أى عربى أصابه الإرهاق فيحمل عنه حمولته، ورغم ذلك كان يسير بعزيمة جبارة ويحرك بدنه القوى هذا ولاشك روح ملتهبة.. ذكرنى بالشهيد "أسد الله" المصرى وهو يسير فى ربوع "جاجى" الوعرة.

كانـت مديـنة "زابـل" محاطـة بعدد من الأحزمة الأمنية (كمرباند) وكل حزام أمنى عـبارة عن عدد من المواقع على تلال تمثل دائرة حول المدينة، وكان أصعب

هذه الأحزمة هو الحزام الخارجي، كانت مهمتنا أن نبدأ باقتحام أقوى هذه المواقع والذى يعتبر مفتاح الحزام الأمنى الخارجي.. كان هذا الموقع عبارة عن ثلاثة تلال متلاصقة والمنطقة المنخفضة بين قمم هذه التلال كانت مقر قرية صغيرة هجرها أهلها بالطبع واتخذها الجيش موقعاً حصيناً وقاموا ببناء أسوار ضخمة تسد المسافة بين كل قمة والتى تجاورها، فكان هذا الموقع أمنع من عقاب الجو، وكانت الألغام بطبيعة الحال مبثوثة على التلال بكثافة وكلها مدفونة عدا حزام قرب القمة من الألغام الوتدية الظاهرة وهذا الحزام محاط أيضاً بسلك شائك، كانت الألغام الوتدية مفخخة بخيوط رفيعة كأنها شباك العناكب. قام المجاهدون بنصب مدافعهم الخفيفة (عيار ٧٥ مم و ٨٢ مم) على التلال المواجهة للموقع المستهدف والمفروض أن خبير الألغام قد نظّف طريقاً نصل به إلى أسوار القلعة.

عندما اقتربنا من الموقع أصبح الكلام همساً.. كانت السماء مازالت مظلمة وقام قائد العملية باختصار عدد المهاجمين إلى العُشر ليكونوا دفعة أولى لأنه توقع أن تكون خسائر الصدمة الأولى كبيرة ومنع العرب من الاشتراك فى هذا الفوج الأول.. وكان عدد هذا الفوج حوالى عشرين مجاهداً ولأنى أعرف أن هؤلاء العشرين هم فى حقيقة الأمر مَنْ سيفتح القلعة ومَنْ سيتلوهم لن يفعلوا شيئاً يذكر فقد برزت من الصفوف ونظرت إلى "أبو سليمان" الذى كان أمير كل العرب فى العملية نظرة فهمها فقال للقائد الأفغانى خذ "أبو جعفر" و"أبو هاشم" معك فلمّا رآنى أعجبه طولى فقبلنا واحتج باقى العرب فاضطر أن يقبل عدداً منهم.

جلسنا فى انتظار ساعة الصفر وقد تنفس الصبح وفجأة زال إرهاق عشر ساعات من السير المتواصل.. شعرت بسكينة تامة وسلام نفسى عجيب، المفروض أن ننطلق يتقدمنا خبير الألغام الذى يعرف الدرب الذى نظفه من الألغام، ويكون انطلاقنا تحت حماية مظلة من قذائف مدفعية المجاهدين المنصوبة على التلال المجاورة.. صاح قائد التعرض مكبراً وانطلق المجاهدون صاعدين نحو القلعة فاتحين نيران رشاشاتهم، انطلقت معهم ولكن "الستكا" اللعينة تعطلت فتوقفت محاولاً إصلاحها فسبقنى المجاهدون، وفجأة حدثت كارثة فأول قذيفة

للمجاهدين من مدافع التلال بدلاً من أن تصيب القلعة نزلت وسط المجاهدين المهاجمين وقتل عدد منهم وجرح عدد آخر وكان خبير الألغام من القتلى ! !

كل هذا حدث فى ثوان معدودة والمجاهدين مازالوا فى الثلث الأسفل من التل وانصلح سلاحى فجأة فانطلقت ألحق بالمجاهدين فإذا بهم يقابلوننى مولين الأدبار لايلوون على أحد، ورأيت قائد التعرض يعترض فرارهم صارخاً فيهم وضارباً لهم بكعب سلاحه ورأيت "أبو هاشم" يفعل مثل القائد ويصرخ فيهم أمن الجنة تفرون؟ ولم يكن معه سلاح بل كان حاملا لذخائر "الجرينوف" وقد فر الأفغانى حامل "الجرينوف" فألقى "أبو هاشم" (صاحب رؤية السودان) صناديق الذخيرة وراح يفعل أغرب شىء يمكن أن يحدث فى حرب حديثة، لقد راح يلتقط الطوب ويرمى القلعة بالحجارة!!

وجدتنى لاأبالى بالألغام وانطلقت نحو القلعة فاتحاً النار ولاأدرى كيف تصادف أن لم أطأ أى لغم حتى وصلت إلى السلك الشائك وحزام الألغام الوتدية ذات الخيوط الكثيرة المتشابكة، وأية لمسة لأى خيط تعنى انفجار الكثير من هذه الألغام ذات الشظايا الرهيبة ولكنّى لم أتوقف ولم أفكر وحتى لم أنظر إلى الأرض وأنا أجتاز هذا الحزام الذى كان عرضه نحو ثلاثة أمتار، كل ما فعلته أنى كنت أوسع الخطوة وأنزل بقدمى من أعلى بدلاً من التقدم بها ولاأدرى والله كيف لم ألمس أى خيط من هذه الخيوط التى لا تكاد تُرى لدقتها.. وصلت إلى سورالقلعة وهممت بتسلقه.. ولكنى وجدت نفسى وحيداً تماماً.. ماذا لو قفزت داخل القلعة ثم انسحب المجاهدون ولم يلحق بى أحد.. إنى بذلك أُسْلِم نفسى لأسر محقق لذلك أحجمت عن تسلق السور حتى يلحق بى ولو بعض المجاهدين وإن هى إلا لحظات حتى لحق بى "أبو هاشم" الهاشمى وبغير سلاح سوى الحجارة التى يرميها على القلعة ولكنه لم ينتظر مثلما فعلت، بل تسلق السور وألقى نفسه داخل القلعة يرميهم بالحجارة.. يا الله.. أما زال فى الدنيا "قعقاع"؟ أما زال فى الدنيا "خالد" و"ابن رواحة"؟.. خجلت من نفسى وتسلقت السور خلفه على الأقل لأحميه بسلاحى فهو يقاتل بيديه الجرداء ولكن ما أن علوت السور حتى بدأ المجاهدون يصلون إلى السور.. ربما شجعهم وصولى و"أبو هاشم" إليه.

وجدنـا القلعـة من الداخل شاسعة المساحة بها عشرات الخنادق والتحصينات والمخابـئ والملاجـئ، والحـق يقـال لم يقاومنا أحد لقد فروا أمامنا، كانت مهمتنا هـى تمشيط هـذه الأمـاكن مـن الجـنود الذين لم يسعفهم الوقت فى الفرار والذين سيقاتلون قـتال اليائسـين.. رأيـت مجـاهداً أفغانياً، من الواضح أنه مقاتل شرس محنك رأيته وقد ألقى عمامته وعصب رأسه بمنديل أحمر وقد علق عددا كبيرا من القـنابل الـيدوية حـول وسطه ووجدتـه ينطلق من مخبأ لآخر فانطلقت معه فكان لايـأتى المخـبأ مـن الأمـام بـل يأتـيه من الجنب أو من أعلى ويقذف بداخله أولاً قنـبلة يدويـة ثـم يقـتحمه بالرشـاش وهذا هو التصرف العسكرى السليم.. الذى لم يفطن إليه أحد العرب الفلسطينيين، كانت كنيته على ما أذكر "أبو عادل".. كان طويـلاً نحيفاً ورافق الشيخ "سياف" واستأذن منه ليشترك فى هذه العمليات وضَنَّ بـه الشـيخ أولاً ولكـنه أذن له بعـد إلحاحـه فـى ذلك.. دخل "أبو عادل" الغرفة المظـلمة فاتحـاً النار ولكن مَنْ فى داخل الغرفة يرى مَنْ فى الخارج وليس العكس فأصـابوه برصاصـهم فقُـتل رحمـة الله علـيه، كذلك قتل "أبو مصطفى" الجزائرى بالقذيفـة الـتى سـقطت عـلى المجـاهدين فـى أول الهجـوم وجـرح أيضاً عددٌ من العرب.

كنـت وذاك الأفغانى ذو العصابة الحمراء متقدمين عن باقى المجاهدين، وكان الـرجل كـتلة مـن العـزيمة واليقظة.. ولما أسرنا أربعة جنود وضابطاً أجلسهم على الأرض وتـركهم فـى حراستى وقال لى لو تحرك أى منهم اقتلهم جميعاً وانطلق هو يواصـل عملـه، ووقفـت شاهراً السلاح فى وجوههم.. كان الجنود مهلهلي الثياب واضـح عـلى وجوههم البؤس والشقاء، أمّا الضابط فكان متأنقاً فى لباسه العسكرى وممتلـئاً امـتلاء الملـك الظـالم.. تذكـرت الشـهداء "أسد الله" و"سـيـاف" المصرى و"أبـو دجانـة" و"عكـرمة" وهممت بقتلهم فبكي الجنود فى استسلام، أمّا الضابط فـأخذ يصيح بصوت أعرف فيه رَنّة النفاق قائلاً ـ لا إله إلا الله ـ فإذا بى أتراجع عـن قتـلهم ثـم أعـود ثانـيةً فـيعودون، ولم يـنقذنى مـن حيرتـى سوى "أبو بكر" السورى الذى لحق بى فعهدت بهم إليه وانطلقت ألحق بذى العصابة الحمراء.

كان خارج القلعة من الجهة الأخرى مزارع عنب على تدريج التل، كانت تروى من عين ماء لاينضب معينها تخرج من مركز القلعة تقريبا، وقد رأينا عدداً كبيراً من الجنود يفرون خلال العنب وأطلقنا عليهم النار ولكننا لم نصب أحداً منهم، وبدأت النيران تخرج علينا من التل المجاور لنا والذى أفاق وأدرك ما حدث ففتحوا علينا نيراناً هائلة.

ظللنا نمشط القلعة حوالى ساعتين وجمعنا الأسرى وكانوا نحو عشرين أسيراً وقد أفلتت أعصاب أحد المجاهدين الأفغان فانهال عليهم بكعب سلاحه ولكن باقى المجاهدين منعوه من ذلك، وانهالت علينا قذائف مدفعية التل المجاور ونيرانه الغزيرة فتحصنّا فى مواجهته وأخذنا نشتبك معهم نحو ثلاث ساعات ولكن نيرانهم سكتت فجأة وعلمنا بعد ذلك أنهم فروا خوفاً من اقتحام المجاهدين لمواقعهم.. ولكن سرعان ما بلينا بشر من ذلك لقد جاءت الطائرات بقذائفها المهولة وتوالت قذائف المدفعية الثقيلة واشتعل المكان ناراً ودماراً وتزلزلت الأرض تحت أقدامنا على مدى نحو أربع ساعات.. كان هذا الدك المدفعى والصاروخى تمهيداً نيرانياً للهجوم المضاد.. وإذا بالدبابات تتقدم نحونا وكلما تقدمت زادت كثافتها النيرانية، والمشاة من خلفها ومن حولها وكان فى أركان القلعة ما يشبه الطوابى فتحصن فيها المجاهدون ولكن كانت قذائف الدبابات تهدم أجزاء من هذه الطوابى وتفتك بمن فيها، والطامة أن إحدى قذائف الطائرات قد جعلت أحد هذه الطوابى كومة تراب.

كنت فى أحد المخابئ مع نحو عشرة أفغان منهم ذو العصابة الحمراء وإذا بـ"أبو بكر" السورى يدخل علينا فزعاً ويصرخ أن الدبابات والمشاة يتقدمون نحونا، هب ذو العصابة الحمراء وخرج ليصد الهجوم وقال لى تعال يا "أبو جعفر" فخرجت معه فإذا بـ "أبو بكر" السورى يتعلق بى فى جزع ويصيح: إلى أين أنت ذاهب؟.. إنه الموت، قلت له: دعنى فإنى لا أبالى.. وأخذت الأر بى جى من أحد المجاهدين وأعطيت "الستكا" اللعينة لـ"أبو بكر" السورى، وأخذت أيضاً رشاشا خفيفا "جرينوف" وحمل الأفغانى مدفع ٨٢ مم على كتفه و"جرينوف" ثقيلا ونزلنا قبالة الدبابات، كانت الأرض فى هذه الناحية على عكس الناحية

التى اقتحمناها تتدرج فى الانخفاض وعند قاعدة التل مساحة صخرية مستوية ترتفع فوق الأرض نحو نصف المتر وفى وسطها تقريباً كتلة مرتفعة نحو نصف المتر أيضا.. احتمينا فى هذه الكتلة وأخذ ذو العصابة الحمراء يرمى بالمدفع ٨٢ مم ولكن كانت الدبابات مازالت أبعد من مرمى المدفع، وقد قذفت بضع قذائف آر بى جى ولكن بالطبع لم تصل إلى الدبابات وانفجرت قذيفة بالقرب منّا أتلفت مدفع ٨٢ فألقاه الأفغانى جانباً وفتح عليهم نيران "الجرينوف" الثقيل وكذلك فتحت نيران "الجرينوف" الخفيف.. لما رأى العدو أن فى مواجهته مدافع مضادة للدبابات توقفت الدبابات عن التقدم وإن لم تتوقف عن الرماية المركزة بالقذائف والرشاشات الخاصة بها وكذلك المشاة برشاشاتهم.

كان الرصاص ينهمر علينا كالمطر بينما كانت القذائف تنهمر على المجاهدين فى خنادقهم ولا بد أن "أبو سليمان" كان يرانا لأنى سمعته يصيح من ورائى: إرم أبا جعفر والله معك، ولحسن حظنا أن "جرينوف" خفيف واحد يمكنه وقف جيش من المشاة فما بالك بواحد خفيف وآخر ثقيل، توقف المشاة عن التقدم وإن كان الموقف مازال خطيراً فلو استمرت الدبابات بهذه الرماية المحكمة فسيهلك كل المجاهدين.

انضم إلينا نحو عشرة من الأفغان يحملون "الكلاشنكوف" واتخذوا من الارتفاع الأول للصخرة ساترا لهم وأخذوا يرمون على جنود المشاة وإذا بقذيفة PM تنطلق من تل مجاور لنا وتصيب دبابة فتفجرها تفجيراً، وإذا بباقى الدبابات تولى الأدبار يسابقها جنود المشاة. لم أملك نفسى من الفرح فصحت الله أكبر، تسلم يد من رماها.. وتوالت قذائف PM تتعقب الدبابات الهاربة.. وعلمت بعد ذلك أن هذا الذى أنقذنا وصد الهجوم المضاد هو قائد تابع لحزب إسلامى "حكمتيار" وأن عملية الفتح اقتصرت على حزب "الاتحاد" ولم يخبر رجال "سياف" أى حزب آخر بالعملية، ورغم ذلك عندما بدأ القتال وعلم قائد "حكمتيار" بالأمر غضب بلا شك وقال لرجاله لو كنا نقاتل من أجل الدنيا لتركناهم لمصيرهم ولكنّا نقاتل فى سبيل الله وانطلق برجاله يساهم فى القتال واقتحم أحد التلال واستولى عليه ولما رأى العدو يفتك بنا قصفه بمدفع (بى إم) كما سبق.. فكان هو المنقذ وأنا أؤكد هذا

لأنـه قـد شـاع عـنّى بعد ذلك أنى قد صددت هذا الهجوم وحدى!! فعندما كنت فـى مستشفى الهلال الأحمر الكويتى فى "بيشاور" جاءنى الطبيب المصرى متهللاً عـلى غير العادة وقال لى لقد سمعت أنك اشتركت فى أحد الاقتحامات ويدك فى الجـبس.. فقلـت له لم تكـن تؤلـمنى ولا تعوقـنى عـن اسـتخدام السـلاح، قـال لى وصـددت هجومـاً مضاداً وحدك! قلت له: كان معى أفغانى جسور ولم نفعل ذلك وحدنـا بل الذى فعل هو قائد تابع "لحكمتيار". وعندما زار "حكمتيار" المستشفى قال له الأطباء إن عندنا مصاباً عربياً صد هجوماً بالدبابات والمشاة وحده فقال لهم كلمة كنت سأعتبرها وساماً على صدرى لو كنت أستحقها.. قال لو كان لدّى مائة مثل "أبوجعفر" هذا لغزوت بهم أمريكا.

قـرب المغـرب أخرجنا الشهداء من تحت أنقاض الطابية وكان من بينهم شيخ جـاوز الخامسة والستين وربما السبعين كان به رمق فحملناه قرب عين الماء تحت شـجرة وأخـذت أرقـبه وهـو يحتضـر..كـان يتألم ويضطرب وفجأة ابتسم وقبضت روحـه وإذا بـرائحة زكـية تفـوح منه.. رائحة مسك قوية ليس فيها أدنى شك... كـان إلى جـوارى "أبـو سـليمان" فأردت التأكد أن حواسى لم تخدعنى فنظرت له نظـرة استفهام (حـتى لا أوحـى له بالإجابـة إن سـألته) قـال لى نعم إنها رائحة مسـك.. لقد رأيت شهداء كثيرين ولكنّى أبداً لم أشم الرائحة منهم، وكنت جالساً إلى جـواره ولم يضـع له أحـد أى عطـر بكـل تأكـيد..سـبحـــان الله.. لـو اشتعل الجهـاد فـى أى مـن بلادنـا العربية أنجد شيوخـــاً فوق الســـتين يقـاتلون؟. لله درك أرض أفغان.

مـرت عليـنا ٢٤ سـاعة مـنذ خرجنا من مركزنا.. سير متواصل طوال الليل ثم قتال عنيف طوال النهار إنها أكبر ملحمة أخوضها، وعند غروب الشمس كنت قد بلغـت غايـة الإرهـاق حتى أصبحت أنام وأنا فى وضع القتال ويدى على الزناد.. تم تخصـيص غرفة للعرب وهى بجوار الصخرة المستوية التى كنا نحتمى بها أثناء الهجوم المضاد وهذا المكان يعد الثغرة التى يمكن للعدو أن يتقدم من ناحيتها، وقد اخـتص العـرب بهـذا المكـان لحراسـته ليلاً.. وأعفانى "أبو سليمان" من الحراسة هذه الليلة وما أن لامس جنبى الأرض حتى رحت فى سبات عميق.

لم يتوقف قصف العدو لنا ليلاً ولكنّى لم أشعر بأى شىء، عجيب والله أمر المجاهدين والشيوعيين.. لم تسقط على القلعة قذيفة واحدة من المجاهدين ولم تدخل القلعة رصاصة واحدة قبل أن نتسلق الأسوار ورغم ذلك فر الشيوعيون مذعورين، بينما انهالت على المجاهدين قذائف ثقيلة من الطائرات والدبابات والمدافع والصواريخ وانهارت الحصون فوق رءوسهم ورغم ذلك ثبتوا فى أماكنهم لايزحزحهم شىء.

خسر المجاهدون حوالى سبعة شهداء فى ذلك اليوم، منهم ثلاثة من العرب أذكر منهم "أبو مصطفى" الجزائرى و"أبو عادل" الفلسطينى وجرح وأصيب العشرات. وحدث موقف مؤسف ومخجل فقد كان من ترتيبات المعركة أن تقف ثلاث سيارات إسعاف على بعد كاف من المعركة لنقل الجرحى إلى "باكستان" أو إلى أقرب عيادة بها إسعافات.. ولكن للأسف رغم أن السائقين أفغان لكنهم من أفغان المهجر الذين ترعرعوا فى "باكستان" ولم يخوضوا المعارك، فبمجرد اشتعال المعركة رأوا أنها جحيم وليست معركة ففروا بسياراتهم ومات عدد من الجرحى كان يمكن إسعافهم لولا هذه الفعلة الحمقاء ومنهم "أبو مصطفى" الجزائرى، فقد نزل وهو مصاب ماشيا على قدميه ولكنه لم يجد سيارات الإسعاف وظل ينزف حتى توفى إلى رحمه الله تعالى وقتل حوالى عشرة جنود (أو هذا هو عدد الجثث التى رأيتها) وأسر عشرون آخرون، أما الغنائم فكانت أكداساً من الذخائر فى صناديقها..معظمها للأسف مصرية الصنع وثلاث عربات مدرعة وعدد من مدافع الزوكوياك والشلكا والبى إم و٨٢ مم و٧٥مم والكثير من الأر بى جى والكلاشنكوف وكميات من التموين، والطريف أن ضمن الغنائم جمل وثلاثة حمير وسبعة ماعز وعشرات الدجاج والأوز! ! وسرعان ما عُدّت هذه الأشياء ضمن الشهداء عدا الحمير بالطبع فكنّا مثلاً إذا سألنا أين الجمل لم يدر الأفغان كيف يقولون إنه ذُبح باللغة العربية فيقولون إنه شهيد ويشيرون إلى الرقبة بأيديهم! !

فى إحدى الليالى التالية كنت أقوم بالحراسة وكان باقى العرب نياماً، وإذا بالقائد الأفغانى يقترب منى ومعه عددٌ من الأفغان مسلحين ويخبرنى أن جواسيس المجاهدين أخبروهم أن الجيش الحكومى ينوى شن هجوم ليلى علينا

لاسترداد القلعة، تسللت إلى غرفة العرب وبهدوء شديد أيقظت "أبو سليمان" وهمست فى أذنه بالخبر وطلبت منه إيقاظ العرب منفردين حتى لا يحدث فزع تكون عواقبه وخيمة فكل مجاهد ينام فى سلاحه كاملاً. عدت إلى الحراسة وقام "أبو سليمان" بالمطلوب، وبث العرب فى كمائن متقدمة وسهرنا الليل ننتظر هذا الهجوم لكنهم خيبوا آمالنا ولم يحدث أى هجوم.

فى الأيام التالية توافد على هذه القلعة الكثير من العرب الذين جاءوا من الولايات الأخرى للمشاركة فى فتح "زابل" وكذلك جاء "أبو خبيب" و"محمد يوسف" الليبى.. وقد وجدت فى مخلفات المعسكر عدداً كبيراً من الكتب العسكرية باللغة الروسية وملفات لجنود وضباط الموقع وشيئا آخر عجيبا لقد وجدت بعض هذه الملفات به صورة المجند وبيانات عنه ثم فى ورقة أخرى نفس الشخص ولكن فى زى ولقب مولوى وقد أطال لحيته ولبس عمامةً، وذلك بالطبع ليندس بين المجاهدين.. كان الكلام باللغة الفارسية ولكن المعنى كان واضحاً تماماً.. عرضت الأمر على الأفغان فلم يبالوا به ولمّا جاء "أبو خبيب" اهتم بالأمر وأخذ الملفات لمن يعرف قيمتها وأرسلها إلى مسئول المخابرات فى حزب "الاتحاد".

ظلت الاشتباكات والقذائف الثقيلة تنهال علينا ولكن لم تكن بالعنف الذى لقيناه فى اليوم الأول.. فى مساء اليوم التالى جاء أحد العرب مع إمدادات الطعام وقد اضطرب حاله لأنه فقد سلاحه فأثناء صعوده التل مع الأفغان جلسوا ليستريحوا وعندما قاموا حمل الطعام ونسى "الكلاشنكوف".. هدأت من روعه فرجانى أن أذهب ونبحث عنه فذهبت معه نتجول فى حقل الألغام بحثاً عن السلاح وقد هبط الظلام.. كم من حماقة نفعلها ويستر الله.. لم نجد السلاح ولم نصب بأذى أيضاً.. وعندما أتذكر ذلك الآن أدرك إلى أى أحد فقدت شعورى بالخطر أو إدراكى للأخطار.

نهاية الرحلة

بعد عدة أيام جاء إلى القلعة عديد من المجاهدين العرب من كافة الولايات وكان منهم "أبو بلال" الفلسطينى و"أبو أسامة" الفلسطينى أيضاً، كانا قد تدربا تدريباً راقياً على نزع الألغام، فكنت أخرج معهما ننظف جوانب التلال أسفلنا ونعود كل يوم بحصيلة محترمة من الألغام والصواعق وقوالب (تى إن تى). اندمج "أبو بلال" معى تماماً فكنّا نحرس سوياً فى الليل ونبيت في الموقع المتقدم المكشوف للعدو ولجميع أنواع السلاح المعادى. كان "أبو بلال" شاباً شديد الحمية والحماس، وكان يجيد فن "الكونغ فو" الذى يعد أشرس رياضة قتالية.

فى صباح يوم عادى كان الأفغان عازمين على تطهير طريق يصل بين موقعنا وبين المواقع التالية المطلوب اقتحامها وطلبوا منّا الذهاب معهم، كانوا سبعة مجاهدين أفغان وثلاثة جنود أسرى، ونحن فى طريقنا أسفل التل رآنى "أبو سليمان" فصاح فى فزع شديد إلى أين أنت ذاهب يا أبا جعفر؟؟!! تعجبت للفزع البادى عليه فليست هذه أول مرة أذهب لنزع الألغام وليس هذا الأمر بأخطر مما قمت به قبل ذلك، ولم يفزع لذهاب "أبو بلال"، فقلت له هون عليك أبا سليمان فالأمر هيّن، ولكنه تشبث بى ورجانى أن لا أذهب، ولكنه قدرى فأين المفر؟!

كان الشيخ "عبد الله عزام" قد علمنا دعاء مأثوراً عن الرسول ـ عليه الصلاة والسلام ـ للوقاية من الألغام وفيه {*وأعوذ بعظمتك أن أغتال من تحتى*} وكنت مواظباً عليه كل يوم ولكنىّ نسيته فى هذا اليوم الكئيب.

عندما اقتربنا من حقل الألغام اصطففنا فى طابور وجعلنا الجنود الأسرى فى المقدمة ومعهم سيخ ينكتون به الأرض بحثاً عن الألغام المدفونة، وكنت مع "أبو بلال" فى نهاية الطابور ومسلحين بالكلاشنكوف.

سرنا داخل حقل الألغام نحو كيلومترين وكلما لمحنا عن يمين أو شمال ألغاماً مكشوفة أو مفخخة كنا نترك الطابور أنا و"أبو بلال" ونذهب لنزعها، وقد تعجب الجنود الأسرى من هذا التصرف واسترحنا فى نهاية حقل الألغام وعدنا على نفس الطريق الذى طهرناه، وكان "أبو بلال" فى مقدمة الطابور ويليه الأفغان ثم

الجنود الأسرى يحملون الألغام المنزوعة ثم أنا فى نهاية الطابور للحراسة ، كنّا نسير وكل منّا حريص على أن يضع قدمه على آثار الطابور ولا أذكر أنى تجاوزت ناحية اليمين ولا ناحية الشمال، ولكنى شعرت بإيماءات مريبة بين الجنود وفجأة دَوّى انفجار هائل تحتى وطرت فى الهواء، ولابد أن وجودى فى الهواء كان لجزء من الثانية ولكنّى شعرت أنه دهرٌ طويلٌ وشعرت أن الدنيا قد أظلمت تماماً رغم أنى لم أفقد وعيى طرفة عين، ثم شعرت أنى أهوى على الأرض وأدركت ما حدث، وكان الألم فوق طاقة أى بشر وكان يقينى ساعتها أنى قد قُطعت إلى نصفين حتى أنّى لم أجرؤ على النظر لأسفل وأخذت أصرخ من شدة الألم، ومهما سودت صفحات فلن أعبر عن قسوة هذه الآلام، وقد احتجت لعشر سنوات كاملة حتى أجرؤ على كتابة هذه السطور الأخيرة.

تعاون المجاهدون ووضعونى فى "باتو" وحملونى، شعرت أثناء ذلك بـ"أبو بلال" هائجاً يصرخ ويشتم وعلمت بعد ذلك أنه خمن أن الجنود وضعوا لى أحد الألغام التى يحملونها فضربهم حتى أتلفهم، وحتى الآن لا أدرى هل وضعوا لى هذا اللغم أم دُسْتُ أنا على لغم قديم، ومن رحمة الله وعلى غير توقعٍ ولا تدبير (ولا أريد القول بالمصادفة) كان "أبو يحيى" الطبيب الجزائرى قادماً إلى موقعنا ومعه سيارة إسعاف وفى طريقه قابل المجاهدين يحملون أشلائى فبنعمة من الله وبمجرد خروجى من حقل الألغام وجدت سيارة إسعاف ومعها طبيب.

حُملت أولاً إلى أحد البيوت فى قرية قريبة وأثناء وضعى فى سيارة الإسعاف كان قد تجمع كل العرب فى الموقع وشعرت بمدى أسفهم علىّ، وجرؤت وقتئذ على النظر لساقى فوجدتها أشلاءً ممزقة والعظام مكشوفة ومفتتة والقدم لاأثر لها، وكان المنظر أشد من الألم، شعرت بعطش هائل.. عطش لا يمكن وصفه بأى من حروف الكلام وتوسلت طلباً للماء ولكن هيهات فشرب الماء فى هذه الحالة قاتل ولاريب كما درست بعد ذلك.

حقننى "أبو يحيى" بمخدرات لم تجد فتيلاً وعلق لى محاليل وحاول وقف النزيف ثم وضعونى فى سيارة إسعاف ثانية متوجها إلى "باكستان"، وكان معى

"أبـو خبيـب" يخفـف عـنى ويواسـينى واستغرقت الرحلة نحو أربع عشرة ساعة حتى وصلنا إلى مستشفى الهلال الأحمر السعودى فى "كؤيتة".

وهكـذا انتهـت رحلتى مع الجهاد وأمسك عن باقى القصة وأحتسب ما لقيته عـند الله، والذى نفسى بيده لا أطمع أن أجد فى ميزان حسناتى شيئاً مما ذكرته هـا هـنا، أولاً لأنـى أفشيته، ثانياً لأن القلب يتقلب فربما فعلت ما فعلت ليقال شجاع، والله الـذى لا إلـه إلا هـو لـو خرجت من هذا العمل لا لى ولا على فإنى أسعد إنسان فى هذا الكون.

وفى هذا اليوم الذى أصبت فيه وفى نفس الساعة رزق أخى الأكبر فى "مصر" بولـيدة سّماها على اسمى دون أن يعلم ما حاق بى فلعلها نهاية وبداية ولعل الله يبارك فيها فتكبر وتلد مجاهدين يرفعون لواء الإسلام فى الآفاق.

خاتمـــة

إنَّ حركة "طالبان" هى التى تحكم الآن فى "أفغانستان" والشائع لدى الناس أن هـؤلاء جُـدد لم يظهـروا إلا عـام ١٩٩٤، ويعـتقد الكـثيرون أن "أمـريكا" و"باكسـتان" هـم مـن أوجد هؤلاء الطالبان وأن "طالبان" ماهم إلا عملاء "أمريكا"، ولكـن هـذا وهـم خـاص بمـن لم يعـش فـى "أفغانسـتان"، فحركة "طالبان" التى انطلقـت مـن "قـندهار" مـا هـى إلامجـاهدو "قـندهار" وقـد تـركوا الأحزاب التى يتـبعونها والـتفوا حول مراكز الطلاب والتى أشرت إليها فى هذه المذكرات، وهى مراكز كل مجاهديها من طلاب الشريعة، وقد كانوا قبل ذلك يعلنون صراحة أنهم بمجـرد القضـاء عـلى الكومنسـت سـوف يحـاربون الوهابيين (أى قادة الأحزاب) ويقولـون بالـنص: (أول كومنست ختم.. بعد وهابيان شروع جنك) أى نقضى أولاً عـلى الشـيوعيين وبعـد ذلـك تـبدأ الحـرب ضد الوهابيين، ومن حسن حظى أنى أمضيت أكثر فترة الجهاد فى "قندهار" ففهمت القندهاريين وعرفت كيف يفكرون وماذا يعتقدون ولم أفاجأ بما حدث بل كنت كمن يقرأ فى كتاب مفتوح.

عندما ذهبت لسفارة "أفغانستان" فى "مصر" لاستخراج شهادة وفاة "لأسد الله" بعد أن طلب منى أهله ذلك حتى يمكنهم تقسيم الميراث، قابلت سفير أستاذ "رباني"، وكانت "كابل" قد سقطت فى أيدى "طالبان"، أطلعت السفير على جواز سفرى القديم وأخبرته بما أريد وأكدت له أنى دفنت "أسد الله" بيدى فى "ملجات" ولم يطمئن لصدقى إلا بعد أن سألنى عن أسماء بعض الأماكن والقادة فلما أخبرته بذلك وصدّق أنى كنت فى "قندهار" إذا به يسألنى عن "طالبان" هؤلاء بلهفة مَنْ يريد أن يفهم ليستريح، فشرحت له الكثير مما أدهشه.

وخبرتى فى "قندهار" تجعلنى أؤكد أن الأفغان عامة والقندهاريين خاصة يستحيل أن يكونوا عملاء لأى شيء سوى رءوسهم الصخرية، وإنَّ فكرتهم السامية عن أنفسهم تحول بينهم وبين العمالة لأى جهة وكذلك اعتزازهم الشديد بالإسلام واعتبارهم أنفسهم حماة الإسلام واحتقارهم الشديد للكفار واحتقارهم الشديد للتقدم المادى للغرب الذى يبهر الشعوب الإسلامية الأخرى، وبراءتهم التامة من أى نوع من أنواع عقدة الخواجة، كل هذا يجعل من المستحيل على القندهارى أن يكون عميلاً لأحد.. وإنى أجزم أنه حتى الشيوعيين الأفغان لم يكونوا عملاء للروس بل كانوا أصحاب عقيدة، منحرفة نعم ولكنها شيء آمنوا به.

وهاهى الأيام تثبت وجهة نظرى التى لم يصدقها أحد فأمريكا تضرب "قندهار" بالصواريخ وتفرض الحصار على "أفغانستان" الطالبانية، و"طالبان" ترفض تسليم أو طرد "أسامة بن لادن" وتتحدى الحصار، وحتى قبل أن تتضح الأمور على هذا النحو إذ كانت المؤشرات ترجح أن "طالبان" سوف تسلم "بن لادن" أو على الأقل تسرحه من "أفغانستان" كما فعلت "السودان"، ولكنى قلت لمحدثى بكل ثقة إنى على استعداد أن أراهن بأى مبلغ أنهم لن يسلموا الرجل حتى لو ضُربوا بالقنابل الذرية، وقلت إنَّ الأغبياء فى "أمريكا" لا يفهمون أنَّ الأفغانى هو آخر إنسان فى الكون يمكن إخافته أو إرهابه، وإنهم لن يسلموه إن لم يكن لأى سبب آخر فلن يسلموه لمجرد أن اللهجة الأمريكية كانت لهجة تهديد.

وكـان رأيـى دائمـاً أن أرض "أفغانسـتان" أرض لاتنبت إلا الإسلام وأنه مهما تقلبت الأحـوال وحـتى لـو اجتمعت الإنـس والجـن لـيحكموا "أفغانستان" بغير الإسـلام لَمـا أفـلحوا، وسـواء وصـل للحكم "ربانى" أو "حكمتيار" أو "سياف" أو "خـالص" أو "طالـبان" أو حـتى لـو بعـث "نجيـب" حياً وحكم "أفغانستان" فلن يسعه إلا أن يحكمهـا بالإسـلام. فهـذه تـربة ضـرب الإسـلام فيها بجذوره وأفاء عليها بوارف ظلاله.

إنمـا يلتـبس الأمـر لـدى الناس لسببين، أولاً: للسرعة الفائقة التى اكتسحت بهـا "طالـبان" بـاقى الولايـات حـتى باتـت تسـيطر عـلى ٩٠٪ مـن مسـاحة "أفغانسـتان" فـى شـهر واحـد أو أشـهر قليلة، فلا يصدق الناس حدوث ذلك إلا بدعـم مـن قوى عظمى، أما من عرف الأفغان وأحوالهم فلا يستغرب ذلك، ولعلى لم أرو قصـة مـلا "نسـيم" فهى توضح هذا الأمر. فملا "نسيم" كان شاباً لا يتجاوز الـرابعة والعشـرين مـن عمره عندما بانت شهامته ومناقبه الشخصية فالتف حوله أهـالى ولايـته "هلمـند" المجـاورة لـ"قـندهار"، فـإذا بـه يطـرد الـروس والقـوات الحكومـية ومخـتلف أحـزاب المجـاهدين مـن ولاية "هلمند" فى أيام معدودة وإذا بكـل هـذه القـوى تفشـل فشلاً ذريعاً فى استعادة موطئ قدم لها فى هذه الولاية، ولـو فكر فى اكتساح باقى الولايات لما عاقه شىء، ولكنه التفت إلى داخلية ولايته فـزرع الولاية بالكامل بالمخدرات وصدرها إلى أوروبا وأمريكا، ومن أموال المخدرات أقام المساجد والمدارس والمستشفيات وأعطى الفقراء حتى أغناهم ولما فشلت أحزاب الجهـاد فـى دخول الولاية أرادوا استمالته إليهم فراسلوه لينضم إلى مجلس شورى المجـاهدين وبـالفعل ذهـب إلى "بيشـاور" وتـاه فى أحابيل السياسة ثم اغتيل فى أحد شوارع قرية "بابو" وكنت حاضراً وسمعت طلقات الرصاص.

أمـا السـبب الثانى الذى يلتبس عند الناس فهو حصول "طالبان" على الأموال والأسـلحة من "باكستان" ومن "أمريكا"، وقد يصح أو لا يصح هذا الأمر وحتى لو كـان صـحيحاً فلـيس معـنى ذلـك أنهم أصبحوا عملاء لمن يعطيهم المال والسلاح، ولعـل قصـة حزب "شعلى" الشيوعى الصينى خير دليل على ذلك فمنذ أيام الملك كـان هناك ثلاثة أحزاب شيوعية، حزبى "خلق" و"بارتشام" وهما مواليان لموسكو

أما حـزب "شـعلى" (أى الشـعلة) فكـان مواليـاً لـ "الصـين". وللصين حدود مع "أفغانسـتان"، ورغـم أنـه حـزب شيوعى مثل الحزبين الآخرين إلا أن العداء كان مستحكماً بيـنه وبينهما وذلك بسبب النزاعات الحدودية بين "الصين" و"الاتحاد السوفيتى"، كذلك بسبب الاختلاف العقائدى حول تفسير الماركسية، وعندما غزا الروس "أفغانسـتان" كان هذا الغزو كارثة حقيقية لكل من "الصين" و"باكستان". فأسـرعت "الصـين" تمـد المجـاهدين بالعـتاد والسـلاح مجانـاً كمـا دفعـت حزب "شـعلى" الشيوعى الأفغانى إلى قتال الروس وعملائهم، وإذا بالمجاهدين يحصلون عـلى السـلاح من "الصين" فيقاتلون به الروس والخلقيين والبارتشـام والشعلى لا يفـرقون بـين ملـل الكفـر، ولـما حاولـت "الصـين" ثـنى المجـاهدين عـن قـتال الشعلى، قال لهم المجاهدون: الروس كفار والشعلى كفار وأنتم كفار وليس لنا من قـتالكم بـد ولا نـريد مـنكم سـلاحاً بـل سينصـرنا الله ولـو بالحجـارة، ولـما كـان الصـينيون حريصـين أشـد الحـرص عـلى دحـر الـروس فقـد استمروا فـى إمـداد المجـاهدين بالسـلاح وأصدروا أوامـرهم لحـزب "شـعلى" بأن يحل نفسه ويذوب للأبد.

لا شك أنّى كنت أفضّل أن تصل للحكم أحزاب الجهاد مؤتلفة أو حتى ينفرد بـالحكم أحد هذه الأحزاب ولكنهم تولّوا وقاتل بعضهم بعضاً فاستبدلهم الله فليس بين الله وبين أحد من خلقه نسب.

ولاشك أن طالبان هى المثلة للثقافة الإسلامية الأفغانية التقليدية، وإنها على هـوى وأى هـوى مـن عمـوم الشعب الأفغانى، ولاشك أن الكثير من البدع المنتشرة بين العوام سوف تزول تدريجياً مع الزمن وشيوع التعليم، وإنه لمن الخير لتحالف الشـمال أن يُسّلم بهـذه الأوضـاع ويحقن الدماء بين المسلمين وأن يكتفوا بالمشاركة فـى حكومـة "طالـبان" أو حـتى يَعِفّـوا عـن الحكم تماماً ويوجهوا عنايتهم للدعوة ونشـر المفاهـيم الإسـلامية الصـحيحة، أو يـتحولوا إلى أحـزاب سياسية تخـوض الانـتخابات بـدلاً مـن الخـوض فـى دماء المسلمين، ويكفيهم أنهم شوهوا جهادهم الـذى لم يكـن له مثـيل وهـبطوا مـن علـياء شـاهقة وفقدوا عروشهم فى قلوب كل

المسلمين فى جميع أنحاء العالم.. فضعوا السلاح رحمكم الله.. ضعوا السلاح ولا تقضوا على البقية الباقية من حب الناس وإعزازهم لكم.

أما بعد، فلقد وضعت فى هذه المذكرات عصارة نفسى وروح فؤادى ولم أندم على شىء ندمى على فوات بداية الجهاد وأنا قاعد فى بلادى.. فقد أحببت "أفغانستان" وأحببت الأفغان حباً لا يدانيه حب، أحببتهم لايهابون الردى وأحببتهم يفرون مذعورين، أحببتهم وقورين جادين وأحببتهم هازلين ضاحكين، أحببتهم دهاة ماكرين وأحببتهم سذجاً غافلين، أحببتهم غلاظاً جافين وأحببتهم ودودين حميمين، أحببتهم علماء عاملين وأحببتهم أميين مؤمنين.

ففيك يا تراب أفغان يرقد أعزاء هم جزء من نفسى، وفيك يا تراب أفغان جزء من جسمى وعليك يا تراب أفغان سال دمى، ولو خُيرت ما اخترت لى وطناً إلاك يا "أفغانستان".. سلام على أرض أفغان.. سلام على الشهداء.. سلام على "إبراهيم".. سلام عليك "عبد الرازق".

أبو جعفر المصرى القندهارى

فى دار غربته

١٧ ذى القعدة ١٤٢٠

فهـــرست

أ

ب

ت

ج

ح

خ

د

ذ

ر

ز

س

ص

ض

ط

ظ

ع

غ

ف

ق

ك

ل

م

ن

هـ

و

ى

قائمـــة المحتـويـــات

الموضوع	الصفحة

رقم الإيداع ٢٠٠١/١٨٠٣٦
الترقيم الدولى 6 - 0776 - 09 - 977

مطابع الشروق
القاهرة : ٨ شارع سيبويه المصرى ـ ت ٤٠٢٣٣٩٩ ـ فاكس ٤٠٣٧٥٦٧ (٠٢)
بيروت : ص.ب: ٨٠٦٤ ـ هاتف : ٣١٥٨٥٩ ـ ٨١٧٢١٣ ـ فاكس : ٨١٧٧٦٥ (٠١)

ذكريات عربي أفغاني

أبو جعفر المصري القندهاري

هذا الكتاب يسلط الضوء على تجربة مواطن مصري - أمثاله كثيرون - لم ينتم إلى جماعة ولم ينخرط يوما في أي عمل عام، سياسي أو غيره، لكنه سمع نداء الجهاد فقرر أن يلبي، فشد رحاله إلى أفغانستان في صيف عام ١٩٨٨.

أمضى صاحبنا سنتين يقاتل في أفغانستان، إلى أن أصيب إصابة بالغة في ساقه في إحدى العمليات، أعجزته عن مواصلة القتال، وأقعدته مدة سبعة أشهر تحت العلاج في إحدى المستشفيات الباكستانية. وخلال تلك المدة، دون ذكرياته التي حملناها في صفحات هذا الكتاب. وحمل المذكرات، ثم عاد إلى القاهرة مفتخرا بالتجربة والناس، ومعتزا بالاسم الذي اختاره لنفسه حينما انخرط في صفوف المجاهدين: أبو جعفر المصري القندهاري.

وصاحب هذه الذكريات ليس كاتبا محترفا، وغيبة الحرفة عنها لا تنقص من قدرها بالضرورة، وإنما أضفت عليها قدرا لا بأس به من الصدق والتلقائية تفتقدها في الكثير مما كتب عن الجهاد الأفغاني. لذا فقد تركنا الذكريات كما كتبها دون تدخل من قريب أو بعيد، بما فيها من كلمات أو تعبيرات قد تبدو غريبة على القارئ.

لقد وقفت الذكريات عند أواخر عام ١٩٩٠، حين لم يجد السوفييت مناصا من الانسحاب، وبالتالي فإنها لم تتناول الأحداث التالية، من تقاتل زعماء المجاهدين فيما بين عامي ١٩٩٢ و١٩٩٤، ثم ظهور جماعة طالبان في عام ١٩٩٤ واستيلائهم على السلطة في عام ١٩٩٦ - والأمر كذلك، فربما جاز لنا أن نقول إن الذكريات غطت مرحلة "البراءة" في الجهاد الأفغاني إذا صح التعبير.

دار الشروق